



تفكيك الصهيونية

نقد ميتافيزيقا سياسية

تحرير
جيانى فاتيما ومايكل ماردر

ترجمة
عدنان حسن



تفكيك الصهيونية: نقد ميتافيزيقا سياسية

تفكك هذه المقالات التي أسهم بها مفكرون بارزون، بمن فيهم سلافوي جيك ولوس إيريجري وجوديث بتلر وجياني فاتيمو ووالتر مينولو وآخرون، الأساطير السياسية - الميتافيزيقية المؤسسة للصهيونية ولوجود دولة إسرائيل.

«يضم هذا الكتاب الفريد تحليلات ذكية ومتبصرة للصهيونية وضعها بعض الفلاسفة الرواد في عالم اليوم. إنه كتاب واجب القراءة لكل ملتزم بالعدالة الاجتماعية العالمية ويبحث عن الأدوات النظرية للتعامل مع الصراع في الشرق الأوسط.»

ساميرون كريتشلي، أستاذ كرسي هانز جوناكس للفلسفة، كلية البحث الاجتماعي الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكية

«يسهم هذا الكتاب بإضاءات نيرة لأولئك المؤمنين منا بأن صحة وسلامة العالم السياسية والأخلاقية تعتمدان على حل عادل ومنصف للمشكلات المتعلقة بالصراع الفلسطيني/الإسرائيلي. فالمقالات التي كتبها أيد موهوبة ومتنوعة تسبر سياسات الأمم والتعاضد الإقليمي من منظورات فلسفية ولاهوتية وعلمانية متعددة. والمقالات الأكثر إثارة للاهتمام تقودنا إلى حالة الشرق الأوسط عبر التفكير بأوضاع سياسية أخرى يحددها التجاور والتناقض والتباغض. إنه مجلدٌ مضمح وآسر.»

هومي ك. بابا، أستاذ كرسي إن. إف. رونبرغ للعلوم الإنسانية، جامعة هارفارد

جياني فاتيمو: أستاذ فخري للفلسفة في جامعة تورين وعضو البرلمان الأوروبي.

مايكل ماردر: أستاذ في قسم الفلسفة بجامعة إقليم الباسك.

السعر

10 دولارات - 36 ريالاً قطرياً

مُنْتَدى العُلَاقَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأُولِيَّةِ



هاتف: +974 44080451 فاكس: +974 44080470 صندوق بريد: 12231

الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org

العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للثقافة (كتارا)، الدوحة، قطر

تفكيك الصهيونية

نقد ميتافيزيقا سياسية



تفكيك الصهيونية

نقد ميتافيزيقا سياسية

إعداد

جيانى فاتيمو ومايكل ماردر

ترجمة

عدنان حسن

مُنْتَادُ الْعِلَاقَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأُولِيَّةِ



Deconstructing Zionism: A Critique of Political Metaphysics,
Gianni Vattimo and Michael Marder, eds., New York: Bloomsbury, 2014.
© Gianni Vattimo, Michael Marder, and contributors 2015

عنوان الكتاب: تفكيك الصهيونية
نقد ميتافيزيقا سياسية

إعداد: جيانلي فاتيمو ومايكل ماردر

ترجمة: عدنان حسن

320 صفحة - 24 × 16.5 سم.

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 2015 / 232

الرقم الدولي (ردمك): ISBN: 978-9927-103-36-0

جميع الحقوق محفوظة لمنشئ العلاقات العربية والدولية.

الطبعة الأولى 2015.

الإهداء

إلى جاك دريدا

المحتويات

المشاركون في الكتاب	9
المقدمة	
«إن لم يكن الآن، فمتى؟» - جيانى فاتيمو ومايكل ماردر	13
1. معاداة السامية وتحولاتها - سلافوي جيжек	23
2. كيف تصبح مناهضا للصهيونية - جيانى فاتيمو	45
3. هل اليهودية هي الصهيونية؟ أو، أرندت ونقد الدولة القومية - جرديث بتلر	57
4. إزالة استعمار الدولة القومية: الصهيونية في الأفق الاستعماري للحداثة - والتر د. مينولو	109
5. كارل ماركس وحنة أرندت حول المسألة اليهودية: اللاهوت السياسي بوصفه نقداً - أرتمى ماغون	139
6. ملاحظات على الاستقرار النبوي للصهيونية - مارك هـ. إليس	177
7. روح الصهيونية: دريدا والـ(رواح) وحق المولد المسروق - كريستوفر وايز	199
8. ركس، أو نفى التيه - رانجانا خانا	231
9. الموقف التأويلي: أن تكون مفرغاً على هوامش الصهيونية السياسية - سانتياغو زابالا	255
10. المجاز المرسل الصهيوني - مايكل ماردر	265
11. تشارك الإنسانية: نحو تعايش سلمي في الاختلاف - لوس إيريفري	287
فهرس المصطلحات والأعلام	307

المشاركون في الكتاب

جوديث بتلر (Judith Butler): فيلسوفة أميركية ساهمت في حقول الفلسفة النسوية والنظرية المثلية والفلسفة السياسية وعلم الأخلاق. مؤلفة كتب عديدة، وأستاذة في قسمي البلاغة والأدب المقارن في جامعة كاليفورنيا، بيركلي، إضافة إلى كونها أستاذة كرسي حنة أرندت للفلسفة في مدرسة الخريجين الأوروبية.

مارك هـ. إليس (Marc H. Ellis): مؤلف أميركي، ولاهوتي تحرري، وأستاذ جامعي متقاعد للدراسات اليهودية في جامعة بيلور. يعمل حالياً أستاذاً زائراً في جامعة الأمم المتحدة للسلام في كوستاريكا.

لوس إيريغاري (Luce Irigaray): فيلسوفة فرنسية، وعالمة لسانيات ومحللة نفسية ومنظرة ثقافية. إحدى أكثر المفكرات النسويات نفوذاً في العالم، وتشتهر بعملها: *مرآة المرأة الأخرى* (1974)، وهذا الجنس الذي ليس واحداً (1977).

رانجانا خانا (Ranjana Khanna): أستاذة في جامعة ديوك، تعمل على النظرية ما بعد الكولونيالية الأنغلو ساكسونية والفرانكوفونية والأدب والتحليل النفسي والنظرية النسوية. نشرت مقالات عن النسوية العابرة للقوميات، والتحليل النفسي، والسيرة الذاتية، والوساطة ما بعد الكولونيالية، والتعددية الثقافية في سياق دولي، وجويس ما بعد الكولونيالي، ودراسات المناطق ودراسات النساء، والفيلم الجزائري. وهي مؤلفة كتابي *قارات مظلمة: التحليل النفسي والاستعمار* (2003)، و*جروح الجزائر: النساء والتمثيل من 1830 إلى الوقت الحاضر* (2008).

أرتيمي ماغون (Artemy Magun): أستاذ النظرية الديمقراطية ورئيس قسم العلوم السياسية وعلم الاجتماع في الجامعة الأوروبية في سان بترسبورغ. مؤلف ومحرر عدة كتب، من بينها وأحدثها: الثورة السلبية (2013).

مايكل هاردر (Michael Marder): أستاذ كرسي ايكرباسك للبحث في قسم الفلسفة في جامعة إقليم الباسك (UPV – EHU)، فيتوريا- غاستيز. محرر مساعد لدورية تيلوس (Telos): مجلة فصلية للفكر النقدي، ومؤلف حدث الشيء: واقعية دريدا ما بعد التفكيكية (2009)؛ ووجود لا أساس له: الأنطولوجيا السياسية لكارل شميدت (2010)؛ وتفكير النبات: فلسفة الحياة النباتية (2013).

والتر د. مينولو (Walter D. Mignolo): سيميائي أرجنتيني وأستاذ في جامعة ديوك. نشر الكثير حول السيميائيات والنظرية الأدبية، واشتغل على جوانب مختلفة من العالمين الحديث والاستعماري، متقصيا مفاهيم مثل الكولونيالية العالمية، والجغرافيا السياسية للمعرفة، والحداثة العابرة، والتفكير الحدي، والتعددية الكونية.

جيانني فاتيمو (Gianni Vattimo): أستاذ فخري للفلسفة في جامعة تورين وعضو في البرلمان الأوروبي. مؤلف الشيوعية التأويلية (بالاشتراك مع س. زابالا)؛ ووداعاً للحقيقة؛ ومسؤولية الفيلسوف؛ والمسيحية والحقيقة وضعف الإيمان (مع ر. جيرارد)؛ وألا تكون إلها: سيرة ذاتية تعاونية (مع ب. باترليني)؛ وادعاء الفن للحقيقة؛ وبعد موت الله (مع جون د. كابوتو)؛ وحوار مع نيتشه؛ ومستقبل الدين (مع ريتشارد رورتي)؛ والعدمية والتحرر: الأخلاق والسياسة والقانون؛ وما بعد المسيحية.

كريستوفر وايز (Christopher Wise): أستاذ الأدب الإنكليزي والمقارن في جامعة وسترن واشنطن في بليينغام. مؤلف عدة كتب بها فيها، دريدا وأفريقية والشرق الأوسط (2009)، وتشومسكي والتفكيك (2011).

سانتياغو زابالا (Santiago Zabala): أستاذ باحث في الفلسفة في المؤسسة الكاتالانية للبحوث والدراسات المتقدمة (ICREA) في جامعة برشلونة. من كتبه الطبيعة التأويلية للفلسفة التحليلية (2008)، وبقايا الكينونة (2009)، وأحدثها الشيوعية التأويلية (2011)، بالاشتراك مع جيانى فاتيمو).

سلافوي جيжек (Slavoy Zizek): فيلسوف وناقد ثقافي سلوفيني. كبير الباحثين في معهد علم الاجتماع والفلسفة في جامعة لوبليانا، وأستاذ الفلسفة والتحليل النفسي في مدرسة الخريجين الأوروبية. يكتب بشكل واسع حول مجالات متنوعة من المواضيع، بما فيها النظرية السياسية ونظرية الفيلم والدراسات الثقافية والتحليل النفسي.

المقدمة

«إن لم يكن الآن، فمتى؟»

جيانى فاتيما ومايكل ماردر

يحمل التسلسل الختامي لأحداث الفيلم المؤثر شجرة الليمون (إخراج إران ريكليرس، 2008)، وهي أحداث واقعية، أعراض الديناميات الخفية للصراع الإسرائيلي-الفلسطيني. ينتقل وزير الدفاع الإسرائيلي مع أسرته إلى بيت جديد في الضفة الغربية المحتلة، ويعتبر بستان الليمون المجاور الذي تمتلكه أرملة فلسطينية، سلمى زيدان (هيام عباس)، تهديداً أمنياً. يرفع فريقه القانوني دعوى لاقتلاع شجرات ليمون زيدان في قضية تصل إلى المحكمة الإسرائيلية العليا. يأتي قرار المحكمة كافكاوياً بامتياز: يجب أن «تُشذب» الأشجار إلى ارتفاع لا يتجاوز 50 سنتيمتراً عن الأرض، لكي تسمح برؤية لا يعوقها عائق. في المشهد الأخير نجد وزير الدفاع يقف أمام جدار خرساني يفصل باحته الخلفية عن بستان جارته الفلسطينية، وعندما تقترب الكاميرا وترتفع فوق الجدار- في تجاوز سينمائي للحدود - تظهر سلمى زيدان على الجانب الآخر وهي تمشي بأسى وسط جذوع أشجارها المشوهة.

التماهي الرمزي واضح بين بستان الليمون والشعب الفلسطيني الذي لا دولة له. لكن ما الذي يعنيه قرار المحكمة العليا في هذا السياق؟ ألا يعني ضمناً أن الفلسطينيين، عندما لا يُقتلون دفعة واحدة ويطردون من بيوتهم وينقلون بالقوة من بلادهم، فسيجدون أنفسهم في وضع مستحيل بالكاد يبقون فيه على قيد الحياة،

في كيان قزمي لا يرتفع لأكثر من 50 سنتيمتر عن الأرض؟ ألا يوحي ذلك بأنهم، حتى لو كانوا سيحتفظون بالجذور التي تربطهم بفلسطين، فسيعوق نموهم ولن يحملوا أية ثمار؟ الجدار الخرساني يصوغ كل شيء حوله على صورته، ويجعل العالم الذي يقسمه غير صالح للسكنى. عقياً. بلا حياة. وبالتالي لا-عالم. وهكذا، يعيد الفيلم تشكيل الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي برمته كمواجهة بين القوة اللاعضوية (والمميتة) المركزة في الجدار، والحضور المتلاشي للعالم العضوي المكثف في أشجار الليمون. الأسطورة القومية الإسرائيلية في «جعل الصحراء تزهو»، تكشف هنا الجانب الآخر المظلم والقيح الذي جعلها ممكنة في المقام الأول: لقد حولت الصهيونية، وتتابع تحويل، بساتين الأشجار المزهرة إلى صحراء.

جذوع أشجار الليمون هي آثار الأشجار ذاتها، التذكرة بشيء لم يعد موجوداً لكنه، مع ذلك، باق في تأثيراته الافتراضية. مثل جثث الجنود والخيول المشوهة والمتناثرة في ساحة معركة - مشهد وصفه مورييس بلانشو بتفاصيله الدقيقة في «لحظة موتي»، وحلله جاك دريدا لاحقاً [في كتابه *Demeure*]⁽¹⁾ - تبقى جذوع الأشجار الدلائل المدمرة على عنف الماضي، وشهادات تحتكم إلى الناجين بصمت. كلا الجذوع والجثث هي المواقع التي يتحول فيها فقدان الحياة البيولوجية المباشر إلى ذكرى رضية، تستمر في العيش علامةً على عنفٍ حاصل، ماضٍ وكلي الحضور في آن.

أثر البقاء والحضور المتلاشي اللذين نجدهما في شجرة الليمون هما أيضاً الخيطان اللذان يربطان معا حركتين فلسفتين من القرن العشرين: التفكيك والفكر الضعيف.⁽²⁾ في مقابل المقولات «القوية» للميتافيزيقا، بشرطة حدودها المفاهيمية وسياجات فصلها المثالية بين «الداخل» و«الخارج»، يحتضن التفكيك والفكر الضعيف الوجود الهش والمهدّد والمحدود في نقطة الاختفاء، وجود لا حاضر

(1) انظر

Jacques Derrida, *Demeure: Fiction and Testimony*, trans. Elisabeth Rottenberg (Stanford, CA: Stanford University Press, 2000).(2) الفكر الضعيف (*pensiero debole*)

تماماً ولا غائب كلياً. بالنسبة إلى دريدا، الأثر - أو ما يدعوه سانتياغو زابالا «بقايا الكينونة»، الذي يشكل إمكانية التحرر من الميتافيزيقا⁽¹⁾ - لا هو داخل الكينونة ولا خارجها، بل على حافة الاختفاء، ودائماً «قيد الانمحاء».⁽²⁾

في قاع المزاغم المتعارضة المتبادلة للحق في الأرض، تجيش الرغبة في محور أثر الآخر، إلى جانب إزالة آثار هذا المحو ذاته. إذ يسعى الاحتلال الإسرائيلي إلى اختزال الأثر الفلسطيني بغياب خالص، في حين يدعي لنفسه شرف الأصول التاريخية القوية وغير المتنازع عليها، والتجذر الحقيقي (التوراتي) في أرض إسرائيل. في الواقع، في عقل الصهيونية، لا يمكن فصل الشيتين: حضور الأصول اليهودية وغياب الآثار الفلسطينية هما وجهان للعملة المزيفة نفسها. مع ذلك، كما تشهد بصمت جذوع الأشجار المقطوعة والبيوت المصادرة والقرى العربية المهجورة، فإن الحضور شبه الغائب والأكثر تعرضاً للخطر هو الحضور الذي يستمر بالشكل الأكثر عناداً. صحيح أن الأشجار، مثل الأشخاص الذين يعتنون بها، ضعيفة أمام العنف الذي تتعرض له، وأمام إمكانية أن تُقطع أو تُقتلع. لكنها، مع الوقت، مثل الأثر الذي حوله دريدا إلى شبح في أعماله الأخيرة،⁽³⁾ تعود لتسكن أولئك الذين يظنون أنهم قد محوها.

رغم أن التفكيك والفكر الضعيف كليهما يعملان بمفاهيم حدية، فإنهما لا يكتفیان بـ«الجلوس على السياج» (أو، في هذه الحالة، على الجدار). فتوحاتهما أبعد ما تكون عن مجرد ألعاب أكاديمية، بل هي تدخلات عملية وسياسية تستجيب لمطالب العدالة الفريدة. قال دريدا ذات مرة إن التفكيك هو إمكانية العدالة. وكان يضع في ذهنه حساسية التفكيك القصوى لسياق اشتباكات، بقدر حساسيته للأشكال المراوغة التي يمكن للعنف أن يتخذها، باسم العالمية مثلاً. لذلك يساوي تفكيك

(1) Santiago Zabala, *The Remains of Being: Hermeneutic Ontology After Metaphysics* (New York: Columbia University Press, 2009).

(2) Jacques Derrida, *Of Grammatologia*, trans. Gayatri Spivak (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1997).

(3) Jacques Derrida, *Specters of Marx: The State of the Debt, the Work of Mourning, and the New International*, trans. Peggy Kamut (New York: Routledge, 1994).

الصهيونية المطالبة بالعدالة لضحاياها - ليس الفلسطينيين الذين يعانون منها فقط، بل أيضا اليهود المناهضين للصهيونية، «الممحون» من الرواية المكرسة رسمياً للتاريخ الصهيوني. بتفكيك هذه الأيديولوجيا، نسلط الضوء على السياق الذي تمجده لكتبته، وعلى العنف الذي تشرعنه بمزيج من التبرير اللاهوتي - الميتافيزيقي والاحتكامات العاطفية إلى الشعور بالذنب التاريخي تجاه الاضطهاد المروع الذي لا يمكن إنكاره لليهود في أوروبا وفي أمكنة أخرى.

من الممكن، بالطبع، أن نحتكم إلى العدالة دون استحضار التفكيك، الذي ليس «الشرط الضروري»، بالمصطلحات الفلسفية الرسمية، لإمكانية هذا المطلب. لماذا، إذن، تفكيك الصهيونية؟ ولماذا الآن؟ وما الذي يستتبعه مثل هذا التفكيك أصلاً؟

دعونا نبدأ بالمعنى الذي يحمله التفكيك للصهيونية. ثمة طريقتان مترابطتان للنظر في دعوى الحظر المفروض على تفكيك الصهيونية، وكلتاهما تلعبان دوراً في المقالات التي تُولف هذا المجلد. المعنى الأول، والأكثر تداولاً، هو النقد الجذري للأيديولوجيا، بتفحصه الدقيق لكل الافتراضات المسبقة والمستترة في كل منظومة فكرية. التاريخ مهم: فالصهيونية، مثل الأيديولوجيات الأخرى، كانت تصوراً تاريخياً، مشروعاً متماسكاً إلى حد ما اتخذ تشكيلة واسعة من الصيغ، تمتد سلسلتها من الديني إلى العلماني. التفكيك يعيد عرض تاريخ الصهيونية رجوعاً إلى الوراء، كاشفاً دوافعها واستراتيجياتها وقبل كل شيء شروطها المسبقة وغير المعلنة لما هو متضمن في عقيدتها (على سبيل المثال، طرد سكان فلسطين غير اليهود الموجودين للتو قبل عام 1948، تجسيداً لشعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»).

المعنى الثاني، التقني، للتفكيك يتعلق بالمضامين والإجاءات الدريدية (والهايدغرية) تحديداً. إذا فهم بهذا المعنى، فالتفكيك شيء أكثر من مجرد نقد تقليدي للأيديولوجيا: إنه نقد «ميتافيزيقا الحضور». ويمكننا شرح ميتافيزيقا الحضور باقتضاب انطلاقاً من فلسفة هايدغر؛ فوفقاً له كل عصر في تاريخ الفكر الغربي أطلق على الكينونة اسماً (وأخطأ التسمية)، كالمثل، والمحرك [الأول] الذي لا يُحرك، والمادة/ الجوهر،

والله، والموضوع، والشيء في ذاته، والروح، وهلم جرا. كل بند بمفرده على هذه القائمة الفلسفية الموجزة محبو بخصيصة يفترض أنها أبدية وثابتة وأصيلة وواحدة، حتى عندما تكشف عن نفسها، مثل روح هيغل، في التاريخ الفعلي ومن خلاله. هذه الخصائص ذاتها تصبح أهداف التفكير، الذي يؤكد على الآنية والتشتت للذين لا يمكن اختزالهما، ولا تنجو منهما حتى اليقينيات الميتافيزيقية الأكثر رسوخاً. دريدا بدوره يخطط خطوة أبعد من هايدغر: بدلاً من أن «يصحح» آثام الفلاسفة السابقين ويسمي البنى الميتافيزيقية باسمها (الكيونة)، يلفت الانتباه إلى الحدود المسامية بين الكيونة واللا-كيونة، بين الغياب والحضور، بالشكل الأكثر رمزية في مجازي الأثر والطيء.

الصهيونية تنوع سياسي حديث نسبياً على موضوعة الميتافيزيقا. فهي، بكل أشكالها، تعتبر مفهوم الشعب اليهودي وصلته بـ «أرض إسرائيل» عابراً للتاريخ وموحداً، بغض النظر عن المنافي المؤقتة. إنها، إذ تدعي القدس عاصمة «أبدية غير قابلة للتقسيم» لدولة إسرائيل، تتجاهل بشكل متعمد تاريخية المدينة وحقائقها المعمارية والسكانية والسياسية المتغيرة على مر القرون. علاوة على ذلك، تفترض الصهيونية مسبقاً عودة الشعب اليهودي إلى «وطنهم التاريخي»، وبالتالي استعادة - سياسية وخلافها - لوحدة المنفيين المفقودة.

من الناحية الأخرى، يسلط التفكير الضوء على الحالة الشتاتية لكل الكائنات، التي يرمز إليها بالمصطلح «انتشار/ انتشار» (dissemination).⁽¹⁾ التفكير يتبنى التبعر المكاني بقدر ما يتبنى التبدد الزماني. فكل الشتات والانتشار يسميان، تبعاً لجذورهما اليونانية واللاتينية، انفلاق البذور وانتشارها، تعددية بدئية غير قابلة للتجميع في كلية الدولة الواحدة، الشعب الواحد، التاريخ الواحد، التراث الواحد، وهلم جرا. لا شيء ولا أحد يُترك دون أن تمسه الحالة الشتاتية للتبدد، المتأصلة في

(1) انظر:

Jacques Derrida, *Disseminations*, trans. Barbara Johnson (Chicago, IL and London: University of Chicago Press, 1981).

الأمكنة والأحداث والأشياء والنصوص والذوات الجماعية والفردية. إن التفكيك، حتى عندما لا يكون ضد الصهيونية بشكل صريح، وإلى الحد الذي يكون فيه نقداً لميتافيزيقا الحضور، يرفض الافتراضات التي تعتبر الصهيونية أنه لا يجوز المساس بها. وكما أن التفكيك هو إمكانية العدالة، كذلك هو ضرورة الشتات، دون العودة إلى التماثل الزائف للأصل.

بالتأكيد تقر ما تدعى التيارات التقدمية في الصهيونية بالحاجة إلى تطور في العلاقة اليهودية «بالأرض المقدسة»، تماماً كما تدرك أنها، دون إعادة اختراع نفسها والتكيف مع الوقائع التاريخية والجيوسياسية المتغيرة، تخاطر بأن تصبح أيديولوجيتها بالية وعديمة الصلة عما قريب. ما لا يشكون فيه هو انتماء الشعب اليهودي إلى إسرائيل، وانتماء إسرائيل - مع أو بدون المناطق التي اعترفت بها الأمم المتحدة رسمياً بوصفها دولة فلسطين - إلى الشعب اليهودي. وهكذا يُزعم أن كينونة الشعب اليهودي، كما مصيره، وكينونة دولة إسرائيل ومصيرها، هما الشيء الواحد نفسه.

إن تفكيك الصهيونية بهذا المعنى الثاني للتفكيك هو التحقيق، بحزم والتزام شخصي وسياسي شديد بأن، في مدى صحة أساطير الأصول القومية - الدينية - الإثنية، وأساطير العودة الأوديسوسية إلى المكان الذي نفي منه الأسلاف، وأساطير وحدة شعب غير قابلة للتفتت تحت تنوع هويات نفيه وسببه. إنه أيضاً تمحيص في أنماط التمثيل التي تتلطف بالكلام باسم يهود العالم، في ظل الحضور الكامل المستحيل (خصوصاً حضور «كل» اليهود ضمن الحدود الفيزيائية لدولة إسرائيل، التي يتم إبقاؤها بشكل مغرض غير محددة من خلال نشاط الاستيطان اليهودي)، وكأن يهود العالم مفهوم متجانس وكل متكامل يقترن، سواء أراد ذلك أم لا، بدولة شرق أوسطية صغيرة.

يستتبع تفكيك الصهيونية - دعونا لا ننسى - الكشف عن آثار لنقد الذات، إن لم يكن عن تفكيك ذاتي، في الحركة الصهيونية نفسها، التي ليست، ولم تكن أبداً، أيديولوجيا متجانسة، تماماً مثلها التقاليد اللاهوتية والفكرية والسياسية اليهودية لم

تكن موحدة أو أحادية الصوت أو غير ملتبسة. (يكفي أن نتذكر، في هذا السياق، قصة توراتية عن الخلافات السياسية القديمة، حيث رفض آخر القضاة، صموئيل، بشدة خطط إنشاء مملكة تقدم بها بنو إسرائيل الذين أرادوا أن يكون لهم ملك خاص بهم مثل كل الأمم الأخرى. اعتبر صموئيل هذه المقترحات هرطقة: إنها تمثل إخفاقات في الاعتراف بربوبية الله الحقيقية. وفي عجزه عن مقاومة الملكين، تنبأ بأنه سيكون لهم ملك بشري ينهب بيوتهم، ويغتصب نساءهم ويجعل حياتهم بائسة بشكل مطلق.⁽¹⁾ كيف يمكن مقاومة الإغراء في أن نرى في مؤسسة الملكية اليهودية نذيراً بالدعوة الصهيونية في القرنين التاسع عشر والعشرين من أجل دولة يهودية؟) أخيراً، إن تفكيك الصهيونية هو المطالبة بالعدالة للفلسطينيين ضحايا أجهزة الدولة الميتافيزيقية، والوجودية - اللاهوتية والنيوليبرالية، المسخرة لإبقاء آخرها المحتقرين، المعدمين، مشوهي السمعة، بلا دولة وبالتالي بلا أثر.

يمكننا أن نستيق بعض الانتقادات التي ستوجه إلى أية محاولة لتفكيك الصهيونية. من المحتمل أن تقع هذه الانتقادات في ثلاث فئات عريضة:

1. إن التركيز على الصهيونية وليس على الأيديولوجيات الفلسطينية عمل أحادي الجانب وبالتالي غير متوازن، ويفتقر إلى الحيادية التي تميز البحث العلمي.

- لكن كيف يناصر المرء مقارنة علمية حيادية ومتوازنة في أوضاع تكون فيها الشروط على الأرض بلا جدال غير متوازنة، وتصبح كذلك باطراد يوماً بيوم؟ ما

(1) انظر سفر صموئيل الأول 8، 10-18: «فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكاً بجميع كلام الرب. وقال هذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم. يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمرأجه وفرسانه فيركضون أمام مرأجه. ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرقون حرأته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مرأجه. ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده. ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله. ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً. فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم».

هو المتوازن في مواجهة بين دولة قوية وشعب بلا دولة؟ الأغلب، أن الحيادية العلمية ليست سوى حيلة، غطاء للتحديد وعدم التسييس (كما يقول كارل شميت⁽¹⁾) اللذين يحدثان التأثير المرغوب - «لكل قصة وجهان على الأقل»، ما يسمح للظلم بأن يتقدم مع حصانة الإفلات من العقاب. هذه حالة مرجعية لمثل هذه الحيلة. ذريعة الحيادية هي جزء من السردية الميتافيزيقية التي يتعين تفكيكها.

2. من الظلم التمهيد في الصهيونية الإسرائيلية، بدل مناقشة الاضطهاد السائد في دول أخرى في المنطقة. إذ يجري اختيار إسرائيل واستهدافها بدون مبرر واضح من بين الأنظمة الشرق أوسطية، والعديد منها أسوأ من إسرائيل بكثير.

- ما يثير الفضول أن مؤيدي هذه الحجة لن يجدوا حرجا في تيجير استثنائية إسرائيل: على سبيل المثال، عندما تصبح البلد الأول في العالم الذي يرفض المثل أمام [محكمة] حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة.⁽²⁾ فهي في الوقت نفسه دولة بين الدول الأخرى، ودولة فريدة فوق القانون الدولي، تعتبر مثاليا حصينة على الانتقاد. مهمتنا اختيارها واستهدافها تحديدا لأنها دولة استثنائية تماماً، وإن ليس بالمعنى نفسه الذي يظنه من يسوقون هذا الزعم. استثنائية إسرائيل تقوم على حقيقة أنها دولة خلقت بفضل إزاحة هائلة للسكان العرب الذين كانوا يقطنون المنطقة تحت الانتداب البريطاني، وتدفع هائل بالقدر نفسه لمهاجرين من أوروبا التي مزقتها الحرب ومن الشرق الأوسط. إنها دولة يزعم أن تكون تأسست للتكفير عن إحدى أكبر مآسي القرن العشرين، لكنها لفورها اقترفت جرائم لا حصر لها ضد جيرانها الفلسطينيين. دولة مازال، إلى هذا اليوم، تعيد تأسيس نفسها وتشرعن ذاتها بناء على مزيج من ربوبية عمرها آلاف السنوات، وقالب جامد من قومية على النمط

(1) قارن مع:

Cf. Carl Schmitt, «The Age of Neutralizations and Depoliticizations», in The Concept of the Political, Expanded Edition, Trans. G. Schwab, (Chicago, IL and London: The University of Chicago Press, 2007).

(2) فيب غرينوود، «إسرائيل ترفض المثل أمام لجنة مراجعة حقوق الإنسان [التابعة] للأمم المتحدة» The Telegraph, January 29, 2013.

الأوروبي في القرن التاسع عشر، لم يعد لها وجود بهذا الشكل في أي مكان في أوروبا. دولة تدعي أنها الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، في حين تعامل بشكل منهجي أفرادها العرب كمواطنين من الدرجة الثالثة، وتُقي حبس بعض مواطنيها اليهود سرياً. ينبغي أن نضيف أن كل الأيديولوجيات الملهمّة ميتافيزيقيا تستحق أن تُفكك: تفكيك الصهيونية لا يحول دون تفكيك الأنماط الأخرى من القومية والعنصرية، إلخ. لا أحد يعلم بالاعتراض على تحليل نقدي للفاشية الإيطالية، التي تعتبر مثلاً على شمولية القرن العشرين، بوصفه «انتقائية واستهدافاً» ظالماً لإيطاليا موسوليني، حينما كانت ألمانيا النازية أكثر فتكاً بكثير.

3. إن نقد الصهيونية متجذّر في معاداة السامية المعاصر، سواء مارسه يهود منشقون أو غير اليهود. انتقاد إسرائيل هو كره الشعب اليهودي وتحضير الأرضية لإبادة [شواه / Shoah] جماعية جديدة.

- أولاً، إن التهديد الأكبر لرفاه وأمن اليهود الإسرائيليين (وغالباً، بشكل ضمني، اليهود الذين يعيشون في أمكنة أخرى في العالم ويُفترض أنهم مؤيدون للسياسات الإسرائيلية) ليس إيران ولا سورية؛ إنه دولة إسرائيل ذاتها. بعيداً عن سلوك إسرائيل العدواني والمولع بالحرب على الساحتين الإقليمية والدولية، فإن احتلالها لفلسطين لا يجعل حيوات الناس الذين يعيشون تحت هذا النظام مستحيلة فحسب، بل غير قابلة للاستدامة أيضاً؛ لأنها تستنزف الموارد العامة بهدف توفير «الأمن» للمستوطنين المتعصين. من الضروري تفكيك الصهيونية ليس بدافع الكراهية بل بدافع القلق الشديد على اليهود الإسرائيليين، الذين يوضعون على طريق تدمير الذات باضطهاد وإفناء السكان الفلسطينيين المجاورين. ثانياً، إن مطابقة الصهيونية واليهودية خطأ فادح: فالكثير من اليهود، في إسرائيل وخارج حدودها، ليسوا صهيونيين أو ضد الصهيونية، في حين أن صهيانة كثراً ليسوا يهوداً ممارسين. حتى مطابقة الصهيونية ودولة إسرائيل الحالية لا يمكن تبريرها، نظراً لأن كثيرين في تاريخ الحركة الصهيونية كانوا يرون إمكانية إنشاء دولة يهودية في مكان آخر - في شرق أفريقية مثلاً. ثالثاً، إن مشروع تفكيك الصهيونية ليس مجرد نقد،

بل كما يوحي العنوان الفرعي لمجموعتنا، ليس فعل كشف عن ميتافيزيقا سياسية. الصهيونية ليست ديناً، وبالتأكيد ليست إثنية، وإنما رؤية أيديولوجية وسياسية للعالم عرّفة ميتافيزيقيا. ولا يختلف انتقادها، مثلاً، عن انتقاد الإمبريالية البرتغالية في الفترة بين القرن الخامس عشر ونهاية الدولة السالازارية الجديدة عام 1974 (باستثناء أن الإمبريالية البرتغالية هي شيء من الماضي، في حين أن الاحتلال الصهيوني مازال مستمراً). وتفكيك الإمبريالية البرتغالية، بولعها الميتافيزيقي والمسيحاني، هو بالتأكيد غير متجذر في كراهية أي شخص للشعب البرتغالي.

لماذا، إذن، يُربط النقد الفلسفي للصهيونية بأيديولوجيا اللاسامية البائسة؟

أخيراً، لماذا الآن؟ السؤال يردد صدى سؤال حكيم يهودي، هو الحاخام هيلل، الذي سأل سؤالاً مشهوراً: «إذا لم أكن لنفسي، فمن يكون لي؟ وإذا كنت لنفسي فقط، فماذا أكون؟ وإذا لم يكن الآن، فمتى؟»⁽¹⁾ سؤال الالتزام الأخلاقي، «لماذا الآن؟» يلقى رداً في شكل سؤال آخر: «إذا لم يكن الآن، فمتى؟» إن تفكيك الصهيونية هو مسألة ملحة، لأن ضحايا الاضطهاد الصهيوني في الماضي والحاضر والمستقبل يطالبون بالعدالة. يجب علينا - أنطولوجياً كما أخلاقياً - أن نكون لهم ومن أجلهم. عندئذ فقط يمكننا أن نأمل في أن نكون أي شيء على الإطلاق.

(1) انظر:

Ronald L. Eisenberg, *Essential Figures in the Talmud* (Plymouth: Jason Aronson, 2013), p.91.

- 1 -

معاداة السامية وتحولاتها

سلافوي جيچك

بالعودة إلى ثلاثينيات القرن الماضي، قدم هتلر معاداة السامية كتفسير سردي للمشكلات التي عاشها الألمان العاديون: البطالة، والانحلال الأخلاقي، والاضطراب الاجتماعي - ووراء ذلك كله يقف اليهودي؛ أي إن «المؤامرة اليهودية» جعلت كل شيء واضحاً عن طريق تقديم «خارطة معرفية» مبسطة. ألا تؤدي كراهية التعددية الثقافية وتهديد المهاجرين اليوم الوظيفة نفسها وبطريقة مماثلة؟ تحدث أشياء غريبة حولنا، تقع انهيارات مالية تؤثر على حياتنا اليومية، لكنها تعاش بوصفها أحداثاً مبهمه تماماً. ويُدخل رفض التعددية الثقافية وضوحاً زائفاً إلى الوضع: المتطفلون الأجانب هم الذين يفسدون طريقة حياتنا. ثمة ترابط داخلي، إذن، بين تصاعد المد المعادي للمهاجرين في البلدان الغربية (الذي بلغ ذروته في فورة إجرام أنديرس بهرينغ بريفيك) والأزمة المالية المستمرة. والتمسك بالهوية الإثنية هنا يخدّم كدرع واق ضد الحقيقة المفجعة لوقوع المرء أسير دوامة من التجريد المالي عديم الشفافية. إن «الجسم الأجنبي» الحقيقي الذي لا يمكن دمجهِ وتمثله في المجتمع، هو، في نهاية المطاف، تلك الآلة الجهنمية ذاتية الحركة لرأس المال نفسه.

هناك أسباب وجيهة للتفكير بتبرير الذات الأيديولوجي لبريفيك، بالإضافة إلى ردود الأفعال على عمله الإجرامي. فبيان هذا المسيحي «صائد الماركسيين»، الذي قتل أكثر من 70 شخصاً في أوصلو، بالتأكيد ليس قضية هذين رجل مجنون؛ إنه

ببساطة عرض متساوق «لأزمة أوروبا»، يقدم ضمناً (إلى حد ما) الأساس الفكري لتصاعد الشعبوية المعادية للمهاجرين، والتي تشي عدم منطقيتها ذاتها بأعراض التناقضات الداخلية لهذه الرؤية. الشيء الأول الذي لا يمكنه إلا أن يصدم العين هو كيف يبنى بريفيك عدوه من توليفة ثلاثية العناصر (الماركسية والتعددية الثقافية والإسلاموية)، وكل واحد منها ينتمي إلى فضاء سياسي مختلف (اليسار الراديكالي الماركسي، والليبرالية المنادية بالتعددية الثقافية، والأصولية الدينية الإسلامية). العادة الفاشية القديمة في نسب سمات متعارضة ذاتياً للعدو («المؤامرة البلشفية-البلوتوقراطية اليهودية» تترجم هنا إلى اليسار الراديكالي البلشفي، والرأسمالية الثرية، والهوية الإثنية-الدينية) تعود الآن في إهاب جديد. الأمر الأكثر دلالة هو الطريقة التي يخلط بها تصنيف بريفيك نفسه أوراق الأيديولوجيا اليمينية المتطرفة. بريفيك يدافع عن المسيحية، لكنه يظل لا أدرياً علمانياً. المسيحية بالنسبة له مجرد مُنشأ ثقافي لمعارضة الإسلام، لكنه يجذب مجتمعاً «علمانياً». وبريفيك مناهض للحركة النسوية ويؤمن أنه ينبغي نفي النساء عن متابعة تعليمهن العالي، لكنه يؤيد الإجهاض، ويعلم نفسه مناصراً للمثليين. ويجمع بريفيك، علاوة على ذلك، السمات النازية (جزئياً أيضاً، في تعاطفه مع ساغا، المغني الشعبي السويدي المؤيد للنازية، مثلاً) مع الكراهية لهتلر: أحد أبطاله هو ماكس مانوس، زعيم المقاومة النرويجية ضد النازية. بريفيك ليس عنصرياً بقدر ما هو ضد المسلمين: كل كراهيته مركزة على التهديد المسلم. وأخيراً وليس آخراً، بريفيك معاد للسامية، لكنه مؤيد لإسرائيل، بما أن دولة إسرائيل هي خط الدفاع الأول ضد التوسع المسلم، بل حتى يريد رؤية هيكل القدس وقد أعيد بناؤه. رأيه أن اليهود مقبولون ما دام لا يوجد منهم أكثر مما ينبغي، أو، كما كتب في بيانه:

لا توجد مشكلة يهودية في أوروبا الغربية (باستثناء المملكة المتحدة وفرنسا)، بما أنه ليس لدينا سوى مليون [يهودي] واحد يعيش 800.000 منهم في المملكة المتحدة وفرنسا. أما الولايات المتحدة،

من الناحية الأخرى، فتعاني فعلاً مشكلة يهودية معتبرة مع وجود أكثر من 6 ملايين يهودي فيها (600٪ أكثر من أوروبا الغربية).

هكذا تجسد شخصية بريفيك المفارقة القصوى للنازي الصهيوني. لكن كيف يمكن ذلك؟

المفتاح تقدمه ردود أفعال اليمين الأوروبي على هجوم بريفيك. فقد كان شعاره أننا، في إدانة عمله الإجرامي، ينبغي ألا ننسى أنه خاطب «هوما مشروعة حول مشاكل حقيقية» تفشل السياسة السائدة في معالجتها، مثل تآكل أوروبا بفعل الأسلحة والتعددية الثقافية. أو، اقتباساً من صحيفة جيروزالم بوست، ينبغي أن نستخدم مأساة أوسلو «كفرصة لإعادة تقييم جدي لسياسات دمج المهاجرين في الترويج وفي أمكنة أخرى». ⁽¹⁾ (بالمنااسبة، من اللطيف لو نسمع تقييماً مماثلاً لأعمال الإرهاب الفلسطينية على غرار «أعمال الإرهاب هذه ينبغي أن تقدم فرصة لإعادة تقييم السياسة الإسرائيلية.») بالطبع، الإشارة إلى إسرائيل متضمنة في هذا التقييم: إسرائيل «متعددة الثقافات» لا حظ لها بالبقاء، والفصل العنصري هو الخيار الواقعي الوحيد. وضمن هذا التحالف الصهيوني-اليميني المتحرف تماماً هو أن على المرء، لكي يبرر زعم الحق في فلسطين، أن يقر ارتجاعياً بخط الحاجة المستخدم سابقاً، في التاريخ الأوروبي الأبعد، ضد اليهود. الصفقة الضمنية هي «أننا مستعدون للتسليم بعدم تسامحكم تجاه الثقافات الأخرى في وسطكم إذا سلمتم بحقنا في عدم التسامح مع الفلسطينيين في وسطنا». والمفارقة المأساوية لهذه الصفقة الضمنية هي أن اليهود أنفسهم، في التاريخ الأوروبي للقرون الأخيرة، كانوا أوائل «أنصار التعدد الثقافي»: كانت مشكلتهم كيف ينجون بثقافتهم سليمة في أماكن تسودها ثقافة أخرى. (في الواقع، على المرء أن يلاحظ هنا أنه في الثلاثينيات، وفي رد مباشر على العداء النازي للسامية، عمد إرنست جونز، الوكيل الرئيس لترقية التحليل النفسي وجعله مقبولا لدى الطبقات الوسطى وممثلاً لأخلاقياتها، إلى الانخراط في تأملات غريبة حول

(1) المقالة الافتتاحية حول «تحدي الترويج»، 24 تموز، 2011.

النسبة المئوية من السكان الأجانب الذين يمكن أن يتحملهم جسم قومي في وسطه دون أن يعرض هويته للخطر، متقبلاً بذلك الإشكالية النازية.) في نهاية هذا الطريق تكمن الإمكانية القصوى التي لا ينبغي استبعادها أبداً - إمكانية تحقيق «تسوية تاريخية» بين الصهاينة والأصوليين الإسلاميين.

لكن ماذا لو كنا ندخل عصرًا جديدًا يفرض فيه هذا التفكير الجديد نفسه؟ ماذا لو كان على أوروبا تقبل المفارقة في أن انفتاحها الديمقراطي قائم على الإقصاء، بما أنه «لا حرية لأعداء الحرية»، كما عبر روبسبير عن ذلك منذ زمن طويل؟ من حيث المبدأ هذا صحيح، بالطبع، لكن هنا ينبغي على المرء أن يكون دقيقاً جداً. بطريقة ما، كان بريفيك محقاً في اختياره الهدف: فهو لم يهاجم الأجانب بل أولئك الذين كانوا داخل مجتمعه متساحين أكثر مما ينبغي تجاه هؤلاء الأجانب المتطفلين. المشكلة ليست الأجانب؛ إنها هويتنا (الأوروبية) الخاصة. ورغم أن الأزمة المستمرة للاتحاد الأوروبي تبدو أزمة مال واقتصاد، فإنها في بعدها الأساس أزمة أيديولوجية - سياسية. إن فشل الاستفتاءات حول دستور الاتحاد الأوروبي قبل حوالي عامين أعطى إشارة واضحة إلى أن المصوتين يدركون حقيقة الاتحاد الأوروبي بوصفه اتحاداً اقتصادياً «تكنوقراطياً»، يفتقر إلى أية رؤية قادرة على تحشيد الجماهير (حتى قيام الاحتجاجات الأخيرة، كانت الأيديولوجيا الوحيدة القادرة على الحشد الشعبي هي الدفاع عن أوروبا ضد المهاجرين).

ثورانات رهاب المثليين (homophobia) الأخيرة في دول أوروبا الشرقية ما بعد-الشيوعية ينبغي أيضاً أن تعطينا وقفة للتأمل. في أوائل عام 2011 جرى استعراض للمثليين في اسطنبول حيث مرّ الآلاف بسلام، دون أي عنف أو اضطرابات أخرى. أما في استعراضات المثليين التي حصلت في الوقت نفسه في صربيا وكرواتيا (مدينتي بلغراد وسبليت)، فلم تتمكن الشرطة من حماية المشاركين الذين هوجموا بشراسة من قبل آلاف الأصوليين المسيحيين العنيفين. هؤلاء الأصوليون، وليس تركيا، هم الذين يمثلون التهديد الحقيقي للإرث الأوروبي. لذلك، عندما منع الاتحاد الأوروبي أساساً دخول تركيا إليه، كان علينا أن نطرح

السؤال الواضح: ماذا عن تطبيق القواعد نفسها على أوروبا الشرقية؟ (ناهيك عن الحقيقة العجيبة بأن القوة الرئيسة التي تقف وراء الحركة المعادية للمثليين في كرواتيا هي الكنيسة الكاثوليكية، المشهورة بالفضائح العديدة المرتبطة بالاعتداء الجنسي على الأطفال).

من الحاسم أن نحدد موقع العداء للسامية في هذه السلسلة، كواحد من العناصر التي تصطف إلى جانب الأشكال الأخرى للتمييز العنصري والجنسي ورهاب المثليين، إلخ. هنا، لكي ترسخ سياستها الصهيونية، ترتكب دولة إسرائيل خطأ كارثياً: لقد قررت أن تقلل من أهمية، إن لم يكن تتجاهل تماماً، ما تدعى اللاسامية «القديمة» (الأوروبية التقليدية)، مركزة بدلاً من ذلك على اللاسامية «الجديدة» و«التقدمية» المزعومة، والمقنعة بانتقاد السياسة الصهيونية لدولة إسرائيل. وفقاً لهذه الخطوط، زعم برنار هنري-ليفى مؤخراً (في كتابه اليسار في أزمنة مظلمة) أن لاسامية القرن الحادي والعشرين ستكون «تقدمية» أو لا تكون. هذه الفرضية، إذا سبقت إلى استنتاجها المنطقي، تجبرنا على الالتفاف على التفسير الماركسي القديم للاسامية بوصفها عداء مشوشاً/ متزاحاً للرأسمالية، حيث يتركز الغضب على جماعة إثنية معينة متهمه بإفساد النظام بدلاً من لوم النظام الرأسمالي ذاته. بالنسبة لهنري-ليفى ومحازبيه، العداء للرأسمالية اليوم هو شكل مقنع من العداء للسامية.

هذا التحريم غير المعلن، وإن يكن ليس أقل فعالية، لمهاجمة اللاسامية «القديمة» إنما يحدث في اللحظة نفسها التي تعود فيها اللاسامية القديمة في كل أنحاء أوروبا، خصوصاً في البلدان الأوروبية الشرقية ما بعد-الشيوعية. يمكننا أن نلاحظ تحالفاً غريباً مائلاً في الولايات المتحدة: كيف يمكن للأصوليين المسيحيين الأميركيين، المعادين للسامية بالطبيعة، إذا جاز القول، أن يدعموا بحماس الآن السياسة الصهيونية لدولة إسرائيل؟ هناك حل واحد لهذا اللغز. ليس أن الأصوليين الأميركيين تغيروا، بل الصهيونية نفسها، في كرهها اليهود الذين لا يتماهون كلياً مع سياسة دولة إسرائيل، أصبحت بشكل مفارق معادية للسامية، أي إنها بنت شخصية اليهودي الذي يشكك في المشروع الصهيوني وفق معايير معادية للسامية.

إسرائيل تلعب لعبة خطيرة هنا: محطة فوكس نيوز، الصوت الأميركي الرئيس لليمين الراديكالي والداعم القوي للنزعة التوسعية الإسرائيلية، اضطرت في الآونة الأخيرة إلى أن تخفض رتبة غلن بك، مضيفها الأكثر شعبية، الذي أصبحت تعليقاته معادية للسامية بصرحة.⁽¹⁾

الحجة الصهيونية المتعارف عليها ضد نقاد سياسات دولة إسرائيل هي أن دولة إسرائيل، طبعاً، مثل أية دولة أخرى، يمكن وينبغي الحكم عليها وفي النهاية انتقادها؛ لكن نقاد إسرائيل يسيئون استعمال نقد سياسة إسرائيل المبرر لأغراض معادية للسامية. عندما يرفض الأصوليون المسيحيون، الداعمون بشكل غير مشروط للسياسة الإسرائيلية، الانتقادات اليسارية للسياسات الإسرائيلية، فإن خط محاجبتهم الضمني إنما يترجمه على أفضل وجه رسمٌ كاريكاتوري رائعٌ نشر في تموز/ يوليو 2008 في الصحيفة اليومية دي برس (Die Presse) الصادرة في فيينا. يظهر الرسم نمساويين مربوعَي القامة يبدوان نازيين، يمسك أحدهما بيده صحيفة ويعلق قائلاً لصديقه: «هنا يمكنك أن ترى مرة ثانية كيف يساء استعمال اللاسامية المبررة تماماً من أجل نقد رخيص لإسرائيل!» هؤلاء هم حلفاء إسرائيل اليوم. أما نقاد دولة إسرائيل اليهود فيُنَبِّذون بشكل منتظم بوصفهم يهوداً كارهين ذواتهم؛ لكن، أليس اليهود الكارهين ذواتهم حقاً، أولئك الذين يكرهون سرّاً

(1) جون هاغي شخصية أخرى في سلسلة الصهاينة اللاساميين هؤلاء، وهو المؤسس والرئيس القومي للمنظمة المسيحية الصهيونية «مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل». زار هاغي إسرائيل 22 مرة، والتقى بكل رئيس وزراء منذ بينين، ويتربع على رأس الأجندة المعيارية المسيحية المحافظة ليري هاغي بروتوكول كيوتو مؤامرة تهدف إلى التلاعب بالاقتصاد الأميركي؛ وفي روايته الأكثر مبيعاً، العد التنازلي للقدس (Jerusalem Countdown)، يكون المسيح المضاد رئيس الاتحاد الأوروبي. مع ذلك، ورغم معتقداته «الصهيونية المسيحية» المعلنة وتأييده العلني لدولة إسرائيل، فقد أدلى بتصريحات تبدو لاسامية بشكل واضح: وضع هاغي اللوم في الهولوكوست على اليهود أنفسهم؛ وصرح بأن اضطهاد هتلر كان «مخططاً إلهياً» لقيادة اليهود إلى تشكيل دولة إسرائيل الحديثة؛ ويسمي اليهود الليبراليين «مسممين» و«عميان روحياً»؛ ويعترف بأن هجوماً نووياً وقائياً على إيران، وهو ما يفضل، يرجع أن يؤدي إلى وفاة معظم اليهود في إسرائيل. (المجرد الفضول، يزعم هاغي في روايته العد التنازلي للقدس، بأن هتلر ولد من «سلالة أنصاف-يهود ملعنين ومجرمي إبادة جماعية»).

العظمة الحقيقية للأمة اليهودية، هم تحديدًا الصهاينة الذين يعقدون تحالفاً مع معادي السامية؟ كيف انتهينا إلى مثل هذا الوضع العجيب؟

الوضع الفانتازي للاسامية توصّفه بوضوح عبارة تنسب إلى هتلر: «علينا أن نقتل اليهودي بداخلنا». أ. ب. يهوشوا يقدم تعليقاً وافياً على هذا العبارة:

ذلك التصوير المدمر لليهودي بوصفه نوعاً من كيان هلامي عديم الشكل، يمكنه أن يغزو هوية اللايهودي دون أن يكون قادراً على كشفه أو السيطرة عليه، إنها ينبع من الشعور بأن الهوية اليهودية مرنة إلى أقصى حد، بالتحديد لأنها مبنية مثل نوع من الذرة نواتها محاطة بالكروونات افتراضية في مدار متغير.⁽¹⁾

بهذا المعنى، اليهود فعلياً هم الموضوع الصغير بالنسبة للأغيار. إنهم ما هو «في الأغيار أكثر من الأغيار أنفسهم» - ليس ذاتاً أخرى أو وجهها أمامي بل غريباً، متطفلاً أجنبياً، بداخلي، ما دعاه لا كان «لاميلا» (lamella)، المتطفل عديم الشكل ذا اللدانة اللانهائية، مسخ «غريب» غير ميت لا يمكن أبداً تحديده في شكل معين. بهذا المعنى، تشي عبارة هتلر بأكثر مما تريد قوله: خلافاً لقصده، تؤكد أن الأغيار يحتاجون شخصية «اليهودي» الاسامية ليصنّوا هويتهم. الأمر، إذن، لا يقتصر على أن «اليهودي بداخلنا»؛ ما نسي هتلر على نحو قاتل إضافته أنه هو نفسه، المعادي للسامية، هويته ذاتها، هي أيضاً داخل اليهودي.⁽²⁾ فما الذي تعنيه هذه التوأمة المفارقة بالنسبة لمصير الاسامية؟

إحدى السخریات الكبرى لتاريخ الاسامية هي أن اليهود يمكن أن يمثلوا قطبي التضاد: فهم يوصمون بأنهم طبقة عليا (تجار أغنياء) وطبقة دنيا (قدرة)،

(1) أ. ب. يهوشوا، «محاولة لتحديد السبب الجذري للسامية»، انظر:

A. B. Yehoshua, «An Attempt to Identify the Root Cause of Antisemitism», Azure no. 32 (Spring 2008), available online at <http://azure.org.il/article.php?id=18> [date accessed August 7, 2013].

(2) أعيد هنا، بالطبع، صياغة مقولة لا كان الشهيرة: «الصورة في عيني، لكنني أنا في الصورة».

وبأنهم فكريون أكثر مما يجب ودينويون (مهووسون جنسيا) أكثر مما يجب، وبأنهم كسالى مدمنون على العمل. في بعض الأحيان يمثلون التعلق العنيد بنمط حياتهم الخاص الذي يمنعهم من أن يصبحوا مواطنين كاملين للدولة التي يعيشون فيها؛ في أحيان أخرى، يمثلون كوزموبوليتانية عالمية «مشردة»، لاجذور لها ولا مبالية بكل الأشكال الإثنية الخاصة. تتغير البؤرة مع الحقب التاريخية المختلفة. ففي عصر الثورة الفرنسية، أدين اليهود لكونهم خصوصيين أكثر مما ينبغي، إذ واصلوا التمسك بهويتهم، رافضين الحاجة لأن يصبحوا مواطنين مجردين مثل كل شخص آخر. في أواخر القرن التاسع عشر، مع صعود النزعة الوطنية الإمبريالية، انقلبت التهمة ليصبح اليهود كلهم «كوزموبوليتانيين» أكثر مما ينبغي، يفتقرون إلى كل أشكال التجذر.

حدث التغير الأساسي في تاريخ اللاسامية الغربية مع تحرر اليهود السياسي (منحهم الحقوق المدنية) الذي تلا الثورة الفرنسية. في الحداثة المبكرة، كان الضغط عليهم للتحويل إلى المسيحية، فكانت المشكلة: هل يمكن للمرء أن يثق بهم؟ هل اهتموا حقاً، أم تراهم يستمرون سراً في ممارسة شعائرهم؟ مع ذلك، في أواخر القرن التاسع عشر، يحدث انتقال يتوج باللاسامية النازية. التحويل الآن خارج المسألة ولا معنى له. لماذا؟ بالنسبة للنازيين، ذنب اليهود متجذر مباشرة في تكوينهم البيولوجي. ليس على المرء أن يبرهن أنهم مذنبون، فهم مذنبون لمجرد كونهم يهوداً. لكن يبقى السؤال: لماذا؟

المفتاح يقدمه الصعود المفاجئ، في المخيلة الأيديولوجية الغربية، لشخصية اليهودي التائه الأبدي في عصر الرومانتيكية، أي بالضبط عندما امتدت السمات المنسوبة لليهود إلى كل المجتمع (كون التبادل السلعي أصبح طاعياً) مع انفجار الرأسمالية في الحياة الواقعية. وهكذا، في اللحظة ذاتها التي حرم فيها اليهود من خصائصهم المحددة، التي جعلت من السهل تمييزهم عن بقية السكان، وعندما «حُلّت» «المسألة اليهودية» على المستوى السياسي عن طريق التحرر الشكلي لليهود (أي بمنح اليهود نفس الحقوق الممنوحة إلى كل المواطنين المسيحيين «النظاميين»

الآخرين)، نُقِشت «لعنتهم» في كينونتهم بالذات. لم يعودوا بخلاء ومرابين مضحكين بل أبطالاً شيطانيين لللعنة أبدية، يلاحقهم ذنب غير محدد، مروع إلى حد لا يمكن الكلام عنه، محكوم عليهم بالتيه، والتوق إلى إيجاد الخلاص في الموت. وهكذا، تماماً عندما اختفت الشخصية المحددة لليهودي، ظهر اليهودي المطلق، وهذا التحول كان شرط انتقال اللاسامية من اللاهوت إلى العرق. أصبحت لعنة اليهود عرقهم، إذ لم يكونوا مذنبين بسبب ما فعلوه (استغلال المسيحيين، أو قتل أطفالهم، أو اغتصاب نسائهم أو، في المطلق، خيانة المسيح وقتله) بل بسبب ما كانوا. هل من الضروري أن نضيف بأن هذا الانتقال وضع الأسس للهولوكوست، للإبادة الجسدية لليهود بوصفها الحل النهائي الصحيح «لمشكلتهم»؟ بقدر ما كان اليهود يُعرَّفون بسلسلة من خواصهم، كان الهدف هو هدايتهم، وتحويلهم إلى مسيحيين؛ لكن منذ اللحظة التي أصبحت يهوديتهم متعلقة بكينونتهم ذاتها، وحدها الإبادة صارت قادرة على حل «المسألة اليهودية».

بيد أن اللغز الحقيقي للاسامية هو لماذا تكون بهذا الثبات. لماذا تستمر عبر كل التغيرات التاريخية؟ لعل هذا إلى حد ما يشبه ما قاله ماركس عن [شعر] هوميروس: اللغز الحقيقي الذي يتعين تفسيره هو ليس أصوله، ليس شكله الأصلي (أي كيف أن شعر هوميروس متجذر في المجتمع اليوناني القديم) بل لماذا يستمر بسحره الفني الفائق اليوم، بعد زمن طويل من اختفاء الشروط الاجتماعية التي ولدته. من السهل أن نحدد تاريخ اللحظة الأصلية للاسامية الأوروبية. فقد بدأت كلها ليس في روما القديمة بل في أوروبا القرنين الحادي عشر والثاني عشر، التي كانت تصحو من عطالة «العصور المظلمة» وتمر بنمو سريع لتبادل السوق وازدياد أهمية المال. في تلك النقطة بالضبط، يظهر «اليهودي» بوصفه العدو: المرابي، والدخيل الطفيلي الذي يشوش الصرح الاجتماعي المتناغم. لاهوتياً، هذه أيضاً هي لحظة ما دعاه جاك لوغوف (Jacque le Goff) «ولادة المطهر» (*purgatorium*)، أي فكرة أن الاختيار ليس بين الجنة والجحيم فقط بل لا بد أن يكون هناك مكان ثالث،

يتوسطهما، ويمكن للمرء فيه إجراء «صفقة»، دفع ثمن ذنوبه (إذا لم تكن أكبر مما ينبغي) بقدر محدد من التوبة - مال مرة أخرى!

أين نحن اليوم، إذن؟ لدى سؤاله عن عدائه للسامية في مقابلة أجريت معه، قال مغني الروك القومي الكرواتي ماركو بركوفيك تومبسون: «ليس لدي أي شيء ضدهم، ولم أفعل لهم شيئاً. أعرف أن يسوع المسيح أيضاً لم يفعل لهم شيئاً، لكنهم مع ذلك علقوه على الصليب». هكذا تعمل اللاسامية اليوم: ليس نحن من لدينا شيء ضد اليهود؛ المشكلة بالأحرى هي اليهود أنفسهم. فوق ذلك كله، نشهد اليوم النسخة الأخيرة من اللاسامية، التي وصلت إلى النقطة القصوى من الانسجام مع الذات. فالدور المتميز لليهود في تأسيس مجال «الاستخدام العام للعقل» يتوقف على تجربتهم من كل سلطة دولة. موقعهم هو «دور اللا-دور» في كل مجتمع دولة قومية عضوي، وهذا الموقع، وليس الطبيعة المجردة - الكونية لديهم التوحيدي، هو ما يجعلهم التجسيد المباشر للكونية. لا عجب، إذن، في أنه، مع إنشاء الدولة القومية اليهودية، برزت شخصية جديدة لليهودي: يهودي يقاوم التماهي مع دولة إسرائيل، يرفض القبول بدولة إسرائيل بوصفها وطنه الحقيقي، يهودي «يطرح» نفسه من هذه الدولة، ويشمل دولة إسرائيل بين الدول التي يلح على الاحتفاظ بمسافة منها، ليعيش في فواصلها. هذا اليهودي الغريب هو الموضوع لما لا يمكن للمرء سوى أن يسميه «اللاسامية الصهيونية»، الفائض الأجنبي الذي يزج مجتمع الدولة القومية. هؤلاء اليهود، «يهود اليهود أنفسهم»، الأخلاف الفاضلون لسبينوزا، هم اليوم اليهود الوحيدون الذين يستمرون في الإلحاح على «الاستخدام العام للعقل»، رافضين إخضاع تفكيرهم للمجال «الخاص» للدولة القومية.

هذا يأخذنا إلى الرهانات السياسية للسامية الصهيونية وتبعاتها. في الثاني من آب 2009، بعد فرض الحصار على جزء من حي الشيخ جراح العربي في القدس الشرقية، طردت الشرطة الإسرائيلية عائلتين فلسطينيتين (أكثر من 50 شخصاً) من منزليهما وسمحت لمستوطنين يهود بالانتقال فوراً إلى المنزلين الفارغين. ورغم أن الشرطة الإسرائيلية أشهرت حكم المحكمة العليا في الدولة، فإن العائلتين العربيتين

المطرودين قد عاشتا هناك لأكثر من 50 عاماً. هذا الحدث، الذي لفت، بشكل استثنائي نوعاً ما، اهتمام وسائل الإعلام العالمية، هو جزء من سيرورة متواصلة أكبر بكثير، ويجري في معظم الأحيان تجاهلها. قبلئذ بخمسة أشهر، في الأول من آذار، 2009، نقلت تقارير⁽¹⁾ أن الحكومة الإسرائيلية وضعت خططاً لبناء أكثر من 70.000 وحدة سكنية جديدة في المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية المحتلة. هذه المخططات، إذا نفذت، يمكن أن تزيد عدد المستوطنين في الأراضي الفلسطينية بحوالي 300.000 - وهي نقلة لن تقوض بشكل حاد فرص قيام دولة فلسطينية قابلة للحياة فحسب، بل ستعيق الحياة اليومية للفلسطينيين أيضاً. رفض ناطق حكومي التقرير، مجادلاً في أن المخططات كانت ذات أهمية محدودة: بناء المنازل الجديدة في المستوطنات فعلياً كان يتطلب موافقة وزير الدفاع ورئيس الوزراء. مع ذلك، فإن 15.000 من الوحدات المخططة تمت الموافقة عليها كلياً، مع 20.000 وحدة إضافية في المستوطنات البعيدة عن «الخط الأخضر» الذي يفصل إسرائيل عن الضفة الغربية، أي في المناطق التي لا يمكن أن تتوقع إسرائيل الاحتفاظ بها في أية صفقة سلام مستقبلية مع الفلسطينيين. النتيجة واضحة: في حين تقدم إسرائيل خدمة شفعية إلى حل الدولتين، فإنها مشغولة بخلق وضع على الأرض سيجعل حل الدولتين في الواقع مستحيلاً. الحلم الذي يشكل الأساس لهذه السياسة يتحقق على النحو الأفضل عن طريق الجدار الذي يفصل بلدة المستوطنين عن البلدة الفلسطينية على تلة مجاورة في مكان ما في الضفة الغربية. الجانب الإسرائيلي من الجدار مطلي بصورة الريف الواقع خلف الجدار، لكن بدون البلدة الفلسطينية، مجرد طبيعة وعشب وأشجار وهلم جرا. أليس هذا تطهيراً إثنياً بأوضح أشكاله، يتخيل الخارج خلف الجدار [ليس كما هو بل] كما ينبغي أن يكون، أي خالياً، بكرةً، ينتظر أن يُستوطن؟

(1) انظر توبياس دك، «إسرائيل تضع مسودات خططات توسع الضفة الغربية» في:

تستتر هذه العملية أحياناً بقناع التحسين العمراني والترقي الثقافي والطبقي. في 28 تشرين الأول 2008، حكمت المحكمة الإسرائيلية العليا بأنه يمكن لـ «مركز سايمون فيزنثال» أن يبني مركز الكرامة الإنسانية المخطط له منذ زمن طويل، «متحف التسامح»، على موقع متنازع عليه في منتصف القدس. (ومن سوى فرانك جيري سوف يصمم المجمع الضخم المكون من متحف عام، ومتحف للأطفال، ومسرح، ومركز مؤتمرات، ومكتبة، وصالة عرض، وقاعات محاضرات، وكافتيريات، إلخ. مهمة المتحف المعلنة ستكون إعلاء القيم الحضارية وثقافة احترام الآخرين شرائح المجتمع اليهودي المختلفة وبين الناس من كل الديانات - العائق الوحيد (الذي يتخطاه قرار المحكمة العليا) أن موقع المتحف كان مقبرة المسلمين الرئيسية في القدس حتى عام 1948 (قدمت الجالية المسلمة استثناءً إلى المحكمة العليا بأن بناء المتحف سوف يتهك حرمة المقبرة، التي يدعى أنها تضم رفات مسلمين قتلوا أثناء الحروب الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر).⁽¹⁾ هذه البقعة المظلمة تمثل بشكل رائع دور الحقيقة الخفية لهذا المشروع متعدد الأديان: إنه مكان يمجّد التسامح، مفتوح للجميع، لكنه محمي بالقبّة الإسرائيلية، التي تتجاهل ضحايا التعصب المدفونين تحت الأرض، كما لو أن المرء يحتاج إلى قليل من التعصب ليخلق الفضاء للتسامح الحقيقي.

وكما لو أن هذا لم يكن كافياً، كما لو أن على المرء أن يكرر إيحاءة لجعل رسالته واضحة، ثمة مشروع آخر مشابه، وحتى أضخم حجماً، مستمر في القدس اليوم. إسرائيل تنفذ لسنوات عدة بصمت خطة تطوير بقيمة 100 مليون دولار فيما يدعى «الحوض المقدس»، المكان الذي يضم بعض مواقع التراث الديني والقومي الأكثر أهمية خارج المدينة القديمة المسورة، كجزء من مسعى لتعزيز مكانة القدس كعاصمة لها. «المخطط الذي جرى التعاقد الخارجي على بناء أجزاء منه مع مجموعة خاصة تقوم في الوقت نفسه بشراء الأملاك الفلسطينية من أجل الاستيطان اليهودي في

(1) انظر توم تفيند، «محكمة إسرائيل العليا توافق على بناء متحف التسامح في مشروع القدس»، في: Observer, October 29, 2009.

القدس الشرقية، لم يلق أي تمحيص عام أو دولي تقريباً.⁽¹⁾ وكجزء من المخطط، تتم إزالة مكبات النفايات والأراضي البور وتحول إلى حدائق ومنتزهات خضراء، متاحة الآن للزوار الذين يمكنهم التمشي على طول مسارات جديدة والتمتع بمهابة المناظر، مع اللافتات والمعروضات الجديدة التي تشير إلى نقاط مهمة في التاريخ اليهودي. وبشكل ملائم تماماً، كان لا بد من هدم كثير من المنازل الفلسطينية «غير المرخصة» لخلق الفضاء من أجل إعادة تطوير المنطقة.

«الحوض المقدس» مشهد بالغ التعقيد، منقط بمزارات وكنوز لا زالت مخفية للديانات التوحيدية الثلاث، لذلك فإن الحجة الرسمية هي أن تحسينه يعود بالفائدة على الجميع - اليهود والمسيحيين والمسلمين - كونه ينطوي على ترميم آثار سوف تجتذب مزيداً من الزوار إلى منطقة ذات أهمية عالمية استثنائية لطالما عانت من الإهمال. لكن، كما لاحظت هاغيت أوفران من جماعة السلام الآن، كان المخطط يهدف إلى خلق «حديقة سياحية أيديولوجية ستقرر الهيمنة اليهودية في المنطقة». وقد عبر رافائيل غرينبرغ من جامعة تل أبيب عن ذلك حتى بشكل أكثر فظاظة: «إن قداسة مدينة داوود تصنع مجدداً، مزيج خام من التاريخ والقومية والحج شبه الديني... حيث يستعمل الماضي لحرمان الناس من حقوقهم الشرعية وإزاحتهم في الحاضر». إنه موقع ديني كبير آخر، فضاء آخر بين الديانات تحت الهيمنة الواضحة والقبّة الواقية لدولة إسرائيل.

ما الذي يعنيه ذلك كله؟ للوصول إلى البعد الحقيقي للخبر، يكفي أحياناً أن نقرأ معا خبرين متباينين. يظهر المعنى تحديداً من وصلهما، مثل شرارة، تنفجر من تماس كهربائي. في 13 تشرين الأول، 2007، أكد الممثل الصحفي للفاتيكان فديريكو لومباردي أن الفاتيكان قد أوقف كاهناً يشغل مكاناً رفيعاً في هرم الفاتيكان اعترف علناً بمثليته الجنسية في مقابلة مع التلفزيون الإيطالي، مؤكداً أنه لا يشعر بأنه مذنب بأي معنى بسبب ممارسته مثليته الجنسية. وقد تم إيقافه لأنه خرق قانون الكنيسة.

(1) انظر إيثان برنر وإيزابل كرشنر، «حدائق تعزز حق إسرائيل المزعوم في القدس»، في:

يتضح فحش هذه الرسالة في اللحظة التي يعارضها المرء بحقيقة أن مئات الكهنة المتحرشين بالأطفال لم يوقفوا عن العمل، لكن يوقف كاهن إذا اعترف علنا بميله الجنسي. الرسالة هنا لا يمكن أن تخطئ أبدا: ما يهم هو المظهر وليس الحقيقة.

في اليوم نفسه الذي صدمت فيه هذه التقارير وسائل الإعلام (2 آذار)، انتقدت هيلاري كلينتون إطلاق الصواريخ من غزة بأنه عمل «خسيس»، زاعمة: «لا شك في أن أية دولة، بما فيها إسرائيل، لا يمكنها أن تقف مكتوفة اليدين في حين تتعرض أرضها وشعبها لهجمات بالصواريخ». لكن هل ينبغي على الفلسطينيين أن يقفوا مكتوفي الأيدي في حين تسلب الأرض منهم في الضفة الغربية يوماً بيوم؟ عندما يقدم ليبراليو إسرائيل المحبون للسلام صراعهم مع الفلسطينيين بعبارات «متوازنة»، حيادية، معترفين بوجود متطرفين يرفضون السلام على كلا الجانبين، إلخ، ينبغي على المرء أن يسأل سؤالاً بسيطاً: ما الذي يجري في الشرق الأوسط عندما لا يجري شيء هناك على المستوى السياسي العسكري المباشر (أي عندما لا توجد توترات، هجمات، مفاوضات)؟ ما يجري هو العمل البطيء المتواصل للاستيلاء على الأرض من الفلسطينيين في الضفة الغربية؛ الخنق التدريجي للاقتصاد الفلسطيني؛ تقسيم أرضهم، بناء مستوطنات جديدة، الضغط على المزارعين الفلسطينيين لجعلهم يتخلون عن أرضهم (الذي يتراوح من حرق المحاصيل وتدنيس المقدسات الدينية إلى الاغتيالات الفردية) - كل ذلك مدعوماً بشبكة كافكاوية من القيود القانونية. وصف ساري مقدسي في كتاب فلسطين: من الداخل إلى الخارج: احتلال يومي⁽¹⁾

(Palestine Inside Out: An Everyday Occupation) كيف أنه، رغم أن الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية يفرض في النهاية من قبل القوات المسلحة، فإنه «احتلال بالبيروقراطية»، أشكاله الأولية هي استمارات الطلبات، وصكوك الملكية، وأوراق الإقامة، والترخيص الأخرى. هذه الإدارة المصغرة للحياة اليومية تقوم بوظيفة تأمين التوسع الإسرائيلي البطيء لكن المضطرد. على المرء أن يحصل على إذن كي يذهب مع عائلته، كي يزرع أرضه، كي يحفر بئراً، كي يذهب إلى المدرسة،

(1) انظر ساري مقدسي، فلسطين من الداخل إلى الخارج: احتلال يومي (نيويورك، نورتن، 2008).

كي يذهب إلى المستشفى. هكذا يجرد الفلسطينيون المولدون في القدس من حق العيش هناك، ويمنعون من كسب قوتهم، ويجرمون من أذن السكن، إلخ.⁽¹⁾ الفلسطينيون غالباً ما يستخدمون الكليشة الإشكالية بأن قطاع غزة «أكبر معسكر اعتقال في العالم»؛ لكن، في العام الماضي، اقتربت هذه التسمية بشكل خطير من الحقيقة. هذا الواقع الأساس هو الذي يجعل كل الصلوات المجردة «من أجل السلام» فاحشة ومنافقة. إن دولة إسرائيل منخرطة بشكل واضح في سيرورة بطيئة، غير مرئية، تتجاهلها وسائل الإعلام، نوع من الحفر السري للخلد تحت الأرض، بحيث إن العالم سوف يستيقظ، ذات يوم، ويتحقق من أنه لم تعد توجد ضفة غربية فلسطينية، وأن الأرض خالية من الفلسطينيين، وأنه لا يمكننا سوى أن نقبل تلك الحقيقة. إن خارطة الضفة الغربية الفلسطينية تشبه للتو أرخبيلاً مفتتاً.

(1) شهدنا اضطهاداً مشابهاً بلا وحشية فاضحة (أكثر مما ينبغي) في تشيكوسلوفاكيا بعد 1968. في كتابه الكلاسيكي المنشق، التطبيع، وصف نورمان سيميك كيف أن الشيوعيين المتشددين، بعد عام 1968، فرضوا «تطبيع» السكان التشيك، وإيقاظهم من حلم 1968 على واقع اشتراكي فج. كان ثمة ضغط قاس مباشر قليلاً، نظراً إلى أن معظم العمل كان ينفذ من خلال الفن اللطيف للفساد والابتزاز اليوميين من المستوى المنخفض، بأسلوب: «تريدون أولادكم أن يذهبوا إلى الجامعة؟ إذا فلتوقموا على بيان لن يُنشر حتى، يقول إنكم قد أغريتم وغرر بكم للمشاركة في أحداث 1968، وإنكم ترون الآن أن ذلك كان خطأ». ألا يجري شيء مشابه في مجتمعاتنا الليبرالية الرأسمالية المتأخرة، حيث لا يوجد ضغط قاس صريح، بل مجرد إشارات يومية واضحة على أنه من الأفضل بالنسبة لسيرتكم المهنية ألا تتخطوا حدوداً معينة؟ مع ذلك يوجد اختلاف أساس بين الفساد الاشتراكي الأخير وفسادنا الرأسمالي الأخير، اختلاف يتعلق بمكانة المظهر. فما كان يهم في المجتمعات الاشتراكية هو الحفاظ على المظهر - تذكروا فقط المثال الشهير (عن جدارة) للبانع في متجر الخضار الذي ذكره فانتسلاف هافل في مقاله «قوة من لا قوة لهم»، والذي يعرض طائعا في نافذة متجره شعارات الدعاية الرسمية، رغم أنه لا هو ولا زبائنه يأخذونها على محمل الجد. ما يهم هو إيباء الطاعة. لكن، في الليبرالية الرأسمالية، ليس فقط لا أحد يأبه بأية شعارات يضعها المرء في النافذة (ضمن حدود معينة، بالطبع)، بل تلقى الشعارات التحريضية ترحيباً أيضاً، إذا كانت تساعد في زيادة المبيعات. السوق هي الساخر الأكبر. تذكروا كيف تستخدم الشركات الكبيرة لأغراض الدعاية أحيانا صياغات ساخرة لموضوعات شيوعية. لا يمكن للمرء أن يتخيل سلطات اشتراكية الدولة وهي تفعل الشيء نفسه مع موضوعات رأسمالية.

في الأشهر الأخيرة من عام 2008، عندما أصبحت الهجمات من قبل مستوطني الضفة الغربية اللاشرعيين على المزارعين الفلسطينيين حدثاً يومياً منتظماً، حاولت دولة إسرائيل أن تحتوي هذه التجاوزات (أمرت المحكمة العليا بإجلاء بعض المستوطنين، إلخ.)؛ لكن هذه، كما لاحظ بعض المراقبين، لا يمكن إلا أن تبدو إجراءات فاترة، تناقض سياسة هي، على مستوى أعمق، سياسة دولة إسرائيل طويلة الأمد التي تنتهك بشكل هائل المعاهدات الدولية الموقعة من قبل إسرائيل نفسها. رد المستوطنين اللاشرعيين على السلطات الإسرائيلية هو أساساً: إننا نفعل الشيء نفسه الذي تفعلونه، ولكن بشكل أكثر صراحة، لذلك ماهو الحق الذي تملكونه في إدانتنا؟ ويكون جواب الدولة أساساً: اصبروا، لا تتسرعوا أكثر مما ينبغي، إننا نفعل ما تريدون، ولكن بطريقة أكثر اعتدالاً ومقبولية.

تبدو القصة نفسها مستمرة منذ عام 1948: في حين تقبل إسرائيل شروط السلام التي يقترحها المجتمع الدولي، تراهن على أن خطة السلام لن تعمل. يبدو المستوطنون المتوحشون أحيانا مثل برونييلده، في الفصل الأخير من أوبرا فاغر الفالكيرية، التي توبخ فوتان بأنها، بمعاكسة أمره الصريح وحماية سيغموند، إنها تحقق فقط رغبته الحقيقية التي كان مجبراً على التبرؤ منها تحت الضغط الخارجي، بالطريقة نفسها التي يحقق بها المستوطنون اللاشرعيون رغبة الدولة الحقيقية التي كانت مجبرة على التبرؤ منها بسبب ضغط المجتمع الدولي. في حين تدين دولة إسرائيل تجاوزات المستوطنين «اللاشرعيين» العلنية والعنيفة، فإنها تشجع مستوطنات الضفة الغربية «الشرعية» الجديدة، وتستمر في خنق الاقتصاد الفلسطيني، إلخ. إن نظرة إلى التغيرات المستمرة لخارطة القدس الشرقية، حيث يُحاصر الفلسطينيون بشكل تدريجي ويُقطعُ فضاءهم، تشي بذلك كله. فإدانة العنف ضد الفلسطينيين من خارج الدولة تعتم على المشكلة الحقيقية لعنف الدولة؛ وإدانة المستوطنات «اللاشرعية» تعتم على لاشرعية المستوطنات «الشرعية». في هذه المسألة تكمن ازدواجية وجه «النزاهة» اللامتحيزة التي كثر مديحها للمحكمة الإسرائيلية العليا.

فعن طريق تمرير حكم من حين لآخر لصالح الفلسطينيين المطرودين، مدعية أن إجلاءهم غير قانوني، تضمن قانونية الغالبية الباقية من الحالات.

بالنتيجة، في النزاع الفلسطيني-الإسرائيلي أيضاً، لنكن واقعيين ونطالب بالمستحيل (*soyons realistes, demandons l'impossible*)! إذا كان ثمة درس لتعلمه من المفاوضات المملوطة إلى ما لا نهاية، فهو أن العائق الرئيس أمام السلام هو بالضبط ما يقدم كحل واقعي، أي الدولتين المنفصلتين. رغم أن أيّاً من الطرفين لا يريده حقاً (ربما كانت إسرائيل تفضل جزءاً صغيراً من الضفة الغربية تكون مستعدة للتنازل عنه ليصبح جزءاً من الأردن، والفلسطينيون أيضاً يعتبرون إسرائيل قبل 1967 جزءاً من أرضهم)، فهو مقبول بشكل ما من قبل الطرفين بوصفه الحل العملي الوحيد. ما يستبعده الطرفان كحل مستحيل هو الحل الأبسط والأوضح - دولة علمانية ثنائية القومية تضم كل إسرائيل إضافة إلى الأراضي المحتلة وغزة. على أولئك الذين ينبذون الدولة ثنائية القومية بوصفها حلماً يوتوبياً يجرده من أهليته التاريخ الطويل من الكراهية والعنف، يجب على المرء أن يرد بأن الدولة ثنائية القومية حقيقة قائمة للتو وأبعد ما تكون عن اليوتوبيا. واقع إسرائيل والضفة الغربية اليوم أنهما دولة واحدة (أي أن الأرض برمتها تسيطر عليها في الواقع سلطة ذات سيادة واحدة، دولة إسرائيل)، تقسمها حدود داخلية، ولذلك يجب أن تكون المهمة بالأحرى إلغاء نظام التفرقة العنصرية القائم وتحويله إلى دولة ديمقراطية علمانية.⁽¹⁾

علاوة على ذلك، ينبغي أن يُنظر إلى هذا الموضوع برمته على خلفية إعادة ترتيب طويلة الأمد للفضاء السياسي في أوروبا الغربية والشرقية. فحتى وقت قريب، كان الفضاء السياسي للبلدان الغربية يسيطر عليه حزبان رئيسان يخاطبان الجسم الانتخابي برمته: حزب يمين الوسط (المسيحي-الديمقراطي، والليبرالي-المحافظ،

(1) أدین بهذا المنحى في التفكير لأودي ألوني.

وحزب الشعب) وحزب يسار الوسط (الاشتراكي، والاشتراكي - الديمقراطي)، مع أحزاب أصغر تخاطب جمهوراً انتخابياً أضيق (أنصار البيئة، والشيوعيين، وهلم جرا). تدل آخر النتائج الانتخابية في الغرب كما في الشرق على بروز قطبية مختلفة. ثمة حزب وسطي مهيمن يمثل الرأسمالية العالمية بحد ذاتها، يكون عادة ذا أجندة ثقافية ليبرالية، بما في ذلك التسامح تجاه الإجهاض، وحقوق المثليين، والأقليات الدينية والإثنية. في معارضة لهذا الحزب يوجد حزب شعبي معادٍ للمهاجرين يزداد قوة باطراد، يترافق، على حوافه، بجماعات فاشية جديدة وعنصرية بشكل صريح. الحالة النموذجية هنا هي بولندا: فالأحزاب الرئيسة، بعد اختفاء الشيوعيين السابقين، هي الحزب الليبرالي الوسطي «المعادي للأيديولوجيا»، وهو حزب رئيس الوزراء دونالد دوسك، والحزب المسيحي المحافظ، وهو حزب الأخوين كاتشينسكي. يمكن تمييز اتجاهات مماثلة في هولندا والنرويج والسويد وهنغاريا. فكيف وصلنا إلى ذلك؟

بعد عقود من (الوعد ب) دولة الرفاه، عندما قيدت الاقتطاعات المالية بفترات قصيرة وعُززت بوعد أن الأشياء ستعود عاجلاً إلى الوضع الطبيعي، فإننا ندخل عصرًا جديدًا تكون فيه الأزمة - أو، بالأحرى، نوع من حالة طوارئ اقتصادية دائمة - مع الحاجة إلى كل أنواع إجراءات التقشف (قطع الإعانات، تخفيض خدمات الصحة والتعليم المجانيين، جعل الوظائف مؤقتة أكثر فأكثر، إلخ). دائمة، تتحول إلى ثابت، تصبح ببساطة طريقة للحياة. بعد تفكك الأنظمة الشيوعية في 1990، دخلنا عصرًا جديدًا أصبح فيه الشكل السائد من ممارسة سلطة الدولة إدارة خبيرة مجردة من السياسة وتنسيقًا للمصالح. الطريقة الوحيدة لإدخال العاطفة إلى هذا الميدان، لتعبئة الناس بشكل فاعل، هو من خلال الخوف - الخوف من المهاجرين، الخوف من الجريمة، الخوف من الانحراف الجنسي الكافر، الخوف من الدولة المفرطة (بعبء سيطرتها وضرائبها المرتفعة)، الخوف من كارثة بيئية، لكن أيضًا الخوف من المضايقة (الاستقامة السياسية هي الشكل الليبرالي النموذجي من سياسة الخوف).

هذه السياسة تعول دائماً على التلاعب برعاع مصابين بجنون الارتباب، الحشد المخيف لرجال ولنساء مخوفين. هذا هو السبب في أن الحدث الكبير للعقد الأول من الألفية الجديدة هو أن السياسة المعادية للمهاجرين باتت التيار الرئيس وقطعت بشكل نهائي الحبل السري الذي كان يربطها بالأحزاب الهامشية لأقصى اليمين. من فرنسا إلى ألمانيا، من النمسا إلى هولندا، في الروح الجديدة من افتخار المرء بهويته الثقافية والتاريخية، وجدت الأحزاب الرئيسة الآن أنه من المقبول التشديد على أن المهاجرين ضيوف يتعين عليهم التكيف مع القيم الثقافية التي تعرف المجتمع المضيف: «إنه بلدنا، أحبوه أو غادروه».

يرتعب الليبراليون التقدميون، بالطبع، من مثل هذه العنصرية الشعبوية. إذ تكشف نظرة أكثر قرباً كيف أن تسامحهم المتعدد الثقافات واحترامهم للاختلاف (الإثني، الديني، الجنسي) يتقاسم مع المدافعين عن مناهضة الهجرة الحاجة إلى إبقاء الآخرين على مسافة مناسبة. الآخرون جيدون، أحترمهم، لكن يجب عليهم ألا يتطفلوا على فضائي الخاص أكثر مما يجب. في اللحظة التي يفعلون فيها ذلك، فإنهم يضايقونني برائحهم، حديثهم القذر، أخلاقهم السوقية، موسيقاهم، طبخهم، وهلم جرا. أنا أدعم كلياً الفعل الإيجابي لأجل السود، لكنني لست مستعداً بأي شكل من الأشكال للإصغاء إلى موسيقى الراب الصاخبة. ما يبرز بشكل متزايد بوصفه الحق الإنساني المركزي في المجتمعات الرأسمالية المتأخرة هو حق الإنسان في ألا يضايق، وهو الحق في أن يُبقي مسافة آمنة من الآخرين. الإرهابي الذي يجب منع خططه القاتلة، والذي مكانه غوانتانامو، المنطقة الخالية المعفاة من حكم القانون؛ الأيديولوجي الأصولي الذي يجب إسكاته لأنه ينشر الكراهية؛ الأب أو المعلم أو الكاهن الذي يسيء معاملة الأطفال ويفسدهم - كل هؤلاء هم الرعايا السامون الذي يعكرون صفوي.

نجد في سوق اليوم سلسلة كاملة من المنتجات المجردة من خاصيتها المؤذية: قهوة بلا كافيين، قشدة بلا دسم، بيرة بلا كحول. وتستمر القائمة: ماذا عن

جنس افتراضي، جنس بلا جنس، مثل عقيدة كولن باول في حرب بلا إصابات (على جانبنا، بالطبع) وحرب بلا حرب، وإعادة التعريف المعاصرة للسياسة بأنها فن الإدارة الخبيرة، أو السياسة بلا سياسة، وصولاً إلى التعددية الثقافية الليبرالية المتساهلة اليوم بوصفها تجربة الآخر محروماً من آخريته - الآخر منزوع الكافيين الذي يرقص رقصات فاتنة والذي يمتلك مقاربة كلياتية للواقع سليمة بيئياً، في حين تبقى سمات مثل ضرب الزوجة خارج الرؤية؟

آلية شبيهة بهذا التحييد صاغها على النحو الأفضل في عام 1938 روبرت بازيلاش (R. Basillach)، المثقف الفاشي الفرنسي الذي أدين وأعدم رمياً بالرصاص عام 1945، والذي كان يرى نفسه لاسامياً «معتدلاً» وابتكر صيغة «اللاسامية المعقولة»:

نحن نمنح أنفسنا الإذن بالتصفيق لتشارلي تشابلن، نصف اليهودي، في الأفلام المتحركة؛ ونعجب ببروست، نصف اليهودي؛ ونصف لليهودي منوهين، [الموسيقي] اليهودي؛ وصوت هتلر يُحمل على موجات الراديو المسماة على اسم اليهودي هرتز... نحن لا نريد قتل أحد، لا نريد تدبير أية مذبحه جماعية. لكننا نعتقد أيضاً أن أفضل طريقة لإعاقة أفعال اللاسامية الغريزية التي لا يمكن دوماً التنبؤ بها هي أن ننظم لاسامية معقولة.⁽¹⁾

ألا يعمل هذا الموقف نفسه بالطريقة التي تتعامل بها حكوماتنا مع «تهديد المهاجر»؟ بعد الرفض الأخلاقي المزيف للعنصرية الشعبوية الصريحة بوصفها «غير معقولة» وغير مقبولة بالنسبة لمعاييرنا الديمقراطية، تطبق إجراءات حمائية عنصرية «معقولة»، أو، كما نخبرنا بازيلاش [ات] اليوم، والبعض منهم حتى ديمقراطيون اجتماعيون:

(1) انظر سلافوي جيجك، أولاً كمأساة، ثم كمهزلة (لندن ونيويورك: فرسو، 2009) 48
Slavoj Zizek, First as a Tragedy, Then as a Farce (London and New York: Verso, 2009), 48.

إننا نمنح أنفسنا الإذن بالتصفيق للرياضيين الأفارقة والأوروبيين الشرقيين، والأطباء الآسيويين، ومهندسي البرمجيات الهنود. نحن لا نريد قتل أحد، لا نريد تدبير أية مذبحه جماعية. لكننا نعتقد أيضاً أن أفضل طريقة لإعاقة الإجراءات الدفاعية العنيفة ضد المهاجرين التي لا يمكن دوماً التنبؤ بها هي أن ننظم حماية معقولة ضد المهاجرين.

تقدم هذه الرؤية لتطهير الجار انتقالاً واضحاً من البربرية المباشرة إلى بربرية بوجه إنساني. إنها تمارس الارتداد عن الحب المسيحي للجار إلى التفضيل الوثني لقييلتنا (الإغريق، الرومان، إلخ). ضد البربري الآخر. حتى لو تستر بجلباب الدفاع عن القيم المسيحية، فإنه هو ذاته التهديد الأعظم للإرث المسيحي.

- 2 -

كيف تصبح مناهضًا للصهيونية

جيانى فاتيمو

ترجمة: روبرت ت. فالغتي

رغم ما يكرره رئيس الجمهورية الإيطالية، جيورجيو نابوليتانو، في أحيان كثيرة، يمكن للمرء أن يكون معاديًا للصهيونية دون أن يكون معاديًا للسامية. وهذا ليس فقط لأنه يوجد في العالم الكثير من اليهود الذين يأخذون تراثهم على محمل الجد ولا يباهونه بدولة إسرائيل، التي يفصلون أنفسهم عنها باستمرار؛ وإنما أيضا، كما يعلمنا اليهود اللاصهاينة أنفسهم، لأن غنى الثقافة اليهودية وحضورها المتميز في روح الغرب والعالم الحديث عموماً لم يترسخ مع خلق دولة إسرائيل، بل هو في الحقيقة مهدّد بشكل خطير من قبلها. الأمر الأكثر عقلانية اليوم تكرار ما امتلك مثقف يهودي الشجاعة لقوله: يمكن للمرء أيضاً أن يدرج خلق إسرائيل كدولة يهودية عام 1948 على قائمة الأضرار الكثيرة التي أحدثتها سياسة هتلر والهولوكوست.

بالنسبة لكثير من المثقفين الأوروبيين الذين بلغوا سن الرشد في منتصف القرن العشرين، يتبدى التفكير في الصهيونية عبر مصطلحات مشابهة إلى حد ما لتلك التي تشكل سيرة حياة ايلان بابي (Ilan Pappé).⁽¹⁾ فهي تقدم نفسها بوصفها تاريخاً تشاركياً يتحول إلى تحليل مطرد لمجموعة أساطير «مؤسّسة» - أي الشيء نفسه الذي

(1) ايلان بابي، خارج الإطار: الكفاح من أجل الحرية الأكاديمية في إسرائيل (نيويورك: بلوتويرس، 2010).

يبقى موضع تقدير في الوعي الذاتي لليهود الكثرين الذين يظلون مرتبطين بهذه الأساطير. نحن، أعني الأوروبيين الذين ولدوا حوالي زمن الحرب العالمية الثانية، تربينا - باستثناءات نادرة، ندرة أولئك الذين ظلوا فاشيين حتى نهاية الأربعينيات - على أسطورة المقاومة ضد الفاشية وعلى الذاكرة المؤلمة للهولوكوست. مباشرة بعد الحرب في إيطاليا، لا بل في أوروبا عموماً كما اعتقد، أن نكون مناهضين للفاشية، وديمقراطيين، ونقف خلف اليهود في كفاحهم للعودة إلى وطنهم، فلسطين، كانت كلها شيئاً واحداً. وكل من يعرف التاريخ الإيطالي في النصف الثاني من القرن العشرين يعرف أن الأحزاب التي تحيل إلى إرث الفاشية قد تم «تظيفها»، أو بعبارة أخرى، أعيد إدخالها إلى مكان الشرف، في الآونة الأخيرة فقط، من قبل نظام سياسي أراد إعادة بناء نفسه، بما في ذلك مكوناته اليمينية. في المبدأ، تم ذلك كي لا يُستبعد أحد من الحوار الديمقراطي، ولكن بشكل أكثر مباشرة لدواعي المصلحة الانتخابية. من الجدير بالذكر أيضاً أن إعادة بروز الأحزاب «الديمقراطية» التي لم تعد تشيطن التركة الفاشية (يأتي في هذا السياق الزعم الشهير لـ «جيانفرانكو فيني»، زعيم الحركة الاجتماعية الإيطالية آنذاك والرئيس الحالي لمجلس النواب، الذي وصف موسوليني بأنه أعظم رجل دولة في القرن العشرين) لم تضعف بطريقة مشابهة الحب لإسرائيل في رأي عامة الإيطاليين. حتى اليوم، ورغم أن فيني هو المسؤول الثالث في الدولة، وأن الفاشيين السابقين تسلموا البعض الوقت مناصب حكومية (إلى جانب عصبة الشمال وبرلوسكوني)، مازال صخب الأصوات الرسمية للسياسة الإيطالية من كل اتجاه يتعالى من حين إلى آخر لاقتراح قوانين تعاقب إنكار الجرائم التاريخية، على أساس أنه حتى مع القبول بالفاشية، فإن العاطفة المؤيدة للصهيونية لا تزال طاغية إلى حد كبير على الوعي العام الإيطالي. علاوة على ذلك، وبمساعدة الأفلام الأميركية الكثيرة التي حكمت قصة عودة اليهود إلى فلسطين قبل عام 1948 وبعده، بقيت الملحمة الصهيونية لبعض الوقت في مخيلة العامة الإيطالية شبيهة بملحمة المقاومة ضد الفاشية، وفي جوانبها الأكثر مشهدية، شيئاً مماثلاً لفتح الغرب الأميركي على يد يانكيي الشمال في القرن التاسع عشر. هذه الإحالة

«السينماتوغرافية» الأخيرة تبدو متكلفة، لكنها ترد إلى الذهن لسبب وجيه، بما أن أي مشاهد لأفلام «الوسترن» [الغرب الأميركي] لم يهتم، إلا في السنوات الأخيرة، بمصير السكان الأميركيين الأصليين الذين أبادهم زحف المستوطنين البيض ورعاة أبقارهم [الكابوي] - بطريقة مشابهة تماماً للنسيان المطلق الذي عانى منه الفلسطينيون في ملحمة ولادة إسرائيل.

كان اكتشاف النكبة تحديداً في عامه الثاني من المرحلة الثانوية - أي اكتشاف «الكارثة» التي مثلها للفلسطينيين التطهير الإثني الذي مارسه إسرائيل منذ عام 1948 فصاعداً (وحتى يومنا هذا، علي أن أضيف) - هو ما دفع إيلان بابي بعيداً عن صهيونته اليسارية الأولية إلى موقفه الجدلي الراهن، والراديكالي، ضد إسرائيل - ضد قادة إسرائيل، لكن أيضاً ضد الدولة اليهودية ذاتها، الدولة التي يود أن يستبدل بها، لو استطاع، دولة علمانية وديمقراطية ومساواتية. هنا يقترب تاريخ بابي، بكل اختلافاته، من تاريخ المثقفين الغربيين، وغالباً أيضاً تاريخ المثقفين «الأطلسيين» والديمقراطيين قطعاً (أو حتى المقتنعين منهم بأن الخطر الشيوعي لا يزال يهدد أوروبا ولذلك من المرجح أن يوافقوا بلا تحفظ، أو بقليل منه، على السياسة الإمبريالية للولايات المتحدة). بدأنا بأساطير «صهيونية» - حق إسرائيل في أن تكون لها دولتها الخاصة بها، الذي يشرعنه رعب «الشوآه» والانعدام الظاهر للديمقراطية في الشرق الأوسط برمته - وتحلينا بمرور الزمن عن هذه الأساطير تحديداً عندما اكتشفنا النكبة؛ أي عندما فتحنا أعيننا، أو عندما فُتحت أعيننا، على الخطيئة الاستعمارية والقومية (وحتى العنصرية) التي لا تزال مثل خطيئة أصلية عند تأسيس دولة إسرائيل.

هذه الأسطورة أيضاً، مثل كل الأساطير، لا تبددها ببساطة ملاحظة الطبيعة «الحقيقية» للأشياء. لقد كانت، وهي الآن بالنسبة للكثيرين منا، سيرورة معقدة شملت كل تصوراتنا الاجتماعية - السياسية، وشملت في النهاية أيضاً تصوراتنا الأخلاقية والدينية، بحيث إنه حتى صداقاتنا وقعت في أزمة، بالتوازي مع مظاهر أخرى من حيواتنا الخاصة (انطلاقاً من إقصاء معين من قبل وسائل الإعلام السائدة

والأكثر رسمية). في هذه الأثناء، ليس صدفة أنني استذكرت النزعة الأطلسية التي كانت تصاحب «صهيونيتنا» العفوية في السنوات التالية للحرب، وتتجاوز الالتزام بمعاداة الفاشية. بدا أن حق إسرائيل في إقامة دولة مرتبط بشكل مباشر بمصير الديمقراطية الغربية، أو ما كانت إذاعة «صوت أميركا» تفضل أن تدعوه «العالم الحر». وبما أنني لا أكتب سيرة ذاتية وثائقية لصهيوني سابق، بل أسعى فقط لإعادة تشكيل المعنى والدوافع الكامنة خلف عدائي الحالي للصهيونية (ليس عدائي الشخصي فحسب، بل باعتقادي هو عدااء مشترك على نطاق واسع)، لن أحاول التمسك بشروط التسلسل الزمني الدقيق. ثم إن هذا العدااء للصهيونية نضج لدي بالتوازي مع تبدد إيماني بالغرب و«العالم الحر». فمن ناحية، كانت نهاية «الأسطورة الأميركية»، التي أنجزت كلياً بعدئذ في عام 1968، حاسمة بالتأكيد، لكنها أصبحت واضحة بشكل شفاف في عام 1989 مع سقوط جدار برلين وتفكك الاتحاد السوفيتي. في عام 1968، اقتنع الكثير منا بأن اليهود الإسرائيليين كانوا ينون شكلاً أصيلاً وليس ستالينياً للاشتراكية - وهو الاعتقاد نفسه الذي دفع بكثير من العائلات الإيطالية على اليسار (لكن ليس اليسار وحده) إلى إرسال أبنائهم للعمل في الكيبوتزات كي يتعلموا ما هي الاشتراكية الديمقراطية. ما الذي كنا نعرفه أو نظنه آنذاك عن الفلسطينيين الذين طردوا من بيوتهم وأرضهم؟ كنا إلى حد ما نؤمن بالشعار: أرض بلا شعب لشعب بلا أرض. فالفلسطينيون، حرفياً، لم يكونوا موجودين، كما يشرح بابي جيداً في سيرته الذاتية. في الأعوام التالية، بدأنا نعرف الفلسطينيين بوصفهم إرهابيين ومفجرين انتحاريين؛ حفنة من اليائسين تحولوا بفعل الكراهية الدينية إلى متعصبين، يحركهم غضب أعمى معاد للسامية (أتذكر مثقفاً فرنسياً يهودياً - أعتقد أنه أندريه غلوكسمان (Andre Glucksman) - تكلم عنهم في السنوات الأخيرة حتى باعتبارهم مثال العدمية المعيشة، وضرباً من التجسيد الخالص والبسيط للشر).

راجت لزمن طويل قصة مفادها أن الضباط النازيين السابقين العاملين كمدرين في مصر عبد الناصر كانوا غاضبين ومصممين على تصدير «الشوآه» إلى الشرق

الأوسط أيضاً. لذلك، مرة أخرى، كان على المرء أن يكون صهيونياً لكي يكون معادياً للفاشية. لكن مع سقوط جدار برلين وتفكك الاتحاد السوفيتي، بدأت الأمور تتغير، حتى بالنسبة للصورة العامة للغرب «الديمقراطي». فالعالم «أحادي القطب»، المتحرر من التهديد السوفيتي، أظهر أن تصعيد «الإرهاب الدولي» قبل 11 أيلول وبعده (مع كل الميثولوجيا التي تلف هذا التاريخ، بدءاً بالحقائق التي قدمتها حكومة الولايات المتحدة في النسخة الرسمية غير القابلة للتصديق) كان أخطر من الحرب الباردة، وتضمن تشديداً لكل نوع من أنواع السيطرة مع تكاثر حروب «الأطراف» في كل جزء من العالم حيث تجري مطاردة «الوحش الإرهابي» (وحبذا لو حدد موقعه في منطقة منتجة للنفط). جلبت المعركة ضد الإرهاب معها، ربما بشكل طبيعي أو على الأرجح بسبب اختيار متعمد من قبل الحكومة الإسرائيلية، ازدياد التوترات في الشرق الأوسط: على سبيل المثال، فكرة أن «السباق الذري» الإيراني يمكن كسره بعقوبات تتزايد قوة باطراد، وبضوابط أكثر صرامة، وحتى بحرب استباقية إذا دعت الضرورة. وبالتوازي مع ذلك، كان هناك «عملية الرصاص المصبوب» ضد غزة في نهاية عام 2008 إلى 2009، المصممة لوقف إطلاق صواريخ عديمة الأذى كلياً تقريباً على الأراضي الإسرائيلية. الأنكى من ذلك أن قضية غزة برمتها ساهمت بطريقة حاسمة، أكثر من أي مظهر آخر من السياسة الإسرائيلية، في الفكرة (التي أصدقها بأرجحية كبيرة) القائلة بأنه في مقابل خطر عودة اللاجئين، التي سوف تستتبع نهاية «يهودية» دولة إسرائيل، قد لا يشهد هذا الوضع حلاً آخر سوى الإبادة المستمرة للعرب الفلسطينيين. ويتوافق كل هذا مع بناء مستوطنات دائمة التجدد، تشجع عليها بكل الطرق سياسة استيعاب مواجهة عرقياً، وكما نعرف جميعاً، تخلق أيضاً توترات داخل إسرائيل بين مرتبتين من المهاجرين - فيما هو جوهرياً صراع طبقي.

من إسرائيل نسمع بشكل أكثر تواتراً أصوات الإسرائيليين الكثيرين، بدءاً من حركة السلام الآن، الذين يشجبون سياسة حكومتهم ضد الفلسطينيين. حتى حركات المعارضة هذه لا تزال تميل إلى أن تأخذ على محمل الجد عادة مشروع «شعبان،

دولتان»، الذي تكشف الآن (بعد العشرين سنة الماضية أو أكثر) أنه وسيلة لإطالة المساعي الزائفة لحل المشكلة إلى ما لا نهاية. في هذه الأثناء، تتكاثر المستوطنات، يتكشف بناء المساكن الجديدة في القدس الشرقية، وفوق ذلك كله يستمر تضخم الجدار الذي يقسم فلسطين إلى اثنتين ويجعل باطراد حياة الفلسطينيين، بمن فيهم مواطنو إسرائيل، لا تطاق. من الواضح تماماً أن أسطورة «دولتين لشعيتين»، وهي وجه آخر للميثولوجيا الصهيونية، هي طريقة لمط القضايا بحيث لا تبدو عذراً دائماً من قبل الديمقراطيات الغربية للتهرب من مسؤولياتها، وطريقة لإعطاء إسرائيل الوقت لمواصلة الإبادة الجماعية، في غزة وفي أمكنة أخرى، وكذلك لتقوية نفسها عسكرياً بكل السبل، بما في ذلك امتلاك الأسلحة الذرية.

دعونا - نحن المعادين للصهيونية والمؤيدين للفلسطينيين - لا نحجب حقيقة أن أحد الأسباب وراء موقفنا هو أيضاً وقبل كل شيء الإدراك المتزايد للارتباط بين السياسة الإسرائيلية وسياسة المصالح الأمريكية. فدون متابعة النظريات حول المؤامرة اليهودية - الماسونية التي يكون تأثيرها الوحيد السخرية من آراء ليست في الغالب بلا أساس، بتنا في السنوات الأخيرة - وقبل كل شيء، منذ أن بدأت الولايات المتحدة حربيها ضد «الإرهاب الدولي»، وبالتحديد ضد كافة البلدان والقوى السياسية التي لم تخضع لأوامرها - أكثر إدراكاً أن القضية الفلسطينية هي أيضاً قضية الناس الذين يتمرّدون ضد الإمبريالية. كان رئيس البرازيل لولا من بين أوائل الزعماء «الغربيين» الذين رحبوا بإيران، التي يتمتع رئيسها أحمدني نجاد بقيمة رمزية تتجاوز الدلالة الخاصة لزيارته. كذلك يجب على المرء إضافة كل الحكومات التقدمية القديمة (كوبا) والجديدة في أميركا اللاتينية التي اتخذت موقفاً. لم يكن أبداً بهذا الوضوح من قبل (على الأقل هكذا يبدو لنا) أن المستباح في فلسطين هو مصير الشعوب المضطهدة التي تحاول أن تتجنب حكم الاستعمار الجديد - الاقتصادي لكنه غالباً ما يكون عسكرياً أيضاً - لرأس المال العالمي المركز في الولايات المتحدة (حتى لو توزع بين بلدان كثيرة، كلها «أطلسية»). لذلك فإن مناهضة الصهيونية الآن هي مرادفة للسياسة العالمية اليسارية، بغض النظر عن مواقف الأفراد - كما

استذكرت بدايةً في اقتباس مواقف الرئيس جيورجيو نابوليتانو - والحركات المؤمنة بأنه لا يزال من الممكن ضم إسرائيل إلى الدول الديمقراطية، والتقدمية، إلخ. مما لا يستحق الذكر أيضاً العذر الاعتيادي لأولئك الذين يدعوننا إلى تمييز دولة إسرائيل - التي ينبغي ألا توضع شرعيتها أبدا موضع شك - عن قادة إسرائيل المسؤولين عن السياسة العنصرية والمعادية للديمقراطية التي ترونها وتشعرنا بالفضيحة، كونه عذرا مشيراً للضحك. لكن متى كان ثمة حكومة في إسرائيل لم تتبع هذا النوع من سياسة التوسع وبالتالي الانتقاص من حقوق الفلسطينيين؟ لقد كانت النكبة النموذج الأولي لكل السياسة الإسرائيلية منذ عام 1948؛ وكانت، علاوة على ذلك، قابلة للفهم بالنظر إلى اقتراح الحفاظ على يهودية الدولة ومن ثم قطع الطريق على أية إمكانية لعودة اللاجئين، ومنع كل توسع ديموغرافي أو اجتماعي للسكان العرب أيضاً. ألا يعني هذا أن ما يجعل إسرائيل «غير مقبولة» كدولة هي خطيئتها الأصلية العنصرية - الاستعمارية المعادية للمساواة؟

لأسباب وجيهة تتعلق بالاستقرار الدولي، لا يجرؤ المرء أبداً - أو تقريبا أبداً، باستثناء حالة رؤساء دول إسلامية كأحمدي نجاد - على التشكيك في شرعية وجود إسرائيل ذاته. دعونا ننطلق من حقيقة أنه إذا اندلعت حرب لفترة وجيزة من الزمن، فإنها ستكون من النوع «الوقائي» الذي تريد إسرائيل أن تخوضه والذي يجعل الغرب يقاتل بسبب التهديد الإيراني - تهديد متضمنٌ تحديداً في الخطابات القتالية لرؤساء الدول التي لا تمتلك أية إمكانية حقيقية لجعلها تحدث. تضغط إسرائيل باستمرار لأن الغرب يمكن أن ينخرط في حرب وقائية ضد إيران، حرب ستمتلك بالتأكيد صفة العدمية المدمرة للذات التي نسبها غلوكسمان (أو أي شخص في مكانه) إلى الإرهابيين الإسلاميين الذين وقعوا فريسة لعبادة الموت اليائسة. فيما يتعلق بفكرة جعل دولة إسرائيل «تختفي» عن الخارطة - إحدى الثيمات المألوفة «للتهديد» الإيراني - فقد لا يكون فحواها غير معقول كلياً؛ إذ يمكن، وينبغي، أن تعني، بالنسبة لنا، تحول دولة إسرائيل إلى دولة علمانية، وديمقراطية، ولاعنصرية، وبلا أسوار وبلا تمييز بين مواطنيها. نعرف جيداً أن ذلك يبدو مثل تدمير دولة إسرائيل، لكنه سيعني

فقط تحولا من النوع الذي سينظر إليه ايلان بابي أيضا بشكل ايجابي. فلا التدمير ولا القصف ولا التغيير العنيف للحدود الجغرافية، بل في النهاية التحديث من النوع الذي طرأ في دول أخرى كثيرة دعمت ولادة إسرائيل ومع ذلك تشعر ببعض الإحراج من سياستها. عندما يحض أحدي نجاد على إنهاء دولة إسرائيل، فإنها يعبر فقط عن مطلب ينبغي أن تشاطره إياه بشكل أكثر صراحة الدول الديمقراطية التي تعتبره بدلا من ذلك عدواً.

إن المناهضة الديمقراطية للصهيونية التي أتكلم وأكتب عنها - باختصار، سيرة ذاتية - لا تعتبر في الواقع تدميرا لإسرائيل (لكن من يفكر فعلاً على هذا النحو؟ ليس حتى أحدي نجاد، بالتأكيد)، لا بأسلحة إيران الذرية (التي تكاد تكون اليوم بنفس تهديد الصواريخ التي تطلق من غزة، والتي بالكاد تسببت بأي أذى، مع أن الفلسطينيين دفعوا ثمنها «عملية الرصاص المصبوب»)، ولا حتى بذاك التحول العلماني والديمقراطي الذي يمكنه أن يجعل فلسطين بلداً حديثاً وصالحاً للعيش فيه بشكل نهائي. ماهو إذاً؟ ينبغي أن نحمل إسرائيل معنا، فينا، كعبء لن نتحرر منه في أي وقت قريب، يشبه تقريباً ذكرى الهولوكوست التي لا يمكن محوها، والمفروضة كعقوبة لايزال علينا التكفير عنها. فإسرائيل نفسها فقط - ساستها، ومواطنوها - يمكن أن تحرر نفسها بتغيير جذري في السياسات. هذا غير محتمل، ولكن واضح، لأن السلطة الأميركية التي تدعم إسرائيل لا تطيقه أيضاً، حتى لو كان يخدم إسرائيل بوصفها شرطي أميركا الشرق أوسطي الخاص. لذلك فإن الكلام عن إسرائيل بوصفها «خطيئة لا يمكن غفرانها» ليس مبالغاً فيه إلى هذه الدرجة: سواء فكر المرء في كيف أن الدولة اليهودية، منذ ولادتها، استفادت من الهولوكوست كسلاح دائم ضد أي شخص يحاول مساءلة سياستها (انظر فقط إلى فينكلستاين)، أو إذا تأمل كيف عاشت الفلسفة المعاصرة في جزء كبير منها تجربة الهولوكوست - كنوع من المعيار الذي تقاس به صحة وصلاحيه الفلسفات، وكنوع من محكمة نورمبرغ يمثل أمامها كل المفكرين الذين يتم استدعاؤهم للمحاكمة.

في المقام الأول، بالطبع، نتعامل هنا مع فلسفة هايدغر، الذي كان بالتأكيد مخطئاً في الوقوف لبعض الوقت مع نظام هتلر ودفع ثمناً باهظاً إلى حد ما لمخطيته بعد انتهاء الحرب (قبل كل شيء بمنعه من التدريس، وما إلى ذلك). لكن هذا الفصل، برغم كل عاره، يبقى موضوعاً لتحليل الكثير من صيادي النازيين الذين يبدو أنهم لا يشبعون أبداً من العدالة - الانتقام. يستمر العديد من الدراسات الحديثة، التي ساعدتها وثائق جديدة سُلط الضوء عليها بعد نشر كتاب فارياس (Farias) الشهير في عام 1983 - وأنا أفكر قبل كل شيء بإيمانويل فاي (Emmanuel Faye) - في مراكمة الذنب ليس فقط على هايدغر 1933 وما بعد، بل على كل فلسفته، التي وصفت بأنها تراث فلسفي للهتلرية. الكثيرون الذين قرأوا هايدغر وفسروه، وفي بعض الأحيان اتبعوه، حتى على اليسار، يُستدعون ويطلب منهم مراعاة النظام السائد: إذا كانوا حتى الآن لا يدركون أنهم يتبعون مفكراً نازياً، فيجدر بهم أخذ العلم. وبذلك، فإن قدراً كبيراً من الفكر المعاصر الذي عرّف ثقافة العقود الأخيرة - أفكر قبل كل شيء بدريدا وكل التأويلين [الهرمنيوطيقيين] - قد تم «تطهيره»، إذا جاز القول. فلا تفكيك بعد الآن ولا أنطولوجيا تأويلية - بل فقط نوع التفكير الأطلسي، والشمال أميركي، والأنغلو - ساكسوني السائد! علاوة على ذلك يمكن للمرء أن يضيف أن فارياس نفسه، في الكتابات التي تلت نصه الأول، أشار أيضاً إلى تقارب خطير بين الهايدغرية والفكر الإسلامي الإيراني.

عندما لا تطالب الأعمال التي كتبها أمثال فاي صراحة بإثبات أن الفلسفة الوحيدة التي يمكن تطبيقها اليوم هي الشكل الاعتذاري - الواقعي القائم في الجامعات الأنغلو ساكسونية (سيرل وشركاه)، فإنها تستحضر الصهيونية جوهرياً في دلالتها الانتقامية، حيث تبقى مسألة جعل أحد ما يدفع ثمن خطاياهم ضد شعب إسرائيل، حتى أولئك الذين لم يعودوا قادرين على تشكيل تهديد حقيقي. إن استخدام الشوآه كتبرير جامع مانع لكل أفعال إسرائيل اللامشروعة (من الانتهاك المستمر لقرارات الأمم المتحدة إلى الإبادة المنهجية للسكان الفلسطينيين)، يتكشف هنا أيضاً بوصفه شكلاً من النزعة الانتقامية الإعدامية (executionism) المتطرفة،

أكثر منه شكلاً بسيطاً للانتهازية السياسية. ويجري فعل ذلك كله لإثارة الشك، لدى أولئك الذين اعتقدوا دائماً أنهم ينتمون إلى التراث اليهودي - المسيحي، بأن إله إسرائيل الذي كان يُعتقد أنه أبو يسوع المسيح هو بدلاً من ذلك وكما ينبغي فقط إله حشود البدو الذين استمدوا من أساطيرهم الخاصة بهم (الاصطفاء الإلهي، العهد، نقاء العرق) شرعيتهم وحققهم المزعوم في الاستثنائية.

عندما أواجه مسألة إسرائيل اليوم، خصوصاً مع تأنيب الضمير في العالم المسيحي بسبب الاضطهاد الذي عانى منه اليهود على مر القرون، يتكون لدي شيئاً فشيئاً الانطباع بأن هذا التاريخ لا علاقة له بي. على سبيل المثال، عندما أستمع في ترتل بعض المزامير، في كتاب الصلوات اللاتيني، كالزمور رقم 12 (مع عودة أسرى الرب إلى صهيون *Cum reduceret Dominus captivos Sion...*)، أشعر على نحو متزايد بمعناه الحرفي أكثر من المجازي: هذا ليس نشيد تحرر من الخطيئة، بل نشيد تهليل للنصر العسكري لشعب على آخر. كذلك المزامير ضد البابليين الذين كانوا مذنبين بسبي اليهود، مع لعنة «طُوبَى لِمَنْ يُمَسِّكُ أَطْفَالَكَ [يا بابل] وَيَضْرِبُ بِهِمُ الصَّخْرَةَ»، ويذبحهم باسم (عدالة) الرب. حتى النموذج الأصلي للعودة - من مناطق التباين والاختلاف (تعبير مأخوذ عن القديس أوغسطين) إلى بيت الأب، وهو نموذج أصلي أشعر أيضاً أنني لا يمكنني الاستغناء عنه في حياتي الروحية - كل ذلك ربما ليس سوى شعور شعب بدوي لا أشارك معه في النهاية في شيء... بالتأكيد لا أريد الاستغناء عن كافكا وروزنتسفاغ وفالتر بنيامين وبلوخ... وكل هؤلاء المكونين الأساسيين لثقافتي وثقافتنا. لن أفعل بهم ما يفعله صيادو النازيين الصهانية بهایدغر، عندما يفكرون بتصفيته لأنه وقف إلى جانب هتلر. مرة أخرى، لا يمكنني تحرير نفسي من مشكلة إسرائيل؛ فهي في النهاية مثل الخطيئة الأصلية التي يحكى عنها في العهد القديم، الكتاب المقدس العبري. هنا سأقدم، لأختم هذا التأمل الذي لا يمكن ختمه، ملخصاً لمقالاتي التي لم تظهر أبداً - ليس باختيار - في صحيفة إيطالية، لكنها تبلور الكثير مما يرد في ذهني عندما أتكلم عن الصهيونية ومناهضة الصهيونية. إنها تبدأ بمشاهدة فيلم الأخوين كوهن بعنوان رجل جاد

(*A Serious Man*)، الذي أطلق قبل بضع سنوات وربما لم يُناقش ولم يُفهم بشكل كاف. هل صحيح، إذن، كما قال دولوز ذات مرة، إن المحاكمة لكافكا (وربما أيضاً القلعة) رواية هزلية كبيرة؟ هذه الفكرة عادت إلي بعد مشاهدة الفيلم الأخير للأخوين كوهن، رجل جاد. الفرضية بمجملها كما يلي: مثلما أن فساد الكنيسة (وليس، للأسف، راتسينغر فحسب) وتعطشها إلى المال والسلطة سمحاً لنا، نحن الكاثوليكين (السابقين)، باكتشاف ليس فقط كل فسق وانحرافات الماضي التفتيشية^(٥) والاستعمارية، بل أيضاً عبثية اليوم (بدءاً من تحریم الوافي الذكري في عصر الأيدز، إلى البقاء بأي ثمن على قيد الحياة، ولو بالكثير من الأنابيب والأسلاك والمعدات الطبية الاصطناعية، وانتهاء بعدم تخلي البابا عن "حقوق" الجنين، الممثلة على ما يبدو بوضوح وبشكل دائم بالكنيسة الرومانية المقدسة)، كذلك أيضاً قد تكون السياسة العنصرية الدموية لدولة إسرائيل بدأت تدفع الجالية اليهودية الأميركية - الجزء الأفضل منها، بالتأكيد، بدءاً من تشومسكي - إلى أخذ العلم بأن غنى التراث اليهودي وعمقه الجديرين جداً بالثناء بحد ذاتهما ليسا سوى هراء فاسد كثيراً ما يجب على المرء التخلص منه كي يتجنب إراقة الدماء، بسبب ضريح راحيل، أو أراضي الهيكل، أو حقوق اليهود المقدسة بأرض الميعاد. إن الحاخامات الفارغين المملين في أعمال الأخوين كوهن ووددي آلن هم مثل أساقفتنا وكرادلتنا تماماً: ليسوا سوى بالونات عملاقة مملوءة بالبلاغة "الصوفية" التي تجرفنا إلى الأعلى من أجل حب الله - الله الذي يعذب أيوب، وعائلته، والحيوانات، بسبب رهان عبثي مع تلك الشخصية الهزلية الأخرى، الشيطان (وهل ينشر أحد مثل هذا التأمل التمهيدي؟). ±

± نسبة إلى محاكم التفتيش. (م)

± إشارة إلى مقال فاتيمو الذي رفضت الصحيفة الإيطالية المذكورة نشره. (م)

– 3 –

هل اليهودية هي الصهيونية؟ أو أرندت ونقد الدولة القومية

جوديث بتلر

من الواضح أن الصهيونية هي إحدى الطرق التي دخل بها الدين إلى الحياة العامة، رغم أن ثمة طرقاً عدة للتفكير في الصهيونية مضادة للدين على نحو جلي، بما فيها طرق تعريف اليهودية (Jewishness) بدون الإحالات الدينية الصريحة لغرض المواطنة الإسرائيلية. في الواقع، تبرهن مقولة «يهودي» على أنها معقدة في هذه السجلات، لأن الشريعة الحاخامية تعرف اليهودية لقانون دولة علماني ظاهرياً في إسرائيل، وهو قانون يميز نفسه في جوانب أخرى بشكل قاطع عن القانون الحاخامي. كيف يؤثر هذا الالتباس على المناقشات الأكثر عمومية للدين والحياة العامة التي تبدو ملازمة لنا إلى هذا الحد في هذه الأزمنة؟

مما لا شك فيه أننا ينبغي أن نكون حذرين جداً عندما نشير إلى «الدين» في الحياة العامة، بما أنه قد لا يكون ممكناً في النهاية الحديث حول الدين كمقولة بهذا المعنى. تبعاً للدين الذي نضعه في أذهاننا، ستكون علاقته بالحياة العامة مختلفة. في الواقع، ثمة تشكيلة من المواقف الدينية في الحياة العامة وتشكيلة من الطرق لتصوير الحياة العامة ضمن المصطلحات الدينية. إذا بدأنا بالسؤال حول «الدين» في «الحياة العامة»، فإننا نخاطر بأن نملاً فئة «الدين» ببساطة بتشكيلة من الأديان المحددة؛ وتبقى دائرة «الحياة العامة» بشكل ما مستقرة ومغلقة وخارج الدين. وإذا

كان دخول الدين إلى الحياة العامة مشكلة، فيبدو أننا نفترض مسبقاً وجود إطار يبقى الدين فيه خارج الحياة العامة، وأتينا نسأل كيف يدخل وما إذا كان يدخل بطريقة قابلة للتبرير أو مضمونة. لكن، إذا كانت هذه هي الفرضية الفاعلة، فيبدو أن علينا أن نسأل أولاً كيف أصبح الدين خاصاً وما إذا كانت الجهود المبذولة لجعله خاصاً قد نجحت حقاً. إذا افترض سؤال ضمني من هذا الاستعلام مسبقاً أن الدين ينتمي إلى المجال الخاص، فينبغي أن نسأل أولاً، «أي دين» أحيل إلى المجال الخاص، وأي دين، إن وجد، ينتشر بلا شك في المجال العام. عندئذ ربما يمكن أن يكون لدينا استعلام آخر نتابعه، أي استعلام يميز بين الديانات المشروعة والديانات اللا مشروعة؛ أي، تلك التي تعتبر داعمة ضمناً لمجال عام علماني وتلك التي تعتبر مهددة للمجال العلماني، أو بشكل مرادف، تلك الديانات، كالمسيحية، التي تفهم على أنها توفر الشروط الثقافية المسبقة للمجال العام، والتي تنتشر رموزها بحرية ضمنه، وتلك الديانات التي تعتبر تهديداً لأساس الحياة العلمانية، والتي يعتبر انتشار رموزها داخل المجال العام مجرد ادعاء أو تهديداً للديمقراطية ذاتها. إذا كان المجال العام إنجازاً بروتستانتياً، كما جادل العديد من الباحثين، فالحياة العامة عندئذ نفترض مسبقاً، وتعيد تأكيد وجود تراث ديني سائد كالتراث العلماني. وإذا وجدت أسباب كثيرة للشك فيما إذا كانت العلمانية متحررة من مكوناتها الدينية كما ترمي، فيجوز لنا أن نسأل ما إذا كانت هذه التبصرات في العلمانية تنطبق أيضاً، بدرجة ما، على مزاعمنا المتعلقة بالحياة العامة على وجه العموم. بعبارة أخرى، بعض الأديان ليست للتو «داخل» المجال العام فحسب، بل تساعد في إنشاء مجموعة معايير تميز العام عن الخاص. ويحدث هذا عندما تُحال بعض الأديان إلى «الخارج» - إما بوصفها «الخاص» أو بوصفها تهديداً للعام في حد ذاته - في حين تؤدي أديان أخرى وظيفة دعم وتعيين المجال العام ذاته. إذا لم يكن بوسعنا امتلاك التمييز بين العام والخاص لولا الوصية البروتستانتية بتخصيص الدين، فإن الدين - أو تراثاً دينياً سائداً واحداً - يصادق على الإطار ذاته الذي نعمل فيه. وهذا في الواقع من شأنه أن يشكل نقطة انطلاق مختلفة تماماً لأجل استعلام نقدي في الدين ضمن الحياة العامة، نظراً لأن

كلا العام والخاص سيشكلان علاقة تختيارية تكون، بمعنى مهم ما، «في» الدين منذ البداية.

ليس قصدي أن أتمرن على الأسئلة حول العلمانية، التي طرحها باقتدار طلال أسد وصبا محمود ومايكل وارنر ووليام كونولي وتشارلز تيلور وجانت جاكوبسن وآن بيللغريني وتشارلز هيرشكيند. بناء على هذه الثقافة الجديدة، من الواضح أن العلمنة قد تكون طريقة خفية لبقاء الدين؛ وأن علينا دوماً أن نسأل أي شكل ونهج للعلمنة نعني؟ قصدي أن أقترح، أولاً، أن أية تعميمات نصدرها حول «الدين» في «الحياة العامة» تبقى موضع شك منذ البداية إذا لم نفكر في أية أديان يجري افتراضها مسبقاً في الجهاز المفاهيمي ذاته، خصوصاً إذا كان ذلك الجهاز المفاهيمي، بما فيه فكرة العام، لا يُفهم في ضوء نسبه الخاص ومشروع علمته. الإشارة إلى يهودي علماني تعني نوع دلالة مختلف عن الإشارة إلى كاثوليكي علماني؛ وفي حين يمكن الافتراض أن كليهما تركا الإيمان الديني، قد تكون ثمة أشكال انتهاء أخرى لا نفترض الإيمان أو تشرطه؛ فالعلمنة قد تكون إحدى الطرق التي تستمر بها الحياة اليهودية بوصفها يهودية.⁽¹⁾ نرتكب خطأ أيضاً إذا أصبح الدين مساوياً للإيمان، ثم ربط الإيمان بأنواع معينة من المزاем التأملية حول الله - وهذا افتراض لاهوتي لا يصلح دوماً لوصف الممارسة الدينية. ذلك السعي إلى تمييز المنزلة المعرفية للإيمان الديني واللا ديني تفوته حقيقة أن الدين ذاته غالباً ما يقوم بوظيفته كقالب لتشكيل الذات، وإطار راسخ للتقييمات، ونمط انتهاء وممارسة اجتماعية متجذرة. بالطبع، يسكن المبدأ القانوني بفصل الدولة والدين أي خطاب وكل خطاباتنا هنا، لكن ثمة أسباباً كثيرة للاعتقاد بأن التصور القضائي غير كاف ليكون الإطار لفهم المسائل الأكبر للدين في الحياة العامة. كذلك لا تكفي السجلات حول الرموز والأيقونات الدينية التي أحدثت

(1) ديفيد بيال، ليس في السماء: تراث الفكر العلماني اليهودي (برنستون نيو جيرسي: مطبعة جامعة برنستون، 2011).

خلافًا واسعاً حول حقوق التعديل الأول على الدستور، من ناحية، وحماية الأقليات الدينية ضد التمييز والاضطهاد، من الناحية الأخرى.⁽¹⁾

أدخل هذه المناظرة بمشكلة أخرى، وأعني التوتر الناشئ بين الدين والحياة العامة عندما يُفهم الانتقاد العلني لعنف الدولة الإسرائيلية على أنه عداًء للسامية أو عداًء لليهودية، كما يُفهم غالباً. من أجل التسجيل، أود أن أوضح أن بعض تلك الانتقادات تستخدم خطاباً وحججاً معادية للسامية ولذلك يجب أن نعارضها بشكل مطلق ولا لبس فيه. لكن الانتقادات المشروعة، وثمة الكثير منها، لا تفعل ذلك. من بينها انتقادات عنف دولة إسرائيل التي تبرز من داخل النضالات اليهودية من أجل العدالة الاجتماعية (وهي ليست نفس النضالات من أجل العدالة الاجتماعية لليهود فقط). لقد رافقت المعارضة اليهودية للصهيونية المقترحات التأسيسية التي قدمها هرتزل في المؤتمر الصهيوني الدولي في عام 1897 في بازل، ولم تتوقف منذ ذاك الوقت.⁽²⁾ ليس من قبيل العداًء للسامية أو، في الواقع، كراهية الذات أن تنتقد عنف الدولة الذي تمثله الصهيونية. ولو كان كذلك، لثم تعريف اليهودية، جزئياً، بفشلها في توليد نقد لعنف الدولة، وهذا بالتأكيد ليس حالها. سؤالي هو ما إذا كان الانتقاد العام لعنف الدولة - وأعرف أن المصطلح لم يشرح بعد - تبرره القيم اليهودية، المفهومة بمصطلحات لاطائفية.

يطرح المرء هذا السؤال لأنه إذا انتقد عنف الدولة الإسرائيلية صراحة وعلناً، فإنه في بعض الأحيان، ودائماً تقريباً في ظروف معينة، يعتبر ضد السامية أو ضد اليهودية. ومع ذلك فإن انتقاد مثل هذا العنف صراحة وعلناً هو ببعض الطرق مطلب أخلاقي إلزامي من داخل الأطر اليهودية، الدينية واللا دينية، يعزز الروابط الضرورية بالحركات الأوسع ضد عنف دولة من هذا النوع - وبذلك يكون يهودياً ويحميد عن اليهودية في الوقت نفسه. بالطبع، سترى على الفور مجموعة ثانية من

(1) انظر: طلال أسد، وندي براون، جوديث بتلر وصبا محمود: هل النقد علماني؟ التجديف والأذى وحرية التعبير (بركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 2009).

(2) انظر ثيودور هرتزل، الدولة اليهودية (روكفيل، م د: وايلدسايد، 2008)، ص: 63 - 72.

المآزق التي تقدمها هذه الصيغة. فكما أوضحت حنة أرندت في كتاباتها المبكرة، فإن اليهودية ليست دوماً هي الديانة اليهودية نفسها.⁽¹⁾ وكما أوضحت في تطور موقفها السياسي من دولة إسرائيل، لا الديانة اليهودية ولا اليهودية تقودان بالضرورة إلى اعتناق الصهيونية.

ليس هدفي تكرار الزعم القائل إن اليهود يختلفون فيما بينهم على قيمة الصهيونية، أو على ظلم الاحتلال، أو على التدميرية العسكرية للدولة الإسرائيلية. هذه مسائل معقدة، وثمة خلافات هائلة عليها كلها. ولا قصدي القول ببساطة إن اليهود ملزمون بانتقاد إسرائيل، رغم أنني في الحقيقة أعتقد أنهم، أو بالأحرى أننا، ملزمون بذلك؛ بالنظر إلى أن إسرائيل تتصرف باسم الشعب اليهودي، وتعطي نفسها دور الممثل الشرعي للشعب اليهودي، ثمة صراع على ما يجري فعله باسم الشعب اليهودي، وهذا سبب إضافي لاسترداد ذاك التراث وتلك الأخلاقية لصالح سياسة تعلي العدالة الاجتماعية والسياسية على نزعة قومية تعتمد أساساً على العنف العسكري لإدامة نفسها. إن السعي إلى إثبات حضور اليهود التقدميين يخاطر بالبقاء ضمن افتراضات هوياتية وطائفية معينة؛ لذلك يعارض المرء أي تعبير وكل التعبيرات عن العداء للسامية المعادي لليهود ويسترد اليهودية من أجل مشروع يسعى إلى تفكيك عنف الدولة الإسرائيلية ومأسسة العنصرية. لكن هذا الشكل الخاص للحل يواجه تحدياً إذا اعتبرنا أن ثمة أطراً أخلاقية وسياسية عديدة يكون فيها مثل هذا الانتقاد إلزامياً.

علاوة على ذلك، وكما حاولت الإشارة، يمكن ويجب فهم اليهودية كمشروع ضد-هويتي بقدر ما نستطيع القول إن كون المرء يهودياً يعني ضمناً تبني علاقة أخلاقية باللا-يهودي، وهذه تنبع من الحالة اليهودية الشتاتية حيث يظل العيش في عالم تعددي اجتماعياً تحت شروط المساواة مثلاً أخلاقياً وسياسياً أعلى. بالفعل، إذا كان التراث اليهودي ذو الصلة بشن النقد العلني لعنف الدولة الإسرائيلية نقداً

(1) حنة أرندت، أصول الشمولية (نيويورك: هاركورت بريس جوفانوفيتش، 1951) ص: 66؛ راكيل فارنهاغن: حياة امرأة يهودية (نيويورك: هاركورت بريس جوفانوفيتش، 1974)، ص: 216-28.

يعتمد على التعايش كمعيار للاجتماعية، فإن ما يستتبعه ذلك هو الحاجة ليس فقط إلى إثبات حضور عام يهودي بديل [متميز عن آيباك (AIPAC)، بالتأكيد، لكنه متميز أيضاً عن ج. ستريت (J. Street)] أو حركة يهودية بديلة (مثل «الصوت اليهودي من أجل السلام»، و«الأصوات اليهودية المستقلة في المملكة المتحدة»، و«يهود من أجل العدالة للفلسطينيين»، على سبيل الذكر لا الحصر)، بل إثبات انزياح الهوية الذي تتطلبه اليهودية، مع أن ذلك ينطوي على مفارقة كبيرة للوهلة الأولى. عندئذ فقط يمكننا أن نتوصل إلى فهم نمط العلاقة الأخلاقية الذي يشكل بعض المفهوم التاريخية والسياسية الأساسية لما يعنيه أن «يكون» المرء يهودياً. في النهاية، إنه ليس حول تحديد أنطولوجيا اليهودي فوق وضد جماعة ثقافية أو دينية أخرى - لدينا كل المبررات لأن نكون متشككين في أي مسعى لفعل مثل هذا الشيء. إنها بالأحرى مسألة فهم العلاقة ذاتها باللايهودي بوصفها الطريقة لتشكيل الدين في الحياة العامة داخل اليهودية. المهم ليس ببساطة التبعر جغرافياً، بل استخلاص مجموعة مبادئ من وجود مبعرٍ يمكنها أن تخدم مفهوماً جديداً للعدالة السياسية. ذاك المفهوم سوف يستتبع عقيدة عادلة في نظرتها إلى حقوق اللاجئين ونقد الأنماط القومية من عنف الدولة التي تدعم الاحتلال ومصادرة الأراضي والاعتقال السياسي للفلسطينيين ونفيهم. وسوف يقتضي ضمناً أيضاً مفهوماً عاماً للتساكن سيكون شرط نشوئه إنهاء استعمار المستوطنين. بصيغة أكثر عمومية، بناء على مفهوم التساكن هذا، يمكن ويجب شن انتقادات ضد عنف الدولة القومية اللاشعري - بلا أية استثناءات.

ثمة، بالطبع، مخاطر والتزامات للنقد العلني. يبقى صحيحاً أن نقد عنف الدولة الإسرائيلية، على سبيل المثال، يمكن تأويله على أنه انتقاد للدولة اليهودية على نفس الأسس التي يمكن أن يستخدمها المرء ليقم النقد لأية دولة أخرى انخرطت في ممارسات الاحتلال والغزو وتدمير البنية التحتية الصالحة لحياة أقلية أو جماعة سكانية مقهورة. أو يمكن تأويله كانتقاد للدولة اليهودية، يشدد على يهوديتها وبذلك يثير الخوف من أن الدولة تُنتقد لأنها يهودية. ما يُخشى منه عادة، إذن، هو أن يحرك النقد

دافع معاد لليهود. لكن هذه الخشية تصرف النظر غالباً عن القلق المشروع المعلن هنا، وهو أنه من الإجحاف أن تصر أية دولة على جماعة دينية وإثنية واحدة للحفاظ على أغلبية ديموغرافية تخلق مستويات تفاضلية من المواطنة لجماعات السكان الأقلية والأغلبية (وحتى تفضل داخلياً الأصول والروايات السردية الأشكنازية للأمة اليهودية على الأصول الثقافية السفاردية والمزراحية ضمن مناهجها التعليمية المقررة وخطابها العلني). عندئذ، إذا كانت المشكلة هي هذه الأخيرة، يظل من الصعب التعبير عنها علناً، بما أنه سيكون ثمة من يرتاب في أن شيئاً آخر يقال في الحقيقة أو أن أي شخص يشكك في المطالبة بأغلبية ديموغرافية يهودية على وجه الخصوص إنما يكون مدفوعاً باللامبالاة بمكابدات الشعب اليهودي، بما فيها التهديد المعاصر الذي يمر به، أو مدفوعاً بالعداء للسامية، أو بكليهما.

وبالطبع، يختلف الأمر إذا كان المرء ينتقد مبادئ السيادة اليهودية التي ميزت الصهيونية السياسية منذ عام 1948، أو ما إذا كان نقد المرء محصوراً بالاحتلال بوصفه لا شرعياً وتدميراً (وبالتالي يوضع نفسه في تاريخ يبدأ عام 1967)، أو ما إذا كان المرء ينتقد بشكل حصري أعمالاً عسكرية معينة بمعزل عن كل من الصهيونية والاحتلال، كالعدوان على غزة في 2008 و 2009، الذي تضمن جرائم حرب واضحة، أو نمو المستوطنات، أو استمرار أشكال مصادرة الأرض من أنواع أخرى، أو سياسات النظام اليميني الحالي في إسرائيل. لكن في كل واحدة من هذه الحالات، ثمة سؤال حول إمكانية تسجيل النقد علناً بوصفه شيئاً آخر سوى هجوم على اليهود أو اليهودية. تبعاً لأين نكون وإلى من نتكلم، يمكن سماع بعض هذه المواقف على نحو أكثر سهولة من الأخرى. ومع ذلك، كما نعرف، ثمة سياقات لا يمكن أن يسمع فيها أي واحد من هذه الانتقادات دون الشك الفوري في أن الشخص الذي ينطق بها يضم شيئاً ما ضد اليهود، أو لو كانت ذاتها يهودية فإنها تضم شيئاً ضد نفسها. علاوة على ذلك، نواجه في كل حالة بحدود المسموعة التي يتشكل بها المجال العام المعاصر. ثمة دوماً سؤال: هل ينبغي علي أن أستمع إلى ذلك أم لا؟ هل يُستمع إلي أم يساء فهمي؟ المجال العام يتشكل مراراً وتكراراً عبر

أنواع معينة من الإقصاءات: الصور التي لا يمكن رؤيتها والكلمات التي لا يمكن سماعها. وهذا يعني أن ضبط الحقل البصري والسمعي - ضبط الخواس بشكل عام أكثر - هو حاسم لتكوين ما يمكن أن يصبح قضية قابلة للنقاش ضمن أية نسخة من المجال «المشروع» للسياسة.⁽¹⁾

إذا قال المرء إنه سيعارض أية دولة تحصر المواطنة الكاملة بأية جماعة دينية أو إثنية على حساب السكان الأصليين وكل المتساكنين الآخرين، عندئذ قد يتهم بعدم فهم الصفة الاستثنائية والمتفردة لدولة إسرائيل، وبشكل أهم، الأسباب التاريخية لادعاء الحق في ذلك الاستثناء. لكن إذا كانت الدولة «مستثناة» من المعايير الدولية للعدالة، أو إذا كانت تبطل بشكل واضح مبادئ المساواة وعدم التمييز - لنلفت الانتباه في هذه اللحظة فقط إلى خروقاتها ضد الليبرالية - عندئذ يكون وجودها محكوماً بتناقض لا يمكنها أن «تحله» إلا من خلال العنف أو التحول الجذري. وفقاً لأرندت، فإن الدعوة إلى إعادة النظر بالسلطة الفيدرالية أو الثنائية القومية في المنطقة كي تجسد سياسياً مبادئ التعايش تتصور مخرجاً من العنف أكثر مما تتصور مساراً سيؤدي إلى إفناء أية جماعات سكانية على تلك الأرض. المغزى السياسي هو أن المرء لا يمكنه أن يدافع عن الشعب اليهودي ضد الإفناء دون الدفاع عن الشعب الفلسطيني ضد الإفناء. إذا فشل المرء في تعميم التحريم ضد الإفناء، عندئذ يسعى إلى إفناء «الآخر» مع افتراض أنه من خلال إفناء الآخر فقط يمكنه أن ينجو بنفسه. لكن تظل الحقيقة أن إفناء حيوات الفلسطينيين وأرزاقهم لا يمكنه سوى أن يزيد تهديد الإفناء ضد الذين ارتكبوه، نظراً إلى أنه يقدم مبررات دائمة من أجل حركة مقاومة ذات طبعين عنيفة ولا عنيفة. لا يحتاج المرء إلى أن يكون دارساً متعمقاً لهيغل لكي يفهم هذه الفكرة. وإذا رد أحد ما بالزعم أنني أفشل في أخذ عيوب الفلسطيني في الاعتبار في هذا السيناريو فإنني أجيب بأنه يوجد بالتأكيد أفضل وأساء طريقتين لشن حركة مقاومة للاحتلال الاستعماري. لكن أي تقييم للاستراتيجيات الفلسطينية سيتعين أن يحدث ضمن إطار المقاومة السياسية. لم تكن المواقع متساوية أبداً، ومن السخافة

(1) جاك رانسير، سياسة علم الجمال: توزيع المحسوس (لندن: كوتنيلوم، 2006).

أن نعامل العلاقات بين إسرائيل والفلسطينيين «كطرفي» نزاع. تلك النماذج التي تفترض مساهمات متساوية من إسرائيل وفلسطين تدخل المساواة في نموذجها التفسيري ولذلك تطمس اللامساواة على الأرض. عندما ترسخ الشروط السياسية للمساواة، يمكننا عندئذ ربما أن نتحدث ضمن لغة المساواة، لكن عندئذ فقط.

بهذه الروح أقترح التفكير في أرندت، التي جعلت آراؤها السياسية أناساً كثيرين يشكون في أصالة يهوديتها. بالفعل، كنتيجة لانتقاداتها البارزة للصهيونية السياسية ولدولة إسرائيل في الأعوام 1944 و1948 و1962، كان زعمها الانتفاء إلى الشعب اليهودي مشكوكاً فيه بشدة، وبالشكل الأكثر شهرة من قبل شولم (Scholem).⁽¹⁾ وكما أشرت في مكان آخر، اعتنق شولم بسرعة تصوراً للصهيونية السياسية، في حين دافع بوبر (Buber) في العقدَيْن الثاني والثالث من القرن العشرين بشكل قوي وعلمي عن صهيونية روحية وثقافية ستصبح، برأيه المبكر، «منحرفة» إذا اتخذت شكل دولة سياسية. في الأربعينيات، جادل بوبر وأرندت وماغنز (Magnes) دفاعاً عن دولة ثنائية القومية، مقترحين اتحاداً يحفظ فيه اليهود والعرب استقلالهم الثقافي، كلاً على حدة. من الجدير بالملاحظة أيضاً أن فرانز روزنتسفايغ (Franz Rosenzweig) أيضاً قد طور معارضة شتاتية للصهيونية في كتابه نجمة الخلاص (*Star of Redemption*)، حيث كتب إن اليهودية أساساً شديدة التعلق بالانتظار والته، لكنها ليست متعلقة أبداً بزعم الحق في الأرض أو الطموح إلى دولة.

(1) نشأت أرندت من تراث معقد من الفكر اليهودي الألماني، وأنا لا أقصد الانخراط في تقديم صورة مثالية هنا، فثمة أسباب كثيرة لعدم فعل ذلك. أرندت كتبت وقالت ببعض المعتقدات العنصرية بشكل واضح، وهي ليست نموذجاً لسياسات الفهم الأوسع عبر الاختلاف الثقافي. لكنها تواصل سجلاً يهودياً ألمانياً بدأ في أواخر القرن التاسع عشر حول قيمة الصهيونية ومعناها. على سبيل المثال، كان ثمة سجال شهير بين هرمان كوهن - الذي ساعد على آرائه - وغرشوم شولم حول قيمة الصهيونية، وانتقد فيه كوهن النزعة القومية الوليدة للصهيونية وقدم بدلاً منها رؤية للشعب اليهودي بوصفه كوزموبوليتياً أو «مركباً». جادل كوهن في أن أفضل ما يخدم اليهود هو أن يصبحوا جزءاً من الأمة الألمانية - وهو رأي لم يبرهن إلا على أنه الأكثر إيلاً واستحالة مع نشوء الفاشية الألمانية ولاساميتها الحبيثة. شاطرت أرندت كوهن تسمينه العالي للثقافة الألمانية، مع أنها رفضت تلك النزعة القومية بشكل صريح.

[كما أشرت في الفصل الأول]، رأى إدوارد سعيد أن للفلسطينيين تاريخاً متداخلاً من الطرد والنفي والعيش كلاجئين في الشتات بين من هم ليسوا كذلك. هذا نمط عيش تكون فيه الغيرية مكونة لماهية المرء. لم يوضح سعيد بأية طريقة كان من الممكن لهذين الترائين من النفي أن يتداخلا، لكنه كان حذراً لئلا يرسم تشابهات دقيقة. فهل يوحي هذا بأن أحد التاريخين يمكن أن يشكل الآخر أو يقطعه بطرق تستدعي شيئاً آخر سوى المقارنة والموازاة والتشبيه؟ هل كان بوبر وأرندت يفكران في مشكلة مشابهة عندما عبرا، على سبيل المثال، وهما متنبهان إلى الأعداد الهائلة من اللاجئين بعد الحرب العالمية الثانية، عن قلقهما من إنشاء دولة يهودية في عام 1948 تقوم على ترحيل العرب وحرمانهم من حقوقهم الشرعية بوصفهم أقلية قومية - دولة تبين أنها طردت أكثر من سبعمائة ألف فلسطيني من بيوتهم الشرعية - وهم الآن يقدرون غالباً بتسعمائة ألف؟ لقد رفضت أرندت أي تماثل دقيق بين طرد اليهود من أوروبا وطرد الفلسطينيين من إسرائيل المنشأة حديثاً؛ فقد رصدت عدداً من الحالات المتميزة تاريخياً من انعدام الدولة لتطوير الانتقاد العام للدولة القومية في كتابها أصول الشمولية (*Origins of Totalitarianism*) في عام 1951. هناك حاولت أن تبين كيف أن الدولة القومية، لأسباب بنيوية، تنتج أعداداً كبيرة من اللاجئين ولا بد من أن تنتجهم لكي تصون تجانس الأمة التي تسعى إلى تمثيلها، بعبارة أخرى لدعم النزعة القومية للدولة القومية. وقد قادها ذلك إلى معارضة أي تشكيل دولة يسعى إلى تقليص أو رفض تغاير سكانه، بما في ذلك تأسيس إسرائيل على مبادئ السيادة اليهودية، ومن الواضح أنه أحد الأسباب في أنها فكرت في وعد الفيدرالية ما بعد السيادي وما بعد القومي. فقد كانت تعتقد أن أية دولة تفشل في الحصول على التأييد الشعبي من كافة ساكنيها، وتُعرّف المواطنة على أساس الانتماء الديني أو القومي، ستكون مجبرة على إنتاج طبقة دائمة من اللاجئين؛ وهذا الانتقاد طال إسرائيل التي، كما كانت تعتقد، ستجد نفسها في صراع لا نهاية له (وترفع درجة الخطر على نفسها) وسوف تفتقد إلى الشرعية بشكل أبدي كديمقراطية قائمة على إرادة شعبية، خصوصاً في ضوء اعتمادها الدائم على «قوى عظمى» للحفاظ على

سلطتها السياسية في المنطقة. إنه لذو دلالة أن أرندت انتقلت من تحليل سلسلة من حالات اللادولة إلى فلسطين كحالة لادولة. وإن مركزية وضع اللاجئين الأوروبيين في ظل ألمانيا النازية وبعد زوالها إنما تشكل سياستها [أرندت] هنا. لكن بالتأكيد ليس معنى ذلك أنها تقول إن الصهيونية تساوي النازية. فقد رفضت مثل هذه المساواة، وينبغي أن نرفضها نحن أيضاً. القصد هو أن ثمة مبادئ للعدالة الاجتماعية يمكن استمدادها من الإبادة الجماعية النازية يمكنها ويجب أن تشكل كفاحاتنا المعاصرة، حتى رغم أن السياقات مختلفة، وأن أشكال القوة المخضعة مختلفة بشكل واضح.

إذا كان من الممكن فهم التساكن كشكل من المنافي المتقاربة، فسيكون من المهم ألا نأخذ هذا التقارب كشكل من التماثل الدقيق بين طرفين منفصلين. لقد تقدم إدوارد سعيد بهذا الزعم حول الحالة النفوية (exilic) لكلا الشعبين اليهودي والفلسطيني، وقدمته أرندت بشكل مختلف عندما كتبت أن شروط انعدام الدولة في ظل النظام النازي تتطلب انتقاداً أكبر لكيف تنتج الدولة القومية بشكل دائم مشكلة اللاجئين الجماعيين. هي لم تقل إن الوضع التاريخي في ظل ألمانيا النازية كان هو الوضع نفسه في إسرائيل. لا، على الإطلاق. لكن الوضع الأول كان جزءاً، وليس كل، ما دفعها إلى تطوير تفسير تاريخي لانعدام الدولة في القرن العشرين وإلى اشتقاق مبادئ عامة تعارض إعادة إنتاج أشخاص بلا دولة وأشخاص بلا حقوق. إنها ببعض الطرق قد استحضرت تكرار انعدام الدولة بوصفه الشرط الذي ينبغي أن يحصل منه انتقاد الدولة القومية، باسم المجاميع السكانية المتغيرة، والجماعية السياسية، وتصور معين للتساكن. من الواضح أن التاريخ اليهودي بات يؤثر على التاريخ الفلسطيني من خلال أعباء واستغلالات مشروع استعمار استيطاني. لكن هل يوجد بعد نمط آخر يؤثر به هذان التاريخان أحدهما على الآخر، نمط يلقي فيه أحدهما نوعاً من الضوء على الآخر؟

السؤال الملح الباقي هو، ما هو اليهودي في النهاية في فكر أرندت، إن وجد أي شيء من ذلك؟ رغم أنني أعتقد أن ثمة بعض المصادر الدينية لفكر أرندت

السياسي، فأنا واحد من أقلية في هذا المجال.⁽¹⁾ من الواضح أن عملها المبكر على أوغسطين، على سبيل المثال، يركز على حب الجار.⁽²⁾ وفي الكتابات المبكرة عن الصهيونية، تسعى إلى الاستعانة بالصيغة الشهيرة لهليل: «إذا لم أكن لصالح نفسي، فمن سيكون لصالحي؟، إذا لم أكن لصالح الآخرين، فماذا أكون أنا؟ إن لم يكن الآن، فمتى؟» في عام 1948، كتبت مقالة بعنوان «التاريخ اليهودي، مراجعاً» تثنى فيها أهمية كتاب شولم الذي يحمل عنوان الاتجاهات الكبرى في التصوف اليهودي (*Major Trends in Jewish Mysticism*)، الذي نشر قبلئذ بعامين. وفيه تدرس أهمية التراث المسيحاني لتأسيس مفهوم الله بوصفه «لاشخصياً» و«لامتناهياً» وأقل ارتباطاً بقصص الخلق من ارتباطه بروايات الفيض (emanation).⁽³⁾ وتعليقاً على «الخصيصة الباطنية» لمثل هذه الأفكار الصوفية، تؤكد أرندت على تركة أكثر أهمية للصوفية في الفكرة القائلة بأن البشر يتشاركون بالقدرات التي تشكل «دراما العالم»، وبذلك يرسمون إطاراً للتأثير لأجل البشر الذين رأوا أنفسهم ملتزمين بهدف أوسع. عندما أثبتت الآمال المسيحانية أنها أقل صدقية وأن التفسير الشرعي أقل فعالية، فإن انحلال التراث الصوفي في شكل من الفعل أصبح أكثر أهمية. لكن فكرة الفعل هذه اعتمدت على الوجود النفسي للشعب اليهودي، وهي فكرة عبر عنها صراحة إسحاق لوريا (Isaac Luria)، الذي تستشهد أرندت بقوله: «كان [الشتات] سابقاً يعتبر إما عقاباً على ذنوب إسرائيل أو اختباراً لإيمان إسرائيل. أما الآن فإنه لا يزال ذلك كله، لكنه جوهرياً تبشير؛ هدفه «رفع الجمرات الساقطة من كل مواقعها المختلفة» (ص. 309). رفع الجمرات الساقطة ليس بالضرورة جمعها مرة أخرى أو إعادتها إلى منشئها. ما يهم أرندت ليس فقط لاعتكوسية «الفيض»

(1) انظر سوزانا يونغ - أه غوتليب، مناطق الحزن: القلق والمسيحانية لدى ديليو. إتش. أودن (بالو ألتو: مطبعة جامعة ستانفورد، 2003).

(2) حنة أرندت، الحب والقديس أوغسطين، تحرير جوانا فكياريللي سكوت وجوديث تشليوس ستارك (شيكاغو، إيلينوي، مطبعة جامعة شيكاغو، 2007).

(3) حنة أرندت، «التاريخ اليهودي منقحاً»، في الكتابات اليهودية، تحرير جيروم كون ورون هـ. فلدمان (نيويورك: شوكن، 2007)، ص: 305.

أو الانتشار، بل إعادة تقييم المنفى الذي يقتضيه ضمناً. هل توجد أيضاً طريقة لفهم أن اعتناق التغاير هو ذاته موقف شتاتي محدد، موقف يُفهم جزئياً من خلال فكرة السكان المشتتين؟ إن التراث القبالي للنور المبدد، السفירות (sephiroth)، عبر عن هذا المفهوم للتبدد الإلهي الذي يفترض مسبقاً إقامة اليهود بين غير اليهود.

رغم أن أرندت تحتقر بشكل صريح الأشكال السياسية للمسيحانية، فإن التراث النفسي الذي كتبت منه وحوله كان أيضاً متعلقاً بنسخة معينة من المسيحانية، نسخة أثارت اهتمامها، على سبيل المثال، في قراءة بنيامين لكافكا. في مقابل النسخة المسيحانية من التاريخ التي تبناها شولم فيما بعد، والتي قدمت سردية تاريخية افتدائية لأجل إقامة دولة إسرائيل، فقد كانت أرندت أقرب بشكل واضح إلى رؤية بنيامين المسيحانية المضادة (أو الشكل البديل من المسيحانية، تبعاً لكيف يقرأها المرء). في رأيهِ، إن تاريخ معاناة المضطهدين يومض خلال لحظات الطوارئ التي تقطع كلاً من الزمن المتجانس والزمن الغائي. هنا أتفق مع حجة غبريل بيتربغ (Gabriel Piterberg) القائلة إن «أطروحات [بنيامين] حول فلسفة التاريخ» شكلت «دافعاً أخلاقياً وسياسياً إلى تخليص مضطهدي البشرية»⁽¹⁾ في مقابل شولم، الذي فهم المسيحانية في النهاية على أنها تعني ضمناً عودة اليهود إلى أرض إسرائيل، عودة من المنفى إلى التاريخ. في محاولة لعكس تبخيس «المنفى» (والسبي) ضمن التاريخ الصهيوني، فإن بضعة باحثين، بمن فيهم بشكل بارز، أمنون راتس - كراكوتسكين (Amnon Raz - Krakozkin)،⁽²⁾ يركزون قراءتهم لبنيامين على الاعتراف بالمطرودين وتذكرهم. إذ لا يمكن لشعب واحد أن يزعم الحق في احتكار الطرد. يقدم الإطار النفسي لفهم المسيحاني طريقة لفهم حالة طرد تاريخية واحدة في ضوء حالة أخرى. إن أشكال التاريخ القومي التي تفترض مسبقاً وجود تاريخ داخلي لليهود غير قادرة على فهم لا الحالة النفسية لليهود ولا التبعات النفسية للفلسطينيين

(1) غبريل بيتربغ، عودات الصهيونية (لندن: فرسو، 2008)، 1 ص: 79.

(2) أمنون راتس - كراكوتسكين، «الذاكرة اليهودية بين المنفى والتاريخ»، حولية جوش كوارترلي ريفيو 97، no. 4 (2007)، ص: 530 - 43؛ «المنفى داخل السيادة»، مجلة النظرية والنقد، رقم 4 (2007)، المنفى والسيادة (باريس: فابريك، 2007).

في ظل الصهيونية المعاصرة.⁽¹⁾ إذ يجب إعادة النظر في الخلاص نفسه بوصفه نفيًا، دونما عودة، تمزيقاً للتاريخ الغائي وانفتاحاً على مجموعة متقاطعة ومتقطعة من الزمانيات. هذه مسيحية، ربما معلمة، تؤكد تبعثر النور، الحالة النفسية، بوصفه الشكل اللاغائي الذي يتخذه الخلاص الآن. هذا خلاص من التاريخ الغائي. لكن، قد نسأل بالتأكيد، كيف يجرّض تذكر منفي واحد تناغمًا مع طرد آخر أو انفتاحاً عليه؟ ما هذا التحول في المواقع؟ إذا كان ذلك شيئاً آخر سوى التناظر التاريخي، فكيف ينبغي وصفه؟ وهل يأخذنا إلى مفهوم آخر للتساكن؟

يكتب راتس-كراكوتسكين إن تراث «أطروحات» بنيامين لا يحشد ذاكرة اضطهاد اليهود لكي يشرعن المزاعم المحددة للحاضر، بل يخدم كمحفز لبناء تاريخ أعم للاضطهاد؛ إن قابلية تاريخ الاضطهاد ذاك للتعميم والتحول هي ما يؤدي إلى سياسة توسع الالتزام بالحد من الاضطهاد عبر شتى الاختلافات الثقافية والدينية.⁽²⁾

رغم أن أرندت رفضت كل الطبقات المسيحية للتاريخ، فمن الواضح أن مقاومتها الخاصة للسردية التقدمية للصهيونية السياسية قد تشكلت جزئياً ضمن المصطلحات التي قدمها بنيامين. ففي مقدمتها لكتاب بنيامين بعنوان إشراقات (*Illuminations*)، تعلق أرندت بقولها إن تحول بنيامين، في أوائل العشرينيات، إلى الدراما التراجيدية الباروكية في «المأساة» (*Trauerspiel*) يبدو أنه يوازى، إن لم يعتمد على، تحول شولم إلى القبالا اليهودية. ترى أرندت أنه في كل مكان من «المأساة» يؤكد بنيامين أنه لا «عودة» إلى التراث الألمانية أو الأوروبية أو اليهودية في حالتها السابقة. ومع ذلك، فإن شيئاً من اليهودية، أي التراث النفي، يعبر عن استحالة هذه العودة. بدلاً من ذلك، شيء من عصر آخر يلمع في عصرنا. تكتب

(1) بالطبع، كما تشير أرندت نفسها، فإن الحاجة إلى إنشاء تاريخ «داخلي» للشعب اليهودي هي طريقة لعكس الموقف، الذي آمن به سارتر وآخرون، في أن الحياة التاريخية لليهود تقررهما اللاسامية بشكل رئيسي أو حصري.

(2) أمنون راتس-كراكوتسكين، «على الجانب الأيمن من التاريخ»: فالتر بنيامين، غرشم شولم، والصهيونية. (على ملف لدى المؤلف).

أرندت إنه كان في عمله تلك الفترة «اعتراف ضمنى بأن الماضي تكلم بشكل مباشر فقط من خلال الأشياء المتوارثة، التي يعزى قريبا الظاهري من الحاضر بالضبط إلى خصيصتها الغرائبية [ربما الباطنية؟]، التي استبعدت كل ادعاءات الحق بسلطة ملزمة». لقد فهمت خاتمة بنيامين على أنها «ملهمة لاهوتياً» في قولها إن الحقيقة لا يمكن استعادتها مباشرة ولذلك لا يمكن أن تكون «كشفا يفضح السر، بل الرؤيا التي تنصفه».

إن الرؤيا التي تنصف السر لا تسعى إلى استعادة معنى أصلي أو العودة إلى ماضٍ مفقود، بل بالأحرى إلى فهم شذرات من الماضي تحترق حاضراً يلفه النسيان والعمل عليها، حيثما تصبح عرضياً متاحة. هذا الرأي يتردد صدها في تلك الملاحظة في الـ «أطروحات حول فلسفة التاريخ» بأن «الصورة الحقيقية للماضي تمر في الخاطر وتمضي. فالماضي لا يمكن الإمساك به إلا كصورة تومض في اللحظة التي يمكن التعرف عليها فيها ولا تثرى مرة أخرى أبداً» (أطروحات، ص: 255). إذا [كما جادلت في الفصل الأخير] كان ما يومض هو ذاكرة معاناة من زمن آخر، فإنه يقطع سياسة هذا الزمن ويعيد توجيهها. وهذا لن يوصف بشكل صائب على أنه ذاكرة عابرة للأجيال، نظراً إلى أن الخط الجيلي تعترضه ذاكرة تعبر من جماعة سكانية إلى أخرى، مفترضة بذلك انقطاعاً في كل من الخطية البنية والاستمرارية الزمنية للانتماء القومي. في الحقيقة، يوضح بنيامين في الأطروحة السابعة عشرة أن هذا الوميض يجعل من الممكن قطع أشكال راسخة من التطور التاريخي؛ إنه يشكل «توقفاً عن الحدوث» (أطروحات، ص: 263) وبالتالي تشكيكاً في التاريخ التقدمي ذاته. مثل هذا التوقف عن الحدوث فقط، كما نخبرنا، يمكنه أن ينتج «فرصة ثورية في الكفاح من أجل الماضي المضطهد» (أطروحات، ص: 263). إن أنماط التاريخ التقدمي، بما فيها تلك الأنماط التي تتخذ التحقيق التقدمي للمثل السياسية (والصهيونية من بينها)، تعيد بناء فقدان الذاكرة مع كل خطوة «نحو الأمام». لهذا يجب إيقاف الخطو نحو الأمام إذا كان يتعين أن يتقدم تاريخ المضطهدين إلى الصدارة. ليست الغاية أن يؤدي ذلك التاريخ إلى الانتقام (الذي سيكون شكلاً حلقياً من التاريخ

رفضه بنيامين)، بل بالأحرى إلى معركة فاعلة ضد تلك الأشكال من فقدان الذاكرة السياسي التي «تؤسس» التقدم.⁽¹⁾ إذا نشأت زمنية داخل أخرى، لا يعود الأفق الزمني منفرداً؛ فما هو «معاصر» هو أشكال التقارب التي لا تكون مقروءة بسهولة دوماً.

اتفقت أرندت مع ضرورة انتقاد أشكال معينة من التقدم التاريخي. في حين بدا أن بنيامين كان يضع في ذهنه المزايم التقدمية للرأسمالية عندما سعى إلى إعادة تعريف المادية التاريخية ووصف التكميم المتزايد للقيمة، كانت أرندت تفكر على نحو واضح بأشكال أكثر غائية للمادية التاريخية عندما ناقشت مفهوم التقدم بوصفه تجلياً حتمياً للمثل السياسية. بالنسبة لأرندت، كانت السياسة مسألة فعل، فعل لا يمكن فهمه إلا على قاعدة التعددية السياسية. رغم أن أفكارها عن التعددية والتساكن يتم التعبير عنها في نصوص منشورة كثيرة، فثمة صيغة واحدة تبرز في كتابها عن أئجلمان، نشر في عام 1962، ذات صلة خاصة بهذه المناقشة.

بحسب أرندت، كان أئجلمان يعتقد أنه يجوز له ولرؤسائه أن يختاروا مع من يتساكنون الأرض وفشل في التحقق من أن تغاير سكان الأرض هو شرط للحياة الاجتماعية والسياسية ذاتها غير قابل للعكس.⁽²⁾ هذا الاتهام ضده يشي بقناعة راسخة بأن أيأ مانا لن يكون في موقع اتخاذ مثل هذا الاختيار. إن أولئك الذين نتساكن معهم الأرض قد قُدموا إلينا قبل الاختيار، وبالتالي قبل أية عقود اجتماعية أو سياسية يمكننا أن ندخلها من خلال الإرادة المتعمدة. في الحقيقة، إذا سعينا إلى اتخاذ اختيار حيث لا يوجد اختيار، فإننا نحاول أن ندمر شروط حياتنا الاجتماعية والسياسية الخاصة بنا. في حالة أئجلمان، كان السعي إلى اختيار مع من نتساكن الأرض سعيأ واضحأ إلى إلغاء قسم ما من السكان - اليهود، العجر، المثليين، الشيوعيين،

(1) هذا يثير سؤالأ معقدأ حول العلاقة بين «التوقف عن الحدوث» المميز للإضراب العام ونهاية شكل متجانس من التاريخ. عند أية نقطة يصبح التوقف الأول شرط الثاني، أم هل هما عند نقطة ما متواصلان أحدهما مع الآخر؟

(2) حنة أرندت، أئجلمان في القدس (نيويورك، شوكن، 1963)، ص: 277 - 78.

المقعدين، والمرضى، من بين آخرين - لذلك فإن ممارسة الحرية التي شدد عليها كانت إرادة جماعية. إذا كانت أرندت صائبة، فليس معنى ذلك أنه لا يجوز لنا اختيار مع من نتساكن فقط، بل يجب علينا أن نحفظ وبشكل فاعل الخصيصة الاختارة للتساكن الشامل والتعددي: فنحن لا نعيش مع الذين لا نختارهم والذين قد لا نشعر تجاههم بأي إحساس بالانتماء الاجتماعي فحسب، بل إننا ملزمون بحفظ تلك الحيوات والتعددية التي يشكلون جزءاً منها. بهذا المعنى، تنشأ المعايير السياسية والوصفات الأخلاقية الملموسة من الخصيصة الاختارة لهذه الأنماط من التساكن. فتساكن الأرض هو سابق لأي مشترك ممكن أو أمة أو جيرة ممكنة. يمكننا في بعض الأحيان أن نختار أين نسكن، أو من نسكن بجواره أو معه، لكننا لا نستطيع أن نختار مع من نتساكن الأرض.

في كتابها أنجمن في القدس (*Eichmann in Jerusalem*)، تتكلم أرندت بصراحة بالنيابة ليس عن اليهود فقط، بل عن أية أقلية أخرى سوف تحرم من السكن على الأرض من قبل جماعة أخرى. فوجود أحدهما يقتضي وجود الأخرى، و«التكلم بالنيابة عن» يعمم المبدأ حتى لو لم يكن يتجاوز التعددية التي يتكلم بالنيابة عنها. ترفض أرندت أن تفصل اليهود عن الأمم الأخرى المدعوة بالمضطهدة من قبل النازيين باسم تعددية متعادية مع الحياة البشرية بأي من معاييرها الثقافية وبها كلها. فهل تقرر هنا بمبدأ كوني، أم هل تشكل التعددية بديلاً جوهرياً عن الكوني؟ وهل إجراؤها مرتبط، بطرق ما، بمشكلة التواريخ المتقاربة التي ذكرها إدوارد سعيد وفالتر بنيامين بطرق مختلفة؟

ربما يمكننا القول إن ثمة تعميماً يسري في صياغتها التي تسعى إلى تأسيس شمولية لكل المجتمع البشري، لكنها لا تفرض أي مبدأ محدد واحد للإنسانية التي تجمعها. وفكرة التعددية هذه لا يمكن مآيزتها داخلياً فحسب، نظراً إلى أن ذلك سي طرح مشكلة ما الذي يحدد هذه التعددية؛ بما أن التعددية لا يمكن أن تكون استيعادية دون أن تفقد صفتها التعددية، فإن فكرة شكل معطى أو مؤسس للتعددية سوف تطرح مشكلة أمام مزاعم التعددية. بالنسبة لأرندت، تشكل الحياة

الإنسانية قبلئذ جزءاً من ذاك الخارج، ناكراً بذلك منذ البداية حيوانية الإنسان. إن أي مفهوم حالي للإنسان سوف يتعين مميّزته على أساس ما عن مفهومه المستقبلي. وإذا لم تكن التعددية تميز بشكل حصري حالة معطاة وفعلية، بل حالة ممكنة دائمة أيضاً، فيجب عندئذ فهمهما كسيرورة، وسنحتاج إلى الانتقال من تصور سكوني إلى تصور حركي.

عندئذ، تبعاً لوليام كونوللي، يمكننا الحديث عن التعددية.⁽¹⁾ آنذاك فقط يمكن للتباين الذي يميز تعددية معينة أن يسم أيضاً تلك المجموعات من الاختلافات التي تتجاوز تعيينه. إن مهمة تأكيد أو حتى حماية التعددية سوف تقتضي عندئذ أيضاً جعل أنماط جديدة من الجمع ممكنة. عندما تعمم أرندت زعمها (لا أحد يملك الحق في أن يقرر مع من يتساكن الأرض؛ كل شخص يملك الحق في تساكُن الأرض بدرجات متساوية من الحماية)، فهي لا تفترض أن «كل الأشخاص» متباثلون - على الأقل ليس في سياق مناقشتها للتعددية. يمكن للمرء بالتأكيد أن يفهم لماذا ستكون هناك قراءة كانطية لأرندت، قراءة تستتج أن التعددية هي مثال ناظم، وأن كل شخص يملك مثل هذه الحقوق، بغض النظر عن الاختلافات الثقافية واللغوية التي يتميز بها أي شخص. وأرندت نفسها تتحرك في هذا الاتجاه الكانطي، رغم أنه بشكل رئيس من خلال تعميم مفهوم كانط للحكم الجمالي، بدلاً من فلسفته الأخلاقية.

إن التفريق بين التعددية والتعميم مهم للتفكير في التساكن غير المختار. فالحماية المتساوية، أو في الواقع المساواة، ليست مبدأ يجانس الذين يطبق عليهم؛ الالتزام بالمساواة، بالأحرى، هو التزام بضرورة التباين ذاتها. يمكن للمرء بالتأكيد أن يفهم لماذا يمكن أن تكون هناك قراءة طائفية لأرندت، نظراً إلى أنها هي نفسها تطور الحق في الانتماء وحقوق الانتماء. لكن ثمة دوماً إعادة مضاعفة هنا تنتزع الزعم من أية طائفة معينة: كل شخص يملك حق الانتماء. وهذا يعني أن ثمة تعميماً وتمايزاً

(1) وليام كونوللي، روح التعددية (مينابوليس: مطبعة جامعة مينيسوتا، 2005).

يحدثان في وقت واحد ودون تناقض، وتلك هي بنية التعددية. بعبارة أخرى، تكون الحقوق السياسية مفصولة عن الأنطولوجيا الاجتماعية التي تعتمد عليها؛ الحقوق السياسية تعمم، رغم أنها تفعل ذلك دوماً في سياق جماعة سكانية مميزة (ومتمايزة باستمرار). ورغم أن أرندت تشير إلى «أمم» وفي بعض الأحيان إلى مجتمعات انتفاء بوصفها الأجزاء المكونة لهذه التعددية، فمن الواضح أن مبدأ الجمعنة ينطبق أيضاً على هذه الأجزاء، نظراً إلى أنها ليست مميزة (ومتمايزة) فحسب، بل هي نفسها معرفة وفقاً لعلاقات متحولة ومتغيرة بالخارج.

بالفعل، كانت هذه نقطة طالما كنت أشدد عليها في مسألة اليهودية. ربما يكون الإحساس بالانتماء إلى هذه الجماعة يستتبع تبني علاقة باللايهودي تشترط افتراقاً عن الأساس الطائفي لإصدار الأحكام السياسية والمسؤولية على حد سواء. ليس معنى ذلك أن «الواحد» (هنا) يقترب من «الآخر» (هناك)، بل إن هذين النمطين من الوجود مُتَصَمَّمان جذرياً أحدهما في الآخر، لأسباب وجيهة وغير وجيهة.⁽¹⁾ فالـ«هنا» والـ«هناك»، إضافة إلى الـ«آنذاك» والـ«الآن»، تصبح أشكالاً متشابهة داخلياً من المكان والزمان تقابل هذا المفهوم للتساكن.⁽²⁾ علاوة على ذلك، إذا أجازت اليهودية هذا الافتراق عن الانتماء الطائفي، عندئذ يكون «الانتماء» هو الخضوع للتجرد من فئة اليهودية، وهي صيغة واعدة بقدر كونها منظوية على مفارقة. فهي أيضاً تلزم بتطوير سياسة تتجاوز مزاعم الانتماء الطائفي. رغم أن أرندت نفسها تثنى الطريقة التي يمكن أن يؤدي بها المنفى إلى عمل في خدمة أهداف أوسع، ويمكننا هنا أن نقرأ التجرد ك لحظة منفية، لحظة تشجعنا... تقنعنا

(1) انظر إيمانويل ليفيناس، غير الكينونة، أو، ما وراء الجوهر، ترجمة ألفونسو لينغيس (بيتسبورغ: مطبعة جامعة دوكوين، 1998).

(2) هالة خيس نصار ونجاة رحمان (محررتان)، محمود درويش، شاعر المنفى: مقالات نقدية (نورثامبتون، ماساتشوستس: أوليف برانش، 2008). من أجل مناقشة للـ«هنا» والـ«هناك» لدى محمود درويش، انظر جفري ساكس، «أمكنة اللغة» المرجع السابق، 253-61. يربط ساكس بين إحالات درويش الشعرية إلى المعنى المتغير للـ«هنا» بالنسبة إلى فينومينولوجيا الروح لهيغل. في فينومينولوجيا الروح تجري مناقشة الـ«هنا» المتغيرة في الفقرة حول اليقين الحسي. ج. و. ف. هيغل، فينومينولوجيا الروح، ترجمة أ. ف. ميلر (نيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1977)، 60-1.

أخلاقياً. مما ينطوي على مفارقة أنه من الممكن فقط الكفاح لتخفيف معاناة الآخرين إذا كنت مدفوعاً ومجرداً عن طريق معاناي الخاصة. إن هذه العلاقة بالآخر هي التي تجردني من مفهومي المغلق والذاتي المرجعية للانتفاء؛ خلافاً لذلك، لا يمكننا فهم تلك الالتزامات التي تقيدنا عندما لا يوجد نمط واضح للانتفاء وحيث يصبح تقارب الزمانيات شرط ذاكرة التجرد السياسي إضافة إلى القرار بإيقاف هذا التجرد.

هل يمكننا الآن أن نفكر في التحول الذي يحدث من الماضي إلى المستقبل؟ بالضبط لأنه لا يوجد قاسم مشترك بين الأفراد الأعضاء الجمعيين لهذه الإنسانية المشروطة، باستثناء ربما الحق غير المبرر في امتلاك الحقوق، الذي يتضمن حقاً محدداً في الانتفاء وفي المكان، يمكننا فقط أن نبدأ بفهم هذه التعددية باختبار مجموعة من التماثلات التي ستفشل بشكل ثابت. في الحقيقة، بالضبط لأن تجربة تاريخية واحدة للتجرد لا تماثل تجربة أخرى، يبرز الحق في امتلاك الحقوق بشكل دائم بأشكال مختلفة ومن خلال عاميات مختلفة. إذا بدأنا بالافتراض المسبق أن معاناة جماعة واحدة هي مثل معاناة جماعة أخرى، فلا نكون قد جمعنا الجماعات في كتل موحدة مؤقتة فقط - وهكذا نكون قد زيفناها - بل نكون قد انطلقنا إلى شكل من بناء التماثل يفشل حتماً. إذ يتم ترسيخ خصوصية الجماعة على حساب تقلقلها الزماني والمكاني وتغايرها التكويني ولهدف جعلها مناسبة لأجل التعليل التماثلي. لكن التماثل يفشل لأن الخصوصيات تبرهن أنها عنيدة. إن معاناة شعب واحد لا تشبه بدقة معاناة شعب آخر، وهذا هو شرط خصوصية المعاناة بالنسبة لكليها. بالفعل، لن يكون لدينا تماثل بينهما إذا لم تكن الأرضية لأجل التماثل مدمرة مسبقاً. فإذا كانت الخصوصية تؤهل كل جماعة على حدة لأجل التماثل، فإنها أيضاً تقضي على التماثل منذ البدء. وهذا يعني أن صنفاً آخر من العلاقة يجب أن يصاغ من أجل المشكلة قيد البحث، علاقة تقاوم الصعوبات الحتمية للترجمة.

إن العقبة التي تعيق التماثل تجعل تلك الخصوصية بسيطة وتصبح الشرط لأجل سيرورة التعميم. فمن خلال تطوير سلسلة من مثل هذه التماثلات المحطمة أو المستنزفة، فإن الافتراض المسبق الطائفي بأننا يمكننا أن نبدأ بـ«الجماعات» كنقطة

انطلاقاً لنا يلاقي نهايته، وعندئذ ينشأ الفعل الممايز داخلياً وخارجياً للتعميم كبديل واضح. قد نحاول التغلب على مثل هذه «الإخفاقات» باستنباط تماثلات أكثر كمالاً، أملاً في أن نتمكن من إنجاز أرضية مشتركة بهذه الطريقة («الحوار متعدد الثقافات» بهدف الإجماع الكامل أو التحليل البين قطاعي الذي يتم فيه تضمين كل عامل في الصورة النهائية). لكن مثل هذه الإجراءات تضع بيت القصيد وهو أن التعددية تقتضي ضمناً التمايزات التي لا يمكن (ولا ينبغي) التغلب عليها من خلال تفسيرات إستمولوجية أكثر عنفاً أو تماثلات أكثر تشديداً. في الوقت نفسه، فإن توسيع الحقوق، وخصوصاً حق المساكن على الأرض، يبرز كقضية جامعة تحكم أنطولوجياً اجتماعية لا يمكن مجانستها. مثل هذا الحق المعمم يتعين أن ينتهك شروطه اللاعمومية؛ وإلا فإنه يفشل في أن يكون له أساس في التعددية.

تنشد أرندت شيئاً آخر غير المبادئ لتوحيد هذه التعددية؛ وتعرض بشكل واضح على أي مسعى لتجزئة هذه التعددية، رغم أنها، بالتعريف، متميزة داخلياً. إن الفرق بين التجزئة والتمايز واضح: أن تتبرأ من جزء من هذه التعددية؛ أن تمنع إدخال هذا الجزء في جمعية البشر، وأن تنكر المكان على ذلك القسم من الإنسانية، هو شيء. وأن تعترف بالتماثلات المحبطة التي يتعين علينا أن نشق بها طريقنا سياسياً، هو شيء آخر. فالمعاناة الواحدة ليست هي نفس الأخرى. وفي الوقت نفسه، فإن أية معاناة وكل معاناة هي مرفوضة بالقدر نفسه، بفضل الطرد القسري وانعدام الدولة.

تبعاً لبنيامين، إذا كان علينا أن نسمح لذاكرة الطرد أن تصدع سطح فقدان الذاكرة التاريخي وأن تعيد توجيهنا نحو الشروط غير المقبولة للاجئين عبر الزمن والسياق، فيجب أن يوجد تحول بلا تماثل، قطع زمن للزمن الآخر، الذي هو الزخم القومي المضاد للمسيحاني بمصطلحات بنيامين، وهو ما دعاه البعض علمانية مسيحية ترتبط بشكل واضح بعمله عن الترجمة: كيف ينفذ زمن آخر إلى هذا الزمن، من خلال أي وعاء، ومن خلال أي انتقال؟ يفترق زمنٌ زمناً آخر بالتحديد عندما يكون ذلك الزمن الأول تاريخاً للاضطهاد معرضاً لخطر السقوط في النسيان. وهذا

ليس الشيء نفسه كما عملية التماثل؛ ولكنه ليس الشيء نفسه تماماً كما زمانية الرض. في الرض لا ينتهي الماضي أبداً؛ في فقدان الذاكرة التاريخي لم يوجد الماضي أبداً، وتلك - أعني جملة «لم يوجد أبداً» - تصبح الشرط للحاضر. يمكن للمرء، بالطبع، أن يزعم أن التواريخ غير المعترف بها للاضطهاد لا يمكن أن تكون أبداً جزءاً من الماضي، لكنها تستمر كأبعاد طيفية للزمن الحالي. هذا صحيح، طبعاً. لكن رغم أنه توجد رضات تاريخية تمتلك هذه الخصيصة، فما الذي يُحسر وما الذي يُربح باختزال تاريخ الاضطهاد إلى خطاب الرض؟ رغم أن الصراع من أجل تاريخ المضطهدين يؤازر بالتأكيد عن طريق الاعتراف والعمل من خلال الرض، في بعض الأحيان يستمر تاريخ المضطهدين في الأشكال الحالية للاضطهاد. يحتاج المرء فقط إلى أن يدرس التاريخ المتكرر لمصادرة الأرض من قبل دولة إسرائيل. في هذه الحالات، ليس مجرد رض الطرد الكارثي للفلسطينيين من بيوتهم في عام 1948 هو الذي يجب توثيقه فقط، بل الممارسات المستمرة لمصادرة الأرض التي تجعل من الخطأ إحالة مثل هذه الممارسة إلى الماضي وحده.

كنت أجادل في أن إمكانية العلاقة الأخلاقية ذاتها تعتمد على شرط محدد للتجريد من أنماط قومية للانتماء. إننا خارج أنفسنا، أمام أنفسنا، وفي مثل هذا النمط فقط توجد فرصة وجود من أجل آخر. في كتاب أطر الحرب (*Frames of War*)، اقترحت أننا نكون للتو في يدي الآخر قبل أن نتخذ أي قرار حول مع من نختار أن نسكن. هذه الطريقة لكون الواحد مقيداً بالآخر ليست بالضبط رابطة اجتماعية يتم دخولها عبر الإرادة الحرة والتعمد؛ إنها تسبق العقد، تتورط في التواكل، وغالباً ما تظمسها تلك الأشكال من العقد الاجتماعي التي تفترض مسبقاً وتعين أنطولوجيا للأفراد الإراديين. لهذا، فإننا حتى منذ البداية مقيدون بأولئك الذين يكونون غير قابلين للتعريف فوراً كجزء من «مشارك المرء»، الفرد، أو الأفراد، الذين لم نعرفهم أبداً، الذين قد تكون أسماؤهم من الصعب تذكرها أو لفظها، الذين يعيشون في المعاجم المختلفة لكل يوم. إذا قبلنا هذا الصنف من الشرط الأنطولوجي، عندئذ يكون تدمير الآخر هو تدمير حياتي أنا، ذاك المعنى من حياتي الذي هو على الدوام

حياة اجتماعية. وهذا لا يعني أنني إذا دمرت الآخر، تزداد الفرص في أنني أنا ذاتي سأدمر (رغم أن هذا يبدو منطقياً كحساب). بيت القصيد بالأحرى هو أن هذه الذاتية نفسها تكون مقيدة بها ندعوه الآخر بطرق لا تسمح لي بممايزة قيمة مثابرتي عن قيمة مثابرة أي آخرين.⁽¹⁾ قد يكون هذا شرطنا المشترك، المتصور وجودياً، أقل مما هو شرطنا المتقارب - شرط القرب، التجاور، التقابل، أن تكون مقاطعاً ومكوناً من ذكرى توق ومعاناة شخص آخر، رغماً عن المرء - طرق تكون فيها مقيداً بالعلاقات المكانية والزمانية التي تعبر عن اللحظة الحالية. إن تاء التساكن لا يمكن التفكير بها ببساطة كجيرة مكانية: لا يوجد بيت بلا شيء متاخم، بلا خط يحدد ويربط أرضاً بأخرى ولذلك لا مجال للسكنى في أي مكان محدد بدون الخارج المعرف لفضاء السكن. إن تاء التساكن هي أيضاً الرابطة التي يعبر فيها تفصل الزمانيات المتقاربة عن الزمن الحاضر الحالي. ليس زمناً ينفي فيه تاريخ معاناة تاريخ معاناة أخرى، لكن عندما يظل ممكن أن يقدم تاريخ معاناة الشروط للتناغم مع تاريخ آخر كهذا وأنه مهما تكن الصلات المقامة يسير عبر صعوبة الترجمة. بإيجاز، يقتضي التساكن ضمناً تأكيداً على أن شرط حياة المرء الخاصة في حياة آخر حيث توجد تبعية وتمايز وتقارب وعنف؛ هذا ما نجده في بعض الطرق في العلاقة بين أرضين، كإسرائيل وفلسطين، بها أنهما متصلتان بشكل لا فكاك منه، بلا عقد ملزم، بلا اتفاق متبادل، لكن بشكل يتعذر اجتنابه. لذلك يبرز السؤال: أية التزامات تشتق من هذه التبعية، والتجاور، والقرب، التي تعرف الآن كل جماعة سكانية، التي تعرض كل طرف على حدة للخوف من التدمير، والتي، كما نعرف، تعرض أحياناً النزعة التدميرية؟ كيف نفهم مثل هذه الروابط، التي بدونها لا يستطيع السكان أن يعيشوا ولا أن يبقوا على قيد الحياة، وإلى أية التزامات مابعد قومية يمكن أن تؤدي؟

عملياً، أعتقد أن أيّاً من هذه الآراء لا يمكن فصله عن نقد المشروع المتواصل والعنيف للاستعمار الاستيطاني الذي يشكل الصهيونية السياسية. إن ممارسة التذكر بالمعنى البنياميني يمكن أن تؤدي إلى مفهوم جديد للمواطنة، أساس تكويني

(1) انظر المقدمة في كتابي أطر الحرب: متى تكون الحياة جذيرة بالحزن؟ (لندن، فرسو، 2009).

جديد لتلك المنطقة، إعادة نظر بالثنائية القومية في ضوء التعقيد العرقي والديني لكلا السكان اليهود والفلسطينيين، إعادة تنظيم جذرية لتقسيمات الأرض وتخصيصات الملكية اللاشرعية، وحتى حد أدنى من مفهوم التغير الثقافي يمتد إلى السكان برمتهم، وتحميه حقوق المواطنة بدل أن تنكره. الآن قد يجادل المرء ضد كل هذه المقترحات في أنها غير مناسبة لأن يقال علناً، أنها تحمل مخاطرة أكثر مما ينبغي، أن المساواة ستكون سيئة لليهود، أن الديمقراطية سوف تذكي نار اللامسامية، وأن ذاك التساكن سيهدد الحياة اليهودية بالتدمير. لكن ربما يمكن النطق بهذه الردود فقط على شرط أن نفشل في تذكر ما الذي يعنيه اليهودي أو أننا لم نفكر بشكل دقيق بما يكفي في كل التعديلات الممكنة لعبارة «لن يتكرر أبداً» («never again»); التذكر في النهاية لا يقصر نفسه على معاناتي أو معاناة شعبي وحده. إن القيد على ما يمكن تذكره يفرض في الحاضر من خلال ما يمكن أن يقال وما يمكن أن يُسمع، الحدود على المسموع والملموس التي تؤلف بشكل محتمل أي مجال عام. لأن اختراق التذكر إلى ذاك المجال العام هي طريقة واحدة لكي يدخل الدين، ربما، إلى الحياة العامة. السياسة، اليهودية وغير اليهودية، في الواقع غير مقيدة بتلك الثنائية، وتمتد في الواقع، كما يجب، إلى حقل تمايز مفتوح لا يتضمنه التعميم الذي يدعمه. هذه السياسة من الممكن عندئذ أن تبرز باسم التذكر، من الطرد وضده، باتجاه ما يمكن بعد أن تسمى عدالة.

حنة أرندت ونهاية الدولة القومية

لم يكن من السهل أبداً تصنيف حنة أرندت وهذا ربما يتعلق جزئياً بانتقادها المتواصل للمقولات المستقرة في كتاباتها السياسية في الثلاثينيات والأربعينيات. ثمة سلسلة من التقسيمات التي سعت إلى التملص منها وإعادة مفهمتها في تفكيرها السياسي المبكر. تشمل هذه السلسلة، على سبيل المثال، الاختلافات المزعومة بين الصهيونية والنزعة الاستيعابية، والصهيونية واللامسامية، والدولة القومية وحقوق الإنسان، وحتى المواقف القطبية للييسار واليمين ضمن الطيف السياسي.

كانت منهمكة في نوع خاص جداً من الممارسة النقدية، ممارسة سعت إلى التشديد على المفارقات السياسية للدولة القومية. إذا كانت الدولة القومية تؤمن حقوق المواطنين، مثلاً، فهي بالتأكيد ضرورة؛ لكن إذا كانت الدولة القومية تعتمد على النزعة القومية وتنتج على نحو ثابت أعداداً ضخمة من الناس بلا دولة، فثمة حاجة واضحة لمعارضتها. وإذا عورضت الدولة القومية، عندئذ، فما الذي يفيد، إن وجد، كبديل؟ تشير أرندت على نحو متباين إلى أنماط «انتماء» وإلى تصورات لـ «نظام الحكم» لا يمكن اختزالها إلى فكرة الدولة القومية. حتى إنها تشير، في كتاباتها المبكرة، إلى فكرة «أمة» يمكن فصلها عن كل من الدولة والأرض. وهكذا يمكننا أن نسأل: هل تحسم الجواب على سؤال ما إذا كان ثمة نهاية للدولة القومية؟ أم أنها تززع فقط عدداً من الفرضيات حول الحياة السياسية عندما تحاول أن تقارب هذه المشكلة وتتملص منها؟

دعونا ندرس اقتباسين يدخلاننا في مواجهة نقدية مع نوع معين من الالتباس الذي يسم تفكيرها السياسي في هذا المضمار. فقد سئلت ذات مرة، هل أنت محافظة؟ هل أنت ليبرالية؟ فأجابت بهذه الطريقة:

لا أدري. أنا حقاً لا أدري ولم أكن أدري قط. وأعتقد أنني لم يكن لدي مثل هذا الموقف البتة. أنت تعرف أن اليسار يعتقد أنني محافظة، والمحافظون يعتقدون أنني يسارية أو خارجة على الجماعة أو الله يعلم ماذا. ويجب علي أن أقول إنني لم يكن بمقدوري أن أكون أقل اكتراثاً. لا أعتقد أن المسائل الحقيقية لهذا القرن ستحظى بأي نوع من الإضاءة عن طريق شيء من هذا القبيل.⁽¹⁾

الاقتباس الثاني يوضح أكثر موضع الرهان في رفضها لنوع معين من التموضع في موقع سياسي، ضمن طيف اليمين واليسار اللذين يتصارع في الواقع معهما.

(1) «حنة أرندت عن حنة أرندت» في ملفين آ. هيل (محرر)، حنة أرندت: استعادة العالم العمومي (نيويورك: مطبعة القديس مارتن، 1979)، 333 - 4.

يظهر ذلك في سياق مراسلة مع جرشوم شولم [الذي أتيت على ذكره في الفصل الأول] عام 1963. الاقتباس معروف إلى حد ما، لكنه برأيي غير مفهوم جيدا إلى أقصى درجة. والخلفية هي أن أرندت قد اتخذت موقفين علنيين على الأقل أضجرا شولم. أحدهما ذو صلة بانتقادها لتأسيس دولة إسرائيل في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات. أما الآخر فكان نشرها كتابها آيخمان في القدس ودفاعها عنه عام 1963. عبارتها «تفاهة الشر» أغضبت أعضاء كثيرا من الجالية اليهودية الذين ظنوا أن الوصف يرفض الشر الاستثنائي الذي مورس في المعسكرات، وقلقوا من أن صياغتها تخاطر بتففيه فهمنا للإبادة الكارثية لأكثر من ستة ملايين يهودي من قبل نظام الإبادة الجماعية النازي.

يدعو شولم أرندت «بلا قلب» بسبب انتقاد السياسة اليهودية في ذاك الوقت، مقترحا أن يُقرأ النقد الذي شنته كدليل على فشل الحب. كان نص أرندت مثيرا للجدل، بالطبع، بناء على عدد من الروايات. فقد وجد هناك من اعتقدوا أنها أخطأت وصف التاريخ ذي الصلة بالمحاكمات، بما في ذلك تاريخ المقاومة اليهودية في ظل الفاشية، وأولئك الذين أرادوها أن تسمى وتحلل آيخمان نفسه كرمز للشر. على كل، تحاول روايتها لتلك المحاكمات أن تفضح زيف التأملات حول الدوافع السايكولوجية باعتبارها ذات صلة بالأحكام التي تخدم العدالة. ورغم أنها اتفقت مع القرار النهائي للمحكمة الإسرائيلية بأن آيخمان مذنب ويستحق عقوبة الموت، فقد احتجت على الوقائع والأسس التي بني عليها الحكم في النهاية. اعترض البعض على نقدها العلني للمحكمة الإسرائيلية، مجادلين في أنه من غير اللائق وفي غير أوانه انتقاد المؤسسات السياسية الإسرائيلية. أراد آخرون منها أن تتهز فرصة المحاكمة لشن إدانة أقوى لمعاداة السامية. فأن ترى آيخمان شخصا وصوليا، مشوشا، وعلى غير المتوقع «مبتهجا» بمختلف ترجمات عمله الشائن، فشل في إرضاء أولئك الذين سعوا إلى أن يجدوا في دوافعه التتويج المنطقي لقرون من العداء للسامية، الذي انعكس في سياسات «الحل النهائي» الهادف إلى الإبادة التامة لليهود.

رفضت أرندت كل هذه التفسيرات (بما في ذلك البنى السايكولوجية الأخرى مثل «الذنب الجماعي») لكي تثبت (أ) أن «المرء لا يمكنه أن يستخلص أي عمق شرير أو شيطاني من آيخمان»، وإذا كان بهذا المعنى «تافها»، فهو ليس لهذا السبب «مبتذلاً»؛ و(ب) أن تفسيرات عمله على أساس «الشروحات الأعمق» هي موضع خلاف، لكن ما «ليس موضع خلاف هو أن لا إجراء قضائياً سيكون ممكناً على أساسها». (آيخمان في القدس، ص: 290).

[كما ذكر في الفصل الأول] استمر شولم في نقده بالتكذيب الشهير لدوافع أرندت الخاصة، متهماً إياها بالمجيء من اليسار الألماني وعدم حب الشعب اليهودي. فردت بالتعليق بأن حبها هو للأشخاص وليس للشعب.

إن أرندت تخلو بشكل ملحوظ من شفقة معينة في ردها، لكن لماذا؟ هل نعرف ماذا يعني أنها كانت يهودية بطبيعة الحال، خارج السجال أو الجدل؟ هل كانت تقول إنها يهودية بشكل اسمي فقط: مسألة وراثية جينية أو تركة تاريخية أو مزيج من الاثنين؟ هل كانت تقول إنها سوسيولوجياً في موقع اليهودي؟ رداً على تسمية شولم لها بأنها «ابنة الشعب اليهودي»، تكتب أرندت قائلة، «لم أدع أنني أي شيء آخر أو أنني بأي سبيل من السبل غير ما أنا، ولم أشعر بما يغريني في ذاك الاتجاه. سيكون ذلك شبيهاً بالقول إنني كنت رجلاً وليس امرأة - أي مجنونة نوعاً ما» (كتابات يهودية، 466). وتتابع لتسمي «كوني يهودية» «حقيقة لا خلاف حولها في حياتي»، وتضيف: «ثمة شيء من الامتنان الأساس لكل شيء كما هو؛ لما هو معطى وليس مصنوعاً، لما هو «طبيعة» (physei) وليس ناموساً/ قانوناً/ عقلاً/ ثقافة (nomos)» (كتابات يهودية، 466). الجدير بالملاحظة هنا هو أن كونها امرأة ويهودية هو جزء من الطبيعة، ولذلك فهو مشكل طبيعياً بدلاً من كونه جزءاً من أي نظام ثقافي أو ممارسة ثقافية. لكن هل هي تغالي في الحالة؟

بعبارة أخرى، هل هاتان المقولتان مفترضتان أم مصنعتان، وهل يوجد «صنع» لما هو «مفترض» يعقد التمييز الظاهر بين الطبيعة والناموس؟ رغم كل شيء،

يمكن للمرء أن يرفض هاتين المقولتين، فيتبرأ من اليهودية أو يغير الجنس، أو يمكنه أن يؤكدهما في شكل من العرفان بالجميل، كما تزعم أرندت أنها تفعل. لكن حقيقة أن المرء يمكن أن يكون غير ممتن أو غير سعيد بأي من هاتين المقولتين الخاصتين توحي بأن كيفية مقارنة المرء للمقولة تصبح مركزية لأهميتها. نتيجة لذلك، ينشأ التباس بين الطبيعة والناموس، موحياً بأن من غير الممكن دوماً تحقيق استقرار التمييز بين الاثنين. ما يهم هو أن نفهم أنها تدافع عن نفسها ليس في قاعة محكمة بل في رسالة موجهة إلى شولم الذي نصب نفسه، باتهامه، ممثلاً عن «الشعب اليهودي». توسعا في المفهوم الذي تكون به يهودية، تعلن أرندت بشكل ثابت عن يهوديتها وتعينها بطريقة محددة. يمكننا أن نقرأ الرسالة بوصفها مثلاً كهذا على تكوين الذات الاستطراذي، إذا شئتم. بهذه الطريقة يبدو من المهم أن نفهم أن أرندت، بكتابة هذه الرسالة، كما في منشوراتها على مدى عقدي الأربعينيات والخمسينيات، إنما تقدم نفسها كيهودية يمكنها أن تتخذ هذا الموقف. سيكون من الصعب قراءة ردها على شولم بوصفه شيئاً آخر سوى مسعى لفهم، أو تقديم تصور محدد، للطبيعة التي هي عليها. وإذا كانت تفعل ذلك، فالطبيعة تخضع لصياغة ثقافية.

بالفعل، يمكن للمرء أن يرى في مؤلفها كتابات يهودية (*Jewish Writings*) أن أرندت تتصارع، منذ الثلاثينيات حتى نهاية الستينيات، مع ما يعنيه أن تكون يهودية بدون إيمان ديني قوي ولماذا قد يكون من المهم أن نميز، كما تفعل هي، بين اليهودي العلماني واليهودي المندمج. رغم كل شيء، فهي تصنف نفسها بأنها يهودية، حتى إنها تعبر عن العرفان بالجميل لأجل تلك الحقيقة من حياتها ولذلك تأخذ مسافة عن الرؤية الاندماجية. ليست كل أشكال اليهودية العلمانية هي اندماجية. في مقالة مبكرة غير مكتملة حول «اللاسامية»، تعود في تاريخها إلى حوالي عام 1939، تجادل أرندت في أن كلا من الصهيونية والاندماجية تنشآن من دوغماتية مشتركة. ففي حين يعتقد الاستيعابيون أن اليهود ينتمون إلى الأمم التي تستضيفهم، يعتقد الصهيونيون أن اليهود يجب أن تكون لهم أمة، لأن كل أمة أخرى تُعرّف بشكل مستقل عن أقليتها اليهودية. أرندت تستنكر كليهما: «هذان كلاهما العيب نفسه، وكلاهما ينشآن

من خوف يهودي مشترك من الاعتراف بأنه توجد، وكانت توجد دوماً، مصالح متشعبة بين اليهود وشرائح الشعب الذي يعيشون معه» (كتابات يهودية، 51). بالنسبة لأرندت، فإن استمرار «المصالح المتشعبة» لا يشكل مبرراً للاندماج أو الفصل. إن كلا الصهيونيين والاندماجيين «يحفظان بتهمة الأجنبية» الموجهة ضد اليهود: يشير الاندماجيون إلى هذه الحالة الأجنبية ويسعون إلى تقويمها من خلال اكتساب الدخول إلى الأمة المضيفة كمواطنين كاملين، في حين يفترض الصهيونيون أنه لا يمكن أن يوجد أي مضيف أجنبي دائم للشعب اليهودي، بحيث إن العداء للسامية سوف يحل عليهم في أي ترتيب كهذا وإن إنشاء أمة يهودية تحديداً هو وحده الذي يمكنه أن يوفر الحماية والمكان. كلا الموقفين يشتركان بمنطق معين للأمة بدأت أرندت تشارك به، أولاً في استقصاءاتها في عقد الثلاثينيات في اللاسامية وتاريخ اليهود في أوروبا ومن ثم طوال عقد الأربعينيات في كتاباتها المنشورة في الصحيفة اليهودية الألمانية، أوفابو (*Aufbau*)، حول فلسطين وإسرائيل، وفي نقدها اللاذع للدولة القومية وإنتاج أشخاص بلا دولة في كتابها أصول الشمولية (*The Origins of Totalitarianism*) في أوائل الخمسينيات.

من الواضح أنه من الخطأ قراءة ردها على شولم بوصفه اعتناقاً للاندماجية. فقد كانت يهودية علمانية، لكن تلك العلمانية لم تحجب اليهودية؛ النزعة العلمانية قامت بوظيفتها، بالأحرى، كطريقة لتخصيص تلك اليهودية تاريخياً وحتى مقاومة الاستيعاب. الشكل اليهودي من العلمانية الذي انتمت إليه بالتالي خصوصي؛ فهي، على حد تعبيرها، عاشت في أعقاب إيمان مفقود معين (رغم أنها في عام 1935 امتدحت مارتن بوبر لتجديده القيم الدينية لليهودية). إن خبرتها بالفاشية الألمانية، وهجرتها القسرية إلى فرنسا في الثلاثينيات، وهروبها من معسكر الاعتقال في غورز، وهجرتها اللاحقة إلى الولايات المتحدة في عام 1941 شكلت منظوراً تاريخياً خاصاً حول اللاجئين ومن لا دولة لهم وترحيل وطرده أعداد كبيرة من الشعوب، وهو موقع جعلها ناقدة للنزعة القومية وعواطفها، وأطلق مجموعة من التأملات الغاضبة حول مكانة الدولة القومية.

إن عدم كونها قومية لا يعني أنها لم تكن يهودية: على العكس، كان انتقادها محدداً للنزعة القومية التي انبثقت، جزئياً، من الوضع التاريخي للنفي والطرْد. بالنسبة لها، لم تكن هذه مشكلة «يهودية» حصراً، بل يمكننا أن نرى أن هذا الاستتاج ينشأ عن القدرة - وحتى الالتزام السياسي - على تحليل ومعارضة الترحيلات، والتهجيرات السكانية، وحالة انعدام الدولة - بطرق ترفض الروح القومية وأخلاقياتها. على هذا الأساس، إذًا، يمكن للمرء أن يفهم انتقادها لبعض أشكال الصهيونية والاندماجية. وبأخذ هذه التأملات في المقاييس التاريخية ليهوديتها في الذهن، دعوني أعود إلى الاسامية الظاهرة في تعليقها الأخير إلى شولم، وهو أنها لا «تحب» اليهود ولا «تؤمن» بهم، بل «تتمي» إليهم فحسب «كأمر واقع وخارج نطاق السجال أو الجدل». في هذه الجملة، كلمتا «حب» و«إيمان» توضعان بين علامتي اقتباس، لكنني أتساءل ما إذا كانت العمومية أيضاً، «اليهود»، هي ما تعترض عليها. رغم كل شيء، فقد قالت إنها لا تستطيع أن تحب شعباً، بل تحب أشخاصاً فقط (رغم أنها كتبت ذات مرة عن «حب العالم» بوصفه ممكناً وإلزامياً). فما الخطأ في فكرة حب شعب؟ في أواخر الثلاثينيات، جادلت أرندت في أن اليهود لـ «تحرير» اليهود في أوروبا القرن التاسع عشر قد تم استثمارها في «مصير» اليهود بأقل مما استثمرت في مبدأ تقدم معين: تقدم يتطلب أن يفكر باليهود كتجريد: «التحرير كان ينبغي أن يمتد ليس إلى اليهود الذين قد يعرفهم أو لا يعرفهم المرء، ليس إلى البائع المتجول المتواضع، أو إلى مقرض المبالغ الكبيرة من المال، بل إلى «اليهودي عموماً» (كتابات يهودية، 62).

مثلما كان ثمة يهود يُعتبرون استثنائيين، كموسى مندلسون (Moses Mendelsohn)، الذي بات يرمز إلى «اليهود عموماً»، كذلك بات «اليهودي» يرمز إلى تقدم حقوق الإنسان. كان اليهودي المجرد يتطلب إقامة وتأمين تمييز بين اليهودي العادي واليهودي الاستثنائي. هذا التمييز، بدوره، شكل الأساس للاسمية تضع اليهودي العادي بشكل متساوق في قالب المفسد البغيض. قد نرى هنا صياغة معينة فصلت فيها التنويرية التقدمية المعارضة للاسمية المبدأ عن الأشخاص، مقدمة تشكيلاً فصامياً محددًا للمعارضة اللاسمية للاسمية. لقد

جادلت أرندت في أن «الشكل الكلاسيكي الذي طرحت فيه المسألة اليهودية في التنوير توفر للاسامية الكلاسيكية أساسها النظري» (كتابات يهودية، 64).

عندما ترفض أرندت أن تحب «الشعب اليهودي»، فإنها ترفض أن تشكل ارتباطاً بتجريد خدم أغراضاً مشبوهة. هذه النسخة التي ولدها منطق تاريخي يفصل بإلحاح المبدأ المجرد، «الشعب اليهودي»، عن التعددية الحية للكائنات التي يزعم أنه يمثلها، لا يمكنها سوى أن تعزز كلا من اللاسامية ومعارضها خاطئي الرأي. يشمل «الشعب اليهودي» بشكل مفترض أولئك المحبوبين وأولئك الذين لا يُعرف معظمهم جيداً بما يكفي لتقرير مسألة محبوبيتهم. بأي حال، فكرة أن الحب يمكن إدامته لتجريد يدعى «الشعب اليهودي» تفترض مسبقاً منطقاً يتتمي، وفقاً لأرندت، إلى تاريخ اللاسامية، وهو سبب كاف لرفض الصيغة. مبدأ التجريد هذا هو الذي ترفضه في رفضها لغة شولم، إضافة إلى نزعة القومية. إن دحض شولم هو إشكالي بشكل خاص هنا نظراً إلى أنه يكتب من إسرائيل في عام 1963 ويعترض على رواية أرندت القاسية تماماً لإجراءات المحكمة الإسرائيلية في محاكمة آيخمان. لذلك فهو لا يتهمها فقط بعدم حب الشعب اليهودي، لكنه يفترض مسبقاً أن إسرائيل ومحاكمها - وربما أيضاً استراتيجياتها للشيطنة - «تمثل» بشكل شرعي أولئك الناس. فعلياً، شولم يستبعد اليهودي الشتاتي أو اللاصهيوني - عدد سكان ضخماً نوعاً ما يصدف أن يشمل أرندت نفسها - من «الشعب اليهودي» الذي يكتب باسمه.

أرندت نفسها ليست أقل تعقيداً. رغم زعمها في عام 1963 أن كونها يهودية هو ببساطة شيء معطى ولا خلاف حوله، كانت قبلئذ قد عارضت الذين «يعلنون أنفسهم بخطرسة أنهم فوق الصلوات بالأمم». هل اليهودية، إذن، حقيقة وجود أم نمط قومي من الانتماء؟ لقد جادلت أيضاً في أن المرء إذا هوجم كيهودي، فيجب عليه أن يصد الهجوم كيهودي (رغم أنها نبذت الصيغة الساترية التي كانت تعتقد أن اللاسامية أنتجت اليهودي). نتيجة لذلك، حتى لو أن كون المرء يهودياً مسألة «طبيعية»، فإنها لا تميز الاندماج أو الفردانية. لكن هل يمكن أن تعني ضمناً الانتماء القومي؟ بالفعل، فهي تصف اليهود كأمة في كل مكان من كتاباتها في الثلاثينيات

والأربعينيات. وفقاً لأرندت، كان المفتاح إلى التفكير في هذا النمط من الانتفاء بطريقة ترفض النزعة القومية وتتملص من المنطق الجدلي السيء الذي يفرخ أمثلة مجردة، من جهة أولى، وتشويه سمعة تخصيصياً، من الجهة الأخرى، وكلاهما يدعمان الصيغ الكلاسيكية للاسامية. هل كان بإمكان أرندت أن تتكلم بالنيابة عن اليهود كأمة حتى عندما تعارض أشكالاً معينة من الصهيونية والقومية، وفي نهاية المطاف حتى عندما تعارض فكرة دولة قومية يهودية؟

فيما يتعلق بالقومية اليهودية القائمة على فرضيات علمانية، فإنها تعارض بشكل واضح. هذا لا يعني أنها تريد نظام حكم قائماً على أسس دينية أيضاً. لكي يكون عادلاً، على أي نظام حكم أن يوسع المساواة ليشمل المواطنين كافة والقوميات كافة: ذاك بطرق كثيرة هو الدرس الذي تتعلمه من معارضة الفاشية الألمانية واقتفاء الأنماط المتكررة الحدوث من اللادولة في القرن العشرين. إنها تقلق بشكل صريح من انحدار اليهودية من مجموعة معتقدات دينية إلى هوية سياسية قومية. تكتب أرندت:

أولئك اليهود الذين لم يعودوا يؤمنون بإلههم بطريقة تقليدية لكنهم يستمرون في اعتبار أنفسهم «مختارين» بشكل أو بآخر، لا يمكن أن يقصدوا بذلك شيئاً آخر سوى أنهم بالطبيعة أكثر حكمة أو أكثر تمرداً أو أكثر ملحاً من الأرض. وهذا سيكون، كيفما قتلتته وأدرته كما تشاء، ليس سوى نسخة من الخرافة العنصرية. (كتابات يهودية، 162).

تزعم في إحدى المحطات أن «بؤسنا القومي» قد نجم عن «انهيار حركة شبطي تسيفي»^(*). منذئذ أعلننا عن وجودنا في حد ذاته - بلا أي مضمون قومي أو عادة أي

(*) شبطي تسيفي [1675 - 1626 (Shabbetai Tzevi)]: حاخام وقبالي سفاردي ولد في تركيا وجمع أتباعاً كثيراً بعد ادعائه أنه المسيح المنتظر فحاكمته الدولة العثمانية بتهمة تشويه الدين اليهودي وإثارة الفتنة. أسلم، اتقاء حكم الإعدام، وأقنع الكثير من أتباعه بالإسلام، وصاروا يعرفون في التركية باسم «دونمك»، أي «المهتدون» إلى دين الحق و«المرتدون» عن دينهم.

مضمون ديني - كشيء ذي قيمة». (كتابات يهودية، 137).⁽¹⁾ رغم أنها تفهم بشكل واضح النضال من أجل البقاء بوصفه لا غنى عنه لمصير اليهود في القرن العشرين، فإنها لا تقبل بفكرة أن «البقاء ذاته» صادر مثل العدالة أو المساواة أو الحرية. إن السياسة الملتزمة بهذه المعايير الأخيرة تقطع تلك الروابط القومية التي يعتمد تحققها على مسألة البقاء ويتجاوزها.

إذا كانت أرندت ترفض التمثل والفردانية على حد سواء، وتعبر عن شكية تجاه من يعتبرون أنفسهم بعيدين عن كل مفاهيم الأمة، فكيف لنا أن نفهم، بلغتها، بأي معنى يكون اليهود أمة وما إذا كان بمقدورهم أن يكونوا أمة بلا نزعة قومية وبلا دولة قومية؟ في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات كانت أرندت تعتقد بأن اليهود يمكن أن يصبحوا أمة بين الأمم، جزءاً من أوروبا متحدة؛ إذ تخيلت أن كل الأمم الأوروبية التي كانت تكافح ضد الفاشية يمكنها أن تتحالف بعضها مع بعض، وأن اليهود يمكن أن يكون لهم جيشهم الخاص بهم الذي سيكافح ضد الفاشية بالتحالف مع الجيوش الأوروبية الأخرى. جادلت آنذاك دفاعاً عن أمة بلا أرض (وهو موقف نموذجي للآراء الصهيونية الثقافية المبكرة) لا معنى لها إلا في شكل اتحادي فيدرالي، أمة سيتم تعريفها بتعددتها التكوينية. هذا الموقف قادها إلى تفضيل اقتراح دولة يهودية - عربية فيدرالية في مكان إسرائيل كدولة قائمة على السيادة اليهودية. في رؤيتها لعام 1943، «لا يمكن إنقاذ فلسطين كوطن قومي لليهود إلا إذا اندمجت في اتحاد فيدرالي» (كتابات يهودية، 19).

لكنها، في الكفاح ضد الفاشية الألمانية، اعتقدت أن المساواة يجب أن توجد بين الأمم المناضلة من أجل الحرية وضد الفاشية. ورغم أن هذا حل سياسي علماني، فإنها تعلن عن المبرر لتنظيم سياسي كهذا بالرجوع إلى أمثلة دينية من داخل اليهودية. إذ تكتب: «إننا، كيهود، نريد أن نقاتل من أجل حرية الشعب اليهودي لأنني إذا لم أكن

(1) انظر جاكين روز، مسألة صهيون (برينستون، نيو جيرسي: مطبعة جامعة برينستون، 2005)، من أجل رأي معاكس. تربط روز الحركة المسيحانية بالسعي الصهيوني وراء الكارثة العسكرية المتكررة. سؤالها هو ما إذا كان بمقدور المسيحاني أن يخلق موقفاً عسكرياً مضاداً.

لصالح نفسي - فمن سيكون لصالحه؟ وكأورويين نريد أن نقاتل من أجل حرية أوروية، لأنني إذا كنت لصالح نفسي فقط - فمن أكون» (كتابات يهودية، 142). هذا السؤال الأخير، كما ذكرت سابقاً، هو السؤال الشهير لهيلل، المعلق اليهودي من القرن الأول ميلادي. مما يثير الاهتمام، أنها لا تستعمل ذلك الاقتباس عندما تكتب إلى شولم، لكن أليس ربما موجوداً، يسكن الرد؟ في معارضتها لشولم، ترفض أرندت أن تقدم صياغة دينية لهويتها الخاصة. لكن هنا، وفي أماكن أخرى، على سبيل المثال في مناقشتها للغفران في كتاب الشرط الإنساني (*The Human Condition*)، تتكل على التراث الديني اليهودي لصياغة المبادئ السياسية التي تنظم الحقل العلماني للسياسة (وهذا شيء غير إقامة سياسة علمانية على مبادئ دينية). ربما يمكننا أن نميز النزعة الأخلاقية التي نجدها لدى هيلل في الكلمات التي تستعملها: «هذا الحب لليهود سيبدولي، بما أنني أنا نفسي يهودية، شيئاً مشبوهاً نوعاً ما. لا يمكنني أن أحب نفسي أو أي شيء أعرف أنه جزء لا يتجزأ من شخصي». ثم مرة أخرى، في قولها «والآن هذا الشعب يؤمن فقط بنفسه؟ أي خير يمكن أن يتمخض عن ذلك؟» لا يمكنها أن تكون لنفسها فقط، لأنها عندئذ من ستكون؟ لكن إذا لم تكن لنفسها، فمن سيكون لها؟ مهما كان البقاء مهماً، فإنه ليس هدف الحياة الأخلاقية. يجب على المرء أن يكون من أجل شيء آخر غير بقائه الخاص، مع أنه، يمكن لنا أن نفترض، لا يمكن للمرء أن يستمر في كونه من أجل أي شيء (وهكذا يعيش بشكل أخلاقي) بلا بقاء أيضاً. وكسمة مكونة لذلك البقاء، الذي لا تستطيع، أو لا تريد، إنكاره، هو يهوديتها. من هنا، يمكننا أن نجادل في أنها، كيهودية، يجب عليها أن تكون من أجل شيء ليس هو ذاتها.

إن طريقة أرندت في مفاوضة هذا الموقع للانتباء والالتزام بالآخرين لا تنجو من صيغة المفارقة. فردها على شولم لا يثبت مكانتها بدقة كيهودية متمثلة، بل بالأحرى كواحدة مهمتها النقدية هي أن تعارض تجريد الشعب اليهودي الذي دعم نزعة التمثيل والاندماج، والنزعة القومية الصهيونية، ومعاداة السامية على حد سواء. علاوة على ذلك، فإنها تنشد اللجوء إلى حس الانتباء للعالم غير اليهودي، انتهاء لا

هو تماه جذري ولا هو تمايز جذري ولذلك فإنه في الوقت نفسه يحفظ الاختلاف اليهودي ويقاوم نزعة الهوية اليهودية. اللايهودي المفضل الذي تضعه في ذهنها هو، بالطبع، الأوروبي، ورغم أنها ستبذل في وقت لاحق بعض الجهود في التفكير حول ما يمكن أن يعنيه «الانتماء» لليهود والعرب الذين يقطنون الأرض نفسها، فإن آراءها طوال هذه الفترة بقيت مركزية أوروبية بالتأكيد. «إننا ندخل هذه الحرب كشعب أوروبي»، كما ألحت في أواخر الثلاثينيات. لكن هذا يساوي، بالطبع، تحريف تاريخ اليهودية، تهميش السفارديم، اليهود المتحدثين من إسبانيا وشمال أفريقيا، واستبعاد، مرة أخرى، المزاراحيم، اليهود المتحدثين من البلدان العربية، أو اليهود العرب، أولئك الذين يحظون بذكر مختصر بوصفهم «يهوداً شرقيين»، في كتاب آيخمان في القدس⁽¹⁾. بالفعل، إن هذه الفرضية المسبقة حول التفوق الثقافي لأوروبية تغطي على الكثير من كتاباتها اللاحقة وتصبح الأكثر وضوحاً في انتقاداتها المفرطة لفرانتز فانون، وفضحها لزيف تعليم السواحلية في بيركلي، ونبذها لحركة القوة السوداء في الستينيات⁽²⁾. لكن ربما كان المثال الأكثر دراماتيكية على غطرستها الأوروبية يوجد في رسالة كتبها إلى كارل ياسبرز (Karl Jaspers) في عام 1961 أثناء محاكمة آيخمان؛ فقد طورت تنميطةً عنصرياً لما كانت تراه:

انطباعي الأول. في القمة، القضية هم الأفضل في القضاء الألماني.. تحتهم، رجال النيابة العامة المضايقون، إنهم غاليسيون، لكنهم يظلون أوروبيين. كل شيء منظم من قبل قوة بوليس تسبب لي الذعر، تتكلم العبرية فقط، وتبدو عربية. توجد بينهم بعض النماذج الوحشية بكل معنى الكلمة. لا يتبعون أي نظام. وفي الخارج، الرعاع الشرقيون، كما لو كان المرء في استنبول أو بلد نصف آسيوي آخر. بالإضافة إلى

(1) انظر الهامش 25 أدناه. انظر أمنون راتس - كراكونسكين، «الثنائية القومية والهوية اليهودية: حنة أرندت ومساءلة فلسطين» في: ستيفن إ. أشهايم، محرر، حنة أرندت في القدس (بركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 2001)، 165 - 80، «الشعوبية اليهودية، السياسة اليهودية» والمسؤولية السياسية - أرندت عن الصهيونية والتقسيمات (على ملف مع المؤلف).

(2) حنة أرندت، في العنف (نيويورك: هاركورت، برايس، 1969)، ص: 20، 67، 80، 18، 24، 65.

ذلك، وبشكل ظاهر جداً في القدس، يوجد يهود القفطان والسوالف
المجعدة الذين يجعلون الشرق الأوسط مكاناً مستحيلاً بالنسبة لكل
الناس العاقلين هنا.⁽¹⁾

من الواضح أن «الناس العاقلين» لا هم متدينون ولا هم عرب، وإشارتها إلى
الرعاك الشرقيين تبين أن جزءاً من اعتراضها على إسرائيل له علاقة بالفكرة المهينة
في أن اليهود الأوروبيين سوف يتموضعون في الشرق الأوسط، مختلطين مع اليهود
العرب والسفارديين. لقد كان مفهوم أرندت لليهودية أوروبياً بشكل غالب، ورغم
أنها جادلت في أنها لا تستطيع أن تحب سوى الأشخاص، وليس «الشعب» من أي
نوع، سيكون من المثير للاهتمام أن نعرف ما إذا كان بمقدورها مع ذلك أن تكره
«الشعب»- جامعة إياه كما فعلت في «رعاك شرقيين»، وما شابه⁽²⁾. إذا كان اليهود
الأوروبيون مرتبطين بـ«العقلانية» وأولئك المتحدرون من الثقافة العربية «يتبعون
أي نظام»، فإنها أقامت بشكل غير مقصود توازياً بين آيخمان، الذي تتهمه أيضاً باتباع
أي نظام، وبين اليهود غير الأوروبيين الذين تواجههم عن بعد في محاكمة القدس.
كلاهما خارج ثقافة العقل الافتراضية، ومع ذلك فإن آيخمان هو، بشكل واضح
جداً، ألماني وأوروبي.

هذا الربط اللاواعي ربما بين اليهودي العربي وآيخمان يكشف عن خط صدع
خطير في تفكير أرندت. ثمة نوع معين من اليهودي لا تحبه (العربي) ونوع معين من
الألماني لا تحبه (النازي). فإذا وقع كلاهما خارج مجال العقل واتبعا أي نظام بدافع
الطاعة العمياء، عندئذ فإن أياً منهما لن يفكر بشكل سليم. يبدو أن التفكير السليم

(1) أرندت إلى ياسبرز، الرسالة 285 (13 نيسان 1961)، في: حنة أرندت وكارل ياسبرز، مراسلات،
1926-1969، تحرير لوتيه كولر وهانز سانر، ترجمة روبرت كيمبر وريتا كيمبر (نيويورك:
هاركورت برايس جوفانوفيتش، 1992)، ص: 434-6.

(2) انظر راتس- كراوتسكين، «الشعبوية اليهودية». انظر أيضاً: آن نورتون، «قلب الظلام: أفريقية
والأميركيون الأفارقة في كتابات حنة أرندت»، في: بوني هونينغ (تحرير)، تفسيرات نسوية لحنة
أرندت (يونيفرستي بارك: مطبعة جامعة ولاية بنسلفانيا، 1995)، 247-62.

ينتمي إلى تلك المجموعة الفرعية من اليهودي والأوروبي، وهي يهودية ألمانية، رغم أن ذلك ربما لا يكون بشكل حصري. إن مركزية أرندت الأوروبية الطاغية (مركزية كان بإمكانها، تبعاً لتوكفيل، أن تجد متسعاً للشخصية النموذجية للثورة الأمريكية)، يمكن النظر إليها كاستمرار لصلة يهودية ألمانية عبر عنها هرمان كوهن بالشكل الأكثر دراماتيكية. فقد أثارت مقالاته [«الألمانية واليهودية» (Deutschtum and Judentum)]، المنشورة في عام 1915، قضية أن اليهود ليسوا في الواقع بحاجة إلى وطن، نظراً إلى أنهم يتمتعون أساساً إلى تعريف أوروبية⁽¹⁾. كانت حجة كوهن موجهة ضد النسخ المبكرة من الصهيونية (المؤتمر الصهيوني الأول انعقد في بازل في عام 1897). لكنها أكدت أيضاً إيماناً كان يحمل به أن أوروبية المكان المناسب، وحتى الأكثر أماناً لليهود. بالطبع، باتت قراءة مقالة كوهن مؤلفة بشكل متزايد مع مرور الزمن، نظراً إلى أنه كان يؤمن بأن ألمانيا ستحمي اليهود من اللاسامية. وتحفظ مقالاته بإيمان لا يتزعزع بأن اليهودية والألمانية مترابطتان، وأنه من غير الممكن التفكير في نمط انتفاء واحد دون الآخر. من الواضح أن كوهن أنكر الأدلة التاريخية على اللاسامية الألمانية، المتاحة في ذلك الوقت. لكن أوروبية، بالنسبة له، لم تكن الاسم لكل الظواهر السوسيولوجية التي وجدت داخل أراضيها، بل لمثال، كانطي بشكل رئيسي، كان كوهن يربطه بالفلسفة الأخلاقية الألمانية. في الحقيقة، حاولت فلسفته الأخلاقية، المرتبطة بمدرسة ماربورغ الكانطية الجديدة، أن تصالح بعض مفاهيم العدالة الاجتماعية، المشتقة من مصادر لاهوتية يهودية، مع المبادئ الكونية المشتقة من كانط. فقد جادل كوهن بشكل صريح دفاعاً عن زواج النزعة الإنسانية الألمانية والمسيحانية اليهودية، وهو اقتران كان يعتقد بأنه يثمر «دين العقل». رغم أنه كان يرى ألمانيا تغلق أبوابها في وجه اليهود الأوروبيين الشرقيين أثناء الحرب العالمية الأولى، وعارض ذلك علناً، فقد استمر في تقديم الولاء لثقافة كانت تكشف عن إشارات متزايدة على أنها لن تفشل في حماية اليهود فحسب، بل

(1) يمكن إيجاد ترجمة إنكليزية لمختارات من كتاب هرمان كوهن اليهودية والألمانية (Deutschtum und Judentum) في كتاب أيفا جوسب (تحرير وترجمة)، العقل والأمل: مختارات من الكتابات اليهودية لهرمان كوهن (نيويورك: مطبعة كلية الاتحاد العبري، 1997).

ستعرضهم للخطر بشكل أساسي. توفي كوهن في عام 1918، لذلك فإن ما شهده فعلاً كان اللاسامية الصاعدة في الخطاب العام وحصص المهجرة الضيقة بشكل متزايد. لكن يبقى من المؤلم أن نتأمل الرهان الذي راهن عليه وظن أن الآخرين سيراهنون عليه أيضاً.

بالطبع، يبدو أن الصهيونية تكسب المباراة، إذا تأملنا اعتناق كوهن للمساوي لألمانيا كوطن بوصفها البديل الوحيد. رغم أن هذا ليس المسار الذي سلكته أرندت في النهاية، ثمة مفكران يظنان قريين. فهما يحتفظان بالإيمان بأوروبية، الذي هو في الواقع صنف غريب من المركزية الأوروبية، ومماهاة لما هو الأفضل في الثقافة الألمانية مع فلسفة كانط. في هذا السياق، من المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه في أثناء عهد هتلر، عندما كانت أرندت تساهم في صحافة الحرب في ألمانيا وفرنسا (حيث عاشت لفترة قصيرة قبل أن تغادر إلى مدينة نيويورك والمدرسة الجديدة في عام 1940)، جادلت دفاعاً عن وجود جيش يهودي. فقد طالبت بجيش يهودي سينضم إلى القتال ضد الاشتراكية القومية، وتخيلت أنه سيعمل بالتنسيق مع الجيوش الأوروبية الأخرى - كجزء من جماعة فيدرالية. إن اليهود، المتصورين كأمة، سيقاتلون إلى جانب الفرنسيين والهولنديين غير المتعاونين مع الاحتلال والإيطاليين المناهضين للفاشية. فمن جهة أولى، كان ملحوظاً أن أرندت فهمت الشعب اليهودي كأمة وبشكل خاص كأمة أوروبية. ومن الجهة الأخرى، من المثير للاهتمام أن نلاحظ أنها حتى هنا، أوروبياً بدءاً من هنا، تحاول توسيع مفهوم المقاومة الأمية والتعاون الذي لم يكن ماركسياً ولا كان يقوم على المفاهيم الليبرالية الكلاسيكية للفردانية.

يمكن للمرء أن يرى بوضوح كيف يسعى كل من أرندت وكوهن إلى حصر فكرة اليهودية بما هو أوروبي، الذي يصبح طريقة لإنكار وجود التراثات اليهودية اللاأوروبية وأهميتها. لكن، وهو الأهم، كلاهما ينظران إلى كانط كطريقة لتأمين الصلة الفكرية الأوروبية من أجل ثقافة يهودية «معقولة». سيتبين أن ذلك مهم في كتاب أرندت آيخمان في القدس عندما تعترض على تحالف آيخمان نفسه مع فلسفة كانط الأخلاقية [وهو موضوع سوف ندرسه في الفصل القادم].

على كل، يبدو أن مصاعب شولم مع أرندت لا علاقة لها بآرائها العنصرية حول الديموغرافية اليهودية في إسرائيل. فهو يثير ضمناً سؤال ما إذا كان عدم حبها الظاهر للشعب اليهودي يمكن أن يفسر انتقاداتها لتأسيس إسرائيل ورفضها دعم حقوقها المزعومة في السيادة اليهودية في الفترة الممتدة من 1944 إلى 1948. قد تبدو محاولات وضعها على «اليسار» مفهومة بهذا الخصوص، لكن مهما كان التناغم مع اليسار فهو جزئي فقط. كنا سنخطئ فهم الخط الذي تسعى إلى السير فيه لو قبلنا ذلك التوضع بشكل أسهل مما ينبغي. على سبيل المثال، في نقد الدولة القومية الذي قدمته في كتابها أصول الشمولية، تعلن أرندت صراحة أن الدولة القومية الحديثة مرتبطة، عن طريق نوع من الضرورة، بإنتاج أعداد ضخمة من اللاجئين أو الأشخاص بلا دولة. من الناحية الأخرى، تسارع إلى انتقاد تلك الأشكال القائمة من التحالف الأممي، التي تسعى إلى تأمين حقوق الإنسان لمن لا دول لهم، بأنها عديمة الفائدة وعقيمة. إذ تقدم سجلاً طويلاً للجهود الأممية المحبطة لصياغة حقوق الإنسان وتأمينها وتعزيزها خارج إطار الدولة القومية (أصول الشمولية، ص: 267-302). وهذا ما قاد الكثير من قراء أرندت إلى استنتاج أن الدولة القومية حتمية، وأن علينا، إذا كنا نحرص على الحقوق، أن ننشئ ونبني ونحمي الدول القومية التي ستصوغ وتؤمن حقوق الإنسان الأساسية لكل ساكنيها.

لكن آراء كهذه تفشل في أن تأخذ على محمل الجد اقتراحاتها المتعلقة بأنظمة الحكم الفيدرالية، التي طورتها فيما يتعلق بأوروبا وفلسطين. وفقاً لذلك، يمكن للمرء أن يرى علاقة على درجة عالية من الالتباس بالصهيونية. ثمة مفارقة كبيرة في فكر أرندت السياسي في الثلاثينيات: فهي تجزم بأن الانتماء القومي هو قيمة مهمة وتؤمن بأن القومية تشكيل سياسي مؤذ ومميت. في أوائل الأربعينيات دعمت الهجرة اليهودية من أوروبا إلى فلسطين، لكن فقط على شرط أن يقاتل اليهود أيضاً من أجل الاعتراف بهم «كأمة» ضمن أوروبا. في عام 1935، امتدحت مارتن بوبر ومشروع الكيبوتزيم الاشتراكي، وبعد ذلك بعام آخر حذرت من الاعتقاد بأن الاحتلال اليهودي لفلسطين يمكن أن يعمل كحماية دائمة ضد اللاسامية. في

أوائل الأربعينيات، كتبت عدة افتتاحيات طالبت فيها بفصل فكرة الأمة عن فكرة الأرض. بناء على هذه الرؤية دافعت عن الاقتراح بإنشاء جيش يهودي وشنت انتقاداً شديداً للهجة لعلاقة الحكومة البريطانية «الملتبسة» باليهود، كما شهدت على ذلك الورقة البيضاء الشهيرة لعام 1939 التي حددت عدد اللاجئين اليهود المسموح لهم بالدخول إلى فلسطين⁽¹⁾. في أواخر الثلاثينيات، مع ذلك، كتبت أيضاً أن «إفلاس الحركة الصهيونية الذي تسبب به واقع فلسطين هو في الوقت نفسه إفلاس أنظمة الحكم اليهودية المستقلة المعزولة» (كتابات يهودية، 59). في عام 1943 قلقت من اقتراح إقامة دولة ذات قوميتين في فلسطين لا يمكن الحفاظ عليها إلا بتعزيز اعتماد فلسطين على بريطانيا والقوى العظمى الأخرى، بما فيها الولايات المتحدة. في بعض الأحيان كانت تقلق بشكل فعلي أيضاً من أن الثنائية القومية لا يمكنها أن تعمل إلا لمنفعة السكان العرب وإلحاق الضرر باليهود. في عام 1944، جادلت بقوة في مقالة بعنوان «إعادة الاعتبار إلى الصهيونية»، بأن مخاطر إقامة دولة على مبادئ السيادة اليهودية لا يمكنها سوى أن تعزز مشكلة اللادولة التي أصبحت حادة بشكل متزايد في عقب الحربين العالميتين الأولى والثانية (كتابات يهودية، 343-74). في أوائل الخمسينيات جادلت أرندت صراحة بأن إسرائيل قامت من خلال الاحتلال الاستعماري وبمساعدة القوى العظمى وعلى أساس شروط مواطنة كانت معادية للديمقراطية بشكل شامل. وإذا كانت قد قلقت، في الثلاثينيات، من أن يصبح اليهود بشكل متزايد بلا دولة، فقد تألفت في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات مع طرد الفلسطينيين وطورت رواية أكثر شمولاً لانعدام الدولة.

(1) الورقة البيضاء هي وثيقة بريطانية نشرت في شهر أيار عام 1969 تدعو إلى إنشاء «وطن قومي يهودي» في فلسطين، لكنها ترفض التسليم بفكرة الحكم الذاتي اليهودي. فرضت الورقة قيوداً على الهجرة اليهودية واكتساب الأرض في الإقليم وكانت تعتبر ضربة ضد التطلعات القومية الصهيونية. انظر رشيد خالدي، القفص الحديدي: قصة الكفاح الفلسطيني من أجل الدولة (بوسطن: بيكون، 2006)، 31-64.

في «إعادة التفكير في الصهيونية»، تعرض أرندت رواية تاريخية مثيرة للاهتمام لابتداء الصهيونية وتغييراتها في منتصف القرن العشرين. وتعلق هناك بأنه من العبث إقامة دولة يهودية في ما تدعوه «مجال مصلحة» القوى العظمى. فدولة كهذه تترجح تحت «وهم الأمة»، وكما تستنتج، «وحدها الجحافة تملّي سياسة تثق بقوة امبراطورية بعيدة للحماية، في حين تبعد الإرادة الخيرة لجيرانها» (كتابات يهودية، 372). إنها، من ناحية أولى، متلهفة بشكل واضح لايجاد السبل لبقاء إسرائيل / فلسطين وقلقة فعلاً من أن أسس الدولة لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الدمار. إذ تكتب: «إذا تم الحصول على كومولث يهودي في المستقبل القريب» (بمساعدة اليهود الأميركيين)

وأعلن عنه ضد إرادة العرب ودون دعم الشعوب المتوسطة، فليس العون المالي فقط بل الدعم السياسي سيكون ضرورياً على مدى زمن طويل قادم. وقد يتبين أن ذلك مزعج جداً لليهود هذا البلد، الذين لا يملكون في النهاية أية قدرة على توجيه المصائر السياسية للشرق الأدنى. (كتابات يهودية، 373).

ما تعترض عليه أرندت في الدولة القومية هي النزعة القومية وتبعتها: النفي القسري لتلك القوميات التي لا يُعترف بها بوصفها الأمة الواحدة التي تعبر عنها الدولة. وبالنظر إلى أن الدول الحديثة تضم أعداداً متزايدة من القوميات، فإن تصور الدولة القومية لا يمكن إلا أن يكون خطيراً، كونه ينشد اصطفاً للأمة مع الدولة في طرد تلك القوميات التي لا تتطابق مع فكرة الأمة التي تجيز الدولة. في «انحطاط حقوق الإنسان ونهاية الدولة القومية» (1951)، تجادل أرندت في أن قوة التجريد الشمولي للجماعات من قومياتها لا يمكن التصدي له بعقيدة حقوق الإنسان وأن تلك العقيدة تبقى في النهاية أداة ضعيفة. كما في كتاباتها المبكرة، تجد أرندت معظم هذه الاتفاقات عديمة الفائدة. إذا كان يتعين وجود حماية لحقوق الإنسان، فيجب إيجادها في سياق نظام الحكم. هذا النظام يجب أن يكون شيئاً آخر سوى الدولة القومية. إذا بنيت الدولة القومية على افتراضات قومية تشترط طرد أقليات قومية،

فإنها عندئذ تنتج الضعف الشديد للأشخاص عديمي الدولة - الذين يعتبرون أقليات محرومة من الحقوق الشرعية - وتعرضهم للاستغلال والعنف. بالفعل، تقدم أرندت كسبب لصعود الفاشية الأوروبية الزيادة الهائلة في عدد الشعوب عديمة الدولة بعد الحرب العالمية الأولى. فالنزعة القومية تطغى على حكم القانون، والجماعات السكانية الأقلوية تصبح عرضة التجريد من القومية والطرد والإبادة⁽¹⁾.

(1) تعارض أرندت بشكل واضح أية جهود من طرف خطاب حقوق الإنسان إلى التماس شرعيته في الطبيعة أو الحقوق الطبيعية. لكن من الخطأ القول إنه لا صلة لها بمثل هذه المواقف. ففي مقالتها «أفول حقوق الإنسان ونهاية الدولة القومية»، تبدو وكأنها تكتب ضد الذين يزعمون أن الدولة واشتراطاتها للمواطنة تؤلف مشكلة الحداث. لكن هل يمكننا قول الشيء نفسه عن الدولة القومية؟ ماهو واضح أنها لا تكن أي تعاطف خاص مع جعل الطبيعة مثالا أعلى، على غرار ما يجده المرء في بعض نصوص عصر التنوير. كذلك تختلف مع فكرة أن المرء يمكن أن يجد في الطبيعة مبادئ المساواة والعدالة والحرية التي يمكن أن نحب رؤيتها في سياق الحياة السياسية. برأيها، إن الناس عديمي الدولة إنما يُردون بعنف إلى حالة الطبيعة حيث كانت توجد حمايات ولا حقوق، وحيث يكون من المستحيل الحفاظ على ما تدعوها «إنسانيتهم». إذا كان يتعين وجود ذات إنسانية، فيجب أن تُصنع في سياق الحياة السياسية، أن تصنع بشكل جماعي؛ إذ لا يمكن أن توجد حرية خارج الدولة - المدينة، خارج مجتمع سياسي تهيكله المساواة والحرية. بالطبع، يبدو أن للمساواة والحرية منزلة لا تعتمد اعتماداً كلياً على الصياغات الطارئة والمشرطة التي تؤدها مختلف الدول، ويبدو أنها تعتبران مبدأ وقاعدة في عملها، ما يجعلها تقف إلى جانب بعض منظري القانون الطبيعي. بالفعل، يبدو أن ثمة شيئاً من الباعث الغريزي للقانون الطبيعي الخالي من فرضية حالة الفطرة، لكن هذا تخمين للمتابعة في وقت آخر. ماهو واضح هنا هو أن إنسانية الكائنات البشرية لا تظهر إلى حيز الوجود إلا في سياق المجتمع السياسي وأن أولئك المستبعدين أو المطرودين أو في الواقع، المبادئ يكونون محرومين من إنسانيتهم في اللحظة التي تعلق أو تدمر فيها حقوقهم في المواطنة.

إن عمليات الطرد الهائلة للسكان في القرن العشرين، برأيها، هي التي أبرزت هذا الوضع. فتفتح أرندت هذه المقالة بجعلنا نعرف أنه سيكون من «شبه المستحيل» أن نتخيل ما حدث في نهاية الحرب العالمية الأولى. إذ تصف هجرات الناس الذين «لم يكن مرجحاً بهم في أي مكان ولم يتم استيعابهم وتمثلهم في أي مكان». تصف أيضاً وضعاً «بدأت فيه... الكراهية تلعب دوراً في الشؤون العامة في كل مكان»، «كراهية عامة غامضة لكل شخص ولكل شيء»، دوناً بصورة لاهتمامها الانفعالي، دون وجود أحد لتحمله المسؤولية عن حالة الأمور. كما تصف أرندت، ضمن سياق أوروبية، ظهور جماعتين من الضحايا، عديمي الدولة والأقليات (أصول الشمولية، 268). كلتا الجماعتين كانتا محرومتين من حقوق المواطنة، وتستوطنان بشكل قلق ويشرعية مشروطة في بلدان مختلفة حيث كانتا تعتبران بشكل صريح غريبتين ولا تنتميان إلى الأمة. بذلك كان السكان مقسمين إلى أولئك الذين يتمتعون بحقوق قانونية كاملة وبلا اعتراف بهم كمواطنين، وأولئك الذين كانوا محرومين من الحقوق الشرعية لكنهم يظلون تحت سلطة الدولة.

حكم القانون، الذي يفهم بوصفه شيئاً يجب أن يطبق على كل الناس بالتساوي، قد أصبح أقل أهمية من إرادة الأمة؛ في الوقت نفسه، بدأت الأمة، المعرفة عرقياً وإثنيّاً، تعامل عديمي الدولة كسكان يجب إدارتهم والسيطرة عليهم. هكذا قامت الدولة بوظيفة لا يضبطها حكم القانون وعلى حد تعبير أرندت، «أصبح التجريد من القومية سلاحاً قوياً للسياسة الشمولية». (أصول الشمولية، 269)

يمكننا القول إن هذه إحدى الأهداف البلاغية للتجريد من القومية، إظهار أن حرمان الجماعات من المواطنة ينتج صورة أولئك المحرومين على أنهم جوهرياً ليسوا بشراً، وصورة لا إنسانيتهم، منزلتهم كحثة المجتمع، تفيد بشكل معاكس في تبرير سياسة نزع القومية عنهم. الشخص بلا دولة «خارج على القانون» تعريفاً، ولذلك لا «يستحق» الحماية القانونية (أصول الشمولية، ص: 283). توضح أرندت أن حالة انعدام الدولة لم تكن مشكلة يهودية حصراً، والذين رأوها بهذه الطريقة فشلوا في فهم أن اختزال القرن العشرين «لليهود الألمان إلى أقلية غير معترف بها في ألمانيا»، وعمليات الطرد اللاحقة لليهود بوصفهم «شعباً بلا دولة عبر الحدود»، ثم «إعادة جمعهم من كل مكان لكي يتم شحنهم إلى معسكرات الإبادة كان برهاناً بليغاً لبقية العالم على كيف تتم في الواقع «تصفية» كل المشاكل المتعلقة بالأقليات وعديمي الدولة» (أصول الشمولية، ص: 290). نتيجة لذلك، تتابع أرندت القول، بشجاعة، يمكن لي أن أضيف:

تبين بعد الحرب أن المسألة اليهودية، التي اعتبرت المسألة الوحيدة غير القابلة للحل، قد حُلّت بالفعل - أي باستعمار أرض ثم احتلالها - لكن ذلك لم يحل لا مشاكل الأقليات ولا عديمي الدولة. على العكس، تقريبا مثل كل أحداث قرننا الأخرى، لم ينتج حل المسألة اليهودية سوى فئة جديدة من اللاجئين، العرب، رافعاً بذلك عدد عديمي الدولة وعديمي الحقوق بمقدار 700.000 إلى 800.000 نسمة أخرى. وما حدث في فلسطين ضمن أصغر أرض وبلغة مئات

الآلاف تكرر بعدئذ في الهند على نطاق كبير يشمل ملايين البشر.
(أصول الشمولية، ص: 290)

رغم أن أرندت في زمن النكبة لم يكن بإمكانها أن تعرف أن عدد الفلسطينيين المطرودين ربما تجاوز 900.000 وأن التعداد السكاني للأشخاص المطرودين سيزداد إلى 3.5 ملايين، فقد كانت متأكدة من أن أعمال الطرد مقدر لها أن تحدث عندما تبنى الدول على مبادئ الانتفاء القومي. لهذا ألحت أرندت على نحو مثير للجدل على أن على المرء أن يفكر في مسألة اللاجئين وعديمي الدولة هذه كمشكلة متكررة متعلقة بالدول المتشكلة وفقاً لنموذج الدولة القومية. قد يسأل المرء كيف يكون شكل الدولة التي لا تشبه الدول القومية، وما إذا كان من الممكن أن توجد دون أن تنتج التبعة الرهيبة للأعداد الضخمة من الأقليات بلا دولة، وما إذا كانت المشكلة بنوية أم تاريخية أم الاثنين معاً⁽¹⁾. بعد أن تمارس انتقادها اللاذع للدولة القومية، تركنا دون إشارة إلى ما يمكن أن تكونه الدولة أو نظام الحكم المنفصل عن الأمة، وما يمكن أن تكونه الأمة المنفصلة عن أرضها الإقليمية. ومع ذلك فهي تقدم لنا تعليقات قليلة حول «الاتحادات الفدرالية» التي توحى بأنها كانت تعتقد أن شيئاً مفيداً قد يأتي منها. في عام 1944، حذرت أرندت بشكل متبصر من أنه

(1) من المثير للاهتمام أنها عند هذه النقطة في «أفول حقوق الإنسان ونهاية الدولة القومية»، تلجأ أرندت إلى انتقاد مدمر نوعاً ما «لحقوق الإنسان» - لكم تبين أن هذا المبدأ عديم الفائدة وعقيم. ما كنت أود قوله هو أن أرندت تفند خطاب حقوق الإنسان لكونه ضعيفاً، لكنها تقدم إعادة فهم معين لتلك الحقوق، وتفعل ذلك عبر نوع من إعلانها الخاص بها، إعلان يمكننا أن نصفه بأنه خطاب قوي. وهذا لن يفاجئ أولئك الذين يعرفون ما الذي يتعين عليها قوله حول الأقوال الأفعال في كتاب الشرط الإنساني، حيث الكلام المقنع جزء من تعريف المجال السياسي نفسه. مع ذلك، يبقى السؤال هو من يمكنه ممارسة مثل هذه الحقوق، وكيف برأيها تنزع حدود الإنسان. رغم أن المرء يقرأ المقالة كدفاع، إن لم تكن مرافعة، عن حقوق عديمي الدولة، فهي توضح أن عديمي الدولة هم أيضاً تهديد لما هو إنساني. في نهاية المقالة، فإن أولئك الذين بلا دولة، بمن فيهم، بشكل افتراضي، الفلسطينيون والباكستانيون، يهددون بأن يصبحوا قوة «بربرية» تهاجم الصرح الإنساني». عند هذه النقطة يبدو أن إسرائيل والهند تحدد موقعها كدولتين قوميتين تؤمنان بالبعد «الإنساني» ولذلك يجب الدفاع عنهما ضد عديمي الدولة الذين أنتجتاهم بنفسيهما، وهذا يناقض ما تبدو أنها الحجة السائدة في المقالة، أي أن عديمي الدولة يمتلكون الحق في أن تكون لهم حقوق.

«حتى الأقلية اليهودية في فلسطين - لا بل، حتى تهجير كل عرب فلسطين - لن تغير بشكل جوهري وضعاً يجب فيه على اليهود إما أن يطلبوا الحماية من قوة خارجية ضد جيرانهم أو يتوصلوا إلى اتفاقية عمل مع جيرانهم». البديل، تكتب، هو «أن تصطدم المصالح اليهودية مع مصالح كل الشعوب المتوسطة الأخرى؛ لذلك بدلاً من «نزاع مأساوي» واحد سنواجه غداً نزاعات لا حل لها بقدر عدد الأمم المتوسطة (كتابات يهودية، 345).

في عام 1943، كتبت أرندت ضد الاقتراح من أجل دولة ثنائية القومية الذي دافع عنه آنذاك يهودا ماغنس ومارتن بوبر. إذ كانت تعتقد أن استخدامهما مصطلح «فدرالية» يسمي الدولة القومية بطريقة مختلفة. فقد كتبت: «إن استخدام مصطلح (اتحاد فدرالي) يقتل معناه الجديد والخلاق في المهد؛ يقتل فكرة أن الاتحاد - على النقيض من الأمة - يتكون من شعوب مختلفة ذات حقوق متساوية» (كتابات يهودية، 336). إذا كانت قلقة في عام 1943 من أن اليهود سيفوقهم مساكنهم العرب عدداً ولن يحموهم، فإنها لا تراجع هذه الرؤية إلا بعد عام وذلك في مقالها بعنوان «إعادة التفكير في الصهيونية»، حيث تقدم نقداً موسعاً لأشكال القومية التي تقوم عليها الصهيونية والتي تعززها وتوسعها. بعد الإقرار بأن اليهود يمتلكون مبرراً واهياً لكي يُسعدوا بأفول الدولة القومية أو النزعة القومية، تقدم النبوءة التالية: «المشكلة المتجددة لكيفية التنظيم سياسياً سوف تحل بتبني إما أشكال الإمبراطورية أو شكل الاتحادات الفدرالية». وتتابع قائلة:

وحدها الأخيرة [الاتحادات الفدرالية] سوف تمنح الشعب اليهودي، مع الشعوب الصغيرة الأخرى، فرصة مناسبة بشكل معقول لأجل البقاء. أما الأولى فقد لا تكون ممكنة بدون إثارة العواطف الإمبريالية كبديل عن النزعة القومية التي فات زمنها والتي كانت فيما مضى المحرك الذي يدفع الناس. فليكن الله في عوننا إذا حدث ذلك. (كتابات يهودية، 371).

في عام 1948، بعد إجازة الأمم المتحدة إقامة دولة إسرائيل، تنبأ أرندت:

حتى لو كسب اليهود الحرب، فإن نهايتها ستشهد.... تدمير إنجازات الصهيونية.... اليهود «الظافرون» سيعيشون محاطين بسكان عرب معادين كلياً، معزولين داخل حدود مهددة دوماً، منهمكين في الدفاع عن النفس جسدياً إلى درجة ستطغى على كل الاهتمامات والنشاطات الأخرى. (كتابات يهودية، 396).

وتعود، في أثناء هذا العام نفسه، إلى موقف ماغنز، معلقة بأن التقسيم لا يمكن أن ينجح، وأن الحل الأفضل هو «دولة فيدرالية». فهذه الوصاية، تكتب، ستكون مؤلفة من «وحدات محلية صغيرة مؤلفة من اليهود والعرب تحت قيادة ضباط رفيعي الرتب من بلدان أعضاء في الأمم المتحدة ويمكن أن تصبح مدرسة مهمة لأجل الحكم الذاتي التعاوني في المستقبل». (كتابات يهودية، 400) إن مثل هذه الفيدرالية، برأيها، «ستتمتع بميزة منع إقامة سيادة سيكون الحق السيادي الوحيد لها هو الانتحار» (كتابات يهودية، 399).

إن فكرة الاتحاد هي بشكل واضح بديل عن الأفكار الراسخة حول السيادة في العلاقة بالدولة القومية. إذ يعتمد المفهوم الأخير على خطأ جسيم عندما يقرن مفهومين معاً: الدولة، التي يفترض بها أن تصون حكم القانون الذي سيحمي أي شخص وكل شخص بغض النظر عن قوميته؛ والأمة، التي تفهم كنمط من الانتماء يقوم على القومية ومن ثم تمارس الإقصاءات على أساس أولئك الذين يتمتعون والذين لا يتمتعون. لهذا السبب، عارضت فكرة أن تمتلك الدول القومية السيادة، وعارضت أيضاً تلك النسخ من السلطة الموحدة التي تمنح كل أمة عضو سلطتها السيادية الخاصة بها. لم يكن القصد هو توزيع السيادة على أمم عديدة، بل إلغاء السيادة من خلال تصور تعددية موحدة يُجعل فيها القانون والسياسة مشتركين. لم تكن السيادة لتوزع بين «الأمم» الصغرى بل تشتت إلى تعددية ستكون غير قابلة للاختزال إلى قوميات متعددة. إن مثل هذا الاتحاد يلغي مفهوم السيادة كسلطة

موحدة ومطلقة ويتطلب نزع تفرد الأمة، لذلك يصبح من المستحيل حرفياً تماماً تصور الأمة أو أفعالها خارج سياق العمل الجماعي والمنسق. ليست المصالح القومية، كما تزعم، هي نفس المصالح المشتركة. يمكن للاتحاد أن يؤلف تعددية من الأمم، لكن لا يمكن لأية أمة أن تمتلك السيادة ضمن سياق نظام الحكم ذاك. الأمة، بالنسبة لها، في عام 1951، مجال انتهاء، لكنها بالتأكيد ليست الأساس الشرعي للدولة. ونتيجة لذلك يمكن تخيل اليهود كـ «أمة» ضمن اتحاد (في أوروبا أو في الشرق الأوسط)، لكنها مقيدة بشكل من الحياة السياسية سوف يتطلب تقاسم السلطة والعمل المنسق وحل السيادة إلى سلطة تعددية والتزاماً بالمساواة عبر الروابط القومية. بهذه الطريقة، كان بإمكان أرندت أن تتصور اليهود كأمة فقط ما دامت المنزلة القومية لم تعطهم السلطة السيادية ليقرروا مع من يحكمون الدولة، أي، أمة بلا دولة قومية، أمة يمكنها أن تشكل مجال انتهاء ضمن نظام حكم مبني كتعددية فيدرالية.

حينما كتبت أرندت أصول الشمولية في عام 1951، كانت لاتزال تؤكد على مشكلة اللادولة، مع أن كلاً من النسخة الأوروبية والفلسطينية من الاتحاد الفيدرالي سقطتا من قاموسها. ويظهر في مكانها تأكيد على «المصلحة المشتركة»، تصوغه بالمقابلة مع إطار حقوق إنسان يظل ملتزماً بأنطولوجيا فردانية. تستعرض أرندت سلسلة إخفاقات وسمت تاريخ الاتفاقات الدولية وإعلانات حقوق الإنسان، مع أنه يبدو واضحاً أنها ليست مأخوذة كلياً بإعلان حقوق الإنسان. فهذه الإعلانات في النهاية دليل على التأملات الجماعية للبشر، بالجملة، الذين يحرصون أنفسهم بهذه الحقوق ولذلك يؤكدونها ويعلنون عنها، ومن خلال سلطة ذاك الإعلان، يكرسونها كإنجازات إنسانية. كانت الفكرة هي أن إعلان حقوق الإنسان هو إقامة بعض الحماية ضد الأنظمة السياسية الاستبدادية. تلك الإعلانات لا يمكن ممارستها بشكل فعلي خارج سياق نظام حكم مؤسس على المصالح المشتركة، لكن هل هي عديمة الفائدة كلياً؟ في الجزء الثاني من «أقول الدولة القومية وحقوق الإنسان»، تلخص أرندت ما تعتبرها شروطاً مسبقة ضرورية لوجود أية حقوق في المطلق.

وهذه الشروط المسبقة تتضمن المكان والانتفاء السياسي. «يكون الحرمان الأساسي من حقوق الإنسان جلياً أولاً وقبل كل شيء»، تكتب أرندت، «في الحرمان من مكان ما في العالم يجعل الآراء مهمة والأفعال مؤثرة» (أصول الشمولية، 296). ويستتبع ذلك أنه في هذه الكتابة ومن خلالها تسعى أرندت إلى تصويب البلاغة الجوفاء لحقوق الإنسان ببسط الشروط التي يمكن تحتها للبلاغة السياسية أن تصبح وتبقى فعالة. فهي لا تقدم الشروط لأجل ممارسة خطاب فعال فقط، بل تستخدم خطاباً بشكل فعال - أو على الأقل تحاول ذلك. ورغم أنها لا تقول أبداً كيف تُربط بلاغتها الخاصة بنقد حقوق الإنسان الذي تقدمه، فإنها تستبدل بشكل فعال ذاك الخطاب بخطابها.

ما يعنيه هذا بالنسبة لمفهوم أرندت للمعنى الاجتماعي للإنسان على درجة من الأهمية. إذ ترى أرندت في النهاية أن كفاءتنا وممارستنا الحقيقية لحریتنا لا تنبعان من شخصيتنا الفردية، بل بالأحرى من شروط اجتماعية كالمكان والانتفاء السياسي. هذه ليست مسألة إيجاد الكرامة الإنسانية داخل كل شخص، بل مسألة فهم الإنسان ككائن اجتماعي، كائن يتطلب مكاناً ومجتمعاً لكي يكون حراً، ليأرس حرية الفكر كراي، ليأرس عملاً سياسياً يكون مؤثراً. يعني أيضاً فهم أن الإنسان يصبح بائساً سياسياً عندما لا تلبى هذه الشروط. تبدو أرندت بالتأكيد مناصرة لمبدأ حقوق إنسان قائم بوضوح على أنطولوجيا اجتماعية (إضافة إلى كونها ناقدة للدولة القومية) عندما تكتب، «إن الحق في امتلاك الحقوق، أو حق كل فرد في الانتماء إلى الإنسانية، يجب أن تكفله الإنسانية نفسها» (أصول الشمولية، ص: 298). ومع ذلك، يبقى السؤال: بأي معنى ستكفل الإنسانية مثل هذه الحقوق؟ لا تعطينا أرندت جواباً، رغم أنها تسعى إلى تقديم المعيار الذي سينطبق عليه أي جواب.

بالنسبة لأرندت، ليست الحرية خاصة للأفراد، بل تمريناً وعملاً منسقاً تؤديها «نحن»، التي تؤسس، في التمرين والأداء، تلك الـ«نحن» باعتبارها الشرط الاجتماعي للحقوق نفسها. لهذا، تكتب، «تقوم حياتنا الاجتماعية على افتراض أننا يمكن أن نتج المساواة من خلال التنظيم، لأن الإنسان يمكن أن يعمل في عالم

مشترك وبغيره وبينه، مع أنداده ومع أنداده فقط» (أصول الشمولية، ص: 301). سرتكب خطأ إذا تخيلنا أن جماعة أفراد يحتشدون معا يشكلون مجموعة لا عين أفراد. إذ لا يكون أي من هؤلاء الأفراد إنساناً ما لم يصبح العمل المنسق والجماعي ممكناً. في الواقع، بالنسبة لأرندت، أن تكون إنساناً هي وظيفة، سمة العمل وفق شروط المساواة مع البشر الآخرين. قد يسمع المرء هنا أصداً «الكيونية مع» (mitsein) عند هايدغر، لكنه يسمع أيضاً بعض الرنين الخافت لتعاونية يسارية كان شولم يشبهه بوجودها في تصويره الكاريكاتوري لسياستها. إذا كان أن تكون إنساناً هو أن تكون في علاقة مساواة مع الآخرين، عندئذ لا أحد يمكنه أن يصبح إنساناً خارج علاقات المساواة. ألا تطالبنا أرندت بأن نعتبر أن تلك «الكيونية الإنسانية» هي تابع أو نتيجة لهذه النزعة المساواتية؟ بالفعل إذا لم توجد مساواة، فلا أحد يكون إنساناً. وإذا كانت المساواة تقرر الإنسان، عندئذ لا إنسان يمكنه أن يكون إنساناً وحده، بل مع الآخرين فقط، وفقط تحت شروط تديم تعددية اجتماعية في المساواة⁽¹⁾.

من المهم بلا شك أن نلاحظ أن فكرة «الانتهاء» التي تسود كتابتها عن «الأمة» في الثلاثينيات والأربعينيات يبدو أنها تتلاشى في الوقت الذي يصل فيه أيحمان ويظهر على المسرح العام. ويبدو أن فكرة التعددية تحل محل فكرة الأمة التي لا تنتمي إلى أي أرض أو أية دولة وتقاوم الذوبان في النزعة القومية عبر التزامها بالمساواة. إن تعقيد اليهود غير القابل للاختزال كشعب يجعل من الصعب التكلم مطولاً جداً عن «أمة»،

(1) في النهاية، إذاً، أريد أن أجادل في أن الدور الذي تقوم به أرندت في هذه المقالة هو تعريف هذه الحقوق بثقة. بعبارة أخرى، إنها تقدم، بل تؤدي، منطق التعريف بطريقة واثقة. رغم أنها ليست منظرية قانون طبيعي، فإنها تضع، بل تعين، شروط الحياة الإنسانية التي تسبق وتشرط سلفاً أي شكل خاص من الحكم والقانون. إنها لا تبني هذا الرأي على مبادئ مسبقة، لكنها تتوسع فيه في سياق خطاب إلى جمهورها. وهكذا يسعى منطقها لتمثيل العلاقة الاجتماعية التي توصفها، علاوة على ذلك، في وضعها هذه الشروط، فإنها تتخلل عن ضمير المتكلم - «أنا». أرندت لا تكتب هذا النص باستخدام الضمير «أنا»، كشخص ذي منظور فردي. عندما يظهر ضمير، فهو «نحن»، لكن من هذا الـ «نحن»؟ بصفة من وبالتاليابة عن من تتكلم أرندت هل تمثل الـ «نحن» أم تستحضر واحداً عندما تزعم، «نحن لا نولد متساوين: نحن نصبح متساوين كأفراد جماعة بقوة قرارنا في أن نضمن لأنفسنا حقوقاً متساوية وبشكل متبادل» (أصول الشمولية، 301)؟

وأرندت تحول اهتمامها إلى أشكال العيش في التنافس والاختلاف. إذا كانت فكرة الانتفاء لاتزال صالحة بالنسبة لها في الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، فيبدو أنها قد أراحها مفهوم للتنظيم السياسي أكثر عداء للتضامن في كتابها في الثورة (1962)، حيث تمتدح «نظام المجالس الشعبية» [الكومونات] في الثورة الفرنسية، الذي يفهم كاعتناق منظم بشكل عفوي للمبدأ الفدرالي. بشكل مماثل، فإن فيدرالية ماديسون، التي أبقت سلطة الولايات المكونة لها مع أنها أخضعتها، استمدت سلطة شرعية من الولايات، لكنها أبطلت سيادتها من خلال سلطة فدرالية. برأي أرندت، كان «النظام الفدرالي هو البديل الوحيد عن مبدأ الدولة القومية» في الثورة الأميركية⁽¹⁾.

من الصعب تخيل الآمال التي استثمرتها أرندت في السلطة الفدرالية. فقد كانت طريقة لمأسسة مساواة لا تحد من السيادة القومية فحسب، بل قادتها في نهاية المطاف إلى ترك فكرة «الأمة» وراءها. فالمساواة ليست الأنطولوجيا الاجتماعية للإنسان فحسب، ووفقاً لأرندت، بل الإمكانية السياسية لاتحاد فدرالي ما بعد قومي أو إطار حقوق إنسان جديد وأكثر فعالية. إذا لم يكن نظام الحكم الذي سيكفل الحقوق هو الدولة القومية، عندئذ سيكون إما اتحاداً فدراليا تلغى فيه السيادة من خلال توزيع سلطتها أو إطار حقوق إنسان سيكون ملزماً لأولئك الذين أنتجوا بنوده بشكل جماعي. كان الاتحاد الفدرالي هو ما تخيلته، ربما بسذاجة، من أجل اليهود في أوروبا في أواخر الثلاثينيات - هذا هو السبب في أن جيشاً يهودياً يمكنه أن يمثل «أمة» اليهود دون امتلاك دولة أو أرض بوصفها الشرط المسبق للأمة. كان أيضاً ما باتت تتخيله في عام 1948 لأجل اليهود ولأجل الفلسطينيين، برغم إقامة إسرائيل على أسس قومية ومزاعم السيادة اليهودية. يمكن أن نعيب عليها سذاجتها في الحالتين، لكننا عندئذ سيكون علينا أيضاً أن نفرس تبصر تنبؤاتها، بكل فظاعتها: تكرار حالة اللادولة واستمرار العنف. إذا كانت لا تكن أي حب للشعب اليهودي، كما زعم شولم، فربما لأنها، كلاجئة يهودية، كانت تأخذ على محمل الجد تاريخ الطرد والنفي، وأصبح ذلك أساس التزامها النقدي بالمهمة الصعبة لتأمين حقوق الذين بلا دولة

(1) حنة أرندت، في الثورة (نيويورك: بنغوين، 1990)، ص: 166.

دون بعث الدولة القومية وإقصاءاتها الطقسية. إنها تكذب كيهودية معنية بمزاعم اللجوء، وبالضبط لأنها معنية بتلك المزاعم، لا يمكن حصر تحليلها باليهودي («إذا لم أكن لصالح نفسي، فمن سيكون؟ وإذا كنت فقط لصالح نفسي، فماذا أكون؟»). الحقوق والعدالة لا يمكن حصرها باليهودي أو بأي نمط انتهاء ديني أو ثقافي بعينه - وهذه الحجة بالضبط قائمة على أساس الفكر اليهودي.

لقد قادها انتقادها للفاشية الألمانية والنزعة القومية إلى سياسة متركزة ليس على وطن يهودي فقط بل على حقوق الذين بلا دولة. إذا كان ذلك يهودياً، فإنه شتاتي، ورغم أنها لا تفصح عن هذا الموقف بالنسبة إلى شولم، فربما يمكننا مع ذلك أن نراه فاعلاً فيما كتبت. وإذا كانت تجادل دفاعاً عن الوطن وعن الانتهاء، فليس معنى ذلك بناء نظام حكم على صلات الولاء الراسخة، نظراً إلى أن نظام الحكم يجب أن يكون قائماً على المساواة لكي يكون شرعياً. هذه الأخيرة هي الحماية الوحيدة التي يمكنها أن تراها ضد حالة اللادولة المتكررة ومكابداتها. رغم أن الانتهاء هو مطلب للحياة الإنسانية، فلا يمكنه أبداً أن يخدم كأساس شرعي لنظام حكم. من هذه المفارقة الغاضبة تطور أرندت ممارسة نقدية تتداخل وتتعد عن مقولة «الشعب اليهودي» عندما تفصح عن مطلبها الانتهاء والكونية المتنافرين والمتقاربين. إذا كانت مفكرة يهودية توصلت إلى أن تعارض أعمال الطرد التي تصيب أية وكل أقلية، عندئذ يكون هذا نوعاً مختلفاً من السعي اليهودي إلى العدالة - مختلفاً عن العدالة التي ستجد بالضرورة تمثيلها في المحاكم الإسرائيلية. إنه موقف لا يعمم اليهودي، بل يسخر شروط الطرد التاريخية لمعارضة معاناة اللادولة في كل ظرف.

تقدم أرندت مجموعة من الموارد النظرية مختلفة جداً عن أولئك الذين يبدأون تحليلهم للسياسة المعاصرة من خلال اللجوء إلى فكرة السيادة. بدلاً من ذلك، تتخذ أرندت اللادولة كمنطلق لها، وهي حالة غير مرتبطة دائماً شكلياً أو فعلياً بمشكلة السيادة. بالفعل، كانت رؤيتها الفدرالية لفلسطين تسعى إلى التغلب على اللادولة من خلال تفكيك السلطة السائدة. رغم أن تلك المقترحات المصوغة في الفترة من 1946 إلى 1947 كانت تسبق عملها حول حقوق عديمي الدولة في كتابها أصول

الشمولية، فقد أدركت أن الطرد المتكرر والمدمر للسكان من الدولة القومية ينتج أزمة تتطلب إعادة تفكير في النزعة القومية والدولة القومية. كان تبصرها يقتضي ضمناً أن اللاجئين من ألمانيا النازية كانوا جزءاً من مجموعة أكبر من عمليات الطرد التاريخية التي كانت تستدعي فهمها لخصوصيتها وتشابهها البنيوي في آن، بالإلحاح على أن حالة اللادولة هي الكارثة السياسية المتكررة الحدوث للقرن العشرين (التي تتخذ الآن أشكالاً جديدة في القرن الحادي والعشرين لم يكن بمقدورها أن تتنبأ بها)، ترفض أرندت أن تعطي قالباً ميتافيزيقياً لـ «الحياة العارية». فالذين جردوا من الحقوق هم مطرودون فعلياً: هم ليسوا مهجرين من دولة المدينة إلى عالم لاسياسي (أي لندع الفكرة الكلاسيكية لدولة المدينة تقرر كل العلاقات السياسية). إن عديمي الحقوق وعديمي السياسة يتم إبقاؤهم في ظروف العوز السياسي، وخصوصاً عن طريق أشكال القوة العسكرية. وحتى عندما تدمر حيواتهم، تظل تلك الوفيات سياسية. بالفعل، تكتب أرندت بشكل صريح تماماً في أصول الشمولية أن «حالة الفطرة/ الطبيعة» المزعومة التي يختزل إليها الأشخاص المطرودون وعديمو الدولة ليست طبيعية أو ميتافيزيقية على الإطلاق، بل هي الاسم لشكل سياسي تحديداً من الفاقة والبؤس.

– 4 –

إزالة استعمار الدولة القومية

الصهيونية في الأفق الاستعماري للحدث⁽¹⁾

والتر د. مينولو

القضايا قيد البحث⁽²⁾

إن أي حديث عن الصهيونية يؤدي عموماً إلى استقطاب في المواقف، لأن الصهيونية واليهودية يتم تصورهما بطريقة تبادلية: فأن تكون متقدماً للصهيونية يفسر عموماً على أنك معاد لليهودية. أنا هنا سأعتمد صيغة مارك إليس: «اليهودية لا تساوي إسرائيل».

وأنا نفسي لست يهودياً؛ أنا ابن مهاجرين إيطاليين، وتربيت كاثوليكياً. أما ما غلب على المدى الطويل فهي حالتي المهاجرة، التي تضاعفت عندما ذهبت إلى فرنسا للدراسة وإلى الولايات المتحدة للعمل، وهو ما جعلني أدرك حقيقة أن

(1) أنا ممتن لسانتياغو سلابودسكي ليس فقط من أجل قراءة هذه المقالة وتقديم توصيات، بل أيضاً من أجل المشاركة في مناقشة هذه التوصيات. أنا ممتن أيضاً لما يزيد عن عشر سنوات من تغييره آراءه حول الصهيونية واليهودية واللاسامية والتفكير المناهض للاستعمار، كما لساحه لي بقراءة فصله حول ثيودور هرتزل من كتابه القادماً اليهودية المناهضة للاستعمار (بيزنغستوك: بالغريف، 2014).

(2) توخياً للوضوح: أعني بـ «إزالة استعمار الدولة القومية» إزالة استعمار نظرية الدولة لأن ليس ثمة دولة بدون نظرية، تماماً مثلما لا توجد نظرية بدون رؤية للدولة القومية في الفكر الأوروبي الحديث.

العلمانية والحدثة هما نصف القصة فقط. أما النصف الآخر، الاستعمار، فقد كان خفياً⁽¹⁾. من خلال النضال من أجل إزالة الاستعمار في أفريقية وآسية عندما كنت طالباً في باريس، تعلمت أن أرى نشوء الدولة القومية في أوروبا القرن التاسع عشر بوصفه حلاً للبعض (الطبقة البورجوازية) ومشكلة للآخرين. لقد أنشأ شكل وأيديولوجيا الدولة القومية، في أوروبا، خطأ فاصلاً واضحاً بين المواطنين القوميين واللاقوميين (بالإضافة إلى اللامواطنين). لكن التبعات كانت أكثر قسوة في المستعمرات، إذ تم التسليم بالدولة القومية، كما في مواقع غزاها الاستعمار مثل الصين واليابان وروسيا وتركيا وبلاد فارس/ إيران وهلم جرا.

لذلك، حجتي هنا هي أنه في حين قدمت دولة إسرائيل حلاً للشعب اليهودي، فإنها أيضاً أصبحت مشكلة للفلسطينيين؛ لأن المشروع الصهيوني كان في الوقت نفسه حركة تحرر مبنية على نمط الدولة القومية الأوروبية الحديثة، التي كانت قبلاً محصنة بالإمبريالية الأوروبية حول العالم. لهذا السبب، كان حل نزاع فلسطين/ إسرائيل يتطلب أكثر من اتفاقيات سلام - كان يتطلب إزالة الاستعمار عن شكل الدولة القومية الأوروبية الحديثة.

كانت الدولة القومية منذ ولادتها وتعزيز وجودها بعد الثورة [الإنكليزية] المجيدة عام 1688، والثورة الأميركية عام 1776، والثورة الفرنسية عام 1789، حلاً للبورجوازية الأوروبية الناشئة، الراغبة في ترسيخ استقلالها عن الكنيسة والدولة الملكية. في الولايات المتحدة، كان الحل بالنسبة للأнгلو- كريوليين هو الانفصال عن الملكية البريطانية. مع ذلك، كانت السيرورات التي غيرت العالم على مدى قرن من الزمن (1688 - 1789) حلولاً جيدة للبعض (الحدثة) ومخازي للبعض الآخر (الاستعمار). الثورة المجيدة والثورة الفرنسية عززتا السيطرة السياسية والاقتصادية لطبقة - إثنية صاعدة - البرجوازية الأوروبية. أما الثورة الأميركية فقد عززت السيطرة السياسية والاقتصادية لطبقة ناشئة جديدة، هي النخبة ما بعد

(1) أصف «الحدثة» بأنها «غربية» لأن «الحدثة» ليست كياناً أو حقبة تاريخية بل السردية المصنعة ذاتياً من قبل الفاعلين الأوروبيين عن إنجازاتهم وشرعتهم سلب الحقوق والهيمنة والغزو.

الاستعمارية. والنخبة ما بعد الاستعمارية فرضت نفسها باسم الحرية، في حين كانت في الوقت نفسه تمنع الحرية عن ملايين الأميركيين من السكان الأصليين وتجردهم من حقوقهم الشرعية. أي أن الدولة ما بعد الاستعمارية أعادت إنتاج الاستعمارية بأيدي الثوريين أنفسهم.

في أوروبا، كانت القصة مختلفة. إذ لم تكن توجد شريحة اجتماعية دنيا من «عرق» مختلف لتجريدها من حقوقها. سلب الحقوق العرقية حدث بدلاً من ذلك في المستعمرات: في الحقيقة، منذ القرن السادس عشر قوت أوروبا نفسها بفضل الفوائد التي جنتها من المستعمرات. كان التقدم والحداثة في أوروبا يعنيان الركود والبؤس (والاستعمار) في بقية العالم. الحداثة والتقدم شكلت أيضاً مفهومي أساسيين في الكلام المنمق عن الخلاص. أما الركود والبؤس فكانا ولا يزالان ظاهرتين يصمت عنهما خطاب الخلاص، مخفياً منطق الاستعمار الذي يكمن وراء بلاغة الحداثة. باتت الثورات علامات على التغيرات التقدمية. أما جانبها الأكثر ظلمة، الاستعمارية، فقد تمت التوضيح به من أجل منفعة جانبها الأسطع، الحداثة⁽¹⁾.

ليست دولة إسرائيل، بالطبع، دولة إمبراطورية [إمبريالية] مشابهة لإنكلترا أو لفرنسا أو للولايات المتحدة. مع ذلك، فإن الخطابات التي تشرعن تأسيسها، الذي جعلته مصادرة الأرض ممكناً، قد نسخت الخطابات الإمبراطورية السابقة، مستشهدة بالكتاب المقدس. لقد جادل اللاهوتي الأيرلندي مايكل بريور (Michael Prior) بشكل مقنع في أن حججاً كتابية [توراتية] مشابهة، تقوم على الشعب المختار وحقه، قد تم الاستشهاد بها في الغزو الإسباني لأميركا وفي تأسيس الدولة الأميركية وفي

(1) كان تيودور هرتزل قد اعتنق كلياً منطق الحداثة في عام 1896، عندما كتب نصه البرنامجي، الدولة اليهودية (<http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsourc/Zionism/herzl2.html>) [تاريخ الدخول إلى الموقع 28 آب 2013]. في تلك النقطة، اعتنق منطق الحداثة من موقع التابع، إذ لم تكن ثمة دولة بعد لرؤية تبعات تنفيذ أفكاره المثالية. حالة للتأمل: مشاريع التحرر من موقع التابع هي مجرد ذلك - مشاريع. لنا أن نتذكر حالات كثيرة، مثل كتابات فلاديمير لينين قبل الثورة الروسية وقيام الاتحاد السوفيتي. لقد جير لينين بشكل كلي منطق الحداثة من وجهة نظر ماركسية وليست ليبرالية.

الاستعمار الأوروبي لجنوب أفريقية وفي تأسيس دولة إسرائيل.⁽¹⁾ وفي الوقت نفسه، ليست دولة إسرائيل دولة قومية مثل جمهوريات الهند (1947) أو مصر (1953) أو الجزائر (1962). فالجمهوريات الثلاث الأخيرة تم تأسيسها ضد إرادة إنكلترا وفرنسا، في حين تم تأسيس إسرائيل بدعم منهما ومن الولايات المتحدة. لذلك أقترح أن نركز على الدولة الصهيونية، بدلاً من التركيز على الدولة الصهيونية.

اليهودية لا تساوي إسرائيل

دعونا نبدأ بالحجج المضادة للصهيونية. إن أحد الأصوات الأكثر راديكالية هنا هو المواطن الأمريكي اليهودي مارك إليس (Marc Ellis)، الذي ساهم أيضاً بفصل في هذه المجموعة⁽²⁾. «إن اليهودي الذي يقف إلى جانب الفلسطينيين» قد يبدو ضد السامية. الاتهام مألوف ومنطقي ضمن الدولة القومية الشكل. ففي أثناء عهد بوش -تشي، كان كل انتقاد للدولة يُعتبر انتقاداً للأمة ويعاقب على هذا الأساس: ليس، بالطبع، بوصفه ضد الصهيونية، بل لا وطنياً. المضمون مختلف، لكن المنطق هو ذاته. فبقدر ما يُهاهى «الوطن» («patria») في الدولة القومية الحديثة، الذي تقابل فيه دولة واحدة أمة واحدة، يكون المواطن المنتقد لدولته/ دولتها متهماً بكونه/ ها ضد القومية. مثل هذا المواطن يسير بشكل مفترض مسبقاً ضد أمته/ أمتهما، المشترك المتجانس في سيرورة خلق هوية دولته، ومثل هذا الانتقاد للدولة كان بالفعل لا أميركياً، نظراً إلى أنه كان يسير ضد المبادئ الأساسية للولايات المتحدة بوصفها الدولة الديمقراطية القائمة في العالم. في هذا السيناريو المعقد، يكون إليس مواطناً للولايات المتحدة. مع ذلك، فهو يتظاهر بهويته اليهودية، الإثنية والدينية. إن انتقاده للصهيونية يخاطب كلاً من اليهود في إسرائيل واليهود في الشتات، لكنه يخاطب أيضاً دور السياسة الخارجية للولايات المتحدة كما ترتبط بإسرائيل.

(1) مايكل بريور، الكتاب المقدس والاستعمار. نقد أخلاقي (لندن: بلومزيري، 1997).

(2) مارك إليس، اليهودية لا تساوي إسرائيل (نيويورك: ذا نيوز برس، 2009).

إن نقطة الارتكاز لحجة إليس هي أن «اليهودية لا تساوي إسرائيل». تعرض الفقرة الأولى من مقدمة إليس لكتاب يحمل العنوان نفسه إطار الحجة بشفافية لا تُخطأ:

النبوئي هو الورقة الجامحة للحياة اليهودية وواسمها الأولي. إذ لا يمكن وصف الحياة السياسية بدون النبوئي، الذي يدفع اليهودية دوماً إلى بعد آخر. في هذه الصفحات أمسك الواسم النبوئي لليهودية ضد التماهي المفسد-والقاتل بشكل كامن- مع إسرائيل الحديثة. إنني أقدم أيضاً طريقة نبوئية، مانحة للحياة، نحو الأمام من أجل الحياة اليهودية في العالم⁽¹⁾.

رغم أن تعبير «إسرائيل الحديثة» لا يُرفع في الفقرة، فمن المفيد بلا شك أن نرفعه، بما أن خلق دولة إسرائيل في عام 1948 كان معاصراً للكفاح من أجل إزالة الاستعمار في آسيا وأفريقية. هذا يعني أنه في حين كان الكفاح في أفريقية وآسية من أجل إزالة الاستعمار في بدايته، نشأت دولة إسرائيل ليس كدولة محررة من الاستعمار (مثل الهند أو الجزائر) بل كدولة حديثة. إن مشاكل شكل الدولة هي مشتركة بينهما بقدر ما يتعلق الأمر بتأسيس إسرائيل وحصيلة كفاحات إزالة الاستعمار، حتى لو كانت النتائج والتبعات مختلفة تماماً. سأعود إلى هذه القضية أدناه.

أريد أن أترث أطول قليلاً مع قضية «اليهودية لا تساوي إسرائيل». إن لكتاب إليس مقدمة قصيرة كتبها القس دزموند توتو تبدأ بهذه الكلمات: «أشكر الله على أسلافي العبرانيين وتوراتهم». ويعلق في مقدمته قائلاً:

اليهود لا غنى عنهم لأجل عالم عادل ومهتم. فنحن نحتاج إلى يهود أوفياء لكتبهم المقدسة ودعوتها النبوئية؛ فقد كانت هذه تعني الكثير لأجل أخلاق العالم- من أجل مفهومنا لما يحزر المضطهدين ولما هو عادل.

(1) إليس، اليهودية، ص: Xi.

يقر القس توتو بوثاقة صلة اليهودية بالموضوع والمساهمة التي تقدمها في مساعينا الراهنة (يقصد «كلنا» الذين نعمل على مشكلة الظلم ونعمل باتجاه عالم عادل من شأنه أن يطيح أسس الظلم) إلى عالم متعدد الأديان ومتعدد الإثنيات. ثم يدخل القس توتو في الأطروحة المركزية التي يقدمها إليس:

إن مساواة دولة إسرائيل باليهودية تهدد بانقطاع الصلة بالقدرة النبوية للكتاب المقدس وصدقه التي أهتمت، لآلاف السنوات، ودافعت عن اليهود في شهادتهم إلى الله. إن معاملة إسرائيل للشعب الفلسطيني تذكرني بكيب تاون في ظل الفصل العنصري [الأبارتهايد]: الملونون يخرجون من منازلهم ويعاد إسكانهم في مناطق منعزلة [غيتوهات] بعيدة، أسوار غير قانونية = التعدي على البلاد العريقة للشعب، عائلات مفصولة، أملاك مقسمة، وكابوس الخضوع لمحن نقاط التفتيش العسكرية المتواصلة». (vii - viii)

إن مساعي القس توتو للتقليل من شأن دولة إسرائيل مشهورة جداً، وهي خارج نطاق هذه المقدمة. فمنذ سنوات قليلة حث صندوق التقاعد الأميركي لضمان المعلمين ورابطة الرواتب السنوية على قطع شراكتهما مع الشركات الإسرائيلية. أطلق توتو حملة لتوسيع حظر بيع الأسلحة إلى إسرائيل. في كيب تاون، أطلق اجتماعاً دورياً لـ «محكمة راسل ضد إسرائيل»، وهي منظمة أممية كانت قد اجتمعت سابقاً في برشلونة ولندن. وقد ساهم أيضاً في إيقاف تعاون جامعة جوهانسبورغ في جنوب أفريقية مع جامعة بن غوريون في إسرائيل⁽¹⁾. من أجل كل ذلك هوجم بقوة

(1) جيوليو ميوتي، «حرب توتو على إسرائيل، واليهود»، مجلة يو-نت (11)، Y-Net Magazine آب 2011

على الموقع: <http://www.ynetnews.com/articles/0.7340.L-4107913.00.html>

[تاريخ الدخول إلى الموقع 28 آب، 2013].

بوصفه معادياً للسامية⁽¹⁾. إن دزموند توتو معاد للصهيونية بشكل واضح وصريح. ومن هذا لا يُستتج أنه معاد للسامية.

في هذه السجلات يبدو من المستحيل الهروب من اتهامات «أنت إما معنا أو ضدنا»، ما يعني ضمناً أنك إذا كنت ضد الصهيونية فأنت ضد السامية. إن التغلب على الإقامة الجبرية في الدين، الأمة، والدولة هو أحد الشروط الضرورية الأساسية لحل النزاع الفلسطيني / الإسرائيلي. أما الشرط الآخر فهو فهم دولة إسرائيل في الإطار العالمي للاستعمارية / الحداثة. إن صعوبات الهروب من هذه الإقامة الجبرية ينبغي ألا تمنعنا من فك ارتباط دولة إسرائيل مفاهيمياً عن اليهودية.

تتأتى صعوبات الارتباط من حقيقة أن اليهود الدينيين، الذين انتقدوا الصهيونية قبل تأسيس إسرائيل، قد منحوها الآن تأييدهم الصريح والقوي، وخصوصاً بعد «حرب الأيام الستة» في عام 1967⁽²⁾. ربما يكون أحد الأسباب هو أن الثورة كانت مركزة على «الصهيونية» (الدينية أو العلمانية) بدلاً من التركيز على «الدولة». ينبغي أيضاً التنويه إلى أنه في عام 1948 ظهرت إسرائيل إلى حيز الوجود بفضل دعم الدول الإمبريالية الغربية، في حين أعطت انتصارات «حرب الأيام الستة» دولة إسرائيل الثقة الضرورية بالنفس لتمكين مشروعها الإقليمي والقومي. من

(1) آلان درشوفيتز، «القس توتو ليس قديساً عندما يتعلق الأمر باليهود»، معهد غينستون، مجلس السياسة الدولية، 20 كانون أول / ديسمبر، 2010

(<http://www.gatestoneinstitute.org/1742/bishop-tutu-is-no-saint-when-it-comes-to-jews>)

[تاريخ الوصول إلى الموقع 28 آب، 2013]؛ روبرت فاين، «العباء اللوم لن تقودنا إلى السلام». تشرين الأول 2010

(<http://engageonline.wordpress.com/2010/10/08/robert-fine-responds-to-desmond-tutus-call-for-a-boycott-of-israel-in-the-south-african-mail-guardian/>)

[تاريخ الدخول إلى الموقع 28 آب / أغسطس 2013].

(2) انظر التقرير على المكتبة اليهودية الافتراضية:

(<http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/History/67-War.html>)

[تاريخ الدخول إلى الموقع 28 آب، 2013].

وجهة نظر الفلسطينيين، كانت كلتا اللحظتين مؤذيتين: 1948، لأن خلق الدولة سرع عمليات طرد الفلسطينيين؛ 1967، لأن دولة إسرائيل نفذت الاستراتيجيات الاستعمارية ذاتها التي سستها سابقاً القوى الإمبريالية الغربية. مع ذلك، كان من الصعب رؤية إسرائيل كقوة إمبريالية، رغم أن الاستراتيجيات والحجج الإمبريالية/ الاستعمارية كانت عاملة هناك منذ 1967.

في الأجزاء التالية من الجدل، أنظر إلى دولة إسرائيل ضمن الأفق الاستعماري للحدثة و، بالنتيجة، أركز على إمكانية إزالة استعمار الدولة الذي تدين به الصهيونية. فإزالة استعمار الدولة يعني أولاً وقبل كل شيء كشف منطق الاستعمارية المتضمن في شكل الدولة، بالتوازي مع بلاغته، بلاغة الخلاص والديمقراطية. فإزالة الاستعمار هي، بالتأكيد، قضية مفاهيمية وفلسفية. إن الدولة القومية حديثة الشكل تدعمها ثلاثة قرون من النظرية السياسية الغربية. وإزالة استعمار الدولة يعني تقليص تأثير التاريخ الإقليمي والمنطق المفاهيمي للنظرية السياسية الغربية⁽¹⁾.

التشكل العرقي الغربي، والدولة القومية وفكرة الحدثة

تم إنشاء دولة إسرائيل عند تقاطع الطرق التاريخي للعرق والدين والقومية والعلمانية والعولمة. فالدولة القومية الأوروبية الحديثة والعلمانية (أي، بعد التنويرية) قد أزاحت التشكيل اللاهوتي لمشاركات الدين (المسيحي واليهودي)، المنظم من قبل الكنيسة والملكية⁽²⁾. وحلت محلها مشاركات الولادة (natio)، التي تنظمها الدولة العلمانية. نشأ «اليهود العلمانيون» الذين ناصروا المشروع الصهيوني تقريباً في هذه الفترة الحاسمة في أوروبا الوسطى. من الصعب تخيل أن الفرع السياسي والغالب من الصهيونية في إسرائيل كان من الممكن أن ينشأ في أستراليا أو

(1) جهد مشير للاهتمام في هذا الاتجاه كتاب من تأليف روكسان إل. أوبين بعنوان أعداء في المرأة: الأصولية الإسلامية وحدود العقلانية الحديثة (برنستون، نيو جيرسي: مطبعة جامعة برنستون، 1999).

(2) لا يمكنني الخوض في المجتمعات العقدية في آسية (الكونفوشيوسية، البوذية) وفي أفريقية، وفي حضارات تاوانتيسويو وأناهواك العظيمة (الإينكا، المايا، والأزتيك).

الأرجنتين أو جنوب أفريقية، أو حتى في الولايات المتحدة، حيث استوطن الكثير من اليهود⁽¹⁾. كانت روعة الدولة القومية في أوروبا هي السماح للطبقة الإثنية الناشئة، البرجوازية، بإزاحة الحلف المشترك للملكية والكنيسة المسيحية، رابطة أمة واحدة بدولة واحدة.

إذا كان ممكناً، في أوروبا، ربط أمة واحدة بدولة، فقد تم ذلك بشكل رئيس بسبب التجانس النسبي للسكان البيض والأوروبيين والمسيحيين. نشأت المشاكل فيما بعد، في أوروبا وفي المستعمرات، بما أنه لا توجد أمة كثيرة في العالم خارج أوروبا يمكن فيها جعل الدولة تنطبق على أمة واحدة. حتى في أوروبا كان هو الحال، لكنه لم يعد كذلك. إن الهجرة تنقل أوروبا والولايات المتحدة إلى دولة متعددة القوميات في المستقبل أو شكل آخر ما من الحكم لم يتمكن من تخيله بعد. لقد واجهت دولة إسرائيل منذ البداية هذه المشكلة غير القابلة للحل لكل دولة قومية حديثة: السعي وراء رفاه مواطنيها واعتبار كل شخص آخر مشبوهاً أو أقل إنسانية ويمكن الاستغناء عنه بالنسبة إلى دولة قومية مفترضة. من الضروري التغلب على العنف المشرعن لشكل الدولة القومية هناك و، بالطبع، في كل دولة في العالم.

في أوروبا، انفجر تفاقم الأيديولوجيا المبنية حول تساوي الأمة والدولة في ظل النازية، عندما قتل حوالي ستة ملايين شخص، ستة ملايين بينهم يهود، ألمان وغير ألمان. إن [ممارسة] الدولة الألمانية للإبادة الجماعية وقصف هيروشيا وناغازاكي، الذي أنهى الحرب العالمية الثانية، قد خلقا الشروط لأجل الإعلان العالمي لحقوق

(1) التركيز الأوروبي الكبير لليهود في عام 1900، عندما نشأ المشروع الصهيوني، كان في روسيا (أكثر من ثلاثة ملايين)، والثاني في الإمبراطورية النمساوية المجرية (أكثر من مليون ومائتي ألف). أما في الولايات المتحدة آنذاك، فقد كان عدد السكان اليهود حوالي 1.5 مليون نسمة. حسب المكتبة اليهودية الافتراضية، في عام 1942، كان التركيز الرئيسي لليهود في أوروبا الوسطى

(<http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/History/totaljews.html>)

[تاريخ الدخول إلى الموقع 28 آب/ أغسطس 2015]

إذا كانت الصهيونية الثقافية ولدت في روسيا وبولندا، فإن الصهيونية السياسية ظهرت في أوروبا الوسطى، حيث كانت رياح الغرب تهب بقوة: الامبراطورية النمساوية-المجرية انهارت عام

الإنسان: أمن الأمة يتوازى مع أمن الحضارة الغربية. أي، أن خطاب حقوق الإنسان هو سيف ذو حدين: يمكن استعماله لتعزيز احترام وحماية الأشخاص الذين يدافعون عن قيم معينة، ويمكن انتهاكها دفاعاً عن هذه القيم ذاتها⁽¹⁾.

لهذا، في حين كانت الإبادة الجماعية المدبرة من قبل الألمان⁽²⁾ هي نتيجة للقيود الداخلية للشكل والأيديولوجيا التي ربطت أمة واحدة بدولة واحدة، كانت هيروشيما وناغازاكي نتيجتين لهذه الأيديولوجيا في العلاقات الدولية التي جعلتهما ممثليين لـ «الخطر الأصفر»⁽³⁾. لقد بات نموذج «أمة واحدة، دولة واحدة» العمود السياسي للحضارة الغربية. فهزيمة هتلر من قبل الحلفاء وهزيمة الحاكم الأعلى لليابان، هيروشيما، صلبت الشكل السياسي للدولة القومية الأوروبية الحديثة قوياً، في أوروبا، وفي العلاقات الدولية. أوقفت الدول الأوروبية الغربية والولايات المتحدة «الخطر الأصفر» الذي فرضته اليابان على الحضارة الغربية منذ قصف بيرل هاربور في كانون الأول في عام 1941. على كل، في حين ظهرت الدولة القومية الشكل إلى حيز الوجود «بشكل طبيعي» في تاريخ أوروبا، فقد كانت فرضاً قسرياً أو تكيفاً قسرياً في العالم اللاأوروبي. إن قدراً كبيراً من تقوية الدولة القومية الحديثة في أميركا الجنوبية (دول جمعت بسبب رابطتها الفرنسية بوصفها أميركا «اللاتينية») في القرن التاسع عشر وفي آسيا وأفريقية في أثناء القرن العشرين يعزى، بالضبط، إلى فرض الدولة القومية الحديثة (لأنها قدمت بوصفها الحل الوحيد) على تواريخ

(1) فرانتز هينكلامرت، «المنطق الخفي للحدثة: لوك وتحول حقوق الإنسان»، مشروع العوالم والمعارف المغايرة (WKO)، 2004، انظر:

(http://globalstudies.trinity.duke.edu/wpcontent/themes/cgsh/materials/WKO/V1D1_HinkelammertF.pdf).

[تاريخ الوصول 28 آب، 2013]

(2) حول الجانب الهندسي من الإبادة الجماعية النازية، انظر زيغيمونت باومان، الحدثة والهولوكوست (إيثاكا: مطبعة جامعة كورنيل، 1991).

(3) غريغوري بلو، «غوينو عن الصين ونظرية العرق والخطر الأصفر» ونقد الحدثة، مجلة التاريخ العالمي 10/01/1999، ص: 111-93.

وحساسيات غريبة على ذلك الشكل من الحكم. لكن إسرائيل، على العكس من تلك الصعوبات المجربة و/ أو فشل تشكيل الدولة خارج أوروبا، كانت ناجحة.

لماذا كانت دولة إسرائيل ناجحة في حين مرت الدول القومية في أفريقية وآسية بكل أنواع الصعوبات، التي شهدنا نتيجتها في الآونة الأخيرة عبر الانتفاضات في شمال أفريقية والشرق الأوسط؟ حتى البلدان في أميركا «اللاتينية»، الجمهوريات التي تشكلت في النصف الأول من القرن التاسع عشر، لا تزال تتصارع مع شكل الدولة القومية. ثمة جواب واحد تقدمه نظرية التبعية (dependency theory) في أميركا «اللاتينية» والمعتقة في آسية وأفريقية هو التبعية السياسية والاقتصادية للدول الناشئة حديثاً. كانت الحجة هي التبعية الاقتصادية، رغم أنها كانت تشير ضمناً إلى واقع التبعية السياسية. فحتى يومنا هذا، في بوليفيا بعد انتخاب ايفو مورالس كان الشكل الحديث للدولة القومية موضع تشكيك: إعادة تأسيس أم إزالة استعمار هذا الشكل هما السؤالان في لب السجلات الراهنة. لكن بغض النظر عن ذلك، لم تنشأ دولة إسرائيل عن كفاح من أجل الاستقلال أطاح الإدارات والقوات العسكرية الإمبريالية (كما في الهند أو الجزائر أو مصر)، بل، بدلاً من ذلك، تمتعت بدعم القوات الإمبريالية التي كان الآخرون يكافحون لإطاحتها. مع ذلك، ينبغي ملاحظة أن الصهاينة والعرب في فلسطين، قبل تأسيس دولة إسرائيل، قد واجها البريطانيين الذين استولوا على المنطقة في الفترة بين عامي 1917 و 1948، التالية لانهار السلطنة العثمانية (سأعود إلى هذه النقطة أدناه).

لم يكن تأسيس دولة إسرائيل مختلفاً فقط عن الدول المختلفة حديثاً التي نشأت عن مسعى إزالة الاستعمار، بل قدمت أيضاً تبريرات مشابهة لأجل احتلالات الأراضي مماثلة لتلك التبريرات السائدة في قشتالة القرن السادس عشر وفرنسا وبريطانيا و، فيما بعد، الولايات المتحدة⁽¹⁾. كانت التوازيات فاضحة. فأعمال التجريد من الحقوق في العالم الجديد وفي جنوب أفريقية قد تم الدفاع عنها وتشريعها من قبل ممثلي الدول

(1) من أجل رواية مفصلة، انظر مايكل بريور، الصهيونية ودولة إسرائيل، بحث أخلاقي (لندن: روتلج، 1999).

الإمبريالية الغربية (إسبانيا، إنكلترا، هولندا). أما في حالة الصهيونية، فإن عملية التجريد من الحقوق قد دافع عنها وشرعها أناس بلا دولة (كمثال ذلك، أولئك القادمون من الشتات) في سيرة بناء دولتهم الخاصة بهم. مع ذلك، فإن تأسيس دولة إسرائيل بالذات واستمراريتها إنما يُعزيان في جزء كبير منهما إلى دعم الدول الإمبريالية الغربية - إنكلترا في بداية السيرة، والولايات المتحدة منذ عام 1967.

إنها لمفارقة معبرة أن الدول التي نشأت من سيرورات إزالة الاستعمار إما فشلت (مصر، تونس، ليبيا، اليمن، سورية)، أو واجهت صعوبات كبيرة في شق طريقها (نيجيريا، الهند) أو كان عليها أن تمر بعملية إزالة استعمار ثانية (جنوب أفريقية مانديلا)، في حين تم إنشاء دولة إسرائيل وتمكينها. في هذه السيرة أصبح الفلسطينيون، بالفعل، شعباً مستعمرأ ما بعد حديثاً (مثل الشعب الأصلي الذي كان يعيش في الأمريكتين وفي جنوب أفريقية قبل الاستيطان الأوروبي والتجريد من الحقوق)، مجرداً من الحقوق عن طريق قوانين دولة إسرائيل وبدعم من إنكلترا والولايات المتحدة. بالإضافة إلى الشكل الأول من التجريدات الاستعمارية من الحقوق، دشنت دولة إسرائيل درجة ثانية من التجريد.

العلمانية الأوروبية ونشوء الصهيونية السياسية

مهما كانت الصلات بين اليهود والمسيحيين والمسلمين قبل نهاية القرن الخامس عشر، فقد انقلبت تلك العلاقات في حوالي نهاية القرن الخامس عشر وفي أثناء القرن السادس عشر. انطلاقاً من هذا التحول الدلالي تنشأ الصهيونية بعد ذلك بأربعة قرون. فكيف حصل ذلك؟

إن طرد اليهود من شبه الجزيرة الأيبيرية [إسبانيا والبرتغال] مماثل لكنه مختلف عن خروج (Exodus) اليهود من مصر⁽¹⁾. حتى لو في رواية لا يهودية كنت أفسر/ كنا نفس الخروج بأنه طرد أكثر من كونه خروجاً طوعياً، تظل الاختلافات ذات

(1) تتوفر رواية مفصلة ومتبصرة في كتاب ديفيد نيرنبرغ، مناهضة اليهودية. التراث الغربي (شيكاغو، إيلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو، 2013)، ص: 13 - 47، 217 - 68.

دلالة وذات صلة بالوضع الحالي للقصة: فاليهود، الذين كان يرشدهم موسى، لم يكونوا يفرون من المسيحيين عند مغادرة مصر. سواء كان رحيلهم طوعاً أم قسراً، سواء كان خروجاً (من مصر) أم طرداً بالقوة (من شبه الجزيرة الأيبيرية)، فقد كان اليهود يُعتبرون، من قبل الذين تخلّفوا ومن قبل الذين طردوهم، غير مرغوب فيهم. أما في الخروج، فقد كان اليهود غير مرغوب فيهم بشكل رئيس بسبب اعتقادهم بإله واحد، والموقف الذي ولده هذا الاعتقاد ضمن الطوائف اليهودية، بدلاً من الاعتقاد بالعالم المزيّن للآلهة العديدة، الذي كان المصريون يعتقدون به. لم يكن العرب بعد في مصر في زمن الخروج (في حوالي عام 1441 قبل الميلاد) وكانت المسيحية لازالت بعيدة عن الولادة. من الناحية الأخرى، كان اليهود، عندما طردوا من شبه الجزيرة الأيبيرية، يتفاعلون مع المسيحيين والمسلمين، لكن المسيحيين في تلك اللحظة كانت لهم اليد العليا وتمكنوا من طرد كل من اليهود والمسلمين من الأقاليم المسيحية. بذلك أوجدت المسيحية الغربية الحديثة، في أثناء عصر النهضة، المخطط الأولي للدولة القومية الشكل: كان «نقاء الدم» هو المبدأ الذي ستنى عليه مشتركات الدين المتجانسة. فيما بعد، اتخذت الدولة القومية الشكل مشتركات الولادة بدلاً من مشتركات الدين، ولون البشرة بدلاً من نقاء الدم.

شهد العام 1492، كما نعرف، سلسلة من الأحداث الحاسمة، بما في ذلك عمليات طرد المسلمين واليهود من شبه الجزيرة الأيبيرية. فذهب المسلمون إلى الجنوب، وذهب اليهود إلى الشمال؛ ورسا كولومبوس، الذي كان يبحر إلى الغرب، على أرض غير معروفة للأوروبيين سماها («Indias»)، وفيما بعد أطلق عليها رسام خرائط أوروبي اسم «أميركا» تكريماً لأمرغو فسبوتشي (Amerigo Vespucci). بعد ذلك بوقت قصير، ساهمت المهجرة القسرية للأفارقة المستعبدين في تشكيل التركيب السكاني [الديموغرافيا] للعالم الجديد/ أميركا وخلقت الشروط المسبقة لأجل الرحم الحديث العرقي الاستعماري. فأصبح اليهود جزءاً من صورة أكبر. كان المسيحيون في وضع [يؤهلهم] للتصنيف ولجعل تصنيفاتهم سارية المفعول

لقرون قادمة: شكّل اليهود والمسلمون و«الهنود» و«السود» المربع العرقي الذي بقي، مع التعديل والإضافات، إلى يومنا هذا⁽¹⁾.

طُرد المسلمون من العالم المسيحي الغربي، لكن المسلمين في تلك اللحظة خلفوا وراءهم ثمانية قرون من التاريخ، من الخلافة الإسلامية إلى السلطنة العثمانية القوية. كُشف النقاب عن حضارات الأزتک والمايا والإنكا وخفّضت درجة تصنيف سكانها بوصفهم «هنوداً». فصل الأفارقة المستعبّدون عن مملكة أفريقية وحددت هويتهم بوصفهم «سوداً». في حين أصبح المسلمون العدوّ الإمبريالي الخارجي (مثال ذلك، الحضور الدائم للعثمانيين في شمال أفريقية وجنوب شرق أوروبا)، وأصبح «الهنود» و«السود» الرعايا الاستعماريين الخارجيين، بات اليهود الذين بقوا في بلدان المسيحيين الغربيين (التي سرعان ما أصبحت أوروبا) هم الرعايا الاستعماريين الداخليين. كانت إعادة نقش الصهيونية داخل أوروبا القرن التاسع عشر نتيجة لحياة اليهود كشعب بلا دولة وكرعايا استعماريين داخليين في أثناء تفكك الملكية الأوروبية وتهميش الكنيسة المسيحية وتشكيل الدولة القومية الشكل.

دولة إسرائيل في الأفق الاستعماري للحداثة الإمبريالية

إن خلق دولة إسرائيل والدعم الأوروبي الغربي لها يثيران أسئلة حول الطبيعة التاريخية للدولة القومية الحديثة في تحول النظام العالمي منذ القرن الثامن عشر. ثمة قضيتان وثيقتا الصلة بحجتي: (1) الصورة الأكبر للعلاقات بين الدول في ظل غلبة شكل الدولة القومية في الولايات المتحدة وإنكلترا وفرنسا وألمانيا؛ (2) فكرة «الأمة» التي أقيم عليها جهاز الدولة الأوروبية الحديثة.

(1) توجد رواية للتشكيل العرقي في القرن السادس عشر، كما نعرفه اليوم، في كتاب إعادة قراءة الأسطورة السوداء: خطاب الاختلاف الديني والعرقي في إمبراطورية عصر النهضة، مرغريت غريب، والتر مينولو، ومورين كويليغان (محررون) (شيكاغو، إيلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو، 2008).

للتوسع في هاتين القضيتين، نحتاج لمراجعة أحداث القرنين السادس عشر والتاسع عشر. لقد تطرقت قبل الآن إلى طرد المسيحيين لليهود والمسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية. كما هو معروف جيداً، في القرن السادس عشر، لم يكن المسلمون في إسبانيا وشمال أفريقيا فقط، بل كانوا أيضاً في أراضي الخلافة الإسلامية - أو، إذا شئت، الدولة الإسلامية التي وحدت جماعات المؤمنين (الأمة) التي يحكمها خليفة واحد - التي كانت تمتد من إسبانيا، من خلال الجنوب الشرقي عبر شمال أفريقيا، عبر الشاهانية الفارسية⁽¹⁾، وصولاً إلى جنوب وجنوب شرق آسيا اليوم. كانت أكبر مستعمرة للإمبراطورية البريطانية هي في جنوب آسيا. بدأ الغزو البريطاني للهند بتفكيك السلطنة المغولية، التي كانت قاعدتها في دلهي وتمتد من كابول إلى الشمال في كالكوته ومدراس في الجنوب - تقريباً كل الهند وأفغانستان اليوم. بالصدفة أو بتخطيط، كانت المستعمرة الكبيرة الأولى للإمبراطورية البريطانية هي سلطنة.

بالتأكيد، كانت الغزوات الأولى تجارية، من خلال شركة الهند الشرقية البريطانية، لكن السيطرة السياسية على «الهند» (1858) قد وضعت في المكان عن طريق التحكم بالسلطنة وغرس المؤسسات الحديثة/ الاستعمارية. كانت الموجة الثانية توغلاً بريطانياً في السلطنة الفارسية/ الإيرانية بعد اكتشاف النفط في المنطقة. قامت بريطانيا والاتحاد السوفيتي بغزو إيران بعد الحرب العالمية الثانية. فأرغم رضا شاه على التنازل عن العرش وحل محله ابنه، محمد رضا شاه بهلوي الموالي لبريطانيا. استمر شاه بهلوي حتى عام 1979، عام الثورة الإيرانية. ثالثاً، سقطت السلطنة العثمانية تحت البريطانيين في عام 1922. من أنقاض السلطنة العثمانية نشأت الجمهورية (الدولة القومية) بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، وتم تشكيل دولة جديدة أخرى في الأراضي التي يحتلها العثمانيون: العراق. كان النفط قد اكتشف في المنطقة في بداية القرن العشرين.

(1) لم يكن الشاه إمبراطوراً بالطريقة نفسها التي لم يكن بها الإمبراطور شاهاً. بالنتيجة، لم تكن فارس إمبراطورية بل شاهنشاهية، بالطريقة نفسها التي لم تكن بها روما شاهنشاهية بل إمبراطورية. إذا لم نفهم هذه الاختلافات عبر الزمان والمكان، فإننا نخاطر بتخيل كيانات خيالية كالإمبراطورية، على سبيل المثال.

في عام 1917 دخل البريطانيون واستولوا على القدس، التي كانت حتى ذلك الوقت واقعة تحت الحكم العثماني. كانت المدينة مضطربة بالمواجهات المستمرة بين المسلمين واليهود والبريطانيين. في عام 1947 وافقت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين إلى منطقتين/ أرضين عربية ويهودية - الأردن وإسرائيل. اختصاراً للقصة، مع سقوط السلطنة العثمانية وإزاحة رضا شاه في عام 1941، نجحت بريطانيا في السيطرة على مساحة شاسعة من أراضي السلطنة المغولية، المتاخمة للسلطنتين الفارسية والعثمانية. فلم يكن تأسيس دولة إسرائيل عودة اليهود إلى الأرض الموعودة فقط، بل تأميناً لإقليم أساسي - نطاق الحجاز الشرقي لأوروبا. إن إعلان الرئيس باراك أوباما الأخير عن «التحالف الذي لا ينكسر مع إسرائيل» يعني أكثر بكثير من الحفاظ على الروابط بين البلدين ذوي عدد السكان اليهود الأكبر ووحدة التراث اليهودي - المسيحي. إنه يعني أيضاً تحالفات جيوسياسية ذات تبعات اقتصادية وعسكرية مهمة: إيران وسورية على الجانب الآخر من الحدود، وروسيا والصين نحو الشرق.

إن انتشار شكل الدولة القومية قد حمل معه الفكرة الضمنية: «دولة واحدة، أمة واحدة». لقد أوجد سقوط السلطنة العثمانية جمهورية تركيا الحديثة التي حكمها أتاتورك. فكان أحد الفصول المخزية في هذا التحول هو الإبادة العرقية ضد الأرمن باسم الدفاع القومي والوحدة. في «دولة واحدة، أمة واحدة»، لا يوجد متسع لأجل «اللاقوميين». إن تقسيم الهند/ باكستان قد اشتق ضمناً أيضاً من فرضية أن أمة واحدة تطابق دولة واحدة. لقد كانت هي الفرضية الأساسية ذاتها التي حثت على الانتدابات التي أوجدت العراق من أنقاض السلطنة العثمانية، رغم أن التواريخ المحلية كانت مختلفة. فقد خلقت السيطرة البريطانية على السلطنة المغولية الشروط لأجل زراعة الأفيون، وفي الوقت نفسه، لأجل حرب الأفيون مع الصين. لقد اكتشف النفط في المنطقة التي تسيطر عليها السلطنتان الصفوية والعثمانية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. حالما أصبح العراق دولة قومية، فعل الشيء نفسه ضد الأكراد، وغزا إيران في عام 1980، لمنع الانتفاضات المحتملة

للأقليات المضطهدة في العراق. كل ذلك باسم الوحدة القومية: أمة واحدة، دولة واحدة. لقد سُنت الإبادات الجماعية والحرب باسم الوحدة القومية. إن دولة إسرائيل لم تنج من حكم الدول القومية في النظام العالمي الحديث/ الاستعماري.

دولة إسرائيل العلمانية. الدينية

إن كون الصهيونية السياسية قد نشأت في أوروبا في أثناء القرن التاسع عشر لم يكن حدثاً عشوائياً من التاريخ العالمي. إنه نتيجة منطقية للعالم الحديث/ الاستعماري. كان تكشف التاريخ الأوروبي، الذي صور ذاته بوصفه «حادثة»، هو الذي احتاج إلى الدولة القومية الشكل واخترعها. في ذاك المفصل، رُسمت صورة اليهود بوصفهم جماعة إثنية أكثر مما هي جماعة دينية.

إحصائياً، يقدر عدد سكان العالم من اليهود اليوم بين 14 و15 مليون. من هذا المجموع، يعيش 5.7 مليون في إسرائيل و5.2 مليون في الولايات المتحدة. يعيش حوالي مليون نسمة في أوروبا (فرنسا، بلجيكا، هولندا، بريطانيا، ألمانيا وهنغاريا)، وحوالي 300.000 نسمة في أميركا الجنوبية وجنوب أفريقية وأستراليا وأوكرانيا وروسيا يمثلون ما يقارب نصف مليون.

لكن هنغارياً في الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية، هو تيودور هرتزل (1860-1904)، أنجز خلال حياته القصيرة الكثير جداً في وضع حجر الأساس للصهيونية بحثاً عن دولة إسرائيل. كان هرتزل هامشياً بشكل مزدوج، ولا بد من أنه قد شعر بذلك: كان يهودياً وكان في إمبراطورية هامشية وأخذة في التفكك، هي الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية، تواجه قوة الدول القومية الأوروبية والإمبريالية. لم يكن أول من طلع بفكرة الصهيونية، لكنه كان محرك المشروع ومهندسها. إذ كان يعيش في أوروبا في حين كانت الدولة القومية تتعزز في قلب البلدان الأوروبية الغربية. كانت الدولة القومية مؤسسة علمانية. وكذلك كانت صهيونية هرتزل.

إن العلامة الدالة على الحداثة والتقدم، الشكل العلماني الأوروبي من الحكم، الذي كان الدولة القومية، المؤسسة النموذجية المقبولة من أجل طبقة إثنية ناشئة، البرجوازية، قد ارتبطت بالثورة المجيدة والثورة الصناعية في إنكلترا، بالإضافة إلى الثورة الفرنسية في القارة. كانت أيضاً النتيجة لمعاهدة وستفاليا التي أنهت حرب الثلاثين عاماً المهلكة (1660-1715). في الولايات المتحدة، لم تكن الطبقة الإثنية البرجوازية هي التي بنت الدولة القومية الحديثة بل المستعمرون المستوطنون. ولم تكن [الدولة القومية] لحل النزاعات الدينية بين المسيحيين، بل للإطاحة بالحكم البريطاني. على النقيض من البرجوازية الأوروبية التي بنت الدولة القومية مزيجاً الملكية والكنيسة، فإن الآباء المؤسسين في الولايات المتحدة قد أراحوا الأميركيين الأصليين (ايروكواز، سيوكس، اوساج، إلخ.) وجردوهم من حقوقهم. كما في حالة الاستعمار الإسباني للعالم الجديد والبوير والاستعمار البريطاني لجنوب أفريقيا، كان «المصير الجلي» مزعوماً من قبل الشعب المختار، الذي يشجعه الله على امتلاك الأرض. خلافاً لأوروبا أوائل القرن التاسع عشر حيث طغت قضايا الطبقة على قضايا العرق، فقد اتسم الأميركيون منذ البدايات الأولى بالتصنيفات والمرتبات العرقية: كان الأميركيون الأصليون («Pueblos Originarios» في الجنوب، الأمم الأولى في كندا) والأفارقة المستعبدون، المنقولون إلى العالم الجديد، هم المكافئين للمسلمين (moors) واليهود في إسبانيا القرنين السادس عشر والسابع عشر (عندما كانت أوروبا لا تزال معروفة باسم العالم المسيحي الغربي). كان من الواضح أن «المصير الجلي» هو عقيدة عرقية تبرر الاستيلاء على أراضي السكان الأصليين. إن التوازيات واضحة بين نيل الدولة القومية الأولى الاستقلال عن أنظمة الحكم الامبريالية/ الاستعمارية وتشكيل دولة إسرائيل، بدعم من الدول الامبريالية/ الاستعمارية. فقد استخدمت بلاغة مشابهة مع تأكيد على التقدم والحداثة والخلاص والمصير الجلي لتبرير سيطرة الولايات المتحدة على هايتي والفلبين في حوالي نهاية القرن التاسع عشر⁽¹⁾.

(1) كونراد تشيرلي، إسرائيل الله الجديدة: التفسيرات الدينية للمصير الأميركي (تشابل هيل: مطبعة جامعة نورث كارولينا، 1998).

رسخت العلمانية في أوروبا فصل الدولة عن الكنيسة ووضعت نهاية لشكل الدولة الملكية. مع ذلك، لم تختف الكنيسة ولا الملكية عن النظر. فقد أبقيتا مجال نفوذهما وراء خشبة المسرح، كما نعرف عن طريق النظر إلى كل ما تدعى البلدان المتطورة والمصنّعة في أوروبا. مع ذلك، كانت الدول القومية، كما يدل الاسم المركب، تُعتبر كتنظيمات قانونية وإدارية واقتصادية قائمة على مشتركات الولادة (الأمة) وليس على نسب العائلة الوراثي أو الانتخابات اللاديمقراطية في البابوية الرومية. كانت الرعاية القومية أيضاً توحيدها اللغة والأدب القومي والثقافة القومية (اكتسب مفهوم «الثقافة» معنى مختلفاً عن المعنى الذي كان يحمله في اللغات المشتقة من اللاتينية في أثناء العصور الوسطى). عندئذ أصبح الرعايا القوميون «مواطنين» بالمعنى الحديث للكلمة، الموصوف في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وحقوق المواطن.

كانت الصهيونية في رؤية هرتزل وعمله مشروعاً علمانياً بشكل أساسي. كان هذا يعني أن الرؤية الصهيونية للدولة تفترض أن اليهود جماعة إثنية وليست دينية. لذلك السبب، كان على المشروع الصهيوني العلماني أن يواجه زعماء الجاليات الدينية اليهودية المعارضين له. فقد وصفه مايكل برنر في عام 2003 بأنه نزعة قومية أممية تنطوي على مفارقة⁽¹⁾. وفق هذا المنهج في التعليل، ثمة مفارقة أخرى هي أن حركة كانت علمانية منذ انطلاقتها، ولذلك أكدت على القومية الإثنو-يهودية بدلاً من التركيز على الموروثات [الثقافات] اللاهوتية، كانت تُنتقد كثيراً جداً من قبل اليهود المتدينين الذين كانوا يعتبرون الصهيونية تحدياً لليهودية. لم يحصل في أي جزء آخر

(1) مايكل برنر، الصهيونية، تاريخ موجز، ترجمة شيللي إل. فريش (برينستون، نيو جيرسي: دار ماركو وفينر، 2003). لكن، من منظور إزالة الاستعمار، فإن «الزعة القومية الأممية» ليست مفارقة بل تبعة تاريخية لكفاحات إزالة الاستعمار في آسيا وأفريقية (مؤتمر باندونغ، 1955)، وبلدان عدم الانحياز (يوغوسلافيا، 1961). مع ذلك، فإن توجهات هذه المشاريع ليست متفقة: الكفاحات لإزالة الاستعمار موجهة لإنهاء السيطرة الإمبريالية الغربية على أراضيهم ولبناء دولتهم الخاصة، في حين تحركت الصهيونية في الاتجاه المعاكس، رغبة في الحصول على أرض وبناء دولة بدعم من القوى الإمبريالية.

من العالم، باستثناء أوروبا الغربية والأميركتين، انقسام علماني - مقدس مشابه في قضايا الدولة.

إن تاريخ الصهيونية، مسارها منذ انطلاقها إلى إقامة دولة إسرائيل، قد رواه اليهود وغير اليهود على حد سواء. في ما يلي سأنتقل من التفسير الذي قدمه لاهوتيان مثيران للجدل ذكرتهما سابقاً: واحد يهودي والآخر مسيحي. الأول هو مارك إليس، أما الثاني فهو مايكل بريور. إن إليس معترفٌ بتميزه بسبب تبصرات كثيرة، من ضمنها تأكيديه - كما ذكرت من قبل - على أن اليهودية لا تساوي إسرائيل؛ وبريور معترفٌ به بسبب وضع مسألة فلسطين ضمن إطار تاريخ الاستعمار. إن مأخذي، وفقاً لخطي الحجاج التي قدمها اللاهوتيان كلاهما، سوف يستند إلى استعمارية الدولة القومية الأوروبية الحديثة التي اشتقت منها الصهيونية. بالنسبة للصهيونية، بعبارة أخرى، كان ثمة سبب منطقي - تاريخي، وليس مجرد صدفة، يفسر لماذا نشأت في أوروبا، في إمبراطورية آخذة في التحلل (الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية) وليس في أي مكان آخر من الشتات اليهودي.

التفكير الخطي العالمي والاستعمارية والتجريد من الحقوق؟

إذا تابعنا التعليل الذي كنت أتبعه، فإن مسألة فلسطين / إسرائيل ليست قضية محلية. إنها محصنة بالنظام العالمي. إن النظام العالمي الذي أتكلم عنه هو النظام الذي وصفه كارل شميت بأنه «الناموس (nomos) الثاني للأرض»، الذي يضبطه التفكير الخطي العالمي. هذه هي الرؤية الأوروبية، وهي نصف القصة. أما النصف الآخر، الرؤية من الطرف المتلقي للتفكير الخطي العالمي، فهي لحظة تأسيس «الرحم الاستعماري للسلطة» وصنع الحضارة الغربية⁽¹⁾. فالقانون الدولي الضابط للـ «الناموس» الثاني هو مظهر واحد من الرحم الاستعماري. كلتا السرديتين (سردية

(1) كارل شميت، ناموس الأرض في القانون الدولي للقانون العام الأوروبي [1950]، ترجمة غ. ل. أولن (نيويورك: تيلوس برس، 2006). من أجل «المصدر الاستعماري للسلطة»، بوصفه الأرضية التأسيسية للحضارة الغربية، انظر والتر د. مينولو، الجانب المظلم من الحضارة الغربية: مستقبلات عالمية، خيارات إزالة الاستعمار (دروم نورث كارولينا: مطبعة جامعة ديوك، 2011).

الناموس الثاني وسردية الرحم الاستعماري للسلطة) يقع في صميمهما التجريد من الحقوق. التفكير الخطي العالمي هو مساو للقانون الدولي: إعادة رسم خارطة العالم أوجدت الناموس الثاني، والقانون الدولي شرعن التجريد من الحقوق منذ بدء الناموس الثاني، منذ القرن السادس عشر حتى تقسيم أفريقية بعد معاهدة برلين عام 1884. لقد استفاد تأسيس دولة إسرائيل من إحدى استراتيجيات التوسع الامبريالي. في قاموس «الرحم الاستعماري للسلطة»، شرعن القانون الدولي السيطرة وإدارة السلطة. كان التجريد من الحقوق، المتصل بالقانون الدولي، هو شأن الدولة، الملكية أو العلمانية. وهذه هي المجموعة المتألفة من [الظروف] التي تم فيها تأسيس دولة إسرائيل: كانت العودة إلى الأرض الموعودة مدعومة بمسار طويل الأمد من شرعة التجريد من الحقوق باسم التقدم والحضارة⁽¹⁾.

لكن للتجريد معاني ضمنية مروعة تتجاوز القانون ويمكن بالكاد تبريرها باسم النصوص المقدسة: التجريد من الحقوق لا شرعي ودنس. يبدو أنه لا يوجد قانون أو حقيقة مقدسة يمكنها أن يبرر حق كائن بشري في تجريد كائنات بشرية أخرى مما يمتلكون. إن سيادة الدولة القومية تعرض علاقات السيادة بين الكائنات البشرية للخطر: لا يملك أي كائن بشري الحق في استعباد أو استغلال أو تجريد الكائنات البشرية الأخرى من حقوقهم. لقد كانت الدولة القومية الشكل تعرض السلام العالمي للخطر بوضع أمن ورفاه مواطنيها [قبل رفاه البشرية والكوكب. إن الاستمرارية والتنامية في الحضارة الغربية بين قانون الدولة وحقيقة النص المقدس قد ساهمتا في التقسيم الطبقي والعنصري البلدان والأراضي والكائنات البشرية.

(1) في المطلب (Requerimiento) الشهير وسمي الصيت، توجب على السكان الأصليين أن يخضعوا أنفسهم للقوانين الإسبانية وللمسيحية

(<http://www.milestonedocuments.com/documents/view/requerimiento>)

[تاريخ الوصول 28 آب، 2013]. جاء سلب الحقوق الفعلي عقب ذلك، فبعد عقدين، وضع القانون الدولي لأول مرة في التاريخ البشري لشرعة الطرد وسلب الحقوق. فرنانديز دي سانتا ماريا، اكتشاف أميركا ومدرسة سالامانكا (كامبردج: مطبعة جامعة كامبردج، 1977).

فما يثبت ماكل بريور هو أن التشريعات التوراتية للتجريد من الحقوق هي التي أصبحت المبادئ الشرعية للقانون الدولي⁽¹⁾.

إن التجريد من الحقوق هو، أولاً وقبل كل شيء، تجريد من الإنسانية وحط من القدر سيكولوجياً. مع ذلك، فإن التجريد من الإنسانية لا صلة له بالموضوع في العلاقات الدولية الحديثة/ الاستعمارية: إذ تأتي أولاً مصلحة الدولة، وثانياً منفعة مواطني الدولة الذين يشرون قانون التجريد، وثالثاً اللاقوميين [أفراد القوميات أخرى] الخاضعين للتجريد من الحقوق. هنا نلامس إحدى انتكاسات الدولة القومية الشكلية الحديثة: أفراد قومية [الدولة] لهم الأولويات على اللاقوميين [أفراد القوميات الأخرى]، ما يعني أن اللاقوميين هم البشر الأقل شأنًا. الانتكاسة الثانية هي أن للقوميين المتماهين إثنياً مع الدولة أولويات على القوميين (أي، المواطنين الشرعيين) الذين لا ينتمون إلى القومية الأحادية الإثنية للدولة. الهولوكوست هو حالة كهذه: فالألمان الإثنيون كانت لهم الأولوية على اليهود الألمان الذين كانوا يعرضون للخطر تجانس الدولة القومية. والانتكاسة الثالثة هي أن الفلسطينيين هم في الوقت نفسه أجنب على دولة إسرائيل، والذين يعيشون في إسرائيل لا ينتمون إلى الإثنية التي تنتمي معها دولة إسرائيل.

ضد الصهيونية أم ضد الدولة القومية؟

كنت أجادل في أنه من الضروري ليس فك اقتران اليهودية بدولة إسرائيل فقط بل فك اقتران الصهيونية بدولة إسرائيل أيضاً. إذا لم تكن اليهودية تساوي دولة إسرائيل، عندئذ يكون من المهم فك اقتران الصهيونية اليهودية باليهودية. المشكلة التي يعانيها المجتمع الدولي مع الصهيونية هي في الواقع مشكلة مع الدولة القومية الشكلية الحديثة وليست مع اليهودية. لا يمكن أن توجد حلول لنزاع فلسطين/

(1) أنطوني أنجي، الإمبريالية والسيادة وصنع القانون الدولي (كيمبردج: مطبعة جامعة كيمبردج، 2007)؛ سبان، زاتيلو غروفوغوي، السادات، أشباه السادات والأفارقة (مينيابوليس: مطبعة جامعة مينيسوتا، 2005).

إسرائيل ضمن هذا الشكل، وفي شبكة النزاعات والصراعات الدولية من أجل الموارد الطبيعية والسيطرة الإقليمية.

ظهرت الصهيونية اليهودية إلى حيز الوجود - كما ذكرت سابقاً - في القرن التاسع عشر. كانت الصهيونية اليهودية هي الرد الضروري، من ناحية أولى، على التاريخ الطويل للشتات اليهودي و، من الناحية الأخرى، على التحول والاضطهاد اللاحق للذين مر بهما اليهود في أوروبا. فالتنوير والعلمنة الأوروبيان غيرا وضع اليهود. كان اليهود المتدينون مشمولين في تشكل الجماعات القومية الذي دفع إلى ظهور اليهود العلمانيين (الهيلوني hiloni، اليهود اللامتدينين). لذلك، إذا كانت الصهيونية حركة قومية يهودية تدعي حق اليهود في العودة إلى مكان ولادتهم التاريخي (صهيون - أرض إسرائيل والقدس)، عندئذ فإن ذلك يتسق مع رغبة وحق أية جماعة تم تجريدها من حقوقها. بهذا الخصوص، فإن تشكيل المشروع الصهيوني في أوروبا القرن التاسع عشر قد استجاب لنبوءة مماثلة لنبوءة السكان الأصليين للكوكب الذين جردوا بشكل منظم من أرضهم منذ عام 1500: في القرن السادس عشر في أميركا، في القرن التاسع عشر في نيوزيلندا وأستراليا وجنوب أفريقيا، بعيد مؤتمر برلين في عام 1884، تم تجريدها كل السكان الأفارقة من حقوقهم من قبل الدول الإمبريالية الأوروبية. إن مفارقة الدولة الصهيونية هي أن العودة إلى مولدهم التاريخي كانت تقتضي ضمناً تجريد الجماعات التي لم تغز تلك الأرض عن طريق التجريد من الحقوق.

عند هذا المفترق يلعب مشروع هرتزل ورقتين: تحرير الشعب اليهودي وانتحال خطابات التجريد. لأنه أين يمكن خلق دولة إسرائيل برأي هرتزل؟ يمكن للمرء أن يشتري الأرض في بلد آخر ناقشه هرتزل في الفصل الثالث («شراء الأرض»):

الأرجنتين هي أحد أخصب البلدان في العالم، إذ تمتد على مساحة شاسعة، وهي ذات عدد سكان قليل ومناخ معتدل. ستجني جمهورية الأرجنتين ربحاً كبيراً من التخلي عن جزء من أرضها لنا. إن التسرب

الحالي لليهود قد أنتج بالتأكيد بعض السخط، وسيكون من الضروري تنوير الجمهورية حول الاختلاف الجوهرى لحركتنا الجديدة.

على كل، يتغير الوضع عندما فكر في فلسطين. فالمعنى الضمني هو احتلال الأرض (الذي ناقشه في الفصل الخامس) وتجريدها من الناس الذين كانوا يعيشون قبلئذ في فلسطين:

فلسطين هي وطننا التاريخي الجدير بالذكر دوماً. فاسم فلسطين بالذات كان يجذب شعبنا بقوة ذات فعالية عجيبة. فلو منحنا جلالة السلطان فلسطين، لكان بمقدورنا بالمقابل أن نتعهد بضبط مجمل أموال تركيا. وكنا سنشكل هناك قسماً من متراس لأوروبية ضد آسية، مخفراً أمامياً للحضارة معاكساً للبربرية. وكنا سنبقى كدولة حيادية على تماس مع كل أوروبية، التي سيكون عليها أن تضمن وجودنا.

لم يكن بوسع الأرجنتين أن تقدم ما تقدمه فلسطين، وليس فقط لأن الأخيرة [فلسطين] كانت «الوطن التاريخي الجدير بالذكر دوماً». إن دولة إسرائيل، متخيلة أن السلطان العثماني سوف يمنح فلسطين لليهود، سوف تشكل «متراساً لأوروبية ضد آسية، مخفراً أمامياً للحضارة ضد البربرية. هنا تُلعبُ ورقتان في الوقت نفسه، ولن يعود اليهود ينظر إليهم بوصفهم «برابرة» بل سيُدججون في الحضارة الغربية في صراعها ضد البربرية.

عملت الدولة القومية الشكلية الأوروبية الحديثة يدأ بيد مع فكرة «الأمة» و«النزعة القومية»، مقدمة حلاً لأفراد القومية [القوميين] ومصاعب لغير أفراد القومية [اللاقوميين]. إنها، باختلاق فكرة وصورة مشتركات المولد (النزعة القومية)، قد خلقت أيضاً النقيض، أي رُهاب الأجانب (xenophobia). في خضم ذلك، فقدت الصورة الكبرى للبشرية، ولاتزال مفقودة. فكانت النتائج المترتبة كارثية في تاريخ العالم منذ أن اختلقت النزعة القومية والدولة القومية. لقد

ذكرت سابقاً الإبادة الجماعية / الإثنية الأرمنية عندما تم إنشاء جمهورية تركيا؛ والإبادة الجماعية لليهود وغير الألمان في ظل هتلر؛ وأعمال القتل الهائلة في رواندا بعد أن تركت بلجيكا البلد حين خلفت وراءها تلك المشاعر القومية القوية التي آلت إلى الصدمات الفتاكة بين التوتسي والهوتو. وراء الإبادة الجماعية، أدت العواطف القومية المقترنة مع الدولة إلى مزيد من أعمال التجريد من الحقوق والحروب والعنف للحفاظ على نقاء الدولة القومية المهدد من قبل القوى الخارجية. إن دولة إسرائيل، عندما تم تأسيسها، لم تفلت من منطق الاستعمارية المحتضن في الدولة القومية الشكلية التي أعطت ولا تزال تعطي العالم الحديث / الاستعماري شكله منذ نهاية القرن التاسع عشر، وهو نظام عزز المخططات العالمية للحضارة الغربية.

كانت الصهيونية اليهودية قبل خلق دولة إسرائيل حركة تحرر من قبل الشعب اليهودي ولأجله، سواء كان [الشعب] يهوداً دينيين أم إثنيين علمانيين. أما إلى أي حد كان اليهود الصهيونيون يملكون رؤية جيوبوليتيكية [جغرافية سياسية] واضحة وطموحاً إلى ما يمكن أن يعنيه خلق دولة صهيونية في الشرق الأوسط في ذلك الوقت، وإلى أي حد كانا رؤية وطموحاً للدول الإمبريالية الأوروبية الغربية الداعمة للمشروع الصهيوني، فهما مسألتان تستحقان اهتماماً خاصاً. هنا أفترض أن الصهيونية كانت مشروع تحرر ينشد الدعم من الدول الإمبريالية الأوروبية الغربية (إنكلترا بشكل رئيسي). مع ذلك، أصبحت الصهيونية أيديولوجيا دولة، مخاطرة بالإسهاب، بعد خلق دولة إسرائيل، [دولة] ذات جهاز قانوني وعسكري للدفاع عن مصالح المواطنين القوميين الإسرائيليين. لقد ضاع معنى إنسانية اللاقوميين - وهذه هي إحدى النقاط التي يطرحها مارك إليس - بحيث إن دولة إسرائيل لم تكن لا يهودية فقط بل كانت، وبسبب ذلك، لا إنسانية أيضاً. ومما له دلالة، أن هذه ليست تهمة تشهيرية (ad hominem) ضد دولة إسرائيل. إنها تهمة مرفوعة ضد الدولة القومية الشكل الحديثة والأوروبية والإمبريالية.

من المشهور، على سبيل المثال، أن الرئيس باراك أوباما، في خطابه بمناسبة ذكرى انقضاء عشر سنوات على غزو العراق، قد وضع بالتفصيل الكبير كلفة الأرواح

البشرية (وليس القتل فقط بل التبعات السايكولوجية الشخصية بالنسبة للجنود وعائلاتهم، والجروح الجسدية التي ستلازم الشخص طيلة حياته أو حياتها، إلخ..، أيضاً). لكنه لم يذكر سوى أرواح المواطنين الأميركيين ومربصت على أرواح مئات آلاف الأرواح المفقودين في العراق، وتفكيك البنية التحتية للبلد، وتخريب النسيج الاجتماعي للدولة العراقية.

لم يكن خلق دولة إسرائيل يُعزى فقط إلى أعمال اليهود العلمانيين الذين كدّوا، في أوروبة، ودافعوا عن حق الشعب اليهودي في العودة إلى أرضه الأصلية والموعودة. فهذه الفكرة ما كان بوسعها حتى أن تنشأ في القرن السابع عشر عندما لم تكن الدولة القومية الفكرة والشكل موجودة في المكان؛ ولا في أستراليا أو الأرجنتين أو جنوب أفريقية في القرن التاسع عشر، وكلها أمكنة كانت تضم أعداداً كبيرة من اليهود، بل حيث كانت الدولة القومية الشكل إما مجهولة أو شكلاً بعيداً من الحكم. لقد ظهرت دولة إسرائيل إلى الوجود أيضاً بسبب مفعول المصالح الإمبريالية الغربية التي تلعب ورقة مزدوجة: حل مشكلة خلقتها أوروبة ذاتها (الإبادة الجماعية اليهودية في ظل هتلر) في حين تبقي عينها على لوحة السياسة الدولية وتجد حلاً للفوضى التي خلقتها البريطانيون في الشرق الأوسط. من وجهة نظر اليهود أنفسهم، في لحظة ما من السيرة كانت ثمة إمكانيات مختلفتان: امتلاك أرضهم الخاصة بهم (حل علماني) والعودة إلى أرضهم الخاصة بهم (حل ديني). في الحالة الأولى، كانت القضية الرئيسة هي خلق دولة كان من الممكن أن تكون في أمكنة أخرى؛ لم تكن الأرجنتين مكاناً كهذا. من الناحية الأخرى، كانت العودة تعني ضمناً خلق دولة في صهيون. كل هذا كان يعزى أيضاً إلى الظروف الخاصة التي وجدت إنكلترا نفسها فيها بعد هزيمة السلطنة العثمانية واستلام السيطرة على القدس (1922 - 1948).

ملاحظات ختامية

في ضوء هذه السردية، لا يبدو أفق حل صراع فلسطين/ إسرائيل باعثاً على التفاؤل في المدى القصير. فقد اشتدت الصراعات داخل النظام العالمي. كان لزيارة الرئيس باراك أوباما الأخيرة إلى إسرائيل بضع أجندات متداخلة ورسالة واضحة. أحد البنود على الأجندة هو مواصلة المحادثات باتجاه حل سلمي للنزاع والقول إن «حل الدولتين ممكن»، وهي صيغة لتأجيل الحل لم تخدع الفلسطينيين. في هذه الأثناء، يوجد في إيران أكثر مما يصدم العين، ودولة إسرائيل هي ملاذ حاسم يعزز مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. ثالثاً، هناك سورية التي هي الأراضي التي يجري التطلع إليها، إلى جانب إيران، من المنظورات والمصالح الغربية، بوصفها خاضعة اقتصادياً وجيو سياسياً، كما كان الحال في العراق. إن «المجاهيل» في المعادلة هي روسيا إلى الشمال والصين إلى الشرق من سورية، وإيران. قد تكون دولة إسرائيل واقعة تماماً عند تقاطع طرقات القوى والنزاعات العالمية، خارج التوتر المحلي بين إسرائيل وفلسطين.

أن تكون ضد الصهيونية لا [يعني] أن تكون ضد اليهودية؛ بالأحرى، يعني أن تكون ضد الدولة القومية، أو على نحو أفضل، التشكيك في فكرة أن الدولة القومية هي شكل عالمي من الحكم. ماهي الخيارات؟ أرى ثلاثة اتجاهات ممكنة. هذا لا يعني برامج عمل، بل المسارات التي يجري استنباطها الآن في الحاضر نحو مستقبلات ممكنة ونتائج مجهولة. إن ما يُعرف بالدولة القومية الشكل يقترب من استنزافه.

أولاً، توجد الآن الدولة المتعددة القوميات الشكل الدستورية. يعلن دستوراً بوليفيا والإكوادور الآن أن هذين البلدين هما دولتان متعددتا القوميات. ماذا يعني ذلك؟ حسناً، ببساطة؛ أن السكان في أميركا الجنوبية من أصل أوروبي هم أمة واحدة فقط تتعايش مع عدد من الأمم (أياراس، كويتشواس، تشيكويتانوس، الأمم من أصل أفريقي). مع ذلك، فقد كانت غماهي نفسها في الدولة القومية التي

خلقتها نفسها في سيرورة قمعها للأمم الأخرى. في الإكوادور توجد 33 أمة محلية، زائداً الأمم من أصل أفريقي. من الواضح أنه لا يوجد مبرر لأمة واحدة (من أصل أوروبي) أن تهاهي نفسها في الدولة. من الواضح أن الإشارة إلى بوليفيا والإكوادور بوصفهما دولتين متعددي القوميات لم تكن مبادرة من الكريوليين والمستيزوس، ولا من أولئك الذين من أصل أوروبي. إن الولايات المتحدة هي الآن دولة متعددة القوميات، رغم أن ذلك غير معترف به (بعد) في الدستور. بدلاً من ذلك، تم اختلاق مفهوم «الأقليات» و«التعددية الثقافية» في الخطابات الرسمية كحزامين واقين لمنع المطالبات الممكنة بإعادة كتابة دستور الولايات المتحدة وإعلانها دولة متعددة القوميات.

ثانياً، ثمة سجال كبير اليوم في الصين حول الحضارة بدلاً من الدولة القومية - سجال لم تشجعه الحكومة، بل مشتق من مبادرة «مثقفين مواطنين» كما يصفون أنفسهم. ماذا يعني ذلك؟ إنه يعني أن المثقفين المواطنين الصينيين يدركون أن شكل الدولة القومية كان سراً بين الثورة الصينية التي قادها صنيات صن وبين اليوم، مروراً بدستور الدولة الماركسية للصين. إن فكرة الدولة الحضارية مرتبطة بالسجلات حول الدستورية الكونفوشيوسية. ففي حين يتم تبني الحاجة إلى حكم دستوري من التجربة الغربية، فإن شكل الدولة القومية يمكن نبذه بشكل كامل. إن النزعة الدستورية الكونفوشيوسية والدول الحضارية تعيان إيجاد هيكلية الحكم التي تناسب تاريخ الصينيين وليس تاريخ الحضارة الغربية. وبشكل مماثل، بدأت الدول الإسلامية تعيد تكوين أنفسها كدول حضارية بعد أن تم تفكيك سلطاتها واستبدال دول قومية بدلاً منها. من الممكن التفكير في أن ينشأ في تركيا اليوم شيء من هذا القبيل: ذكريات دولة أتاتورك القومية الحديثة بدأت تغطي عليها ذكريات السلطنة العثمانية، دولة حضارية.

ثالثاً، ثمة الحشد المتواصل خارج مجال الدولة بهدف إيجاد شكل من الحكم يلبي احتياجات الشعب بدلاً من مصالح الدولة. في هذا المجال تعني إزالة استعمار الدولة تحرير الحكم. مع ذلك، ليس الفاعلون والمؤسسات الذين ينفذون هذه المشاريع هي

الدول القائمة ولا الشركات والمؤسسات المالية. فهؤلاء فاعلون يملكون مصيرهم في أيديهم، بما أنه لا الدولة ولا رأس المال يهتم بهم - كما يصبح واضحاً في الأوضاع الحرجة للأعداد المتزايدة من الدول ضمن الاتحاد الأوروبي. إن الفلسطينيين، في هذه النقطة، هم في منتصف الصراع في صميم أزمة الدولة القومية الشكل وإمكانية تفكيكها.

من الصعب تقرير ما إذا كانت الدولة القومية ستبقى النموذج لأجل الحكم والعلاقات بين الدول. الخط الأساسي هو أنه، في حين أن دولة إسرائيل افترضت مسبقاً الدولة القومية الشكل الأوروبية العلمانية والحديثة، كان من الصعب إيجاد حل لصراع فلسطين / إسرائيل ضمن الإطار نفسه الذي خلق الصراع. في الوقت نفسه، يشهد الكوكب تسييس المجتمع المدني (التظاهرات المتزايدة المطالبة بالكرامة) وظهور مجتمع سياسي عالمي. إن حل صراع فلسطين / إسرائيل يجب تحقيقه في أشكال الحكم التي تقدم بدائل عن الدولة القومية الشكل، التي خلقت الشروط لنشوء الصهيونية في النظام العالمي الحديث / الاستعماري.

- 5 -

كارل ماركس وحنة أرندت في المسألة اليهودية:

اللاهوت السياسي بوصفه نقداً⁽¹⁾

أرتيمي ماغون

مقدمة

في هذا الفصل، سأظهر التقارب الغريب بين حجج كارل ماركس وحجج حنة أرندت بخصوص «المسألة اليهودية». فكل المؤلفين يفسران المشاكل المحددة المتصلة بالدور السياسي لليهود كجماعة إثنية دينية متميزة، في سياق أكبر من الاختلاف والسجال بين اليهودية والمسيحية كمذهبين لاهوتين سياسيين. في مقالة ماركس «في المسألة اليهودية»، يكون السياق اللاهوتي السياسي أكثر وضوحاً مما هو في كتاب أرندت آيخمان في القدس حيث يظل مستتراً. لكنني أظهر أنه، في الجوهر، السياق نفسه: السياق الذي يعود إلى التصور الهيجلي للمعاني الضمنية الاجتماعية السياسية لليهودية والمسيحية. فكل ماركس وأرندت يقرآن اليهودية كمرادف لنظام سياسي يُفصل فيه الخصوصي (particular) عن العمومي (universal). مع ذلك، فإن المؤلفين يتعدان عن «الإعلاء» بشكل أحادي لجانب للمسيحية على حساب اليهودية: إذ تقوم حجتهما بالأحرى على القول إن أوروبة الحديثة ما بعد المسيحية،

(1) نشر هذا الفصل سابقاً في مجلة الفلسفة القارية (Continental Philosophy Review)، المجلد 45 (4)، 2012، ص: 584 - 68. يعاد نشره بإذن من أصحاب حقوق النشر.

وبشكل أدق الدولة التمثيلية ما بعد المسيحية، هما غير قادرتين على التغلب على ما يبدو لهما إشكالياً في اليهودية. فالرأسمالية الحديثة وحكم القانون الحديث يرتدان إلى النظام «اليهودي» (Judaic) المغرَّب (alienated) الذي كان هدفاً للنقد المسيحي وما بعد المسيحي. إن انتقاداً آخر، أكثر جذرية، للدين والدولة، سواء كان مسيحياً أم يهودياً، ضروري، رغم أن اليهودية والمسيحية تظلان، على نحو مفارق، تقدمان محكات لأجل هذا الانتقاد.

إن مشكلة «اللاهوت السياسي» التي أعاد كارل شميت إعلانها وجعلها شعبية في عام 1922،⁽¹⁾ هي ذات تاريخ قديم⁽²⁾. فقد كان لمعظم الأديان الكبرى قبل المسيحية مضمون اجتماعي سياسي مباشر. لقد تخلت المسيحية أصلاً عن أي لاهوت سياسي، لكن أصبح جلياً بشكل تدريجي أن فصل الروحي عن الدنيوي بالذات كان في حد ذاته مذهباً سياسياً. بالفعل، لعبت الكنيسة المسيحية، طوال وجودها، وخصوصاً في أوروبا الغربية، دوراً سياسياً حاسماً. الأهم من ذلك، أن العصر الحديث الجديد، الذي أدى إلى علمنة مؤثرة للحياة اليومية وللايديولوجيا، يعود في أصله، جزئياً على الأقل، إلى [عصر] الإصلاح والإصلاح المضاد.

كان الإصلاح، في جوانب كثيرة، نقداً للدين من داخل الدين. إن كلاً من تبعيته السياسيتين - الروح الثورية التي بدأت كعقيدة لاهوتية⁽³⁾ وتكثيف النشاط الاقتصادي الذي بدأ كزهد ديني⁽⁴⁾ - قد ساهمتا بطريقتين مختلفتين في سقوط حكم رجال الدين [الثيوقراطية] وفي نشوء دولة علمانية جديدة. كتبعة مفارقة وغير مرغوبة للإصلاح، نُقل الإيمان تدريجياً إلى «المنبر الداخلي» للفرد وفي حالات كثيرة، فقد دلّته الدنيوية. بدأت الربوبية والإلحاد بالانتشار بين المثقفين وفيما بعد،

(1) كارل شميت، اللاهوت السياسي. أربعة فصول في نظرية السيادة (شيكاغو إيلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو، 1985).

(2) يعود استعمال الكلمة إلى بانيتيوس (Panaetius) الرواقي المتأخر؛ أما في روما فقد تكلم فارو (Varro) عن «اللاهوت المدني» (theologia civilis).

(3) انظر مايكل والزر، ثورة القديسين، (كيمبردج، ماساتشوستس: مطبعة جامعة هارفارد، 1982).

(4) انظر ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية (نيويورك: بنغوين كلاسيكس، 2002).

بين الجماهير - خصوصاً بعد الثورة الفرنسية. في هذه اللحظة فسر هيغل الدولة الحديثة، التي هي نفسها نتاج للإصلاح، «كإلغاء» (Aufhebung) للدين الذي تنفذ [الدولة] برنامجه مادياً. في حين ظل هيغل يؤمن بأن الدين يبقى حيواً في الدولة الجديدة، كان أتباعه الأكثر راديكالية، مثل برونو باور، أكثر تساوفاً، ووجدوا حاجة إلى الاستغناء عن الدين المسيحي (على الأقل على المستوى الشعبي) لأن برنامجه قد تم تنفيذه وتحقيقه. هذه الحجة الحاسمة لمدرسة هيغل وضعت الأساس لأجل تراث جديد من اللاهوت السياسي، الذي شغل نفسه بالتناظرات السياسية العلمانية للمفاهيم اللاهوتية، بمهمة مزدوجة، إما لنقد هذه الأشكال العلمانية ظاهرياً، و/أو إمدادها بمعنى يكون متعالياً وليس ببساطة تجريبياً.

في القرنين التاسع عشر والعشرين، كان الليبراليون الملحدون غالباً ما يقدمون علم السياسة وعلم الاقتصاد كظاهرة عقلانية تقوم على المصلحة الذاتية للأفراد. لا يمكن للاهوت أن يدخل هذه الصورة إلا كعقلنة ثانوية. مع ذلك، فإن بضعة عوامل قد أبطت التحليل اللاهوتي للسياسة وثيق الصلة بالموضوع حتى هذه اللحظة:

1. استمرار وانبعاث الاعتقاد الديني الفعلي.
2. الدور المتزايد لهذا الاعتقاد (أو الإيمان) في الحياة السياسية.
3. الوجود الكلي للأيديولوجيات، التي تكرر غالباً البنئ الدينية للمعنى دون تأسيسها في البنئ الفعلية للمجتمع.
4. الظاهرات «اللاعقلانية» ظاهرياً للسياسة التي لا يمكن تفسيرها باتجاه آخر أو تصنيفها إلا عن طريق العقلانية السياسية (على سبيل المثال، بوصفها «كاريزمية»).

لهذا، يبدو أن اعتباراً جدياً لبنئ المعنى اللاهوتية مطلوب لغرض النقد، ليس للدين فقط، بل للسياسة التي تعول عليه بشكل ضمني. علاوة على ذلك، فإن إعادة مفهومة إلحادية جديّة للمجتمع ليست ممكنة إلا عبر جدال داخلي جدي مع الدين

وعبر إعادة التفكير في قضاياها، مثل الانفصال بين العمومي والخصوصي - التي أدركها اللاهوت لكنها لا تحل إلا بوسائل لاهوتية، كالتمجيد والطقسنة واغتراب مجال معين من الحياة الإنسانية.

أعلن كارل شميت، في عام 1922، أن «كل المفاهيم المهمة لنظرية الدولة الحديثة [كانت] مفاهيم لاهوتية مُعلّنة»⁽¹⁾. إذا استشهد على الفور بالسيادة بوصفها المثال المطلق على مثل هذه «العلمنة». فالسيادة، بالنسبة له، ستكون حقاً يُقرَّرُ على الاستثناء، ولذلك تكون مرتبطة بشكل متأصل بما يتم تصوره، في اللاهوت، بوصفه مذهب المعجزة. فاللاهوت بالنسبة لشميت، (الذي يتبع كيركغارد في ذلك)، يدخل عبر الحاجة إلى استثناء.

جادل هانز بلومبرغ، وهو مفكر ألماني أصغر سناً، ضد شميت في عام 1962 في أن «علمنة» المفاهيم السياسية تتضمن تحولاً في معناها⁽²⁾. الأهم من ذلك، أن بلومبرغ يلح على انقطاع حيني مرتبط بالدفاع عن «الفضول»، كشكل من الانفتاح نحو المستقبل، نحو الجديد، نحو المعرفة التجريبية المستمدة من الخبرة.

من الجانب المعاكس، المسيحي، دحض إريك بيترسن (Erik Petersen)، وهو لاهوتي مهم من القرن العشرين، أطروحة شميت على أرضية أن الدين المسيحي الحقيقي (خلفاً للدينين الروماني واليهودي) لم يكن «سياً» أبداً أو حتى توحيدياً، في هذا الخصوص. كان مذهب الثالوث يعني، وفقاً لبيترسن، افتراقاً نهائياً عن الاستخدام السياسي للدين، خصوصاً عن استخدامه لشرعنة الحكم الملكي⁽³⁾. لذلك لم يكن «اللاهوت السياسي» الحديث لاهوتاً مسيحياً على الإطلاق، بل إلحاداً بسيطاً أو وثنية.

(1) كارل شميت، اللاهوت السياسي. أربعة فصول في السيادة، ص: 36.

(2) هانز بلومبرغ، شرعية العصر الحديث، ترجمة: ر. والاس (نيويورك: مطبعة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 1983 [1986]). انظر بشكل خاص الصفحات 92-105.

(3) Erik Petersen, «Der Monotheismus als politisches Problem,» in Theologische Traktate (München: Kosel, 1951), 45-147.

مع ذلك، فقد أكد شमित لبلومبرغ أن القطيعة ذاتها مع اللاهوت كانت جزءاً أساسياً من اللاهوت، ورد على بيترسن بأن فكرة الثالث كانت تعني ضمناً انقطاعاً داخلياً ومعارضة من الله لذاته⁽¹⁾. (*Nemo contra deum nisi dues ipse*) لا أحد ضد الله باستثناء الله - هكذا يختم رده بشكل واضح⁽²⁾. كان اللاهوت، خصوصاً اللاهوت المسيحي، يتضمن على الدوام انتقاداً للدين (انتقاداً للأشكال المادية المفرطة، الصنمية، «الوثنية» من العبادة؛ انتقاداً للعبادة «الملكية»، المتواطئة سياسياً: بشكل أوسع، انتقاداً للعبودية العمياء التي لا تليق بالإيمان الحقيقي). لكن هذا يعني أيضاً أن انتقاد الدين (أو الاستخدام السياسي للدين) والكفاح ضده لا يعينان مع ذلك أن الأمر انتهى مع الدين (أو على الأقل مع اللاهوت السياسي). فالمنافسة الأعمق والتحليل الأعمق هما ضروريان.

ربما كان أهم جدال «داخلي» للمسيحية على مدى العصور متعلقاً بعلامة ولادتها، جدلها مع اليهودية. هذه الحجة لم تكن أحادية الجانب، نظراً إلى أن اليهودية تستمر في الوجود ولا زالت تُمارَس. إن الحضور الفعلي للشعب اليهودي في البلاد الأوروبية قد أمد هذا الجدل بمعنى سياسي واضح. علاوة على ذلك، فقد كان الجدل سياسياً في الأصل: هل ينبغي التعبير عن التوحيد بثيوقراطية؟ هل التوحيد (ديانة [الإله] الواحد) هو أيضاً سياسة [الحاكم] الواحد - الشعب المختار الواحد؟ أم هل هو ديانة جامعة للواحد بوصفه كلاً واحداً، تتجاوز أي نظام حكم مفترض؟ بالإضافة إلى ذلك، إذا كان الدين يلعب دوراً في المجتمع، فما الذي يحدثه فيه: اغتراب القانون، أم توسط الحب؟

(1) Carl Schmitt, *Politische Theologie II* (Berlin: Duncker und Humboldt, 1970).

حول «الركود» (stasis) - تناقض داخلي ثابت - بوصفه جوهر العلاقة بين السياسة واللاهوت، انظر مقالة رائعة كتبها ديميتريس فار دولاكيس، «الركود، ما وراء اللاهوت السياسي»، مجلة الانتقاد الثقافي (Cultural Critique)، المجلد 73، خريف 2009، ص: 125 - 47. حجة هذه المقالة، المكتوبة من منظور دريدي، مشابهة بطرق كثيرة لحجتي، وعلاقة المسيحية باليهودية تذكر المرء بما يدعوه فار دولاكيس بـ «الركود».

(2) المرجع السابق، ص: 122.

هذه المجموعة من الأسئلة هي الأسئلة التكوينية للمسيحية والتي تبقى دوماً أساسية لها، طالما أن المسيحية تحتفظ بأساسها التوحيدي اليهودي وطالما بقيت ديانة وقوة اجتماعية. إن الحداثة المتأخرة، التي قدمت إعادة تسييس واسعة النطاق للمجتمع والتي نجحت في خلق دولة قانونية (دولة الحق Rechtstaat) ودولة قومية، قد أشككت وضع اليهود بوصفهم رعايا للقانون. كما ساجادل أكثر في هذا الفصل، فإن هذه المشكلة لا ترتبط بحقيقة أن اليهود، كونهم جماعة دينية متنافرة، قوضوا الوحدة القومية القانونية الجديدة فقط، بل بحقيقة أن الدولة الأوروبية الجديدة، كونها قد علمت الديانة التوحيدية، كانت تبدو أيضاً «يهودية» و«مسيحية» في الوقت نفسه. بالفعل، اعتبرت الفلسفة السياسية الألمانية مبدأ السلطة المغربية، القانونية بشكل خالص، طبعة معلمة من اليهودية، في حين ارتبطت المسيحية المعلمنة بتحرير الفرد والاعتراف به. فيما يلي سأدرس النظريتين السياسيتين الكبيرتين للقرنين الماضيين، اللتين تركزان على القضية السياسية لوضع اليهود، لكنهما تقدمان أيضاً نقداً للدولة الليبرالية الحديثة وللمجتمع الدولي بحد ذاته. هاتان النظريتان هما مذهب كارل ماركس وحنة أرندت.

في القرن التاسع عشر تم تعميم المسألة اليهودية لأشكلة العلاقة بين الدين والدولة الديمقراطية الليبرالية، وعمومية الدول القومية. في القرن العشرين، اكتسبت معنى عمومياً جديداً: كشفت محنة اليهود الأوروبيين في الوقت نفسه عن مخاطر الدولة القومية وعن الخصيصة العاجزة واللاديمقراطية للقانون الدولي. فقد ربط الشوآه المسألة اليهودية بمسألة التاريخ الحديث عموماً. ما إذا كان هذا التاريخ متجهاً إلى التقدم أو، على الجهة المضادة، ما إذا كان يؤدي إلى جحيم «شمولي» على الأرض. لأنه، كنتيجة للشوآه، قد نشأت هناك دولة قومية يهودية، ظلت في نزاع حاد مع السكان العرب، فقد أصبحت المسألة اليهودية أيضاً داخلية بقوة في مشكلة الاستعمار الأوروبي. لهذا، بطريقة معلمة، تبقى المسألة اليهودية، وهذا يعني المسيحية وحدها وأصلها، وفقاً مهماً للتاريخ المعاصر، بطريقة نظرية وعملية.

كارل ماركس واللاهوت السياسي لدولة القرن التاسع عشر

سأبدأ بكارل ماركس ومقالته المبكرة «في المسألة اليهودية» (1843)⁽¹⁾. كان ماركس ممثلاً للمدرسة الهيجلية الأنفة الذكر في اللاهوت السياسي - ربما كان أول من حولها إلى نقد اللاهوت السياسي. خلافاً لهيغل، الذي ابتهج بكون العناصر المسيحية متحققة في الدولة الليبرالية، كان ماركس يعتقد أنه في هذه الدولة العلمانية ظاهرياً يبقى هناك بعض البنى الدينية الأثرية التي تحتاج إلى الكشف والنقد.

تبدو المسألة اليهودية إذاً بوصفها المسألة الحاسمة، لأنه - كما يلاحظ تلميذ هيغل، برونو باور، في نصوصه - ينبغي على اليهود أن يدخلوا الدولة الديمقراطية الليبرالية على أساس المساواة لكنهم يظلون متدينين [بدينهم] أنفسهم. رداً على هذه الأطروحة لباور القائلة بأن كارل ماركس، الذي كان آنذاك فيلسوفاً وصحافياً مبتدئاً شاباً، كتب مقالته القصيرة «في المسألة اليهودية» - العمل الذي كان من بين أوائل الأعمال التي تسبغ على اللاهوت السياسي معنى الانتقاد السياسي. راجع ماركس عمليين من تأليف باور: «المسألة اليهودية»⁽²⁾ و«قدرة اليهود والمسيحيين المعاصرين على أن يصبحوا أحراراً»⁽³⁾. إن نقده، إذا أردنا صياغته بإيجاز لأجل الوقت الحالي، يقوم على حقيقة أن باور كان بإمكانه فقط أن يتصور «تحرراً سياسياً» لليهود، لكن التحرر السياسي ظل ناقصاً لأنه أبقى على انشقاق ديني بين الدولة والمجتمع المدني، بين «حقوق المواطنين» و«حقوق الإنسان». لذلك فإن المشكلة لا تكمن في اليهود كجماعة أو في ديانتهم بل في حياة الدولة الحديثة ذاتها المنظمة بطريقة «يهودية». يكتب ماركس هذا العمل، كما معظم أعماله، بطريقة حوارية جدالية إلى

(1) كارل ماركس، «في المسألة اليهودية»، في: ماركس وإنغلز، الأعمال الكاملة (نيويورك: لورنس وويشارت، 1975-2000)، المجلد 3، ص: 146 - 74. إن قراءتي لـ«في المسألة اليهودية» مدينة لحلقة البحث التي كان فيليب لاکو - لاباتر يدرسها في ستراسبورغ حول ماركس المبكر في 2001/2002. لسوء الحظ أن لاکو - لاباتر لم يمتلك الوقت لنشر أو حتى لإنهاء هذا المشروع في حياته، لكن من المأمول أن تظهر في نهاية المطاف نشرة للملاحظات حول حلقة بحثه.

(2) Bruno Bauer, Die Judenfrage, (Braunschweig: Friedrich Otto, 1843).

(3) Die Fähigkeit der heutigen Juden und Christen, frei zu sein: einundzwanzig Bogen aus der Schweiz, hg v. Georg Herwegh (Zurich: u. Winterthur, 1843) 56 - 71.

درجة عالية، بحيث يكون من الصعب غالباً أن نقول إذا كان يعلن شيئاً من وجهة نظره الخاصة أم من وجهة نظر المؤلف الذي يتقده. هذا الأسلوب يناسب جيداً الخصيصة الصعبة والمتبسة للقضية، التي يتشابك فيها ما يوجد لإنقاذه وما يوجد للتخلي عنه في الديانة اليهودية - المسيحية تشابكاً معقداً.

دعونا نلتفت إلى أعمال باور «اليهودية»، التي تظل بطرق كثيرة وثيقة الصلة بالموضوع إلى الوقت الحاضر. لقد انتقد باور الليبراليين الألمان والفرنسيين الذين كانوا يكافحون، من وجهة نظرهم اللايودية، من أجل حقوق اليهود، من أجل تشميلهم الكامل في الدولة. كانت مشكلة هذه المقاربة لحقوق اليهود، ولحقوق الإنسان عموماً، هي أن رعايا هذه الحقوق ظلوا مدافعين سلبين، موضوعات أكثر مما هم رعايا حقيقيون. هذه مشكلة مألوفة، وهي أساسية لأجل أيديولوجيا حقوق الإنسان اليوم: الأغلب أن حقوق الإنسان هي حقوق الضحايا التي يدافع عنها الناس الأقوى من الخارج. بالنسبة لباور، كانت المسألة اليهودية في زمنه مثلاً على هذه المشكلة. في تصوره، كان اليهود يحتاجون قبل كل شيء إلى «تحرير» أنفسهم، وهذا لا يمكن القيام به إلا من خلال تخليهم عن الديانة اليهودية، التي تفصلهم عن بقية الأمة وتمنعهم من اكتساب روح عامة حقيقية. هذه الديانة كان يتعين على الأقل التخلي عنها كمؤسسة عمومية، لكن باور أجاز لها البقاء في المجال الخصوصي. كانت المسيحية مؤذية، أيضاً، لأنها، كما صرح، هي «اليهودية الناجزة» (vollendete Judentum)⁽¹⁾. ولأنها كانت تحتقر «الشعوب»، وتبذ الروح العامة والوحدة القومية⁽²⁾. إن «مسألة التحرير هي مسألة عامة (allgemeine). فليس اليهود فقط بل نحن أيضاً نريد أن نتحرر»⁽³⁾. لكن المسيحية كانت قبلاً قد أنجزت فصل الدين والدولة وارتدت إلى المجال العمومي. لقد ألغيت وأطيح بها من قبل الدولة الشعبية (المسيحية المنحلة)⁽⁴⁾، المسيحية بوصفها مبددة - الشيء الذي لم يكن قد حدث بعد

(1) Die Judenfrage, 49.

(2) المرجع السابق، ص: 47.

(3) المرجع السابق، ص: 61.

(4) Die Fähigkeit der heutigen Juden und Christen, frei zu sein, 70.

للإهودية. على كل، كانت هذه مشكلة ليس للإهود فقط، بل للمسيحيين العلمانيين وللملحددين أيضاً: طالما بقي هؤلاء الآخرون يحمون الحقوق الإنسانية لأولئك الذين لا يمثلون أنفسهم، فإنهم أنفسهم غير أحرار: «التحرير العام» غير منجز. أما بالنسبة لحلول باور المقترحة للمشكلة، فقد كانت تختلف في النصين من «نصوصه الإهودية» التي راجعها ماركس. في النص الأول («المسألة اليهودية») تم تحديد الهدف السياسي كدولة جمهورية سوف تغلب على النزعة القانونية الضيقة لكانط أو هوبز عن طريق الدستور الديمقراطي والوحدة القومية. في النص الثاني اللاحق («قدرة الإهود والمسيحيين..»)، يصبح البرنامج أكثر عمومية: انتقد باور النزعة الاستثنائية القومية الإهودية ولاحظ أن:

الكائن البشري (Mensch)، الذي يولد كفرد من أمة، مقدر له أن يصبح مواطناً لدولة ينتمي إليها بالولادة، لكن غايته [Bestimmung] ككائن بشري تتجاوز حدود الدولة التي يولد فيها⁽¹⁾.

يركز ماركس، في مراجعته، على جانب واحد فقط من حجة باور - حاجة الإهود إلى أن يصبحوا مواطني دولة وأن يختزلوا ديانتهم إلى إطار خصوصي. لكن في بعض الجوانب التي لا يسميها، يعتمد ماركس بشكل جدي على باور: أولاً (كما سنرى) في الصياغة اللاهوتية السياسية للسؤال؛ ثانياً، في الدعوة إلى التحرير الشامل، أو الإنساني، الذي لا ينتهي بمنح الحقوق شكلياً لأحد ما؛ ثالثاً، في نقد حقوق الإنسان بوصفها مقسومة إلى حقوق شخص فاعل (سيد/ سائد) أو شخص منفعل (يجب على شخص آخر أن يدافع عن حقوقه).

يعطي ماركس كل هذه الأفكار نفحة جديدة بتطبيقها على الشقاق بين الدولة والمجتمع المدني - وهو شيء لم يفعله باور.

(1) المرجع السابق، ص: 67.

بحسب ماركس، فإن باور على حق، بالطبع، في أنه يرى أي دين كطريقة لاضطهاد الناس وفصلهم بعضهم عن بعض. لكن الدين بوصفه ايماً ذاتياً هو، بحسب ماركس، مجرد تعبير أيديولوجي عن المشاكل البنوية الأكثر أساسية للدولة بحد ذاتها. هذا هو السبب في أن حل المسألة على المستوى اللاهوتي والسياسي المحض، كالحل الذي اقترحه باور، غير كاف. بالفعل، إننا نرى أن الدين، البعيد عن الانقراض، يزدهر بشكل فعلي في الدول الجمهورية الأكثر حداثة، كالولايات المتحدة الأمريكية. لذلك، يقول ماركس، فإن الدين (بوصفه أيديولوجيا) هو مجرد عرض (symptom) - ليس مجرد أمارة لـ «قاعدة» مادية معينة، كما تقدمه الماركسية المبتذلة، بل عرض للتنظيم الديني العميق للحياة المادية للمجتمع. إن «أفراد الدولة السياسية هم دينيون بسبب الازدواجية بين حياة الفرد وحياة النوع (species - life)، بين حياة المجتمع المدني والحياة السياسية»⁽¹⁾. الدين هو خلل في تنظيم المجموع الكلي (Totality). الخلل هو الانفصال بين الخاصي والعمومي أو بين العام والخاص، أو، بين الدولة والمجتمع المدني (تسمية هيغل للنشاط الاقتصادي الروتيني).

دعونا نأخذ حقوق الإنسان، يقول ماركس - لب المذهب الليبرالي بالذات. إن حقوق الإنسان، كما تصاغ في الثورات العظيمة لنهاية القرن الثامن عشر، هي، وفقاً له، مناقضة لذاتها. فمن جهة أولى، تقتضي ضمناً عمومية جماعية على مستوى الحقوق المدنية - سيادة الشعب، حقوق الاقتراع، الحق في التعبير العلني، إلخ. لكنها، من جهة أخرى، تقتضي ضمناً الأنوية (egoism) وحق الخصوصية، على مستوى الحقوق التي تتصل بالمجال «الخاص»، أي الاقتصاد والدين. لهذا تعرف الحرية في إعلانات حقوق الإنسان بأنها «الحق في فعل كل شيء لا يؤدي أحداً آخر»⁽²⁾. هذا يعني أن هذه هي مجرد مسألة حرية الإنسان ككيان منفرد (monad) معزول، منظو على نفسه. بشكل مماثل، يؤدي فصل الدولة عن الدين لا إلى التحرر من الدين، بل

(1) «في المسألة اليهودية»، سبق ذكره، ص: 159.

(2) المرجع السابق، ص: 162.

إلى الحرية من أجل دين (المرء الخاص). لهذا، فإن «حقوق الإنسان» تقدس «المجتمع المدني» للأفراد المذربين [المتأثرين] الذين يحيون حياتهم الخاصة والذين توحدتهم الدولة في الأعلى، بطريقة برانية فقط.

من الجدير بالذكر، وبشكل له أهميته من أجل المناقشة اللاحقة لأرندت، أن ماركس يفهم الفرد الأنوي المذرب، ليس فقط بوصفه برجوازيًا صغيراً، بل كنتاج لاغتراب كارثي.

الديمقراطية السياسية مسيحية، بما أن الإنسان، ليس مجرد إنسان واحد فقط بل كل إنسان، يصنف بوصفه سيداً، بوصفه الكائن الأسمى، لكنه الإنسان في شكله اللا متحضر، اللا اجتماعي، الإنسان في وجوده السعيد، الإنسان كما أفسده تنظيم المجتمع بأكمله، الذي خسر ذاته، الذي عُرب، وسلم إلى حكم شروط وعناصر لا إنسانية - باختصار، إنسان لم يكن بعد نوعاً - كائناً حقيقياً⁽¹⁾.

إن ما يُنتقد ليس مجرد برجوازي أو «بائع متجول»، بل إنسان دنيء منعزل، يُعلنُ سيداً لكنه، في الواقع، سيد تعيس، عديم القيم وخارج على المعايير.

لهذا، بإيجاز، فإن إلغاء الدين، كما يقول ماركس، لا يحطم هذا الدين بل ينقله إلى مستوى دنيوي، لاعلني، ولاواع.

الدين في هذه الأيام مجسد، وبهذا المعنى يكون هيغل وباور على حق. لكنه مجسد كانقطاع بين السماء والأرض أو، بشكل أدق، كانقطاع بين العام والخاص، الطبيعة والروح، إلخ. الدين يتحقق ليس بوجهه الأفضل، الأكثر تقدمية (الذي سيكون التوسط بين العمومي والخصوصي) بل بوجهه الأسوأ (وجه الاغتراب والعبودية). لكن هذا الاغتراب والفجوة بين العمومي والخصوصي هما، في لاهوت هيغل الفلسفي، بالضبط

(1) المرجع السابق، ص: 159.

ما يميز اليهودية بالمقارنة مع المسيحية. لهذا، يقول ماركس إن تجسيد المسيحية يعود بها القهقري نحو اليهودية التي نشأت منها والتي حاولت أن تلغيها.

لقد أثارت اليهودية اهتمام هيغل بشكل كبير منذ كتاباته اللاهوتية المبكرة. رغم أن موقفه من اليهودية قد تغير من فترة إلى أخرى من حياته - وصف ذلك في محاضرات في فلسفة الدين هو أكثر احتراماً والتباساً من كتابات فرانكفورت وينا - على العموم، اليهودية بالنسبة لهيغل هي دين الانفصال بين الكائن البشري والطبيعة، دين الوصايا البرانية الإيجابية والاستعباد الخاص للفرد، إلخ. وهي أيضاً، في حد ذاتها، خطوة سلبية ضرورية على الطريق إلى الدين المطلق وإلى الاعتراف الذاتي بالذات الحرة في العالم. بالنسبة إلى هيغل الناضج، يصبح رمز اليهودية سلاحاً مهماً في جداله ضد كانط، الذي يبدو تأكيده على الانفصال بين القانون والمسؤولية بالنسبة له مماثلاً لذهنية العهد القديم.

يبين فرانسيسكو توماسوني في تاريخه المفصل عن «السجال حول اليهودية من كانط إلى الهيجلين الشباب»⁽¹⁾، أن صورة هيغل عن اليهودية، الموجهة ضد كانط كما يبدو، كانت في الوقت نفسه مستعارة من كانط و، بشكل أوسع، من مناقشات أواخر القرن الثامن عشر لليهودية. لقد بدأ ذلك كله مع موسى مندلسون، الذي زعم أن اليهودية ديانة تنويرية كاملة⁽²⁾، لأنه فهمها، على هدى سبينوزا، كإرشاد أخلاقي عقلاني دون أية أوهام فوق طبيعية. مما يثير الاهتمام أن كانط تبنى فكرة مندلسون عن دين عقلاني كهذا، لكنه في كتاب الدين في حدود العقل المجرد (*Religion in the Boundaries of Mere Reason*) حولها إلى دفاع عن المسيحية ضد اليهودية، جازماً أن القوانين العقلية في اليهودية تلعب مجرد دور «تشريعي»، بما

(1) فرانسيسكو توماسوني، الحداثة والهدف النهائي للتاريخ: السجال حول اليهودية من كانط إلى الهيجلين الشباب (امستردام: كلوفر أكاديميك، 2010).

(2) موسى مندلسون، القدس، أو في السلطة الدينية والديانة اليهودية، ترجمة أ. أركوش (هانوفر ولندن: مطبعة جامعة نيون إنغلند، 1983).

أنها «تتعامل فقط مع الأفعال الخارجية»⁽¹⁾. يقوم هيغل بانعطافة أخرى: بالنسبة إليه، إن فكرة دين أخلاقي للتنوير بالذات هي فكرة مريبة: إنه، مثل شيلر، يبحث عن طريقة لتوحيد الأخلاق مع المسؤولية ومع الحاجات المادية الإنسانية، ويجد هذا التوسط، أولاً، في «المحبة»، وفيما بعد في «الروح». إن مندلسون وكانط هما يهوديان/ يهوديان، كانط نفسه مذهب بما يلوم به اليهود: الأخلاق التشريعية لا تنفذ إلى الحياة الإنسانية الواقعية.

إن المسيحية، لدى هيغل، هي ديانة تقترح التغلب على القطيعة بين الله والإنسان عبر وساطتها. أما اليهودية، من الناحية الأخرى، فيفهمها هيغل كديانة يكون فيها الفرد المذمر، خادم الله وخادم القانون المجرد، مفصلاً عن الله والقانون البعدين والمطلقين⁽²⁾. يطور هيغل هذا الفهم للمسيحية واليهودية في نصه المبكر «روح المسيحية وقدرها»⁽³⁾. هنا وفي أمكنة أخرى، يعارض المسيحية، بوصفها ديانة قدر، بالديانة اليهودية القانونية المجردة «الإيجابية». إن قسماً كبيراً من هذا العمل مكرس لمعالجة الجريمة وللتضاد بين العقاب والقدر. فـ«القدر» (أو المصير كما يمكن أن يترجم أيضاً) هو منطق دياكتيكي يطور معنى أفعال المرء في الزمن، في تسلسل الأحداث التي حرضها. «العقاب كقدر هو رد الفعل المكافئ لفعل الآثم، لقدرة هو نفسه هياها، لعدو جعل عدواً من قبله نفسه»⁽⁴⁾. لهذا إذا دفع، بخفة أو بشدة، ثمن فعلته أو فعلتها، تأتي تصفية الحساب هذه كإنجاز للمرء، وليس كعقاب خارجي.

(1) إمانويل كانط، الدين في حدود العقل المجرد (كيمبردج: مطبعة جامعة كيمبردج، 1998)، 130، (6:125).

(2) قارن

Cf. Takayuki Shibata, «Kritik der Juden und Christentums bei Feuerbach und dem jungen Hegel», in Feuerbach und der Judaismus, 113-121.

يؤكد شيباتا أن اليهودية بالنسبة إلى هيغل كانت ديانة تضع نفسها في مواجهة الطبيعة العدوانية وتكافح من أجل السيطرة عليها، لكنها، وهي العاجزة عن فعل ذلك، تركت هذه المهمة إلى الله القدير. المرجع السابق، ص 115.

(3) ج. و. ف. هيغل، «روح المسيحية وقدرها» في الكتابات اللاهوتية المبكرة، ترجمة ت. نويس (فيلادلفيا: مطبعة جامعة بنسلفانيا، 1971)، 182-301.

(4) روح المسيحية وقدرها، ص. 230، الترجمة معدلة.

إن العقاب الذي يفرضه القانون يقابل العمومي بالخصوصي، لكن الجريمة، كفعل خصوصي، تكون نفسها معمة في حد ذاتها. لهذا في حقل القانونية والعقاب (أي حقل اليهودية)، لدينا مبدآن متضادان في تعادل يائس. في المقابل، عندما يدخل «القدر» إلى الصورة، يقول هيغل، عندئذ:

لا يكون القانون سوى فجوة [أو نقص] الحياة، الحياة الناقصة تظهر كقدرة. والحياة يمكنها أن تشفي جراحها مرة أخرى؛ الحياة المقطوعة، المعادية يمكن أن تعود إلى نفسها مرة أخرى وتبطل (aufheben) الإنجاز الآخرق للإثم، يمكنها أن تبطل القانون والعقاب⁽¹⁾.

هذا هو هيغل المبكر (هيغل الذي لم يقرأه الهيجليون الشباب، بما أن النصوص ذات الصلة لم تنشر عندئذ). بعد ذلك بوقت طويل، في محاضرات برلين حول فلسفة الدين (التي يتم تدريسها منذ عام 1821)، يكرر هيغل التضاد بين اليهودية والمسيحية ويطوره. إذ يقول عن الإله/ الله اليهودي:

الله هو الحكمة المطلقة..... لكنه كذلك بمعنى كونه حكمة مجردة بالكامل. لذلك فإن هذه الغاية غير المحددة الخالية من المضمون، تتحول في الوجود الفعلي إلى خصوصية مباشرة، إلى التحديد الأكمل.... لذلك فإن غاية الله الحقيقية هي العائلة، وفي الحقيقة هذه العائلة بعينها.... هنا لدينا تباين لافت للانتباه وصارم بشكل مطلق - في الحقيقة، إنه التباين الممكن الأكثر صرامة. الله، من الناحية الأخرى، هو إله السماء والأرض، الحكمة المطلقة، القوة الكونية، والغاية التي يهدف إليها هذا الإله هي في الوقت نفسه محدودة للغاية بحيث إنها تعني عائلة واحدة، هذا الشعب الواحد فقط.... في السياسة إذا كانت القوانين الكونية العمومية فقط هي التي تحتفظ

(1) المرجع السابق، ص: 230، الترجمة معدلة.

بالسيطرة، عندئذ يكون العنصر الحاكم هو القوة، الإرادة التعسفية للفرد.⁽¹⁾

هي الشريعة اليهودية:

العقوبة المرتبطة بالعصيان ليست عقوبة مطلقة، بل مجرد محنة خارجية.... العقوبات التي تكون مهددة هي من صنف دينوي براني..... كما أن الطاعة المطلوبة ليست من صنف روحي وأخلاقي، بل مجرد الطاعة العمياء المحددة للناس الذين ليسوا أحراراً من الناحية الأخلاقية، كذلك أيضاً فإن العقوبات ذات سمة برانية.⁽²⁾

في اليهودية، لا يؤلف الشر سوى حادث براني، إذ يقول هيغل:

يبدو الشر وفقاً لذلك كحادث براني... الله يعاقب الشر كما لا ينبغي أن يكون. إن الخير فقط هو ما ينبغي أن يكون، بما أنه هو ما أمر به الرب. مع ذلك لا توجد هنا حرية بعد... خصائص الخير... تستمد قيمتها من حقيقة أنها قواعد وضعها الرب، والرب يعاقب أي تجاوز لهذه القواعد.⁽³⁾

يرى هيغل ومريدوه اليهودية كدين قطيعة، يجمع الأنوية اليومية مع العبودية الروحية، وكدين استثنائية، دين ذات تعامل أنويتها الجماعية كعلامة [تدل] على الاصطفاء والتفرد. هذه الاستثنائية تشكل الأرضية للأنوية والتمركزية الأنوية (egocentrism). لكن - كما نرى لدى ماركس وخصوصاً لدى أرندت، يمكن

(1) ج. و. ف. هيغل، محاضرات في فلسفة الدين، ترجمة إ. ب. سيرز وج. ب. ساندرسون، في 3 مجلدات (لندن: كيفان بول، ترنش، تروينر، 1895)، المجلد 2، 196.

(2) المرجع السابق، المجلد 2، ص: 216.

(3) المرجع السابق، المجلد 2، ص: 218.

أن تؤدي أيضاً إلى وضع خارج على القانون مذل لفرد أو جماعة، بالمعنى نفسه الذي يتقاطع فيه منطق السيادة مع منطق الاستبعاد و«الإدانة»، في تصور جيورجيو أغامبن الشهير⁽¹⁾.

من الواضح، إذا تكلمنا باعتدال، أن هذا تقديم غير دقيق لليهودية التاريخية الفعلية. لكن هيجل كان مهتماً باليهودية كاهتمامه بشيء انطلقت منه المسيحية في الماضي، بالجانب الآخر من المسيحية والدين بحد ذاته. علاوة على ذلك، فإنه يسقط على هذا الدين انتقاده للعقلانية المجردة لعصر التنوير كما قدمها كانط (الذي أطلق عليه هولدلين ذات مرة اسم «موسى أمتنا»).

إن برونو باور، في نشرته الساخرة «إعلان الحكم الأخير على هيجل، ملحداً ومضاداً للمسيح» (الذي ربما تواطأ فيه ماركس معه)، يعزز نقد هيجل المحترم لليهودية. ثمة مقطع كامل من نشرة باور (رقم 7) يحمل عنوان «كره اليهودية». إذ يقول، من بين أشياء أخرى:

الموقف الأساسي للموقف الديني من اليهودية، يقول هيجل، هو «الخوف من السيد». إن وعي الذات هنا مغرَّب تماماً عن ذاته، «الأنا» ليس سوى الوعي الفارغ للأنا، في تفرده الخام والبربري والغبي - ووعي الذات بوصفه سلطة لا محدودة. الأنا لا يكون هنا إلا «في العلاقة المجردة بذاته»، أي أنه أنوية (egoism) خالصة ومخيفة، لأنها محرومة من العرض أو الامتداد، لم تتخذ مقاصد روحية، ميولاً⁽²⁾.

يفسر باور مفهوم هيجل العام للوعي المجرد المنفرد بأنه «أنوية»، ويلتقط ماركس هذا التفسير. يكتشف ماركس، مثل باور، «مسألة يهودية» بالمعنى التجريبي [الأمبريقي] واللاهوتي.

(1) Giorgio Agamben, *Homo Sacer* (Stanford, CA: Stanford University Press 1998).

(2) Bruno Bauer, *Die Posaune des jüngsten Gerichts über Hegel: den Atheisten und Antichristen: ein Ultimatum* (Wigand, 1841), 107. Translation mine.

في «المسألة اليهودية» لباور - العمل الأول من عمليين عرضها ماركس - يطور باور المقاربة نفسها، مطبقاً انتقاد اليهودية على السؤال حول وضع اليهود في الوقت الحاضر. إذ يلاحظ خصيصةهم اللاتاريخية (أي عدم القدرة على تغيير أنفسهم بشكل فعلي)⁽¹⁾، ونزوعهم إلى «الانعزال» والأهم من ذلك، يشير إلى أن روح اليهودية هي روح «قوانين وضعية» «بلا عقل كوني»⁽²⁾.

لم يكن بمقدور الشعب اليهودي أبداً أن ينتج دولة قانون حقيقية أو قانون شعب ولذلك لم يكن سوى مجموعة من الذرات. هذا الانعزال متجذر في جوهر اليهودية [Judentum]، لكن كان يتعين تحقيقه في المسيحية حيث أصبح الالتزام الأسمى للمؤمن.⁽³⁾

ثمة حجة قريبة بهذا المعنى من باور يقدمها هيغلي شاب آخر، ومعلم آخر لماركس، هو لودفيغ فيورباخ (Ludwig Feuerbach). كان باور يميل إلى النزعة الجمهورية الليبرالية، وكان فيورباخ يميل إلى الاشتراكية، لكن هذه الانقسامات في ذلك الوقت لم تكن بتلك القوة. في مقالته «جوهر المسيحية» (1841) يكتب فيورباخ:

احتفظ اليهود بخصوصيتهم إلى هذا اليوم. إن مبدأهم، إلههم، هو المبدأ الأكثر عملية في العالم - أعني به الأنوية، وعلاوة على ذلك الأنوية في هيئة دين. فالأنوية هي الإله الذي لا يدعهم يصلون إلى العار. الأنوية توحيدية بشكل جوهري، لأن لها ذاتاً واحدة، واحدة فقط، كغاية لها.⁽⁴⁾

(1) Die Judenfrage. 30 - 5.

(2) المرجع السابق، ص: 12. يستشهد باور بموسى مندلسون الذي قدم نفس الملاحظة بالمعنى الاعتزالي.

(3) المرجع السابق، ص: 48.

(4) لودفيغ فيورباخ، جوهر المسيحية، ترجمة غ. إليوت (نيويورك ولندن: هاربر أندرو، 1957)، 114. Cf. M. Vogel, "Feuerbachs Religionskritik, die Frage des Judentums", in Ludwig Feuerbach und die Philosophie der Zukunft, ed. H. J. Braun, H. M. Sass, W. Schuffenhauer und F. Tomasoni (Berlin: 1990).

يؤمن فيورباخ بأن اليهودية قائمة، بشكل أحادي المعنى، على الطبيعة الإيجابية للإنسان، على إرادته، لكن تلك المسيحية تغلبت على «عزلة» الله وأدخلت العراة (Godmother) - صورة حساسة، تقبلية.

على كل، كما يقول في التحليل الأخير، إن «اليهودية هي مسيحية دنيوية؛ المسيحية هي يهودية روحانية»⁽¹⁾. فالمسيحية رُوْحَتْ أنوية اليهودية [محولة إياها] إلى ذاتية (مع أنه حتى داخل المسيحية يعبر عن هذه الذاتية مرة أخرى كأنوية خالصة)⁽²⁾. هذا يعني أن الدين يحد ذاته هو مقيد بالأناء، «أنائي» (egoist)، رغم أن المسيحية تتخذ خطوة باتجاه التغلب عليها، إلى «تفتح» الفرد، وإلى التواصل المثمر للبشر فيما بينهم، وليس مع الله فقط.

الآن يجب أن يكون واضحاً لنا لماذا يعلن ماركس هذا الحل بالذات.... حلاً يهودياً، بعد أن نبذ الحل السياسي، الزائف، للمسألة اليهودية [الذي قدمه] باور. إنه يحاول أن يثبت أنه، تحت الواجهة المسيحية للدولة الحديثة، تختبئ «يهودية» عمومية، لذلك فإن «المسألة اليهودية» هي في الحقيقة ليست مشكلة اليهود فقط، بل مشكلة الدولة الحديثة في حد ذاتها.

في الجزء الثاني من مقالة «في المسألة اليهودية» (عرض «لتقبل اليهود للمسيحيين ..»)، ينتقل ماركس إلى النقاش اللاهوتي الصريح:

من الجدير بالملاحظة، مع ذلك، أن علاقة فيورباخ باليهودية كانت معقدة. فمنذ كتابه جوهر المسيحية، تطور موقفه من اليهودية بشكل كبير، ليصبح أكثر إيجابية. شعر فيورباخ بالاهتمام والتعاطف مع العنصر الصوفي في التراث اليهودي: أخذ دروساً خصوصية من الحاخامات، وحاول أن يدرس اللغة العبرية، وصادق دافيد فريديندر، وهو مصرفي وناشط ومثقف يهودي ألماني شهير. انظر حول هذه النقطة دومينيك بول:

Dominique Boure, in Feuerbach und der Judaismus, 127; also Francesco Tomasoni, «Feuerbachs Studium der Kabala,» in Sinnlichkeit und Rationalität. Der Umbruch in der Philosophie des 19 Jahrhunderts, ed. W. Jaeschke (Berlin: Akademie Verlag, 1992), 57 -67.

(1) جوهر المسيحية، ص: 120.

(2) المرجع السابق، ص: 121.

لقد حرر اليهودي نفسه بطريقة يهودية، ليس فقط لأنه اكتسب السلطة المالية، بل أيضاً لأن المال، من خلال [اليهودي] وكذلك بعيداً عنه، أصبح سلطة عالمية وأصبحت الروح اليهودية العملية هي الروح العملية للأمم المسيحية. لقد تحرر اليهود بقدر ما أصبح المسيحيون يهوداً.⁽¹⁾

ثمة لاسامية أكيدة جلية هنا. لكن ماركس يكوّن استنتاجاً ليس لاسامياً على الإطلاق: يقول إن المشكلة تكمن لا في اليهود بل في تركيبة الدولة المسيحية (أي الليبرالية) والمجتمع المسيحي ذاتها. أي، إن كل شخص يصبح بالتدريج «يهودياً» أو «أناوياً». لأن الحياة العامة، العمومية («generic») (مصطلح فيورباخي آخر لدى ماركس)، تتقهقر في وجه «المجتمع المدني» الفردي، الموجه اقتصادياً، التجسيد المسيحي للكائن البشري العمومي في الدولة يتحول بشكل متزايد إلى تخييل جليل يستخدم لشرعة الأنانية اليومية والاعترا ب المتبادل للبشر. من هنا، يتلاشى الاختلاف بين اليهودية والمسيحية يوماً بيوم! «نبعت المسيحية من اليهودية. امتزجت مرة أخرى باليهودية»⁽²⁾.

إن هذا مشابه لفيورباخ، الذي يزعم أن المسيحية هي اليهودية المروّحة. مع ذلك، يضيف ماركس لحظة حركة لاختطية، لحظة ارتداد بخصوص إنجازات المسيحية. لهذا فإن التغلب الظاهر على الديانة المسيحية في دولة علمانية ليبرالية يعيد إنتاج بنية القطيعة الدينية ذاتها بين العمومي والخصوصي. الحالة ما بعد المسيحية هي غلبة الرسالة الميتة للقانون (الأخلاقي والسياسي)، تعددية الأيديولوجيات والديانات. فهي بحد ذاتها لا تطيح البنية القديمة للدين التي وعدت المسيحية بالغائها بل ترسخها. هذا هو السبب في أن ماركس، في برناجه «الوضعي»، يسترجع النوع المسيحي، بطريقة معلنة، مسيحية: يضع رهانه على انتفاضة المنبوذين الذي

(1) «في المسألة اليهودية»، ص: 170.

(2) المرجع السابق، ص: 173.

سيحطمون بني الاغتراب ويحررون العالم بأسره. يدعو ماركس إلى مسيحية دنيوية جديدة من المفترض أن تنتصر، مرة أخرى، على المسيحية القديمة التي صارت يهودية، أي على الفريسية الجديدة.

على كل، ثمة التباس هنا: فكرة المخلص «الاقتصادي» الدنيوي تبدو مسيحية، فالخطاب الموجه إلى هذا المخلص كما لو أنه إلى شخص يأتي في المستقبل هو أقرب إلى اللاهوت اليهودي. إن ماركس هو نبي أكثر مما هو قديس. ففي مقابل اليهودية بالشكل المسيحي الذي ينتج الاغتراب يضع مسيحية (العمومي المجدد) في الشكل اليهودي للمسيحانية المستقبلية⁽¹⁾.

(1) مما يثير الاهتمام أن فرانيسكو توماسوني، في كتابه المذكور أعلاه، الحداثة والهدف النهائي للتاريخ. السجال حول اليهودية من كانط إلى الهيجلين الشباب، لا يقدم تفسيراً مقنعاً لنص ماركس حول المسألة اليهودية. فهو ينسب بشكل خاطئ إلى ماركس شجراً لليهودية أكثر اعتدالاً من شجب باور لأن ماركس، بالنسبة إليه، اهتم بعلم الاقتصاد أكثر مما اهتم باللاهوت، ولذلك نظر إلى اليهودي كشخصية دنيوية مادية «وبدلاً من إدانته بالجمود، وإحالة إلى هوامش التاريخ، فقد وضعه في قلب التحولات» (184). علاوة على ذلك، يقول توماسوني إن «العقيدة الدينية لم تكن تهم ماركس كثيراً... أما الممارسة الاقتصادية فقد كانت أقرب إلى خطئه... [و] الحافز إلى فهم أهميتها جاء من مادية اليهودية أكثر من تحرير المسيحية» (186). لا شيء كان أبعد من مقاصد ماركس الفعلية. أولاً، بالنسبة لماركس (كما بالنسبة إلى هيجل)، الاهتمام باللاهوت والاقتصاد هو الشيء نفسه، ومؤلفه «في المسألة اليهودية» عمل عن اللاهوت، عن القطيعة الدينية داخل الدولة الحديثة. ثانياً، الخاصية الواقعية والمادية لليهودية تحديداً هي بالنسبة إلى ماركس مجردة وليست «مادية»، لأنها تعتمد على القطيعة بين العمومي والخصوصي. ثالثاً، المادية المحض للـ «يهودي» تظهر انتصار اليهودية على المسيحية في عصرنا، لكنها بعيدة عن كونها الكلمة النهائية للتاريخ، نظراً إلى أنها المادية المفصولة بشكل مصطنع عن معناها المثالي. في عنوان كتابه وفي مقدمته، يشجب توماسوني الرؤية الهيجلية لـ «الهدف النهائي للتاريخ» وربما يكون على حق، لكن «اليهودية» مع ذلك، بالنسبة إلى هيجل وماركس، مفهوم مترابط بشكل صارم مع مفهوم الآخرة في المسيحية وعصر التنوير. لدى هيجل وباور تمثل اليهودية مقاومة الإلغاء (Aufhebung)؛ أما لدى ماركس فهي تبدو كحقيقتها المخفية، الردة تحت قناع الخلاص. على كل، يبقى موقف ماركس في الواقع ملتبساً من اليهودية، ليس لأن اليهودية «مادية» (Materialistic) بل لأنها مسيحية تبشيرية. فحين يختزل الكائن البشري إلى وجود مادي محض، يلجأ إلى خلاص مستقبلي، مادي لكن غير منجز بعد (يشير توماسوني على حق إلى هذا الجانب الآخر لليهودية، وهو جانب مندثر لكنه يطفو على السطح أحياناً في التراث الهيجلي، في الصفحة 15).

حنة أرندت في المسألة اليهودية في القرن العشرين

الآن دعونا نقفز مائة عام إلى الأمام ونتحول إلى عمل مفكر سياسي عظيم آخر، حنة أرندت. كانت أرندت، مثل ماركس، يهودية علمانية مندمجة في مجتمعتها، تلقت تعليمًا مدرسيًا مسيحيًا، رغم أنها، خلافاً له، كانت دوماً تعترف بـ «هويتها» اليهودية كحقيقة من حقائق الحياة (بدون قبول الديانة اليهودية). في فلسفتها، اعتمدت بشكل واضح على مفكرين مسيحيين بالتأكيد مثل القديس أوغسطين، حتى وإن فسرهم بطريقة «أنطولوجية» [وجودية]، علمانية.

كانت أرندت تضمّر تعاطفًا قليلاً جداً مع ماركس، رغم أنها أرادت في أواخر الخمسينيات/ أوائل الستينيات أن تكتب كتاباً عنه - الكتاب الذي تحول في نهاية المطاف إلى عنوان «في الثورة». على كل، توجد موضوعتان توحدان أرندت مع ماركس المبكر. الأولى هي الاغتراب (alienation). ففي كتابها الشرط الإنساني (The Human Condition)، تدخل أرندت مفهوم «الاغتراب العالمي»⁽¹⁾ مستشهدة بشكل متعاطف بماركس المبكر⁽²⁾. مما له دلالاته أنها تشير إلى أن هذا الاغتراب العالمي الحديث هو، بطريقة ما، استمراراً للانسحاب الديني من العالم الذي لم تبطله «العلمنة»:

إننا نميل إلى التغاضي عن الأهمية المركزية لهذا الاغتراب بالنسبة للعصر الحديث، إذ نشدد عادة على خصيصته العلمانية ونهاهي بين مصطلح العلمانية والدينية. مع ذلك فإن العلمنة كحدث تاريخي ملموس لاتعني أكثر من فصل الكنيسة والدولة، فصل الدين والسياسة، وهذا، من وجهة نظر دينية، يقتضي ضمناً عودة إلى

(1) حنة أرندت، الشرط الإنساني، 248 - 57.

(2) المرجع السابق، ص: 254.

الموقف المسيحي المبكر... بدلاً من فقدان الإيمان وصعود اهتمام جديد ومؤكد بالأشياء في هذا العالم.⁽¹⁾

لهذا، ترى أرندت الاغتراب كطبعة محولة من اللاهوت السياسي، نتيجة للفشل في التخلص من الدين، في التخلي عن العبادة المسيحية. لاداعي للقول إن هذه الحجة قريبة من حجة ماركس: الدولة الحديثة تزعم التغلب على الدين لكنها، في الحقيقة، تؤبده بعزل النشاط «الدنيوي» للإنسان والتقليل من شأنه. ليس من الصعب رؤية التأثير الحاسم لهايدغر على هذه الحجة (يمتدح هايدغر بشكل مشهور مفهوم ماركس للاغتراب في مقالته «رسالة في الإنسانية»⁽²⁾)، لكن استدعاء اللاهوت هو ملك لأرندت خاص بها.

الثيمة الثانية هي النقد الفلسفي لنظرية حقوق الإنسان وممارستها. في كتابها أصول الشمولية،⁽³⁾ تبين أرندت، كما بين ماركس، أن مذهب حقوق الإنسان متناقض داخلياً. فهي، برأيها، حقوق مواطن، تضمنها الدولة، من ناحية أولى؛ ومن ناحية أخرى، إنها حقوق الضحية في البقاء البيولوجي الذي لا يمكن حمايته إلا من قبل محسن خارجي (هذا التحليل أقرب إلى باور من ماركس). يصبح «الكائن العاري» (تستخدم صيغة بنيامين) مصير الشخص بلا دولة. المثال المركزي على هؤلاء الأشخاص بلا دولة هم اليهود - الذين لم يحصلوا على دولتهم الخاصة بهم (على الأقل على مدى الـ 2000 سنة الماضية) والذين لم يُمنحوا المواطنة من قبل أية دولة أوروبية، عندما طردوا من ألمانيا.

تلاحظ أرندت أن «حقوق الإنسان» تنشأ في سيرورة تفكك «المجتمع المدني» القروسطي: «في مجتمع جديد معلم ومتحرر، لم يعد الناس واثقين من هذه الحقوق

(1) المرجع السابق، ص: 253.

(2) مارتن هايدغر، الكتابات الأساسية (لندن: هاربر بيرنيال، 2008)، 213-67، الاقتباس 243: «ما أدركه ماركس بمعنى جوهرى وذى دلالة، مع أنه مشتق من هيغل، بوصفه تغريباً للإنسان، له جذوره في تشرّد الإنسان الحديث.»

(3) أصول الشمولية، 290-303.

التي كانت حتى ذلك الوقت خارج النظام السياسي ولا تضمنها الحكومة والدستور بل القوى الاجتماعية والروحية والدينية»⁽¹⁾. الأبعد من ذلك، أنها تقارن «حقوق الإنسان العام» و«حقوق المواطن»، قائلة إن الأولى لا يضمنها أي شاهد ولذلك فهي ليست حقوقاً على الإطلاق. إن الناس بلا هوية يمكن مساعدتهم عن طريق «مؤسسة خيرية»⁽²⁾ لكنهم لا يملكون حقوقاً. إنهم يعيشون في حالة مرآتية (على النقيض من المساواة السياسية) ومحكوم عليهم بـ «فردية» خالصة كهذه»⁽³⁾. بعد إجراء المقتضى (*mutatis mutandis*) (هذه الحجة ماثلة لحجة ماركس، سوى أننا نحصل بدلاً من انقسام الدولة/ المجتمع المدني على انقسام إلى الدولة القومية والأشخاص بلا دولة و، في الحالتين، تتخذ هذه الحجة اليهود كنموذج إرشادي (على التوالي، يهود القرن التاسع عشر والقرن العشرين). تتفق أرندت مع تحليل ماركس في أن ذات الحق المجرد ليس «أناوياً» (*egoist*) فحسب، بل إنه/ ها يظهر/ تظهر في وضع منبوذ، استثنائي، تقتضيه الدولة القومية ضمناً وتفترضه مسبقاً (نحن بحاجة إلى تذكر أن الامتياز كان أساسياً، بالنسبة لباور، من أجل تعريف اليهود). التفرد الاستثنائي يسبق الوحدة الفردية المعيرة، لكنه يكون بالقدر نفسه نتيجة للاغتراب.

كانت أرندت يهودية علمانية مندجة، لكنها أكدت على هويتها اليهودية. في رسالتها إلى غ. شولم تكتب أنها كانت «دوماً تعتبر يهوديتها أحد معطيات حياتها الحقيقية التي لا تقبل الجدل، ولم تكن لديها الرغبة أبداً في تغيير أو إنكار حقائق من هذا النوع»⁽⁴⁾. علاوة على ذلك، كان لأرندت، طوال حياتها، اهتمام بـ «المسألة اليهودية»، وليس باللاهوت اليهودي أبداً⁽⁵⁾. برز الاهتمام الشديد في الثلاثينيات

(1) المرجع السابق، ص: 291.

(2) المرجع السابق، ص: 296.

(3) المرجع السابق، ص: 301.

(4) أرندت، حنة، اليهودي منبذاً (نيويورك: غروف بوكس، 1978)، 246.

(5) هذا مانوه إليه عن حق ريتشارد برنشتاين في كتابه حنة أرندت والمسألة اليهودية (كيمبرج، ماساتشوستس: مطبعة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 1996)، ص: 15 و 185. لكن

عندما كانت تؤلف كتاباً حول راهل فرنهاغن - كتاب ينتقد اليهود المتنورين في القرن التاسع عشر بسبب محاولة الهروب من العالم إلى دائرة مغلقة حول الذات. بعد أن جاء النازيون إلى السلطة وفرت أرندت من ألمانيا، بدأت العمل من أجل المنظمات الصهيونية ونشر المقالات المتعاطفة مع الصهيونية. على كل، ففي نهاية التسعينيات برزت كناقدة شرسة لدولة إسرائيل المنشأة حديثاً وقطعت صلاتها بالصهيونية، مختارة أن تصنع سيرة أكاديمية. إن الجزء الأول من أصول الشمولية (1951) مكرس لأجل «اللاسامية» ويحتوي على تحليل بارع للحالة الاجتماعية لليهود في أوروبا. في هذا العمل، تستشهد أرندت بمقالة ماركس «في المسألة اليهودية» كدليل على حقيقة أن الكتابة «المضادة لليهود» من هذا النوع، التي يكتبها اليهود أنفسهم غالباً، كانت ذات علاقة واهية بـ «اللاسامية المكتملة». إنها تشرح أيضاً نص ماركس «المضاد لليهود» كتعبير عن الصدام الاجتماعي ضمن [الطائفة] اليهودية، بين المثقفين اليهود وأصحاب المال اليهود⁽¹⁾. لا يُستفاض في مناقشة تفاصيل نص ماركس، لكن الإحالة مهمة لأنها تظهر إلمام أرندت بعمل ماركس المهم، الذي تردّد صدى بعض أفكاره في انتقاده لحقوق الإنسان، في الجزء الثاني من أصول الشمولية.

برنشتاين يبحث عن آثار التراث اليهودي في عمل أرندت، مثل مفهومها لـ «حب الدنيا» أو نقدها للهوس بالأناني في الثقافة الحديثة (المرجع السابق، ص: 188 - 9). هذه المحاولة ليست مقنعة جداً، لأن الحجج قيد البحث يمكن عزوها بالتساوي إلى التراث المسيحي، ولأن برنشتاين لا يأخذ في الحسبان هجوم أرندت الكامن ضد اليهودية. لهذا، كما رأينا، بالنسبة إلى باور وفورباخ، اليهودية تحديداً، كنفيس للمسيحية، هي أنانية ومتمركزة على الذات. انظر أيضاً كتاباً مشيراً للاهتمام من تأليف مارتين ليبوفيتش

Martine Leibovic, Hannah Arendt: une Juive (Paris: Desclee de Brouwer, 1998)
تبدي ليبوفيتش اهتماماً قليلاً بالجانب اللاهوتي من حجة أرندت في المسألة اليهودية، لكنها تلاحظ أن أرندت كانت قد انتقدت بشكل متساوٍ لاكونية «acosmism» الشعب اليهودي (المرجع السابق، 279، 340). اللاكونية هي أيضاً موتيف لاهوتي، استخدمه هيغل، على سبيل المثال، في انتقاده للمفكر اليهودي سبينوزا. لكن اللاكونية تظهر غالباً كحجة ضد الدين في حد ذاته.

(1) حنة أرندت، أصول الشمولية (نيويورك: هاركورت برايس، 1979 [1951])، 34، 47-8.

بعد هذا الكتاب، تخلت أرندت عن الثيمة اليهودية لفترة طويلة من الزمن لكنها عادت إليها بشكل وقور في أثناء سيرورة محاكمة آيخمان في عام 1961. فأصبح كتاب آيخمان في القدس⁽¹⁾ الناتج تنويعاً لتأملاتها «اليهودية»، كتابها الرئيسي في «المسألة اليهودية». سأذكر القراء بشكل موجز بالحجة المركزية لكتاب آيخمان. تتأمل أرندت في طبيعة «الشر» النازي وتطبق عليه المفهوم «الحرمانى» (privative) الأوغسطينى للشر، مفهوم الشر بوصفه افتقاراً إلى الخير. هي، إذن، تشرح جريمة آيخمان (وغالبية الألمان) بأنها العجز عن إنتاج حكم مسؤول حر. إن آيخمان، برأى أرندت، ليس وحشاً شيطانياً (كما وصفه ادعاء المحكمة) بل فرداً «تافهاً» ارتكب جريمته الفظيعة بدافع من الامتثالية (conformism). الفكرة التي تثيرها هي فكرة أخلاقية: من يقدم مجرمًا بوصفه لا سامياً شيطانياً يخرجها/ها من الاعتبار ويعد الشر شيئاً خارجياً. بالمقابل، إذا كان للشر طبيعة حرمانية، غير جوهرية، عندئذ فكل واحد منا يمكن أن يكون في مكان المجرم. لكي تكون خيراً فإن المطلوب هو جهد محفوف بالمخاطر، وإذا ترك لعطالة «طبيعته» الخاصة فإنه ينزلق حتماً إلى الشر. إن كتاب أرندت من الصعب قراءته، لأنه مكرس في جزء منه لإعادة سرد مواقف آيخمان ومواقف المدعين الإسرائيليين. ليس واضحاً دوماً من إعادة السرد هذه ما إذا كانت أرندت ساخرة أم لا، وما هو موقفها الخاص. لقد ساهم ذلك، جزئياً، في الهتاف بأن ذلك بدأ بعد نشر الكتاب: اعتقد كثيرون أن أرندت كانت تدافع عن آيخمان أو أنها كانت تعارض معاقبته (كلاهما غير صحيحين). ثمة تواز هنا مع الأسلوب الحوارى الذي كُتِبَ به مقالة ماركس «في المسألة اليهودية».

تبني أرندت كتابها حول ثلاثة مواضيع رئيسية: انتقاد المحاكمة، قصة حياة آيخمان وفعلة، و«المجالس اليهودية» في ألمانيا النازية التي توأمت مع النظام والتي كانت، بحسب أرندت، تتحمل بعض المسؤولية عن الإبادة الجماعية. هنا، سأركز بشكل رئيس على الموضوعين الأولين: المدعين والمدعى عليه.

(1) حنة أرندت، آيخمان في القدس. تقرير عن تفاهة الشر (نيويورك ولندن: بنغوين بوكس، 1994 [فايكينغ برس، 1963]).

كان المدعون على آيخان، تقول أرندت، غير مباينين بفراة فعلته وبـ «لا مسبوقتها» وحتى أكثر من ذلك «لامسبوقية» القتل الجماعي لليهود الذي اقترفه النازيون. بدلاً من الشخص الحقيقي وأفعاله، بدلاً من الحدث الملموس، ينفذ الحكم على «اللاسامية» القديمة العهد:

كانت هذه هي النعمة التي كرسها بن غوريون وحذا حذوه بإخلاص السيد هاو زرنر الذي بدأ خطابه الافتتاحي.... بفرعون في مصر وبقرار هامان «تدميرهم، وذبحهم، والتسبب في فنائهم». ثم واصل الاستشهاد بسفر حزقيال: «وعندما مررت أنا [الرب] بك، ورأيتك ملوثاً بدمك، قلت لك، في دمك، عش»، شارحاً أن هذه الكلمات يجب أن تفهم بمثابة «الأمر الذي واجه هذه الأمة منذ ظهورها الأول على خشبة التاريخ». كان تاريخاً سيئاً وبلاغة رخيصة؛ الأسوأ من ذلك، أنه كان يتعارض فعلاً مع أهداف وضع آيخان على المحاكمة، ما يوحي بأنه ربما كان منفذاً بريئاً لمصير مرسوم مسبقاً بشكل غامض أو، فيما يتعلق بالمسألة، حتى منفذاً لللاسامية، التي ربما كانت ضرورة لإضاعة أثر «الطريق الملتطخ بالدم الذي قطعه هذا الشعب» لتحقيق مصيره.⁽¹⁾

بالنسبة إلى أرندت، هذه المقاربة هي المثال على كل ما انتقدته هي في الصهيونية وأيديولوجيا إسرائيل: أعني مركزية الأنا القومية وثقة المرء باستقامته. لكن، في الوقت نفسه، يكشف سلوك الساسة الإسرائيليين عن مشكلة فلسفية أكبر: كيف نحكم على فعل يتعين النظر إليه، بتعريف الحكم، على أنه فريد. إن أية محكمة يجب بالضرورة أن تستعمل بعض قرائن الحكم المعمة، سواء كانت قوانين أو سوابق. لكن القوانين والسوابق تُطَبِّع الشر، تدجنه، ولا يمكن أن تفسر قراراً فردياً فريداً بارتكابه. هذه المفارقة هي مكونة لأية محكمة، لكن قضاة القدس لم يحاولوا حتى

(1) آيخان في القدس، ص: 19.

حلها. «المحكمة.... لم تتصدّ للتحدي غير المسبوق.... بدلا من ذلك، طمرت الوقائع تحت فيضان من السوابق»⁽¹⁾.

إن الحكم على التاريخ واتهام الماضي هما نشاطان يخاطران بشرعة الماضي وتطبيعته. لهذه المشكلة تاريخ يستحق التأمل. ففي أثناء الثورة الفرنسية، لاحظ روبسبير وسان جوست أن إعدام لويس السادس عشر ليس شرعياً، لا إذا حُكم عليه بالإعدام بوصفه ملكاً (فالملك فوق كل قانون، إنه سيد)، ولا إذا حُكم عليه بوصفه المواطن البسيط لويس كاييه (وبصفته هذه، لم يرتكب أية جريمة). علاوة على ذلك، فإن إعدام لويس بوصفه ملكاً سيؤدي إلى «تتويجه» بعد وفاته. هذا هو السبب في أن روبسبير رأى أنه سيكون من الأفضل الدفاع عن إعدام لويس بوصفه قتلًا لعدو خارجي⁽²⁾.

علاوة على ذلك، حتى قتل اليهود من قبل النازيين اتبع منطقاً مماثلاً نوعاً ما. فكما رأينا من قبل في البداية، كانت «المسألة اليهودية»، كما وصفت، على سبيل المثال، من قبل باور، تقوم على المعضلة التالية: لا يمكن قبول اليهود في الدولة الألمانية كجماعة منفصلة (فالألمان يفترض أنهم يبنون أمة مندمجة ومساواتية) لكن - من منظور معين - لا يمكن قبولهم هناك كمواطنين بسطاء أيضاً. لكونهم لا يمكن تمييزهم تقريباً عن الألمان الآخرين جسدياً وثقافياً، فإنهم يارسون ديناً سياسياً سوف يضر بولائهم للدولة. من هنا كان «الحل النهائي» المستيري، لمجرد إخراج هؤلاء الغرباء الداخليين «من شاشة الرادار» - قتلهم كالحوانات⁽³⁾.

(1) المرجع السابق، ص: 263.

(2) انظر:

M. Robespierre, "Sur le process du roi", in Pour le Bonheur et la liberte. Diascourse (Paris: La fabrique, 2000), 195.

(3) انظر حول ذلك، جيورجيو أغامبن، الإنسان المقدس (ستانفورد، CA: مطبعة جامعة ستانفورد، 1998).

بسبب هذا الطريق المسدود، ترى أرندت، في كتابها، أن فكرة قتل آيخمان في شوارع بوينوس آيرس ربما كانت أفضل من تمثيل محاكمة علنية⁽¹⁾. يكون الشر، في محاكمة كهذه، مصعّداً؛ إذ يبدو شيطانياً بشكل جذاب. بقتل آيخمان، يؤكد المرء وضعه كمخارج على قانون الإنسانية: (*hostis generis humanis*). تستحضر أرندت مثالين على هذا القتل. الأول هو شالوم شفاتر تسبارد الذي قتل بتليورا، والثاني هو سوهمون تهليريان الذي قتل طلعت ييه. لقد سلم المتقمان نفسيهما للسلطات، وكلاهما تمت تبرئتهما في المحكمة. وكان ثمة أيضاً محاكمة، لكن في حالة شفاتر تسبارد وتهليريان، ناقشت المحكمة «الحكم» الذي كان هو ذاته فعلاً غير قانوني، استثنائياً: فإرادة فعل الحكم هي صنو لفراة الجريمة ذاتها. في المقابل، كانت محاكمة آيخمان عاجزة عن الاعتراف بجريمة النازيين بوصفها جرمًا أو عن ترسيخ قانون جديد من إرادته. كان كل شيء مذاباً في السوابق وفي الآلة البيروقراطية للدولة القومية.

في هذا الوضع تقرر أرندت أن تأخذ المحاكمة على عاتقها. من انتقاد المحكمة تنتقل إلى انتقاد آيخمان كشخص، و، بالتالي، انتقاد الذاتية النازية التي يمثلها. تملأ أرندت الفجوة التي تركها القضاة وتعيد بشكل سردي بناء السيرة الحياتية والمهنية لآيخمان. باستخدام مصطلح هيغلي، تحاول أرندت أن تبرز «قدر» آيخمان (أو «مسيره»)، وليس فقط التوصيف القانوني الشكلي لجرمه. لكن، كنتيجة لسعيها المديد إلى سرد حياة آيخمان بحثاً عن جرم حاسم، تتوصل إلى استنتاج أن آيخمان ذاته لم يكن كارهاً لليهود بل ارتكب جرائمه بدافع من الانضباط البيروقراطي، خدمة لطموحاته المهنية. لهذا، في أثناء المحاكمة، لا يفهم آيخمان حتى أنه يرتكب جريمة محددة.

هناك يرد تبعاً عدد من المقارنات الساخرة لآيخمان مع قضاة. أولاً، تقول أرندت، أصبح آيخمان «صهيونياً» لوهلة، لأنه، مثل الصهيونيين، كان يؤمن بأن اليهود ينبغي أن يخلقوا دولتهم الخاصة بهم. ثانياً، إن آيخمان غير قادر على تبني وجهة

(1) آيخمان في القدس، 396.

نظر الآخر، ولذلك فهو متهم بالمركزية الأنوية. «كان عجزه [آيخمان] عن الكلام مرتبطاً بعجزه عن التفكير، أي، التفكير من وجهة نظر شخص آخر»⁽¹⁾. لكن هكذا هم قضاته، الذين لا يستطيعون رؤية الوضع من منظور آيخمان. ثالثاً، يتبع آيخمان القانون دوماً بشكل موسوس. تبين أرندت أن آيخمان يستخدم من أجل دفاعه التصور الكانطي للواجب الأخلاقي. في كلماته، اتبع الأمر القاطع (على الأقل في طبعة هانز فرانك: «تصرف بطريقة بحيث أن الفوهرر، إذا علم بفعلتك، فإنه سوف يستحسنها»⁽²⁾). بالطبع، تعلق أرندت، هذا فهم خاطئ لكانط (بالنسبة إلى كانط، كل شخص، عندما يتصرف، يتحول إلى مشرع)، لكنه يتفق مع ما دعاها هو نفسه بـ «طبعة كانط من أجل الاستخدام المنزلي للإنسان الصغير». «لا يوجد أدنى شك - تقول أرندت - في أن آيخمان في جانب واحد قد اتبع وصايا كانط: القانون هو القانون، لا يمكن أن تكون هناك أية استثناءات»⁽³⁾. هذا التوبيخ لكانط يذكر المرء بانتقاد هيغل لقانونية كانط المجردة وللدين اليهودي المفسر بمصطلحات ميتافيزيقا كانط.

على كل، بالقول إن القانون لا يعرف أي استثناء، فإن آيخمان نفسه، كفرد، يمكنه فقط أن يكون استثناء من القانون! آيخمان أناوي، فرد مذرر. علاوة على ذلك، في جولة تهكمية أخرى، تدعوه أرندت شخصاً «عديم الدولة»، وتقارنه بالقرصان - ليس فقط لأنه سرق في الأرجنتين وحكم عليه في إسرائيل، بل أيضاً بسبب طبيعة تصرفه بالتحديد، التي تقع، من ناحية أولى، خارج التصنيفات العامة أو السوابق، ومن ناحية أخرى، مجردة من المعنى الجوهرية، الإيجابية⁽⁴⁾.

(1) المرجع السابق، 49.

(2) المرجع السابق، 137.

(3) في المكان السابق.

(4) آيخمان في القدس، 263.

إن الشخص عديم الدولة هو بالتعريف موضوع متفعل / سلبى لحقوق الإنسان. تعيد أرندت القارئ إلى نقدها لحقوق الإنسان في كتابها أصول الشمولية⁽¹⁾. في تحليلها، تكون حقوق الإنسان إما محمية من قبل نظام سياسي ملموس معين، أو تتحول إلى حقوق الأشخاص عديمي الدولة المغربين كلياً، المحرومين من أي وكالة في الدفاع عن حقوقهم الخاصة.

هذا التحليل قريب في بعض الجوانب من النقد الذي يوجهه برونو باور ضد المدافعين عن حقوق اليهود في «المسألة اليهودية». إن آيخمان، مثل هؤلاء الأشخاص عديمي الدولة، هو ذرة اجتماعية مأساة ولذلك فهو لا يمتلك مرجعية شرعية للحكم على أفعاله المشؤومة ولا يمكنه أن يتحمل أية مسؤولية فعلية عن تلك الأفعال. لكن انتقاد أرندت لحقوق الإنسان، كما رأينا هو حتى أقرب إلى مقالة ماركس «في المسألة اليهودية». إذ تزعم أرندت، مثل ماركس، أن «حقوق الإنسان» مقسومة بين حقوق المواطن وحقوق «الإنسان» الذي هو، بالنسبة إلى ماركس، كائن بشري في مجتمع مدني، و، بالنسبة إلى أرندت، كائن بشري «عديم الدولة» محروم بشكل مباشر من المواطنة. بالنسبة إليهما، «حقوق الإنسان هي جانب آخر مظلم» من «حقوق المواطن»، والأولى تلغي الثانية.

ثمة عنصر آخر في تصوير أرندت لآيخمان هو حقيقة أنه في خطابه الأخير يكون عاجزاً عن التكلم من موقعه الخاص لكنه ينطلق كما لو كان مراقباً خارجياً لفعله الخاص، كما لو كان يندب نفسه من موقع الناجي⁽²⁾. سيبدو أن هذا المثال مناقض لتأكيد أرندت أن آيخمان متمركز حول الأنا؛ لكن، في الحقيقة، لا يوجد تناقض. ففي الخطاب، يتبنى آيخمان ليس وجهة نظر شخص آخر، بل وجهة النظر المجردة للعامة اللاشخصية العمياء. إنه يفكر «بتجرد»، كما يقول هيغل⁽³⁾. هذا يثبت أن القطيعة

(1) أصول الشمولية، 290-302.

(2) آيخمان في القدس، 252.

(3) بالنسبة إلى هيغل، ليس فقط أي قانون عام، بل أية حقيقة وحشية لامتني لها، أو فرد منعزل، هي أيضاً أمور «مجردة». في نص «من يفكر بشكل مجرد» (في كتاب والتر كاوفمان: هيغل: نصوص

بين الأنانية المجردة والقانون المجرد تسري داخل آيخمان وتمنعه من الاحتكاك مع ذاته. مع ذلك، بما أن آيخمان يثبت ذلك في خطابه، فإن هذا يفيد كبرهان نهائي على أن الحكم اللاشخصي لمحكمة القدس إنما يعكسه آيخمان بوصفه رعية ترفض أن تكون رعية. أو، بالأحرى، إن أرندت هي التي تُحدث عملية الإعكاس هذه، لتمنح كلاً من آيخمان والنظام القانوني للدولة القومية عدالتها.

كنتيجة لتحليل أرندت، يتبين أنه في مقابل تفكير القضاة المجرد والشكلاني والمتمركز حول الأنا يوجد تفكير آيخمان المجرد والشكلاني والمتمركز حول الأنا. حاولت أرندت أن تقدم آيخمان بشكل سردي، كـ «بطل» لجريته، لكنها لم تتمكن من إيجاد أي بطل. بدلاً من ذلك، وجدت «تفاهة الشر» - العجز عن ارتكاب فعل محفوف بالمخاطر، ظاهرة سلبية (حرمانية) وليست إيجابية. إن مذهب القديس أوغسطين، مذهب الطبيعة الحرمانية للشر، قد بُرهن «تجريبياً». هكذا فشل الامتحان - لكن الحكم لم يفشل لأن الفشل نفسه قد شكّل نتيجة.

كنتيجة لذلك، تتوصل أرندت إلى استنتاج أن آيخمان تم إعدامه بشكل عادل. فقد طبق القضاة حكمهم المجرد على شخص شاءت الصدفة أنه يفكر بتجرد كما يفكرون هم. في الخاتمة، تنطق أرندت بحكمها على آيخمان وتخبر «ه» أنه مدان ببساطة بسبب الأشياء الحقيقية التي فعلها. هذا هو كل ما تبقى، بما أننا لم نعثر على شخصية أو تصور مسبق للفعل لدى المتهم.

في غياب الجرم، نعود إلى كائن عاري يمكن فقط أن يُقتل، لا أن يُشنق. في إعلان حكمها المرتجل، تختم أرندت بشكل وحشي: «هذا هو السبب، والسبب الوحيد، في أنك يجب أن تشنق»⁽¹⁾. هكذا، تُحقق العدالة هنا بوصفها عدم تعرف على المجرم. إن

وتعليقات غاردن سيتي، نيويورك: أنكور بوكس، 1966)، 113-18، يناقش هيفل الحكم العمومي على مجرم كمثال على التجريد. «هذا تفكير مجرد: أن لا ترى شيئاً في القاتل سوى الحقيقة المجردة وهي أنه قاتل، وتلغي كل الجوهر الإنساني الآخر فيه مع هذه الصفة البسيطة» (المرجع السابق، 117).

(1) آيخمان في القدس، 279.

أرندت، وقد انتقدت محكمة القدس لفشلها في التعرف على شخصية آيخمان، تمتحن هذا التعرف، لكنها تفشل وتستنتج أنها غير قابلة للتعرف عليها، من المستحيل الحكم عليها.

لاحظ منطق الاستثناء المتضمن هنا. في الحقيقة، إن «حكم» أرندت على آيخمان يعيد إنتاج المفارقة التي تثبتها المحاكمة نفسها. فالمحكمة تحكم على من لا يمكن الحكم عليه، وقانون التعرف يتحقق في شكل إبطاله الذاتي. «الحياة العارية» العاجزة عن الفعل من غير الممكن سردها أو الحكم عليها. هذا هو ما حلله شميت، وفيما بعد جيورجيو أغامبن، إبطال ذاتي لسيادة القانون⁽¹⁾. إن أرندت، مثل شميت وخلافاً لأغامبن، لا يربعها هذا المنطق بالضرورة: عندما يُطبق بشكل مجرد وأحادي الجانب من قبل الدولة على البشر فإنه يكون كارثياً، لكن عندما يدخل انعكاس الذات المستبعد نفسه/ نفسها (تذكر باور و«يهوده») في المعادلة، وعندما يُمتحن التعرف بشكل فعلي، عندئذ يمكن إثبات الخروج على القانون، من قبل سيد، على منبذ «سيد».

ثمة أوجه شبه واضحة بين هذه الحجة وحجة ماركس «في المسألة اليهودية». فالنصان كلاهما يتعاملان مع المشاكل السياسية، العلمانية، للشعب اليهودي، وكلاهما يواجهان المشاكل الفلسفية التي تم تأطيرها، على الأقل في التراث الألماني، حول التضاد بين المسيحية واليهودية، وعلاوة على ذلك، حول مشكلة الدين في حد ذاته.

إن أرندت لا تخفي السياق اللاهوتي لحجتها. إذ يزخر كتاب آيخمان في القدس بالإشارات إلى الله وإلى التوراة. هكذا، على سبيل المثال، تقول:

يمكننا أن نقرأ في بيان الكنيسة الإنجيلية [البروتستانتية] في ألمانيا بعد الحرب ما يلي: «إننا نؤكد أمام إله الرحمة أننا نشترك في الذنب لأجل

(1) انظر كارل شميت، اللاهوت السياسي. أربعة فصول حول مفهوم السيادة (شيكاغو، إيلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو، 2005)؛ أغامبن، الإنسان المقدس.

الإساءة ضد اليهود من قبل شعبنا من خلال الإهمال والصمت». يدولي أن المسيحي مذب أمام إله الرحمة عندما يرد على الشر بالشر، من هنا فإن الكنائس ستكون مذنبه أمام إله الرحمة لو قتل ملايين اليهود من أجل شر اقترفوه. لكن إذا اشتركت الكنائس في الشعور بالذنب لأجل إساءة ببساطة فظيعة، كما يشهدون بأنفسهم، عندئذ فإن المسألة يجب اعتبارها تقع ضمن نطاق سلطة إله العدالة.⁽¹⁾

حتى رغم أن الرحمة والعدالة هما، في الحقيقة، صفتان للإلهين المسيحي واليهودي، فإن العدالة، بالنسبة إلى أرندت، هي «عاطفة يهودية تراثية»⁽²⁾، وضمن سياق الكتاب تقف بشكل واضح إلى جانب القانون الفيزيائي الأعمى بدلاً من الحكم المقدر، المراعي. ففي رسالة إلى شولم، تستمر في الحجة نفسها:

كانت الرحمة خارج المسألة، ليس على أسس قضائية - فالعفو ليس بأي حال امتيازاً للنظام القضائي - بل لأن الرحمة قابلة للتطبيق على الشخص بدلاً من الفعل؛ إن صك الرحمة لا يغفر القتل بل يعفو عن القاتل بقدر ما يكون هو، كشخص، أكثر من أي شيء فعله. وهذا لم يكن ينطبق على آيخمان. وكان من المستحيل إنقاذ حياته على أسس قضائية دون العفو عنه.⁽³⁾

وهكذا فإن الرحمة والعدالة ليستا مجرد صفتين مميزتين للمحكمة، بل أيضاً للذات/ الشخص الذي يكون تحت المقاضاة. ففي مقابل فعلة آيخمان، يوجد المنطق المجرد الأعمى للقانون والبرانية - لأنه ليس «شخصية». رغم أن أرندت لا تنظر إلى العدالة بشكل سلبي أحادي الجانب، فإن ذلك يبدو أفضل طريقة للخروج من

(1) آيخمان في القدس، 296.

(2) حنة أرندت، «اليهودي منبوذاً: تراث غنفي»، في اليهودي منبوذاً، 72.

(3) حنة أرندت، اليهودي منبوذاً، 250.

التصادم بين الفرد المتمركز حول الأنا والقانون الأعمى. ولأن العدالة مناقضة للرحمة، فمن الواضح أنها ليست الطريقة الفضلى للتعرف بشكل حقيقي على الجرم والحكم عليه. لكنها تصلح لأجل اللاعمل.

إن مقابلة أرندت بين الحكم المجرد، المتمسك بالقانون/ [القانونوي] والتعرف السردى على الشخصية الإنسانية هي الحجة التقليدية للاهوت المسيحي الذي يشدد على اختلافه عن اليهودية «الفريسية» (pharisaic). كما رأينا أعلاه، فإن هيغل في مقاله، «روح المسيحية وقدرها»، يباهي المسيحية مع القدرة على التكوين السردى للشخصية، في مقابل التوصيفات المجردة، القانونية الخالصة التي تميز اليهودية. علاوة على ذلك، يقترح هيغل «القدر» كوسيلة لاختزال القانون إلى مجرد افتقار.

إن لقضية القتل الجماعي لليهود ذاتها كحدث فريد ارتدادات لاهوتية واضحة. إذ يرفض قضاة القدس أن يروا ما تُدعى «المحرقة» كسابقة جديدة وكقطع تاريخي للتراث (تلح أرندت بشكل متكرر على هذا المنظور الثاني). هذا هو بالضبط ما يفصل اليهود والمسيحيين تراثياً: فالمسيحيون يتهمون اليهود دائماً بتعاميهم عن الحدث. على كل، في حالتنا، تتوصل أرندت إلى استنتاج أن الحدث لم يحدث أبداً في الواقع أو كان في الحقيقة حدثاً زائفاً. لهذا، على نحو يثير الفضول، تؤكد أرندت، مثل ماركس، على فشل المنطق المسيحي في بلوغ الانتصار. تؤدي خصيصة العرض الظاهري إلى انتصار المنطق القانوني الأقدم لليهودية. إن حجة الارتداد التاريخي جلية في التصورين.

إن انتقاد أرندت للمحكمة بسبب عجزها عن تجاوز أفق الشعب اليهودي الواحد، وبسبب بيان استثنائيتها، ينتمي تراثياً أيضاً إلى ترسانة الانتقاد المسيحي لليهودية. ففي محاضرات أرندت من عام 1965 إلى عام 1966 حول «بعض مسائل الفلسفة الأخلاقية»⁽¹⁾، تعلن أن الاختلاف الوحيد بين الوصايا المسيحية

(1) «بعض مسائل الفلسفة الأخلاقية»، في كتاب حنة أرندت، المسؤولية والحكم (نيويورك: شوكن بوكس، 2003)، 49-146.

والوصايا اليهودية يكمن في حقيقة أن في المسيحية يصبح الآخر، وليس أنا، محكاً للفعل. «هذه الغيرية المثيرة للفضول، السعي المتعمد إلى الانقراض الذاتي كرمى لله أو كرمى لجاري، هو جوهر كل الأخلاق المسيحية التي تستحق هذا الاسم»⁽¹⁾. اليوم، يبدو اعتذار المسيحية هذا غريباً، لأن اعتذار الآخر أصبح في الآونة الأخيرة الهدف الأخير للمذهب اليهودي الجديد لمفكرين أمثال كوهن، روزنتسفايغ، بوبر، ليفيناس، دريدا، وليوتار. حتى إن ريتشارد برنشتاين يستخدم إلحاح أرندت على وجهة نظر الآخر كبرهان على تعاطفها اللاواعي لصالح اليهودية.⁽²⁾ لكن، كما رأينا، تنسب أرندت هذه المقاربة بشكل صريح إلى المسيحية، مواصلة ذلك على خطى فويرباخ بدلاً من روزنتسفايغ وبوبر⁽³⁾.

إذا نظرنا إلى برنامج أرندت «الإيجابي»، كما طورته، على سبيل المثال، في كتاب الشرط الإنساني، نرى أنه يقوم على الانفتاح على ماهو جديد، القدرة على البدء من جديد. كما في حالة مسيحانية البروليتاريا لدى ماركس، تبدو هذه الحجة ملتبسة: فمن ناحية أولى، إن موقف الأمل «اليهودي» هذا، ومن الناحية الأخرى، إنه الموضوع الأوغسطيني، المسيحي الواعي، على «الولادية» والبدايات الحينية. إن أرندت، مثل ماركس، تضع نفسها على الجانب «النبؤي» بين المسيحية واليهودية.

(1) المرجع السابق، 116.

(2) ريتشارد برنشتاين، حنة أرندت والمسألة اليهودية، 188-9.

(3) كان روزنتسفايغ وبوبر يعرفان فلسفة فويرباخ. يقر روزنتسفايغ بدوره في مقالة «التفكير الجديد» (سيراكبوز، نيويورك: مطبعة جامعة سيراكبوز، 1999)، 87. أما بوبر فيشير إلى «الأهمية الاستثنائية لفويرباخ»، على سبيل المثال، في «مشكلة الإنسان» في كتاب مارتين بوبر، الأعمال (Werke)، المجلد III، ميونيخ/ هايدلبرغ، 1926، 339-42. حول التلقي اليهودي لفويرباخ (الذي بدأ في وقت مبكر يعود إلى منتصف القرن التاسع عشر)، انظر: دومينيك بول، «المحاضرات اليهودية للودفيغ فويرباخ» في كتاب فويرباخ واليهودية (Feuerbach und der Judentum)، تحرير أيرسولا رايتماير وناكاويوكي شيبينا وفرانسيسكو توماسوني، المجلد 4 (فاكسمان فريلاغ، 2009)، 125-34. مع ذلك، من المثير للسخرية إلى درجة عالية أن فويرباخ، مع انتقاده لليهودية، كان السلف لتراث القرن العشرين اليهودي الجديد.

خاتمة

إننا نرى أن أرندت، مثل ماركس، تستعمل الجهاز الكامل للانتقاد المسيحي لليهودية، أو النقد الذاتي للدين بكل بساطة (tout court)، وتتوصل إلى استنتاج أنه وراء الانتصار الظاهر للدين ووراء تجسده المفترض في الدولة الليبرالية، يكمن ارتداد الدين عن منطق الكونية والتوسط إلى منطق القطيعة والاغتراب. تحت قناع المسيحية المنجزة (قناع التمثيل، الاعتراف، والإنسانية)، تختبئ «اليهودية» بوصفها ديانة اغتراب. لكن المشكلة في الحقيقة هي الدين ذاته، أو بالأحرى، ماهية الدين بالمعنى السيء للكلمة، بوصفه روح العبودية والاغتراب.

إن اللاهوت السياسي النقدي لأرندت مشابه للاهوت ماركس، وهو مثل لاهوت ماركس، يستمر على خطى التراث ما بعد الكانطي الألماني. إن الاختلاف بين الاثنين يكمن، أولاً، في سياستهما (المسيحانية الراديكالية لدى ماركس، الانفتاح الليبرالي لدى أرندت) وفي تعريفهما للخصوصية. بالنسبة إلى ماركس، الخصوصي هو فرد أناوي. بالنسبة إلى أرندت، إنه منبوذ، النتيجة للاستثناء الختمي والإعفاء من القانون الذي ينتجه القانون نفسه. الاستثنائية تسبق الفردية والخصوصية؛ الشر ليس مجرد استغلال الفقراء، بل المعاملة الرعوية لعديمي الدولة الذين يُحفظون إلى مرتبة الحيوانات. تتبع أرندت خطى اللاهوت السياسي للقرن العشرين، أي لاهوت شميت وبنيامين اللذين رأيا العنصر اللاهوتي للحدث، في أسوئه وفي أحسنه [بعجره ويجره]، في «دولة الاستثناء».

يبقى هذا اللاهوت السياسي النقدي وثيق الصلة بالموضوع إلى درجة كبيرة اليوم. في العقود المنصرمة، أعادت الروح القانونية المجردة تأكيد ذاتها مرة أخرى على المستوى العالمي (في «العولمة» المتصورة كتوسع عالمي وتوحيد لحكم القانون و«ممارسة حكم» عقلانية شكلياً). إنها روح تفسر الحقوق الإنسانية بوصفها حقوق ضحية منفعلة، تشجب وتعاقب أي عنف تمزيقي مفرط بوصفه «شراً» شيطانياً، وتحت ذريعة رعاية الفضاء القانوني الموحد، تكاثر مناطق الاستثناء حيث يترك

البشر وحدهم مع «وجودهم العاري». تكشف الطبيعة الدينية لهذه الروح عن نفسها بشكل متزايد وفي أعقاب البنية الدينية يوجد الإيمان الديني. إن نظام ذاتية عصر التنوير، الذي نزع الشرعية عن نفسه نهائياً عن طريق طمس أسسه الثورية، يستدعي الدين كأنتولوجيا خارجية للمعنى. تعود الكونية المسيحية، لكنها تعود بالشكل اليهودي، كما كان من الممكن أن يعبر ماركس عن ذلك. تعارض أرندت هذه الفريسية الجديدة، ليس بمسيح مخلص جديد، بل بالاستعداد لفعل راديكالي جديد، والاعتراف به. إن كلا من أرندت وماركس يريان البديل للدين في توليفة من الحسم والانفتاح. إن انتقادهما المسيحي لليهودية ولارتداد المسيحية إلى اليهودية يبدو جذاباً. لكنه خطير أيضاً طالما أنه يبقى تقرره البنية اللاهوتية للتفكير، ويقتضي ضمناً لحظة لاعقلانية مصعدة، ممجدة (انتفاضة بروليتارية حاسمة أو عمل بطولي). في الحقيقة، إن البطولة، كما أعتقد، يتعين أن تنتقد على قدم المساواة مع التفاهة الجبانة). ثمة فرصة لأن تكونا سلسلتين من الأحجية نفسها، فما يمكن أن يعارض الدين بشكل فعلي ويتغلب عليه سيكون هو البنى العملية الاجتماعية الاقتصادية الملموسة التي ستمكن الفعل الحر. بمعنى ما، لا يمكن سوى لبعض مسارات أو آلات الحرية الخلاقة أن تكون البدائل للتدخل الإلهي.

- 6 -

ملاحظات حول عدم الاستقرار النبوي للصهيونية

مارك هـ. إليس

تمهيد

عندما يصل الأمر إلى القضايا المتعلقة باليهود والهوية اليهودية، ندخل حقل الغام تاريخياً وأيقونياً. في القوس الطويل للتاريخ اليهودي، كانت بناءات - وتفكيكات - هوية «اليهودي» متنوعة ومستمرة. مع ذلك، بعد كل بناء / تفكيك نُترك مع شيء يعيش إلى ما بعد لحظة تاريخية معينة⁽¹⁾.

ثمة واقع ثابت للصفة «يهودي» يكذب تبدلاتها الكثيرة. وكذلك الأمر مع الصهيونية. فالفهوم المختلفة لـ «صهيون» هي قديمة ومعاصرة. عندما نفكك الصهيونية ونكشف تنوعاتها الكثيرة، نُترك مع شيء آخر يعيش إلى ما بعد لحظة تاريخية معينة⁽²⁾.

(1) لأخذ صورة عن صياغات الهوية المختلفة في التاريخ اليهودي، انظر إفرام شمويلي، سبع ثقافات يهودية: إعادة تفسير التاريخ والفكر اليهوديين (كيمبردج: مطبعة جامعة كيمبردج، 1990). انظر أيضاً ديفيد بيال (تحرير)، ثقافات اليهود: تاريخ جديد (نيويورك: شوكن بوكس، 1990).

(2) للاطلاع على أحدث محارلة لمناقشة اليهودية والصهيونية، انظر جوديث بتلر، افتراق الطرق: اليهودية ونقد الصهيونية (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، 1912).

يُفندُ هذا الـ «شيء ما» عندما يفصح عنه اليهود. فإذا أضفنا إلى هذا الامتداد التاريخي الطبيعة الأيقونية لكيف يُرى اليهود واليهودية والصهيونية في العالم اللإهودي، يصبح الموضوع أكثر تعقيداً. كما نعرف من التاريخ، فإن فصل الواقع والأسطورة المتعلقين باليهود صعب إن لم يكن مستحيلاً. رغم أن تفكيك الهويات المجتمعية موضع نزاع دائم في كل مكان، تمتلك الهوية اليهودية تكافؤاً خاصاً وخصوصياً. فعلى امتداد التاريخ، كانت الهوية اليهودية عرضة للتجاوزات ونادراً ما كانت النتائج حميدة.

بإضافة القلق من أجل اليهود وحولهم في العالم غير اليهودي، تُلقى على عاتقنا قضية إضافية: من يمتلك الحق في تفكيك [صفة] «اليهودي»؟ رغم كل شيء، تبعاً لوجهة نظر المرء، فإن كلاً من محبة السامية والعداء للسامية يمكن النظر إليهما بوصفهما تفكيكاً لتعريفات محددة لصفة «يهودي». إن اليهود يتحكمون بشكل جزئي فقط بصورتهم الخاصة بهم و، بالطبع، تعرّف أجزاء مختلفة من الطائفة اليهودية صفة «اليهودي» بشكل مختلف. في بعض الأوقات، يبدو اليهود لآعين صغاراً فقط في تاريخهم الخاص. وفي أوقات أخرى، يدخل اليهود في حرب أهلية داخلية حول ما تعنيه صفة يهودي.

يقدم جان فرانسوا ليوتار، وهو فيلسوف فرنسي، تمييزاً يزيد من تعقيد المسائل بالتفريق بين «اليهودي» و«يهودي». بالنسبة إلى ليوتار، يرمز «اليهودي» (Jew) إلى اليهود الحقيقيين من لحم ودم، أما «يهودي» (Jew) فيرمز إلى المفهوم المرتبط باليهود في التاريخ. يفهم ليوتار اليهود [التاريخيين] من منظور إيجابي رغم أنهم كانوا يُنظر إليهم من منظور سلبي أيضاً. بالنسبة إلى ليوتار، اليهود [التاريخيون] هم معكرو سلام. فهم يخرقون ما هو مقبول في المجتمع الأوسع. علاوة على ذلك، فإن اليهود [التاريخيين] مهمون لأنهم يرفضون الاستيعاب بأي شكل من أشكال اللحظة. أما

اليهود [الواقعيون] فيتصرفون غالباً كما يُنظر إليهم. بالنسبة إلى ليوتار، ثمة صلة بين اليهودي الواقعي واليهودي التصوري⁽¹⁾.

بما أن المجتمع يُعرّف اليهودي [التاريخي] بوصفه شيئاً غير اليهود [الواقعيين]، تكون الصلة مؤقتة أيضاً. إذ يمكن أن يوجد انفصال بين الاثنين، ونحن نعرف من التاريخ أن اليهود [التاريخيين] يمكن أن يوجدوا في الميختين الفردية والمجتمعية دون أن يكون اليهود [الواقعيون] حاضرين. كذلك فإن اليهودي [التاريخي] التصوري لا يمكن ربطه إلا بشكل هامشي باليهود الذين يعيشون فعلاً في مجتمع بعينه. من هنا، غالباً بقدر عدمه، يُعرّف اليهود [الواقعيون] عن طريق اليهود التصوريين للمخيلة الأسطورية.

إذا طبقنا تحليل ليوتار على المشهد المعاصر، نحصل الآن على «إسرائيل» أي إسرائيل الحقيقية في تشكيلاتها المعقدة والصعبة والمثيرة للاهتمام - وعلى «إسرائيل» إسرائيل التصورية التي يؤمن بها بشكل لا نهائي بوصفها النموذج الأصلي للخير من قبل البعض ورمزا للشر من قبل البعض الآخر. وهذا ينطبق على الهولوكوست أيضاً بطرق عديدة، «الهولوكوست» الحقيقي للمعاناة التي لا يمكن تخيلها حجبها الهولوكوست التصوري. هنا، يكون الهولوكوست إما خارج التحليل أو مؤامرة مدبرة من اليهود التصوريين / التاريخيين⁽²⁾.

عندما نحاول مناقشة الصهيونية، نواجه تعقيداً ماثلاً. بسبب القوة السياسية والدينية والجيو سياسية لإسرائيل، يكون من شبه المستحيل أن نفصل [الحركة] «الصهيونية» عن [الترعة] «الصهيونية». إذ نواجه فوراً مشاكل أخرى. كما هو الحال مع اليهودي [الواقعي] / اليهودي [التصوري]، إسرائيل [الواقعية] /

(1) جان فرانسوا ليوتار، هايدغر و«اليهود» (مينيابوليس: مطبعة جامعة مينيسوتا، 1990)، ص: 48 - 1. استخدام ليوتار للمصطلحات متعددة الطبقات. لهذا فإنني أبنى اتجاهاً محدداً لاستعماله للمصطلحات في هذا الفصل.

(2) للاطلاع على محاولة أسيرة لاستعادة ما حدث أثناء الهولوكوست، انظر تيموثي سنيدر، أراضى الدم: أوروبا بين هتلر وستالين (نيويورك: بيسك بوكس، 2010).

إسرائيل [التصورية]، الهولوكوست [الواقعي] / الهولوكوست [التصوري]، فإن للصهيونية [الواقعية] / الصهيونية [التصورية] تشكيلة من المنظورات التاريخية والمعاصرة. كلتاها تمتلكان تواريخ حقيقية ذات تبعات. كلتاها تمتلكان تواريخ تفسير أسطورية.

هكذا، على سبيل المثال، للصهيونية التاريخية فروع دينية وعلمانية مختلفة. فالصهيونية تزدد تمايزاً عن طريق صهيونية الدولة والوطن السائدة. ولكل واحدة، بدورها، فروع مختلفة ومتنوعة. إذا فصلنا الصهيونية إلى عصور تاريخية (على سبيل المثال، ما قبل صهيونية الدولة وما بعدها) ثم حددنا خطأ زمنياً، لنقل، الصهيونية بعد حرب 1967 العربية - الإسرائيلية وبعدها، تبرز قضايا أخرى. ما يعقد مشهد الصهيونية أكثر حتى هو مناهضة الصهيونية، التي هي ذاتها رد فعل على الصهيونية [ات] المختلفة. وكلها تظهر بمظاهر مختلفة تبعاً للحقبة التاريخية التي نتعامل معها⁽¹⁾.

إذا كان التاريخ هو إعادة بناء من الحاضر، عندئذ يؤثر الحاضر تأثيراً شديداً على إعادة البناء أيضاً. قبل أن تصبح [الحركة] الصهيونية نزعة صهيونية أيضاً في شكلها الأسطوري، حول ماذا كانت في الواقع؟ بما أن الحركة الصهيونية والنزعة الصهيونية الآن متداخلتان بعمق في الإدراك العام، فمن الممكن فك ارتباط الاثنين، ولو فقط من أجل الدقة التاريخية. أم هل نحن، بفك ارتباط الاثنين، نخدم بشكل غير متعمد المصالح السياسية التي تسعى إلى الدفاع عن سلطة إسرائيل أو مد مطاها فوق الشعب الفلسطيني وضده؟⁽²⁾

إن تفكيك الصهيونية فعل فلسفي لكنه فعل سياسي أيضاً - ذو تبعات مهمة. فتبعات صهيونية الدولة ظاهرة على الأرض في إسرائيل / فلسطين في الحيوات

(1) للاطلاع مجموعة متنوعة من الكتابات الصهيونية، انظر آرثر هرتزبرغ، الفكرة الصهيونية: تحليل تاريخي وقراءة (فيلادلفيا، بنسلفانيا: جمعية أميركا للنشر اليهودي، 1997).

(2) للاطلاع على مثال حديث على تفكيك الصهيونية بغرض سياسي في الذهن، انظر شلومو ساند، اختراع أرض إسرائيل: من الأرض المقدسة إلى الوطن (نيويورك: فرسو، 2012).

الواقعية لليهود والفلسطينيين. والنزاع المحيط بالصهيونية في الخطاب السياسي والأكاديمي بين اليهود والفلسطينيين خارج الشرق الأوسط هو أيضاً مؤثر في الشروط الواقعية. لذلك فإن تفكيك مثل هذا التاريخ، خصوصاً عندما يؤثر على سرديّة شعوب مطرودة تاريخياً مع المزيد من عمليات طرد أخرى تلوح في الأفق، ينبغي أن يجعلنا نتردد.

الآن أضف إلى المزيج مدينة القدس المشحونة إلى درجة عالية، المنتصف المكسور لإسرائيل/ فلسطين. تمتلك القدس حيوات متعددة في ديانات العالم التوحيدية وخارجها. كما نعرف من التاريخ والحاضر، فإن «القدس» هي «القدس» [التاريخية] أيضاً. إن الحملة التاريخية والمعنى الزائد للقدس غالباً ما يحجب الحياة العادية لأولئك الذين يعيشون فعلاً في المدينة. في عالمنا ما بعد الحديث، من المفاجئ أن القدس/ القدس [التاريخية] قد طفت على السطح مرة أخرى كنقطة وميض عالمية لأجل العنف والأمل. إنها شهادة أيضاً على أن اليهود الواقعيين/ اليهود الأسطوريين يتواجهان على الدوام على المسرح العالمي.

رغم هذا التنوع والغموض، يجب أن يحدث تفكيك للصهيونية. العدالة تتطلب ذلك. فمستقبل اليهود والفلسطينيين في الأرض هو على المحك. مع ذلك، مع كل توضيحاتنا، ثمة سؤال آخر يستدعي اهتمامنا. هل نحن مهتمون بالدرجة الأولى بالتبعات التاريخية أم بالتبعات الراهنة للصهيونية؟

هل يمكن فصل التاريخ والحاضر، ولو من أجل مناقشة فلسفية؟ أم أنهما متداخلان بالضرورة؟ رغم أن هذا يمكن النظر إليه كشق الشعرة، فإن رؤية النزاع الإسرائيلي/ الفلسطيني والحل العادل له تعتمد اعتماداً كبيراً على أين يبدأ المرء بالنسبة إلى الصهيونية. بما أن تفكيك الصهيونية ليس مشروعاً أكاديمياً أو فلسفياً ببساطة، فينبغي أن نفترض أن الطريقة التي تفكك بها الصهيونية سوف تتأثر، إن لم تتحدد، بالنتيجة النهائية للنزاع الإسرائيلي/ الفلسطيني التي يتصورها المفكك.

من الزاوية السياسية، من المهم أن نعرف إذا كان قيام المرء بالتفكيك يسعى إلى حل الدولتين أم حل الدولة الواحدة للنزاع الإسرائيلي-الفلسطيني. من المنظور اليهودي، من المهم أن نفهم ما إذا كان التفكيك يسعى إلى التضامن مع اليهود أم يحط من قدر اليهود. في إطار تفكيك الصهيونية، يعني التضامن هنا اعتناقاً نقدياً للتاريخ اليهودي واليهود المعاصرين مع الأمل بأن إنهاء عنف الدولة اليهودية سوف يعيد اليهود إلى طريق أخلاقي.

إن وجهة نظر المراقب حاسمة. بالنسبة إلى اليهود، يُنظر إلى تفكيك الصهيونية في ضوء التاريخ اليهودي، والنسب اليهودي والمستقبل اليهودي. بالنسبة إلى الفلسطينيين، ينظر إلى تفكيك الصهيونية في ضوء التاريخ الفلسطيني، والنسب الفلسطيني والمستقبل الفلسطيني. عندما ينفذ مثل هذا التفكيك، من قبل مراقب كطرف ثالث، تدور القضية حول المكان الذي يراقب المراقب منه، ما هو النسب الذي يحملونه، وأي مستقبل لليهود والفلسطينيين ينشدون.

إذا عكسنا الاقتراح وحاولنا أن نركب الصهيونية، ولو لمجرد الحصول على تعريف للتفكيك، فإننا نواجه عوائق أيضاً. إذا حصرنا تعريفاً للصهيونية بالحاضر، فما الذي يتضمنه؟ لكن نظرين أكثر، ينبغي على تعريف الصهيونية اليوم أن يتضمن إسرائيل كدولة يهودية، والدعم اليهودي في الشتات من أجل دولة يهودية، وأولوية الدولة اليهودية على التاريخ الفلسطيني المتأصلة في دولة إسرائيل اليوم. تتضمن الصهيونية المعاصرة القوة قدساً موحدة مع سيطرة على القطاعين اليهودي والفلسطيني من المدينة، إضافة إلى المستوطنات اليهودية الكبرى في الضفة الغربية. في حين أن التعريف المعاصر للصهيونية لا يحول دون إمكانية دولة فلسطينية، فإنه يقيد بالضرورة حدودها واستقلالها الممكن.

ما هو المبرر لدولة إسرائيل في تعريف معاصر للصهيونية؟ إنه يتضمن ثيمنتين، علمانية ودينية، إضافة إلى فهمين، تاريخي وجيوسياسي. رغم أن الصهيونية كانت في الأصل، على الأقل في شكلها المعاصر، علمانية في معظمها، فقد كان اليهود

الدينيون يمتلكون رهانا أكثر قوة بكثير في تعريف الصهيونية المعاصرة. إن إطاراً دينياً غير معلن قد أصبح جزءاً من الوعي العلماني الإسرائيلي على مدى الأعوام الماضية. وهذا ينطبق على وعي الهولوكوست أيضاً. إن الهولوكوست، المرفوض أصلاً من قبل الصهيونية بوصفه تظهراً للضعف الشتات، قد أصبح أكثر صميمية للثقافة الإسرائيلية.

هاكم محاولة لتصوير إيجابي - يهودي - للصهيونية اليوم:

الصهيونية هي عودة الشعب اليهودي إلى أرض إسرائيل، المجسدة الآن في دولة، تسعى إلى صون وتوسيع أراضيها بحيث يمكن لليهود الذين يعيشون في إسرائيل واليهود حول العالم أن يعيشوا في وطنهم الطبيعي الذي وعد به الله وكان ضرورياً في التاريخ بعد الهولوكوست.

وهاكم محاولة لتصوير سلبي - فلسطيني - للصهيونية اليوم:

الصهيونية هي الاستيلاء الاستعماري على أرض فلسطين، المسجد الآن في دولة يهودية، تسعى إلى إزاحة الحياة والثقافة الفلسطينية في وطننا.

رغم أن ثمة طرقاً لتوسيع وتنقية هذين التعريفين للصهيونية، فإن هذين التعريفين ينبغي أن يكونا كافيين لأجل تحقيق ما هو مرآهن عليه في تفكيك الصهيونية.⁽¹⁾

(1) وجهات النظر الفلسطينية حول الصهيونية حاسمة لكي يواجه اليهود مسألة الصهيونية ضمن التاريخ اليهودي. من أجل بعض المنظورات الفلسطينية، انظر نور مصالحة، نكبة فلسطين: إزالة استعمار التاريخ، سرد التابع، استعادة الذاكرة (لندن، زد بوكس، 2012).

الصهيونية، ولاهوت الهولوكوست والخصوصية اليهودية

هل تفكيك الصهيونية هو تفكيك للخصوصية اليهودية؟ العكس صحيح أيضاً - كطريقة تعيد بناء الخصوصية اليهودية. فقد لاحظنا أنه لا يمكن النظر إلى [صفة] اليهودي من خلال إطار واحد. إن تفكيك/ إعادة بناء الصهيونية واليهودية هما متداخلان بشكل وثيق في العصر الحديث.

إن ارتباط اليهودية والصهيونية هو ثيمة كبرى في الأدب الصهيوني في القرنين التاسع عشر والعشرين، والآن في القرن الحادي والعشرين. ففي كل مكان من الأدب الصهيوني، تكون الصهيونية وبقاء [صفة] اليهودية و[الديانة] اليهودية واليهود متحدين. حتى صهيونيو الوطن الذين تمردوا ضد صهيونية الدولة كانوا منخرطين بعمق في مسألة البقاء والازدهار اليهودية في مشهد أوروبي متغير⁽¹⁾.

إذا كان القلق الصهيوني من أجل مستقبل الحياة اليهودية ملحوظاً قبل الهولوكوست، فقد ازداد بعد الهولوكوست. إذ يمكننا النظر إلى الصهيونية قبل الهولوكوست وبعده كترغبة في مواصلة التاريخ اليهودي حتى عندما كانت الهموم السياسية والعسكرية والحديثة تمس إمكانية الاندماج اليهودي ومصادقته في أوروبا الحديثة وخارجها. يتقاسم الصهاينة الأوائل والعالم اليهودي بعد الهولوكوست القلق حول ما سيؤول إليه اليهود واليهودي.

في القرن العشرين، تضافرت الضغوط السياسية/ الثقافية الخارجية مع البحث اليهودي الداخلي. هل يوجد مستقبل للحياة اليهودية؟ هل يوجد مستقبل يهودي، أين سيحدث ذلك جغرافياً؟ بعد الهولوكوست ومع تأسيس دولة إسرائيل، تغيرت الخارطة الديموغرافية لليهود العالم بشكل دراماتيكي. لهذا ضاقت بشكل ملحوظ الجغرافيا لتنشئة مستقبل يهودي وتعزيزه.

(1) حول صهيونية الوطن انظر كتابات بول مندلز - فلور (تحرير)، أرض شعبي: مارتن بوهر عن اليهود والعرب (شيكاغو، إلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو، 2005). انظر أيضاً جيروم كرون ورون هـ. فلدمان (تحرير)، الكتابات اليهودية: حنة أرندت (نيويورك: شوكن بوكس، 2007).

إن كون موضوع الجغرافيا يلعب مثل هذا الدور في المخيلة اليهودية يبدو محتوماً. إذ تنشأ الحياة الجماعية في المكان الذي تعيش فيه الجماعة. إن مستقبل الجماعة هو حيث تعيش. بالنسبة لليهود، بالطبع، نادراً ما كانت الجغرافيا آمنة كمكان لنشوء المستقبل. في القرن العشرين، كان انعدام الأمن هذا مضخماً. كانت أسئلة الصهاينة الأوائل حول المستقبل الجسدي لليهود في أوروبا قد أكملها خوفهم من أن إضعاف الموارد الثقافية واللغوية لأجل الهوية اليهودية سيكون أمر اليوم. لقد تحقق الخوفان في الهولوكوست. في الحقيقة، لقد تجاوز واقع الطرد والموت اليهوديين المخيلة الصهيونية المبكرة.

إن الخوف من أن اليهود و[صفة] اليهودية قد يختفيان هو ثيمة مستمرة في التاريخ اليهودي. لذلك قد كان مقدمة كبرى في تركيب وتفكيك الهوية اليهودية على مر الزمن. إن الكتاب المقدس العبري منخرط بعمق قبلاً في هذا التركيب/ التفكيك. الرهان في السردية الكتابية [التوراتية] هو ما إذا كان [أفراد] شعب إسرائيل سيندمجون وينجون أو ما إذا كانت القوى الداخلية والخارجية ستحقق اندثار إسرائيل قبل أن تنطلق إلى العالم.

يدور الإطار الكتابي [التوراتي] حول تصور «إسرائيل» وما الذي تعنيه إسرائيل لذاتها وللعالم. يرتبط بذاك المعنى إله هو، رغم كونه إله الكون، أولاً وقبل كل شيء إله إسرائيل. في السردية الكتابية يصبح الإله معروفاً للعالم من خلال شعب إسرائيل. يثبت الإله للعالم أنه يوجد وأنه قوة يجب أن يحسب حسابها من خلال تحرر وازدهار إسرائيل ذاتها. منذ البداية، يرتبط الإله وشعب إسرائيل معاً⁽¹⁾.

تكون العلاقة الميثاقية بين الإله وإسرائيل مشحونة إلى درجة عالية. لأن لها مصيراً مشتركاً، يتطلب مستقبلها رفقة وتضامناً. إن قوة الميثاق تتحدى الطرفين.

(1) أنقضى بعض هذه القضايا في كتابي الأخير نبوءة المستقبل: إعادة تقديم الحكمة القديمة لإسرائيل، قيد الإصدار عن فورترس برس، (2014).

ففي حين تكون إمكانيتهما كبيرة، يوجد جانب وهمي أيضاً. السردية الكتابية واعدة ومشؤومة. في أية لحظة، قد تُفنى إسرائيل. عندئذ، أين سيكون الإله؟

إن الجانب الواعد من علاقتهما هو تعهد الإله بالأرض لإسرائيل. أما الجانب المشؤوم فهو إرسال الإله الأنبياء ليحكموا على سلوك إسرائيل. المفتاح هنا هو عدم الاستقرار الأساسي الذي يميز علاقة الإله وإسرائيل. يشكل عدم استقرار الأصول المسرودة عن الذات مركز الشريعة اليهودية المتناقلة عبر الأجيال. إنه يظل العين التي يشكل اليهود من خلالها هويتهم بعد الهولوكوست/ هوية إسرائيل اليوم.

يرتبط عدم استقرار العلاقة الميثاقية بين إسرائيل والإله بالمطالب الأساسية لكليهما. إذ يريد الإله شعباً يدعوهاً خاصاً به ويطيع وصاياه. يريد الإله أيضاً من إسرائيل أن تستبطن هذه الوصايا. فمن خلال هذه الأوامر يتكشف مصير إسرائيل - ومصير الإله.

كما يمكن أن نتوقع، فإن وصايا الإله واستبطان إسرائيل لها هما خاضعان للتفسير والنقاش. ففي حين يعتقد الإله أن وصاياه بينة بذاتها فإن إسرائيل بعيدة عن اليقين. تكون إسرائيل ممانعة وفي بعض الأحيان غير راغبة في سلوك خط يبدو غير طبيعي ومهدد للحياة. في لحظات مختلفة في السردية التوراتية، ينفك الرباط بين الإله وإسرائيل. في أكثر من مناسبة، يعلن الإله وإسرائيل أنها مخرقان الميثاق معاً. الإله وإسرائيل سينهانه وحدهما.

في السردية التوراتية، لا تحدث القطيعة النهائية. فعلى خلفية حكمهما الأفضل، يبدو أن الإله وإسرائيل لا يستطيع أحدهما أن يخوض الحياة دون الآخر. إن التبعية غير المعلنة، حتى التبعية المشتركة، تجبر الطرفين على أن يقيما معاً. رغم أن علاقة الإله وإسرائيل غير مستقرة، ثمة شيء ما أكثر أهمية تجب ملاحظته. بالتأكيد، إن الإله وإسرائيل غير مستقرين معاً. إنها أيضاً غير مستقرين وحدهما.

ربما يكون عدم الاستقرار الفردي هذا هو الذي يمتن رابطةهما. إذا كان عدم الاستقرار الفردي يتمم علاقتهما غير المستقرة؛ فإن عدم استقرارهما يوفر أيضاً

استقراراً غير متناظر. في الكتاب المقدس العبري، إن عدم الاستقرار هو الأساس لاستقرار خصوصي. هذا الاستقرار داخل عدم الاستقرار هو مفتاح آخر إلى الهوية اليهودية رجوعاً عبر العصور.

ما هو الأساس لعدم الاستقرار هذا؟ بما أن عدم الاستقرار هذا يستمر عبر العصور فإن هذا سؤال مهم. إنه أيضاً العامل الذي يجعل الصهيونية بأشكالها المختلفة متقلقة أيضاً. الأساس لعدم الاستقرار هو [العامل] النبوي، الذي ينشأ ويُشحذ في التكوين السردى لإسرائيل. إن الدافع النبوي هو الذي يدفع إسرائيل خارج مصر الجائرة وفي نهاية المطاف خارج الأرض الموعودة. مما ينطوي على مفارقة أن الدافع نفسه أيضاً يشكل الجانب الآخر للديناميك [الحراك] اليهودي عبر العصور، الرغبة في الإفلات من النقد النبوي من خلال الإمبراطورية.

إن عدم استقرار إسرائيل بسبب العنصر النبوي هو أسطوري. كذلك رغبة إسرائيل في أن تصبح مستقرة من خلال الإمبراطورية. لهذا السبب كان اليهود على مر التاريخ موجودين على جانبي الخط الفاصل للإمبراطورية. وهذا بالشكل نفسه هو السبب في أن الهوية اليهودية نادراً ما تظل مكتفية بتجسدها الراهن. إننا نرى ذلك تاريخياً في تشكيلة من العصور، ونراه اليوم في الدعاية للصهيونية والانشقاق عنها. بعد الهولوكوست، أعادت الصهيونية إدخال ديناميك هذا الخط الفاصل المركزي للإمبراطورية في الحياة اليهودية بحماسة لا يمكن إلا لتاريخ يسرد مصيراً فريداً أن ينتجها⁽¹⁾.

إن تاريخ وعي الهولوكوست، الظافر للغاية في الحياة اليهودية المعاصرة، منظوراً إليه من هذه الزاوية، هو مهم لمناقشة الصهيونية. إذ يتم تكوين وعي الهولوكوست، الذي يتطور إلى لاهوت، مثل أطر الهوية التفسيرية الأخرى. في البداية تبدو عناصر لاهوت الهولوكوست واضحة. المرتبة الأولى من لاهوت الهولوكوست هي الكلام حول الرعب الذي لا يمكن الكلام عنه الذي تعرض له يهود أوروبا في أثناء العهد

(1) للاطلاع على فهمي لكون اليهود على جانبي الخط الفاصل للإمبراطورية، انظر نبوءة المستقبل.

النازي. المرتبة الثانية من لاهوت الهولوكوست هي الرد على إفناء يهود أوروبا. وكلتاها واضحتان في سرديّة الهولوكوست⁽¹⁾.

الرد الأول هو التطرق إلى الهولوكوست في الكلام والأدب وإحياء الذكرى. الرد الثاني بالنسبة إلى اليهود هو السعي إلى التمكين، بالشكل الأوضح في دولة إسرائيل. تشمل الأجزاء الأخرى من لاهوت الهولوكوست غياب الإله وقطع الرابطة الميثاقية لإسرائيل والإله.

بما أن الإله كان غائباً في الهولوكوست، فإن الشعب اليهودي يتولى مهمة التمكين. إن سؤال أين كان الإله في أوشفيتز يستكمّله الأمر الذي يصدر عن أوشفيتز: لن يكون اليهود ضعفاء مرة أخرى أو يعتمدون على الآخرين من أجل سلامتهم. إن دولة إسرائيل هي الرد على السؤالين. بغياب الإله، يكون اليهود مسؤولين عن قدرهم الخاص. هذا القدر مجسد بشكل ملموس في دولة إسرائيل.

إن العنصر غير المعلّن فيما بين لاهوتي الهولوكوست الأكثر شعبية والأكثر تكريساً، هو الحاجة اليهودية إلى إمبراطورية بعد الهولوكوست. ويفترض ذلك كنتيجة طبيعية حاجة الطائفة اليهودية إلى ضبط الدافع النبوي اليهودي. لقد شهد الهولوكوست القتل الممنهج لثلث الشعب اليهودي. في حقبة ما بعد الهولوكوست، يذكر لاهوتيو الهولوكوست الحاجة إلى التمكين اليهودي. فمن خلال التمكين فقط يستطيع اليهود أن يستكملوا ويحموا ما تبقى من الطائفة والتراث.

مما ينطوي على مفارقة أن ما يهدد التمكين اليهودي هو الدافع الذي طبقه اليهود غالباً على الآخرين الذين يرتكبون الظلم. يعرف لاهوتيو الهولوكوست بشكل حدسي أن الدافع النبوي، بغض النظر عن سياق ما بعد الهولوكوست، يكمن في الزاوية. إذا طبق الدافع النبوي داخل طائفة يهودية ممكنة كما هو في أصوله التوراتية، فإنه يهدد دولة إسرائيل بالخطر.

(1) حول لاهوت الهولوكوست في الحياة اليهودية، انظر كتابي نحو لاهوت تحرر يهودي: تحدي القرن الحادي والعشرين (واكو: مطبعة جامعة بايلور، 2004)، ص: 15 - 50.

النص الفرعي للاهوت الهولوكوست هو الخوف من أنه إذا وهنت قوة دولة إسرائيل، فإن اليهود سوف يُرمون في وضع هولوكوستي آخر. يحمل كثير من لاهوت الهولوكوست التحذير الضمني، والصريح أحياناً، من أن الانشقاق اليهودي - الفرصة لعدم الاستقرار اليهودي في عصر التمكين - سوف يسبب إفناء إسرائيل. هذا الإفناء سوف يسبب هولوكوستاً ثانياً ونهائياً⁽¹⁾.

إن لاهوت الهولوكوست نادراً ما يذكر الصهيونية بالاسم. فلاهوتيو الهولوكوست لا يستحضرون دولة إسرائيل بالاسم. مع ذلك، يكون استحضار إسرائيل دفاعاً عن حاجتها إلى الوجود أكثر من أي مناقشة عملية للدولة ولتاريخها. في لاهوت الهولوكوست، تكون الحاجة إلى إسرائيل مفهومة. فلماذا الدخول في التفاصيل المعقدة لما تستتبعه تلبية تلك الحاجة؟

إن إسرائيل، التي يجري الإعلان عنها بشكل مختلف، في لاهوت الهولوكوست، هي حاجة مفهومة ذاتياً تتعالى على المساومات الطبيعية للسياسة العملية والخاضعة للنقاش. إذ يصور لاهوتيو الهولوكوست دولة إسرائيل كسياسة متعالية. فينبون سرديتهم الهولوكوستية بطريقة يكون بها الانتقاد العملي والأخلاقي لحق دولة إسرائيل في الوجود أو انتقاد سياسة إسرائيل تجاه الفلسطينيين هو خروج على الحدود. بحسب لاهوتيي الهولوكوست، فإن المعادين للسامية - أو اليهود الكارهين لذواتهم - هم فقط الذين يحيدون عن ذاك الطريق.

هل الصهيونية وإسرائيل هما خروجان معلنان على الحدود لأن لاهوتيي الهولوكوست يخشون من أن تفكيك إسرائيل سيؤدي إلى تفكيك الهولوكوست، على الأقل كما هو مسرود بالنسبة إلى التمكين اليهودي؟ إن الهولوكوست، كما يستخدم كأداة من قبل لاهوت الهولوكوست، هو المحرك النقدي لشرعية إسرائيل. فحيث

(1) هذا ما يعلن بالشكل الأكثر صراحة في مقالة إيرفين غرينبرغ، «أخلاقيات القوة اليهودية» في: روزماري رادفورد رويشر ومارك هـ. إليس (تحرير)، ما بعد الاحتلال: أصوات يهودية أميرية ومسيحية وفلسطينية من أجل السلام (بوسطن، ماساتشوستس: مطبعة بيكون، 1990)، ص: 74 - 22.

يكون الفهم النقدي لإسرائيل، وتوسعاً [الفهم النقدي] للصهيونية، خروجاً على الحدود، يكون الهولوكوست، كما يتم تصويره سردياً، خروجاً على الحدود أيضاً. مثل ارتباط شعب إسرائيل والإله، يشكل الهولوكوست وإسرائيل اقترانا متقللاً. بما أنهما يحتاجان كل منهما إلى الآخر، فينبغي تجنب الطلاق المهدد به بأي ثمن.

تفكيك نبؤي للصهيونية؟

إن عبارة «بعد أوشفيتز» قد أصبحت تقريباً صيغة مبتذلة [كليشية]. بالفعل، يأتي اليهود بعد الهولوكوست. ويأتون بعد إسرائيل أيضاً.

بما أن دولة إسرائيل تستمر إلى الحاضر، فما الذي يعنيه «بعد إسرائيل»؟ يعني «بعد إسرائيل» ما فعله اليهود وما يفعلونه للشعب الفلسطيني. إنه يعني أنه رغم أن اليهود كانوا أبرياء في معاناة الهولوكوست، فإنهم ليسوا أبرياء في تمكين أنفسهم. إنه يعني أن تفاصيل التمكين اليهودي في إسرائيل تتضمن التطهير الإثني للفلسطينيين في عام 1948 وما بعده. إنه يعني أن التوسع المستمر لدولة إسرائيل واحتلال القدس الشرقية والضفة الغربية والمستوطنات اليهودية على الأراضي الفلسطينية تضع أيديولوجيا الصهيونية تحت امتحان تاريخي. ويعني هذا أيضاً أن تشكيل الهوية اليهودية التي تربط الهولوكوست وإسرائيل يلعب دوره. إن الدافع النبؤي اليهودي هو الذي يفرض هذا التحليل⁽¹⁾.

يتحدى الدافع النبؤي الهوية اليهودية المعاصرة على مستواها الأكثر أساسية كما فعل ذلك مرات كثيرة في التاريخ اليهودي. إن هذا الانكشاف الجذري، بدوره، يزيد من تصلب الدافع النبؤي ويكشف ديناميك الإمبراطورية المعاصرة. فيكون [الدافع] النبؤي والإمبراطورية مرة أخرى متنازعين - هكذا هي المعركة التي يسعى لاهوت الهولوكوست إلى دفنها في تفجعه على ضحايا الهولوكوست. هذا الانكشاف

(1) أطور هذا الموضوع - بعد إسرائيل - في كتابي اليهودية لا تساوي إسرائيل (نيويورك: نيويورك، 2009).

لا يلغي بالضرورة الصهيونية ذاتها؛ ولا يمكنه أن يعكس دور الصهيونية في إنشاء دولة إسرائيل. لكن الدافع النبوي لا يثير أسئلة حول الإمبراطورية اليهودية وتوسعها بوصفه معيارياً.

يتطلب الدافع النبوي رواية للصهيونية ولدولة إسرائيل. فالرؤية النبوية للمصير اليهودي، في سرديتها وتطبيقها، تفرض رواية تاريخية مفصلة لما فعله اليهود بفلسطين والفلسطينيين، وبالتالي بالأخلاقيات اليهودية والمصير اليهودي. باسم الاستقرار اليهودي بعد الهولوكوست، هل حصر لاهوت الهولوكوست والصهيونية ودولة إسرائيل المصير اليهودي بالإمبراطورية وباضطهاد شعب آخر؟

هنا يفصل البعض بين الهولوكوست والصهيونية ودولة إسرائيل. فالهولوكوست انقضى؛ والصهيونية أنشأت دولة إسرائيل. عندما أنشئت دولة إسرائيل، أصبحت الصهيونية، كقوة أيديولوجية، شيئاً تافهاً، يُستخدم - ويُضبط في بعض الأحيان - من قبل جهاز الدولة. إذا كان هذا هو الحال، عندئذ يجب أن يثار موضوع توسع إسرائيل المستمر كدولة، إضافة إلى واقع وتحريضات المستوطنين في القدس والضفة الغربية.

تبرز سلسلة من الأسئلة المهمة. هل التوسع المستمر لدولة إسرائيل مرتبط بشكل مباشر بالصهيونية الدينية والعلمانية المزدهرة داخل إسرائيل، أم أن له علاقة أكثر بالامتيازات المعيارية لدولة تمتلك القدرة على التوسع على حساب العناصر عديمي الدولة الأضعف؟ إذا كانت الإشكالية في الواقع تأتي من توليفة من الصهيونية، كظاهرة يهودية خاصة، وإسرائيل كدولة مثل أي دولة أخرى، فأية مقارنة يجب اتخاذها فيما يتعلق بإسرائيل كما هي مركبة حالياً؟ هل ينبغي معالجة الصهيونية ضمن إطار الخصوصية اليهودية أم في إطار القانون الدولي؟ هل من الأفضل أن نفكك الصهيونية يهودياً أم دولياً؟⁽¹⁾

(1) يناقش الانتقال من الأيديولوجيا الصهيونية إلى الدولة في ميرون بنفستي، المشهد المقدس: التاريخ الدفين للأرض المقدسة منذ عام 1948 (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 2002)، ص: 144 -

إن تلاقي الصهيونية وإسرائيل يجعل التفريقات الفلسفية والنظرية بين الاثنين عديمة المعنى شيئاً فشيئاً. فالمسألة المطروحة هي منع دولة إسرائيل من التماهي في تجريد الفلسطينيين من أرضهم وأملهم في مستقبلهم. مبدئياً، يقع ذلك في إطار حل الدولتين، أي إسرائيل وفلسطين كدولتين منفصلتين توجدان جنباً إلى جنب. لكن بما أن معظم التحليلات ترى مثل هذا الحل مستعصياً بفعل توسع إسرائيل، فإن المنشقين اليهود يميلون أكثر فأكثر إلى رؤية الدولة الواحدة لإسرائيل / فلسطين كدولة علمانية ديمقراطية ذات مواطنة متساوية دون اعتبار للتمييز الإثني أو الديني. بما أن خيار الدولة الواحدة يؤشر إلى نهاية إسرائيل كدولة يهودية، فإن هذا يعيدنا إلى قضية ما إذا كان حل الدولة الواحدة ينبغي المجادلة دفاعاً عنه يهودياً أم دولياً⁽¹⁾.

هل المجادلة دفاعاً عن حل الدولة الواحدة تتطلب مزيداً من تفكيك الصهيونية بوصفها الأصل الأيديولوجي لدولة إسرائيل اليهودية؟ في هذه الحالة، فإن الصهيونية ودولة إسرائيل، رغم كونها مقيدتين منذ الولادة، هما منفصلتان الآن، مقوضتان بذلك ليس الصهيونية فقط بل دولة إسرائيل اليهودية أيضاً. لو حدث ذلك، لانهارت أسس الهوية اليهودية المعاصرة بسرعة⁽²⁾.

رغم أن لاهوت الهولوكوست لا يعالج القضية بشكل صريح، فإن الهولوكوست في شكله السردي يفترض الصهيونية وإسرائيل بوصفهما مركزيتين. فبدون الصهيونية وإسرائيل، سيتراجع الهولوكوست كقوة أيديولوجية وبانية للهوية. وبذلك سيأتي اليهود 'بعد' الهولوكوست وإسرائيل بطريقة لم تخطر بالبال بعد.

(1) للاطلاع على سجل الدولة الواحدة/ الدولتين، انظر أنتوني ليفنشتاين وأحمد مور، بعد الصهيونية: دولة واحدة من أجل إسرائيل وفلسطين (دار الساقي، 2012).

(2) رغم أن الاهتمام ظاهرياً هو باليهود أكثر من الفلسطينيين، فإن إمكانية مثل هذا الانهيار للهوية يمكن أن يجعل في تصعيد العدوان الإسرائيلي. إن منع انهيار الهوية هو أحد اختصاصات الجهات الحكومية.

هل كانت الهوية اليهودية ستعود عندئذ إلى ما 'قبل' الهولوكوست وإسرائيل؟ عندما تراجع الهولوكوست والصهيونية وإسرائيل، لا توجد إمكانية للعودة. رغم أن البعض قد فكر في الهوية في عصر ما بعد صهيوني، فإن كل التفكير تقريبا قد تضمن دولة إسرائيل يهودية مع بقاء الصهيونية والهولوكوست في مكان ذي مجد تاريخي. أما ما لم يجر التفكير فيه فيما يتعلق بالهوية اليهودية فهو ما يأتي بعد سوء الاستخدام المخزي للهولوكوست والصهيونية وإسرائيل⁽¹⁾.

ثمة فرق مهم بين تفكيك الصهيونية ضمن إطار دولة يهودية وتفكيك الصهيونية بلا دولة يهودية. الاختلاف هو نمط الخصوصية اليهودية الذي ينبع من كل خيار على حدة. لكن بما أن الغالبية العظمى من اليهود الأحياء اليوم قد ولدوا بعد الهولوكوست وبعد تكوين دولة إسرائيل، فإن اليهود المعاصرين لا يمتلكون ذاكرة بالتجربة عن العيش بلا دولة يهودية. إن الاحتكام إلى التراث اليهودي قبل الهولوكوست وقبل إسرائيل قد يكون مفيدا في بعض المجالات. مع ذلك، فإن هذه الاحتكامات قد اعتمدت بشكل مستتر على التمكين اليهودي، حتى عندما تنتقده⁽²⁾.

ما الذي يقوله الدافع النبوي اليهودي لهذه الألغاز؟ الجواب مختلط. فمن ناحية أولى، يظهر الأنبياء التوراتيون ضمن عصور التمكين اليهودي. يكون انتقادهم

(1) يحاول بعض الكتاب التعامل مع الآثار السياسية لفشل الصهيونية. لكن لا يزال يتعين على معظمهم التفكير في مسألة الهوية اليهودية بعد الصهيونية. للاطلاع على مجلد مثير للاهتمام حول ما بعد الصهيونية، انظر إفرام نيمني، تحدي ما بعد الصهيونية: بدائل للسياسة الأصولية في إسرائيل (لندن: زد بوكس، 2003).

(2) يرد مثال على هذا الاعتماد غير المعلن عبر كتاب جوديث بتلر افتراق الطرق. ورغم أن انتقاد بتلر لإسرائيل شديد وقاس في نراهته، أشك في أن اليهود يمكن أن ينفصلوا عن إسرائيل أو الصهيونية أو الهولوكوست. بأية حال، لن يختفي أي من هذه، على الأقل في فترة حياتنا. ومع أن بتلر لا تقترح ذلك مباشرة، فإن افتراق الطرق قد يصبح مخرجا سهلا. بدلا من ذلك، يبدو أن المهمة تعمل من خلال الاعتراض وإخضاع الثلاثة لمقتضيات العدالة. أنا أيضا أتمنى عن رفقة بتلر في إحساسها بأن المنفى اليهودي - كشعب وكمشقين - يمكن وينبغي التغلب عليه. إن الصراع مع تحليل بتلر هو مثال آخر على الصراع مع النبوءة اليهودية.

لإسرائيل قاسياً، أكثر بكثير من انتقاد المنشقين اليهود اليوم. الأهم من ذلك، أن الانتقاد النبوي التوراتي كان يعبر عنه دوماً ضمن إطار مسؤولية مزعومة للشعب اليهودي عن خلق نوع جديد من المجتمع اليهودي المولّد داخلياً، مجتمع يقوم على العدل والسلام.

لهذا كانت الدعوة النبوية إلى توزيع إسرائيل بين الأمم، أي إنهاء الأولوية اليهودية والتمكين اليهودي الخصوصي، عقاباً على التمرد. بعيداً عن بعض العواطف العمومية، كان الأنبياء متمركزين حول إسرائيل. فقد كان لشعب إسرائيل مصير لا يمكن لغير إسرائيل أن يبلغه. بلغة اليوم، لم يكن الأنبياء مدافعين عن حلول الدولة الواحدة.

على مدى معظم التاريخ اليهودي، وجد اليهود بدون دولة خاصة بهم. فكانت الصهيونية محصورة برؤى الأرض التي لم يعيش عليها اليهود وحتى عندما امتلكوا الفرصة، اختارت قلة أن تعيش هناك. وقد تسبب هذا في توسع الدافع النبوي اليهودي نحو الخارج باتجاه مجتمعات وثقافات كان يعيشون ضمنها كأقليات. في الوضع الحالي، نجد الدافع النبوي اليهودي يمتد إلى الخارج مرة أخرى، بشكل خاص إلى الآخرين، الفلسطينيين. لكن هذا الامتطاط نحو الخارج يحدث بطريقة غير مسبقة. ضمن التمكين اليهودي وضمن دولة يهودية. إن الانتقاد النبوي المعاصر للصهيونية ولإسرائيل هو شيء جديد في التاريخ اليهودي.

عندما وصل الأنبياء التوراتيون إلى نهاية صبرهم، التي كانت أيضاً نهاية صبر الإله، حكم على شعب إسرائيل بالنفي من البلاد. كما ورد في سرد التوراة، لم يكن المنفى منظماً ولا حميداً. كان المنفى رهيباً. فقد عانى شعب إسرائيل من السجن والاعتصاب والقتل الجماعي. إن معظم الانتقادات اليهودية للصهيونية ولدولة إسرائيل، بما في ذلك نهاية إسرائيل كدولة يهودية، واضحة تماماً. إنها تفترض مسبقاً انتقالاً منتظماً، مع بقاء التمكين اليهودي في مكانه في أثناء الانتقال. إنها تفترض

بالشكل نفسه القبول المستمر للملايين اليهود في الشرق الأوسط بعد زوال الصفة اليهودية لدولة إسرائيل.

لقد تعاملت قلة من المفكرين اليهود المناهضين للصهيونية بشكل عملي مع هذا الانتقال، وحقيقة الأمر هي أن أحداً من أي منظور أو طائفة لا يعرف كيف أو إذا كان مثل هذا الانتقال سيطبق. أما في الوقت الحاضر على الأقل، فإن الإعلان ذاته عن سيرورة لإنهاء دولة إسرائيل اليهودية ربما سيعجل بخروج جماعي للإسرائيليين اليهود إلى أوروبا والولايات المتحدة-أي، إذا قبلت حدود شتى الدول ملايين الإسرائيليين اليهود.

دون أن ننسب أي قصد إلى الطرفين المتحاربين، فإن حل الوضع الإسرائيلي/الفلسطيني من خلال الذوبان الطوعي للدولة اليهودية من الصعب التفكير به في السياسة والفكر اليهوديين المعاصرين. إنه مليء بالمساومات الفعلية للعالم الجيوسياسي. إن الدلالة الرمزية الممجدة لليهود، وإسرائيل والقدس وديانتي المسيحية والإسلام تجعل الخطوات العملية باتجاه تفكيك الصهيونية والصفة اليهودية إشكالية، إن لم تكن منذرة بالشر.

لكن، عندئذ، بما أن الظلم الواقع على الفلسطينيين يستمر إلى أجل غير مسمى، يبقى السؤال هو: ما الذي يوجد للقيام به سوى تفكيك الأيديولوجيا، المجسدة الآن في دولة، لن تتوقف، ولا يمكن إيقافها، على الأقل في المستقبل غير المنظور؟

في هذا المستقبل غير المحدد، فإن مزيداً من تصدع الجالية اليهودية مازال مستمراً. في مواجهة القدرة المشتركة للهولوكوست والصهيونية وإسرائيل، تستمر أعداد يهود الضمير في الازدياد.

إن يهود الضمير، مثل اليهود التقدميين، يعارضون السياسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين. مع ذلك تتنقل معارضتهم إلى ميدان آخر. ففي حين يعارض اليهود التقدميون اعتبار المؤسسة اليهودية لإسرائيل بريثة، فإنهم يدعمون إنشاء إسرائيل واستمرارها كدولة يهودية. أما عن الصهيونية وولادة إسرائيل كدولة في التطهير

الإثني لأكثر من سبعة ألف فلسطيني، فيصمت اليهود التقدميون. بالنسبة إلى اليهود التقدميين، فإن خط الخطيئة هو الاحتلال الإسرائيلي والمستوطنات بعد حرب 1967 الإسرائيلية العربية. إذا انسحبت إسرائيل من الضفة الغربية وأقيمت دولة فلسطينية، يمكن للصهيونية وإسرائيل أن تستعيدا مهمتهما التاريخية، مهمة إيجاد مكان لأجل اليهود لكي يعيشوا في وطنهم الخاص⁽¹⁾.

لقد توصل يهود الضمير إلى نهاية براءة إسرائيل؛ أي، أن يهود الضمير يؤمنون بأن مشروع دولة إسرائيل هو مختل في الأساس. لقد كانت الصهيونية في تطبيقها العملي في فلسطين، ولاتزال، مشروعاً استعمارياً وعنصرياً. بأخذ هذا الموقف، يقطع يهود الضمير مع اليهود التقدميين والمؤسسة اليهودية. فهم يرون أن الصراع بين اليهود التقدميين والمؤسسة اليهودية هو صراع زائف ومضلل. عموماً، يفسر يهود الضمير اليهود التقدميين بوصفهم الجناح اليساري من المؤسسة اليهودية.

بالنسبة إلى العين غير المدربة، توجد حرب أهلية بين اليهود التقدميين والمؤسسة اليهودية والمؤسسة اليهودية على سياسات إسرائيل تجاه الفلسطينيين. بما أن يهود الضمير يتفهمون الصلة بين اليهود التقدميين والمؤسسة اليهودية، فإن الحرب الأهلية هي أقل بكثير مما تبدو. في الحقيقة، يرى يهود الضمير ذلك بوصفه حرباً أهلية زائفة. النتيجة: تستمر إسرائيل في طريقها.

بالنسبة إلى يهود الضمير، فإن القطيعة مع اليهود التقدميين والمؤسسة اليهودية يجب أن توضح سياسياً. إذ إن المراكز النظرية لهذه القطيعة هي أقل خضوعاً للسبر. قد يكون الوضع التاريخي لوجود إسرائيل هو أعقد وأكثر آنية من أن يسبره يهود الضمير. وقد يجعل الوجود المحض لإسرائيل العمل النظري أقل إلحاحاً. في نهاية المطاف، قد تكون المعارضة السياسية لسياسات إسرائيل وحتى لوجود إسرائيل كدولة يهودية أكثر انغماساً من أن تتلهم بمراكز الهوية الفلسفية للحياة

(1) يوثق المؤرخون الإسرائيليون الجدد التطهير الإثني للفلسطينيين في ولادة إسرائيل. للاطلاع على ملخص لتأنيدهم، انظر ايلان بابي، التطهير الإثني لفلسطين (لندن: ونورلد، 2006).

اليهودية المعاصرة. ثم، هناك الهولوكوست والإدراك [السائد] على الأقل في أوروبا والولايات المتحدة أن معارضة إسرائيل والصهيونية هي ضد السامية. فلماذا إثارة القضايا الفلسفية عندما يوجد هذا القدر الكبير سياسياً على الخط؟

إن القيود على انتقاد الصهيونية وإسرائيل قيود حقيقية. هذه القيود يمكن استخدامها كغطاء من أجل الظلم لكنها أيضاً تمثل مأزقاً تاريخياً. فبعد الهولوكوست وبعد إسرائيل، كم يكون اليهود وغير اليهود أحراراً في التفكير في نهاية الدولة اليهودية والصهيونية ذاتها التي شجعت ولادتها وتوسعها؟

من الواضح أن سؤال اليوم هو حول الكفاية السياسية لمشل هذا التفكير. فماذا لو فُككت الصهيونية بالكامل واستمرت إسرائيل في اضطهاد الفلسطينيين؟ قد يكون الأمر أن تفكيك الصهيونية ستكون له نتائج سياسية طويلة الأمد. بإفراغ الزعم اليهودي بالحق في الأرض الفلسطينية من محتواه، سيقر اليهود في إسرائيل وحول العالم في نهاية المطاف بالظلم الواقع على الشعب الفلسطيني. عندئذ، سيباشر اليهود مع الفلسطينيين في إنشاء إسرائيل / فلسطين حيث تعيشان كلتاها معا بعدل وسلام.

- 7 -

روح الصهيونية

دريدا، ال(رواح)، وحق المولد المسروق

كريستوفر وايز

مقدمة

يدين المفهوم الدريدي للروح / الطيف بوصفه عقاراً سحرياً (occult pharmakon) لا إلى مفهوم رواح العبري فقط، بل أيضاً إلى هيكاً (heka) المصرية ونياكسامالا (naxamala) السونينكية ونياما (nyama) الماندية والترجمات المصرية - الأفريقية الكثيرة الأخرى للكلمة، البعض منها سابق تاريخياً لـ (رواح العبرية). سأجادل هنا في أن دريدا يتجاهل هذه المفاهيم الأفريقية ذات الصلة لكي يمنح اليهودية مكاناً بارزاً بشكل خاص ضمن تاريخ الفلسفة الأوروبية.

لأن قراءه في الغرب يرجح أن يكونوا غير مدركين للتاريخ القديم لأفريقية والشرق الأوسط وثقافتها، فإنهم نادراً ما يتحدثون فرضياته المتعلقة بالمكانة الاستثنائية لليهودية، خصوصاً بوصفها ديانة عالمية تسبق في تشكيلها كل الثقافات والجماعات الدينية المتصلة الأخرى من هذه المناطق. على سبيل المثال، يُعلي دريدا المفهوم العام الأسطوري القائل بأن اليهودية هي «المصدر الوحيد» لكل الديانات الإبراهيمية، معززاً العقائد اليهودية-المسيحية الأرثوذكسية حول الدور الفريد

لليهودية في تاريخ التوحيد⁽¹⁾. هذا المفهوم العام، ذو القواسم المشتركة مع الفكرة المتكررة (*idée reçue*) القائلة بأن الأب الكتابي / التوراتي إبراهيم دشن شعيرة الختان كعلامة على الميثاق الأول، ليس غير دقيق تاريخياً فحسب، بل يخدم أيضاً دفن ذاكرة المساهمات المصرية - الأفريقية فيما يدعوه دريدا «الإبراهيمي - الفلسفي»⁽²⁾. في حين أن دريدا نادراً ما اعترف بمعتقداته الدينية بأي معنى لا لبس فيه أو دوغمائي، فقد رفض أيضاً أرخنة مفاهيم لاهوتية متمتعة بالامتياز مثل ال - رواح، الإبراهيمي، اليهودي المسيحاني، والمسيحانية، معلياً بدلاً من ذلك هذه الدالات الدينية المحمولة كما لو كانت صالحة لكل الشعوب في كل مكان.

إن المكانة المجيدة الممنوحة لمفهوم ال - «مسيحاني» في كتابات دريدا اللاحقة، سواء بمعناه اللاهوتي الصريح كـ «مسيحانية» تاريخية، وبمعناه الأكثر عمومية أو «حيادية» مزعومة كـ «خلاص / اعتناق»، تعزز الأساطير المقلقة حول نبالة الدم، والمؤثرة لا بين الصهاينة المسيحانيين في إسرائيل والأراضي المحتلة فقط، بل بين المسيحيين المتشددين والأصوليين في الولايات المتحدة أيضاً. فالأساطير القديمة حول الأشخاص المختارين خصيصاً، المنتخبين [المصطفين] على أساس الدم الاستثنائي الذي يجري في عروقهم، ليست مجرد هموم هامشية للتراثات الإبراهيمية الكبرى بل لا يمكن فصلها عن توارينها ومذاهبها الأكثر أساسية، بها فيها المسيحية والإسلام. بالنظر إلى حقيقة أن كل التراثات الإبراهيمية الثلاثة قد نشأت ضمن إطار جغرافي خاص، إطار تأثر بأكثر من 4000 عام من الحضارة الأفرومصرية، ثمة مبرر واه للتفاجؤ بأن التراثات الإبراهيمية لم تنج من تأثير مصر القديمة. إذا كان مهماً أن نبجل إراثاً ثقافياً من أجل دور حيوي لعبه طوال فترة التاريخ البشري،

(1) جاك دريدا، فصول في الدين

Jacques Derrida, *Acts of Religion* (New York: Routledge, 2002), 90.

(2) جاك دريدا، الوحش والسيد،

Jacques Derrida, *The Beast and the Sovereign*, volume 1 (Chicago, IL: The University of Chicago Press, 2009), 314.

فلا يستتبع ذلك أن نُنصح بالدفاع عن استخدام مفاهيم لاهوتية مستمدة من ذاك الإرث من أجل سجال سياسي أممي.

في أرخنة مصطلحات مثل رواح والمسيحانية، بالأخص في علاقتها بنظائرها الأفريقية والمصرية، التي يسبق بعضها اليهودية والمسيحية والإسلام، سأحصر نفسي هنا بملاحظتين. الأولى، إن سعي دريدا لأن يمد إلى اليهودية مكانة ممتازة ضمن تاريخ الفلسفة الأوروبية ينبغي الاعتراف به كما هو - شكل من مرافعة خاصة [دفاعاً] عن جماعة إثنية بعينها على حساب الشعوب اللاأوروبية الأخرى، وخصوصاً الشعوب الأفريقية والشرق أوسطية. الملاحظة الثانية، إن دريدا يعمل لصالح حل ثيوقراطي أكثر مما هو علماني للصراع الفلسطيني / الإسرائيلي، حل يتم إبرازه لصالح تراث تاريخي بعينه، يُطرح أحياناً كهوية إثنية وأحياناً كدين⁽¹⁾. في الحقيقة، إن مفهوم «علماني» بالذات هو بالنسبة إلى دريدا مفهوم ديني دوماً⁽²⁾. رغم تحفظاتي على آراء دريدا السياسية، فإن انتقاداتي هنا وفي أمكنة أخرى يجري تقديمها لا لتبسيط الدراسة النقدية الدقيقة لكتابات دريدا، بل لكي أثبت أهميتها التاريخية

(1) يشير دريدا نفسه إلى المجازات البلاغية لـ (المشترك اللفظي) (syllepses)، التي «تقوم على اتخاذ الكلمة الواحدة ذاتها مفهومين مختلفين، أحدهما هو، أو يفترض أنه، المعنى الأصلي أو الحرفي على الأقل، والآخر هو المجازي، أو يفترض به أن يكون المجازي، حتى لو لم يكن كذلك في الواقع. J. Derrida, Dissemination (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1981), 220.

جاك دريدا، الانتثار.

في انتقاداته، التي نوقشت على نطاق واسع، لكتابات فرانسيس فوكوياما في أطراف ماركس (1993)، يكشف دريدا كيف أن فوكوياما يستحضر أحياناً مفهوم الديمقراطية بلغة «الفعالية» [actuality] (حرفياً، الدول الديمقراطية الليبرالية، مثل فرنسا وهولندا والولايات المتحدة) وأحياناً بلغة الديمقراطية «المثالية» [ideality] (مجازياً، الدولة الديمقراطية الليبرالية كمثال ترانسندنتالي أعلى). يخلق مجاز الـ (syllepsis) التباساً في مناقشات اليهودية، التي غالباً ما يتم التعبير عنها في الوقت نفسه بوصفها مسألة هوية شخصية (حرفياً، اليهودية كنسب قبلي) وأحياناً كمسألة دين شخصي للمرأة (مجازياً، اليهودية كروحانية). أطراف ماركس: حالة المديونية والحداد والأمية الجديدة (نيويورك: روتلج، 1994).

(2) Jacques Derrida, Deconstruction Engaged: The Sydney Seminars, ed. Paul Patton and Terry Smith (Sydney: Power Publications, 2001), 116.

جاك دريدا، التفكيكية قيد الاستخدام: ندوات سيدني، بول باتون وتيري سميث، تحرير، (سيدني: منشورات بور، 2001)، 116.

وحتى لكي أوسع مداها، جاعلاً بذلك التفكيك متاحاً أكثر، وخصوصاً للباحثين في الدراسات الأفريقية والشرق أوسطية⁽¹⁾.

عنصر الفارماكون

بعد 11 أيلول بزم من ليس طويلاً، عملت مدرساً في برامج خريجي الدراسات الأميركية والدراسات الإسلامية في جامعة الأردن في عمان. في إحدى عطل نهاية الأسبوع، خرجت بالسيارة إلى الطرف الجنوبي من البحر الميت لزيارة مغارة لوط، الكهف الأسطوري الذي حفره ابن أخ ابراهيم مع بناته بعد تدمير سدوم. كان الطلاب في البرنامجين مسلمين في غالبيتهم، وعندما سألتهم إن كانوا قد زاروا الموقع، قوبل سؤالي بصمت وقور إن لم يكن مرتبكاً. فقد كان طلابي المسلمون ينبذون قصة مغارة لوط ولذلك لم يكن لديهم أي اهتمام بزيارة الكهف، في حين فضل طلابي المسيحيون لو أنني لم أذكره على الإطلاق. في الحكاية كما رويت في سفر التكوين، فقدت بنات لوط أزواجهن في الحريق، وبما أنهن كن يتقن إلى أن يكون لهن أطفال، فقد أسكرن والدهن بالخمرة لكي يزينن معه. علق طلابي المسلمون بالقول إن «النبي لوط»، كما هو معروف في الإسلام، كان نبي الله. والحال هكذا، لم يكن من

(1) إن صهيونية دريدا، وليست هويته اليهودية، هي التي تجعل عمله أقل جذبا لكثير من الباحثين في أفريقية والشرق الأوسط. في عرضه لكتابي دريدا وأفريقية والشرق الأوسط (2009)، يزعم شين موران أنني أشجع الصيغة «العشبية والمغرضة»: «دريدا= يهودي = صهيوني» (عرض، دريدا وأفريقية والشرق الأوسط).

"Derrida, Africa, and the Middle East," *Textual Practice*, vol. 24, Issue 2 (2010), 387.

أنفق مع موران في أن مثل هذا الخط في المجادلة مضلل وعشبي بشكل واضح؛ لكن ليس هذا ما اقترحت في أي من أعمالي المنشورة حول هذه المسألة. يبدو أن هم موران، كجنوب أفريقي أبيض، هو ألا يكون الفرد سجين هوية قبلية محددة أو أن يكون مسؤولاً عن التجاوزات الماضية للجماعة الإثنية التي يولد فيها. موران لا يفكر في مكانة اليهودية كدين عالمي بارز، وليس مجرد مسألة هوية قبلية أو إثنية. إن مقارنات دولة إسرائيل الصهيونية بجنوب أفريقيا الفصل العنصري هي عموماً غير مقنعة في حد ذاتها، ليس دون الإشارة إلى الارتباطات الداخلية بين اللاهوت اليهودي والصهيونية. بعبارة أخرى، إن دولة إسرائيل الحديثة ليست مجرد دولة فصل عنصري تطبق قوانين مختلفة على جماعات إثنية أو عرقية مختلفة. إنها أيضاً - لو شئنا أن نتبنى مؤقتاً مصطلحات دريدا - ثيوقراطية «إبراهيمية» شبيهة بالأمم والأنظمة الثيوقراطية الأفريقية والشرق أوسطية الأخرى.

الممكن أن يوصف بمثل هذا السلوك المشين. في الحقيقة، كانت هذه إحدى القصص المزيفة في الكتاب المقدس التي أقحمها «بنو إسرائيل» ضد مشيئة الله. سألت طلابي لماذا كان «بنو إسرائيل» سيفعلون ذلك، ولم يفتني الجواب الذي تلقيته.

في سفر التكوين، تحبل بنتا لوط بعد الزنا مع والديهما. إن ابني بنتي لوط هما بن - عامي، الذي سيصبح أباً العمونيين، ومؤاب، الذي سيصبح أباً المؤابيين. هاتان القبيلتان، إلى جانب الفلسطينيين وغيرهم، هما المتنافستان مع الإسرائيليين [بني إسرائيل] من أجل الأرض التي وعد بها الله إبراهيم. لقد أدخل «الإسرائيليون» هذه الأنسابية المزيفة والحقيرة، كما أخبرت، لكي يكذبوا مزاعم منافسيهم الحق في أرض فلسطين.

كان هذا الحوار أخرق جداً بالنسبة إلى طلابي المسيحيين. في الحقيقة، إن العهد القديم نادراً ما يُناقش في معظم الكنائس الأردنية وفي المدارس العامة حيث التعليم الديني إلزامي لأجل الأطفال المسلمين والمسيحيين على حد سواء. في ذلك الوقت، كنت أيضاً أعمل على مشاريع ترجمة في الأدب الغرب أفريقي، بعد أن عشت في بوركينافاسو، حيث كنت أعلم في جامعة أوغادوغو. في الأدب الغرب أفريقي، كنت قد صادفت حكايات كثيرة عن أنسابيات غير مألوفة وحقيرة، رغم أنها في هذا السياق كانت تمجد بشكل معتاد لكي توحى بأنساب الدم النقي للعرب المتحدرين من النبي محمد، في مقابل سكان الساحل السود «الخالصين» والجاهليين. هذه هي بالضبط ثيمة رواية يامبو أولوغويم (Yambo Ouologuem) الكلاسيكية، واجب العنف (1968) (*The Duty of Violence*). ويتردد صداها أيضاً في الملاحم الشفهية لرواة أشعار المديح [لدى قبيلة] المندي (Mende) و[قبيلة] السونغاي (Songhay)، إضافة إلى المخطوطات القروسطية لتيمبوكتو، مثل تاريخ الفتاش للحاج محمود كاتي. في هذا الأخير، على سبيل المثال، يحكي كاتي قصة عملاق اسمه «واج» (Waj) (أو واج Og)، الذي هو صديق للنبي نوح، وينجو من الطوفان بالوقوف على قمة أعلى جبل، حيث يرتفع الماء إلى مستوى ذقنه. يبقى واج حياً بأكل السمك، وعندما ينحسر الماء أخيراً يغط في نوم عميق، فيطلق إفرأزاً ليلياً هائلاً يشكل

بركة صغيرة. في هذه الأثناء، كانت سفينة نوح قد رست على البر فترسل الفتيات الخادومات على السفينة لجمع الحطب. إن الفتيات اللواتي يظن السائل المنوي لواج بقعة جميلة لأجل سباحة بعد الظهر، يغصن في البركة فينتهي بهن الأمر إلى أن يصبحن جميعاً حوامل. إن ذريتهن، كما تقول الرواية، هي قبيلة محلية معروفة بالسورخو. أما سياق القصة فهو أن الأسكيا محمد، الذي هو «ملك» السونغاي، يسعى إلى تحديد أي القبائل المحلية يمكن استعبادها بشكل مباح، وتصادر أراضيها، خصوصاً لصالح الأشراف؛ أي، ورثة الدم النبيل للنبي محمد، المتحدرين من مكة والمدينة⁽¹⁾. ما يراهن عليه دوماً في قصص الأصل القبلي هذه هو مسألة الدم، انتقاله النقي أو الملوث.

في عمل سينائي للشيخ عمر سيسوكو (Oumar Sissoko) إجلالاً لسفر التكوين، يحمل عنوان [1999] (*La Genese*)، أسند إلى المغني الشعبي [من قبيلة] مندي سالييف كيتا دور العيص، شقيق يعقوب الذي يبيع حق مولده مقابل قصعة من الحساء. كان إسناد سيسوكو الدور إلى كيتا اختياراً موفقاً، بالنظر إلى السيرة المشهورة لمطرب مالي الأكثر شهرة، الذي أدى قراره بأن يصبح موسيقياً في الستينيات إلى أن تتبرأ منه عائلته. إن سالييف كيتا، بوصفه فرداً من طبقة نبلاء مندي ومتحدرًا من سوندياتا كيتا، مؤسس سلالة مندي من القرنين الثالث عشر والرابع عشر، قد أخرج عائلته إخراجاً شديداً وقلل من شأنه بانتهاك التابو الثقافي بتحويل نفسه إلى «غريوت» (griot)، مغني مديح مندي، ينتمي إلى شريحة دنيا تعرف بالنياماكالالا (nyamakala). من بين قبيلة مندي، لم تكن عائلة كيتا تغني بل كان المتعارف عليه أنها الموضوع المبجل للمدائح الغريوت. في فيلم سيسوكو، كما في السردية التوراتية، يفقد العيص حق مولده لأنه يأكل من قصعة حساء يصفه مؤلف سفر التكوين بأنه «أحمر أحمر» اللون (سفر التكوين. 25. 30). هذا الفعل البغيض يدنس العيص، فيمنحه من الآن فصاعداً منزلة أدنى من أخيه الأصغر يعقوب. إن حكاية يعقوب والعيص التوراتية، رغم كونها مغرقة في القدم، تسبقها تاريخياً

(1) كريستوفر وايز، تواريخ تمبكتو، 1493 - 1559، تاريخ الفتيش (ترنتون، نيو جيرسي: أفريقيا وورلد برس، 2011)، 52 - 6.

حكاية مصرية أقدم منها بكثير عن التنافس بين الإلهين سيث وحورس، وهو صراع أشار إليه علماء المصريات المعاصرون بتعبير «كوكبة هاملت» أو «مونوميث»؟ (monomyth) المصرية⁽¹⁾. في التنويع المصري على هذه الحكاية، يتغلب حورس الأصغر بشكل مائل على خصمه سيث بإطعامه وجبة ملوثة. فبمساعدة أمه إيزيس، يقذف حورس في ورقة خس، يتم إطعامها بعدئذ لعمه بوصفها تابل سَلْطَة. عندما يدرك عمه سيث أنه قد أكل بدون مشيئته السوائل الجسدية لحورس، يكون مجبرا على الإقرار بالمنزلة الفوقية لابن أخيه حورس - الوريث الشرعي لأوزيريس، وإن كان أصغر سناً، متخلياً عن حقه المزعوم في أن يكون حاكماً لمصر.

على مدى أكثر من 4000 عام كانت قصة صراع سيث وحورس من أجل الهيبة يعاد تمثيلها في المعابد المختلفة على طول نهر النيل بوصفها الطقوس الوحيد الأكثر ديمومة للمصريين القدماء. في كل مكان من غرب أفريقية، تردد أقدم سرديات أصول الغريوت صدى الطبعتين المصرية والتوراتية من «كوكبة هاملت» بطرق لافتة كثيرة. فالطبعة المحكية على النحو الأكثر شيوعاً لأصول الغريوت تستتبع قصة أخوين يسافران عبر منطقة الساحل عندما يقع أصغر الأخوين مريضاً من الجوع الشديد⁽²⁾. يشعر الأخ الأكبر بالشفقة على أخيه المحتضر، مخبراً إياه أنه سيذهب ويبحث عن شيء لإطعامه. بعد بضع ساعات، يعود الأخ الأكبر أخيراً بجزء من وجبة ليطعمها لأخيه الأصغر، وبذلك يعيد له عافيته. عندما يتابع الأخوان رحلتهم، يفاجأ الأخ الأصغر برؤية أخيه الأكبر يعرج الآن، والدم يتقطر من ساق أخيه. عندما يدرك أن أخاه الأكبر قد أطعمه لحمه ودمه هو لينقذ حياته، يرتعب مما فعله هو نفسه (في الحقيقة، يشعر أنه قد دنس نفسه بأكل لحم أخيه) ومع ذلك يشعر أيضاً بالامتنان العميق للأخ الذي أنقذ حياته. كنتيجة لذلك، يكون الأخ الأصغر مجبراً الآن على أن يغني مدائح أخيه الأكبر، الذي يحتفظ بالمقابل بمنزلته النبيلة.

(1) جان أسبان، البحث عن الله في مصر القديمة (إشكا، نيويورك ولندن: مطبعة جامعة كورنل، 2001)، 97.

(2) توماس هيل، المنشدون والمنشدات: سادة الموسيقى والكلمات، (بلومينغتون، إنديانا، مطبعة جامعة إنديانا، 1998)، 64.

إن النبيل المندي هو حرفياً الرجل ذو الدم النقي، في مقابل الغريوت الذي تلوث دمه بالسوائل السامة للآخر. يكون جسد الغريوت ساماً للغاية بحيث إنه نادراً ما يدفن في الأرض، حيث يمكن لجثمانه أن يسمم المحاصيل ويتلفها، بل يدفن داخل جذع مجوف لشجرة باؤباب⁽¹⁾. إن مشاعر القلق حول الحفاظ على المنزلة النبيلة للشخص عن طريق الإحجام عن تناول السوائل الجسدية للآخر، تتردد على نطاق واسع في بعض التراثات الشفهية الغرب أفريقية المتأثرة بشكل مباشر بالحضارة المصرية القديمة. هذا الديناميك ظاهر أيضاً في القربان المقدس للعشاء الرباني المسيحي، الذي يتناول فيه المرء طقسياً لحم يسوع المسيح وسوائله الجسدية، مثبتاً بذلك خنوعه ووفاءه للمسيح بوصفه الرب. لهذا السبب فإن شخصيات كثيرة في العالم الأفريقي القديم، كالمؤلف الأفلاطوني الجديد أبوليوس، الذي كتب الحمار الذهبي (*The Golden Ass*)، ربطت المسيحية بممارسة الشعوذة ونبذتها⁽²⁾.

إن السونغاي، الذين يتكلمون لغة «نيلية - سواحلية»، مدركون كثيراً جداً لعلاقتهم التاريخية بمصر القديمة، التي يُعترف بها بشكل متكرر في تراثاتهم الشفهية والمكتوبة. ففي ملحمة أسكيا محمد، وهي طبعة من ملحمة غريوت سونغاي حوّلها توماس هيل إلى نص مكتوب عن أداء غنائي قام به نوهو ماليو، تقع لحظة الذروة عندما يكشف ابن الأسكيا (أو «الملك») أنه ليس رجلاً نقي الدم - لأن أمه كانت تنحدر من طبقة اجتماعية دنيا أو «ملوثة» عندما يشرب من قصعة ماء تنن. إن والده، الأسكيا، الذي تغاضى سابقاً عن خط دم ابنه المشوب، يبينه الآن بالتلميح إلى حليب أمه الملوثة⁽³⁾. رغم أن توازيات هذه القصة والمونوميث المصرية القديمة

(1) المصدر السابق، ص: 92.

(2) أبوليوس، الحمار الذهبي

P. G. Walsh, «Introduction» in Apuleius, *The Golden Ass* (Oxford: Oxford University Press, 2008), xxxiii- xxxix.

(3) توماس هيل ونوهو ماليو، ملحمة أسكيا محمد (بلومينغتون وإنديانابوليس: مطبعة جامعة إنديانا، 1996)، 60.

هي أوسع من أن نسبرها هنا، يجدر بنا أن نلاحظ التشابهات الواضحة بين هذه السردية السونغاوية والحكاية المشابهة لها التي تُروى في سفر التكوين. 25:30.

إن قصدي في هذا السياق هو أنه ليس الناس من أصل يهودي فقط هم الذين عبروا عن مشاعر القلق حول الحفاظ على سلامة إرث دمهم الأمومي، بل كثير من الشعوب الأفريقية والشرق أوسطية الأخرى عبر العصور أيضاً. في الحقيقة، هذه الثيمة القديمة هي إحدى المظاهر الأكثر ديمومة من الثقافات التاريخية لكل المناطق التي احتكت مع المصريين القدماء، وفيهم مؤسسو الديانة اليهودية وشعب السونغاوي. وليس خلافاً لطقس الختان، الذي دفع فرويد إلى التفكير في مديونية التحليل النفسي التاريخية لليهودية، القلق على صون نبالة الدم «النقي» للمرأة، المرتبط بالمفهوم العاطفي، أن بعض الجماعات التاريخية هي شعوب مختارة بشكل فريد في حين أن جماعات أخرى ليست كذلك، وذلك بسبب خطوط دمها «الملوثة»، هي بالكاد خاصة باليهودية كديانة بل تنبع من رحم ثقافي أقدم كثيراً من اليهودية، التي هي ديانة حديثة نسبياً بالمقارنة مع ديانة المصريين القدماء. إن الغريوت الغرب أفريقي الذي يغني المذائح لنبلاء الطبقة العليا هو أيضاً خاتن طقسي يغني في طقوس منح الألقاب، بشكل يشبه الموهل (*mohel*) [الخاتن] اليهودي. تكشف حفريات رودريك وماك إيتوش في جينو-جيني، وهي أقدم مدينة معروفة في غرب أفريقية، أن تراث الغريوت يمتد آلاف السنوات إلى الماضي، وأن جينو-جيني كانت على احتكاك مع الحضارة المصرية القديمة.

في حين أن المعتقدات الساحلية حول اللغة شبيهة بالمعتقدات اليهودية، فإنها أقرب كثيراً إلى تعبيرات اليهودية التي سادت قبل الإصلاح الذي دشنه ابن ميمون، إضافة إلى محاولات فيلون لزاوجة المسيحية-اليهودية مع الأفلاطونية، وكلاهما يتقدما دريدا⁽¹⁾. كما ذكرت أعلاه، فإن «رواح» هي الكلمة العبرية المقابلة لـ«الروح»، التي صورتها سابقاً أهيكا (*heka*) المصرية، والمترادفة مع نياكسامالا السونينكي ونياما

(1) دريدا، فصول في الدين

المندي ونيأما الفولفولدي، إلخ. لا يوحى أي من هذه المصطلحات القديمة من أجل «الروح» (spirit) (من «spiritus» اللاتيني]) بأي مفهوم يقوم على أساس يتجاوز نطاق الإدراك، يتم تصويره على أنه جوهر غير ملموس بعد، موجود حقاً، كما وُصف، على سبيل المثال، في حوارية أفلاطون (Phaedrus). إن المفهوم الأفريقي والشرق أوسطي «للروح» تعبير شفهي، أو حرفياً بخار أو ريح رطب. في كل واحدة من هذه الحالات ليس خارجاً عما فسر أفلاطون بأنه عالم الصيرورة، بل يشير إلى السائل الفعلي للجسد الذي يعتقد بأنه مادة مميتة وسحرية. هذا هو السبب في أن كل الذين يستهلكون هذا السائل الشديد الخطورة يتخللون أنهم مهددون بالفقدان الممكن لمنزلتهم النبيلة. عندما تمتزج السوائل الجسدية للآخر مع السوائل الجسدية للمرء، فإن التركيب الفعلي للجسد يُعتقد أنه يخضع للتحويل. إن المادة التي تدخل إلى جسد المرء، وهو وعاء راشح للمواد السائلة، يمكن أن تحدث أذى كبيراً، لكنها أيضاً يمكن أن تكون نعمة كبيرة في بعض الظروف. فالفارماكون السائل في كل منظومات الفكر هذه ليس خيراً ولا شراً في حد ذاته، بل هو الاثنان بشكل كامن في الوقت نفسه، تبعاً لما يُفعل به. إن ما ينبغي أن يكون واضحاً هو أن الـ رواح، الكلمة العبرية المرادفة لـ («spirit»)، ليست علامة مميزة (shibboleth) غير قابلة للترجمة، بل شبيهة، إن لم يكن من الممكن استبدالها، بطائفة واسعة من المفاهيم المصرية والأفريقية للروح، القديمة والمعاصرة.

ليس من قبيل الصدفة أن مناقشة دريدا الأكثر تعقيداً واتساعاً لاستقلال الطيف إنما يفصح عنها في قراءة ختامية متأنية لمسرحية هاملت من تأليف شكسبير، وهي في جوهرها إعادة سرد لمونوميث أوزيريس أو «كوكبة هاملت». لقد أعيد تمثيل دوري الثنائي الكوني حورس وسيث على امتداد ضفتي النيل على مدى آلاف السنين السابقة للشريعة الإبراهيمية، لا بل أيضاً قبل ظهور مركزية الكلمة (logocentrism) الأفلاطونية في اليونان (بالإضافة إلى شمال أفريقية). في الحقيقة، كانت هذه الشعيرة تقدم للجمهور مسرحياً أطول كثيراً من نظيرتها المسيحية، طقس العشاء الرباني. فيما بين المصريين القدماء، كانت الكلمة المحكية أيضاً مادة سحرية، مشبعة بالخواص

السحرية وخالية من الواقع الميتافيزيقي. فكانت الهيكا (*heka*) المصرية، وهي كلمة تعني «كلمة» و«سحر»، قوة خطيرة، وحتى مميتة، مكونة بالدرجة الأولى من السوائل الجسدية، وخصوصاً الدم الأمومي. ومثل المصطلح العبري ثنائي المعنى رواح (أو «روح»)، الذي يمكن أن يصبح أيضاً رواح رع، (*ruah ra'a*) العنيفة (أو «الروح الشريرة»)، تحمل الهيكا المصرية بداخلها القدرة الكامنة على إحداث الخير العظيم والشر العظيم. ينوه هرمان في فلهده إلى أن المفهوم المصري هيكا يمكن استخدامه بشكل مماثل لأغراض شريرة: «كان المصريون يدركون أن الطاقة الخلاقة غير المنظمة تعمل عملها أيضاً [في الكون]»، كما يلاحظ في فلهده. «في بعض الأحيان نقرأ عن هيكا شريرة أو الحاجة إلى حماية الذات ضد هيكا الآخرين»⁽¹⁾.

يتكلم دريدا بشكل مماثل عن رواح وتحولها الممكن دوماً إلى رواح رع أو «روح شريرة». ثمة، بحسب دريدا، حرب تستعر دوماً داخل الروح أو رواح - الحرب التي تقع باسم الإله بالذات. فالروح تكون بشكل مسبق «مقسومة، مشرومة، مزدوجة، متعددة المعاني (*polysemic*): تفكيك الإله»⁽²⁾. في كتاب الأموات المصري، يقسم الكاتب التقى آني بأنه لم يحفظ عهوده فقط بل أنه لم يأكل غائطاً بشرياً قط⁽³⁾. بين المصريين القدماء، كان الذين استهلكوا بشكل متعمد سوائل الجسد أو فضلاته قد فعلوا ذلك لكي يزيدوا من قدرتهم السحرية؛ أي، قدرتهم على إنزال الأذى عن طريق تلويث جسد الآخر، عن طريق الأذنين، بالهيكا الشريرة. في حين أن بولونيوس في هاملت يقتل أخاه الملك عبر صب السم في أذنيه، فإن المشعوذ المصري الشرير هاجم أعداءه من خلال التفوه باللعنات المميتة التي امتزجت مع السوائل الملوثة لجسده؛ كلمات كانت مصوبة إلى أذني ضحيته. في السياق الغرب

(1) هرمان ت. فلهده، «الإله هيكا في اللاهوت المصري»،

Jaarbericht van het Voorasiatisch - Egyptisch Genootschap. Ex Oriente Luxe, vol. 51 (1970) 175 - 86.

(2) Derrida, Acts of Religion, 108.

(3) ايغا فان داسو، كتاب الأموات المصري: كتاب المسير نهارا، ترجمة راييموند فوكنر (سان فرانسيسكو،

كاليفورنيا: كتب كرونيكل، 2008)، 134.

أفريقي، إذا كان الغريوت قد حول نفسه إلى «تابو» بأكل لحم أخيه، فإنه قد حول نفسه أيضاً إلى رجل سلطة، يخشاه بشكل خاص [أفراد] طبقة النبلاء الذين كانوا يرغبون في الحفاظ على نقاء دمهم وقلوبهم. لقد أدرج الباحثون السواحليون معاني مختلفة للمصطلح المندي نياما، بما فيها «شرير أو شيطاني؛ محايد أخلاقياً؛ خطير؛ مدنس: مانح للطاقة أو محرك؛ ضروري لأجل العمل؛ أو دال على نقص في التحكم بالنفس»⁽¹⁾. إنها «قوة»، «قدرة» أو، إذا كنت تفضل ذلك، طاقة، سائل يمتلكه كل إنسان»⁽²⁾. بشكل حرفي تماماً، النياما هي اللعاب، الدم، البول، الغائط، والمني، وهي مصطلحات بهذا الخصوص قابلة للتبادل فيما بينها. إن «الفارماكون» ينفذ دائماً مثل السائل، يعلن دريدا، إنه «يُمتص، يُشرب، يُدخل إلى الجوف... السائل هو عنصر الفارماكون»⁽³⁾.

الـ «روح» والأثر الأفريقي

إن الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها أيضاً دعماً لهذه المقارنات، في كل من النصوص الباقية للمصريين القدماء والنصوص الأحدث عهداً لأفريقية المعاصرة (خصوصاً غرب أفريقية)، هي أوسع من أن تسمح بأكثر من إيضاحات رمزية. بالإضافة إلى مفهوم الروح بوصفها نوعاً من ريح رطبة وسائل جسدي، أكد دريدا أيضاً مفهوم الطيف بوصفه النظير البصري للروح، معلناً أن الطيف هو «أي شيء لكنه لا شيء، أي شيء لكنه لا جسدي وأي شيء لكنه مجرد مظهر»⁽⁴⁾. «لو كنت

(1) تشارلز بيرد وبيرناب. كندال وكاليلو تيرا، «ايتمولوجيات نياماكالالا» في المنزلة والهوية في غرب أفريقية، تحرير ديفيد س. كونراد وبربارا إ. فرانك (بلومينغتون وإنديانابوليس، إنديانا: مطبعة جامعة إنديانا، 1995)، 28.

(2) Joseph Henry, *L'am d'un peuple africain: Les Bambara, leur vie psychique, ethique, sociale, religieuse* (Munster: Aschenhoff, 1910), 27.

(3) Derrida, *Dessemination*, 152.

(4) Jacque Derrida, "Marx & Sons," in *Ghastly Demarcations: A Symposium on Jacque Derrida's Spectres of Marx*, ed. Michael Sprinker (London and New York: Verso, 1999), 267.

أعني بالـ «طيف» ببساطة المظهر بدون الواقع والمادية»، يعلن دريدا، «لكنك قد هدرت قدراً كبيراً من وقتي ووقت الناس الآخرين دون مقابل»⁽¹⁾. لكن «الواقع» هنا لا يعني بالضرورة الواقع الجوهري بأي معنى ميتافيزيقي. على النقيض من هايدغر، يلح دريدا على أنه لا يوجد «لب سليم»، أو جوهر مخفي خلف ما يظهر، سوى التوق الذي لا يمكن اختزاله إلى «اللب السليم»⁽²⁾. لقد استحضّر دريدا في كثير من الأحيان طيف الـ رواح كمفهوم مكبوت للروح يسكن الفلسفة الغربية، خصوصاً لدى هايدغر، لكنه لم يكن لديه شيء ليقوله حول مفهوم الهيكا المصري الأقدم بكثير، بالإضافة إلى الأشكال المختلفة، مثل نياكسالا [قبيلة] السونينكي، ونياما المندي، ونياما الفولفولدي، وكلمات ذات صلة بها لا تعد ولا تحصى معروفة جيداً في شمال غرب أفريقية. إن إشارات دريدا المتفرقة إلى مصر يجري تقديمها بشكل نموذجي كإضاءات على الحوارات التي أجراها أفلاطون، أكثر من كونها

(1) Derrida, «Marx & Sons», 267.

المفهوم الدريدي للطيف تم التنبؤ به مسبقاً في الأدب المصري القديم بصفته «كا» الذي تمثله صورة هيروغليفية ليدنين تصفان. يشير الـ «كا» إلى بديل المرء البصري مثل الصورة الفوتوغرافية أو الخيال في المرأة. في الأدب الباقي، يعمل الكا بشكل مستقل عن جسد المرء، خصوصاً بعد موته أو أثناء النوم. على سبيل المثال، يفارق «كا» جسد المرء في الأحلام لكي يسكن أحلام أفراد عائلته وأصدقائه ومحبيه وأعدائه، إلخ. هذا المفهوم معروف جيداً أيضاً في غرب أفريقية، خصوصاً في الأخويات الصوفية كالتيجانية العمرية. تشمل المفاهيم الغرب أفريقية المرادفة مفهوم امبيلو (mbeelu) الفولفولدي، وروان التيجانية وجا المندية.

انظر:

Amadou Hampate Ba's Kaidara: A Fulani Cosmological Epic from Mali (Boulder, CO: Lynne Rienner, A Three Continents Book. 1988), 140- 1, and John Williams Johnson's The Epic of Son Jara: A West African Tradition (Bloomington, Indiana: Indiana University Press, 1992), 132.

انظر أيضاً مقابلي مع التيجانية العمرية لبودور، السنغال، «تيجانية الأوار، بودور: وايز انترفيو 2880». توجد هذه المقابلة في فيلم يمكن الاطلاع عليه على الشبكة. «تيجانية الأوار، بودور: وايز انترفيو 2008» من تأليف كريستوفر وايز وفالو نغوم (www.youtube.com/channel/UCa5zevWfzE4Ke6ptczN4Tg). Available November 1, 2013.

(2) جاك دريدا، أذن الآخر،

Jacques Derrida, Ear of the Other: Otobiography, Transference and Translation (Lincoln, NE: University of Nebraska Press, 1988), 114- 115.

اشتباكاً مباشراً مع أي نص مصري فعلي⁽¹⁾. على سبيل المثال، في مقالته «خورا»، وهي قراءة عميقة لكتاب أفلاطون (*Timaeus*)، لا يقدم دريدا أية إشارة إلى المفهوم المصري القديم للعدم، الذي يوثق بشكل وفير في المخطوطات المصرية ويسبق في التاريخ نظيره الأفلاطوني، الخورا، بآلاف السنوات⁽²⁾. يرفض دريدا بشكل مشابه أن يستقصي الأصول اللغوية لمفاهيم مثل رواح، الإبراهيمي، أو المسيحانية، في تناقض صارخ مع العنفوان الذي لا يمكن إضعافه الذي بات قرأه يتوقعونه منه عندما يحلل المفاهيم الإغريقية الشهيرة مثل لوغوس (*logos*)، ويوس (*bios*)، وزوي (*zoe*)، إلخ. إن القراء مطالبون ببساطة بأن يغفروا اعتياده على الدالات الدينية كالمصطلح الدوغماتي مسيحانية على أسس «تربوية» أو «بلاغية»⁽³⁾.

بالنسبة إلى دريدا، يشير مصطلح «مسيحانية» إلى بنية كونية غير قابلة للاختصار لكل التواصل البشري، طريقة استفزازية للتفكير حول الحقيقة بوصفها الوعد بما هو قادم. لكنه يرفض أن يستقصي أساس هذا المصطلح المثير للجدل في المذاهب التاريخية لاصطفاء الدم، ليس في اليهودية فقط بل في كل التراثات الإبراهيمية الكبرى أيضاً. لقد برز مذهب المسيح أو «المسوح» [بالزيت] في أعقاب السبي البابلي ولا يمكن فصله عن صعود مذاهب اصطفاء الدم في إسرائيل القديمة، كما هو جلي في تأكيد النبي عزرا أن الإسرائيليين ذوي الزوجات «الأجنبيات» والأطفال [الأجانب] يجب أن يتبرأوا من عائلاتهم ذوات الدم المشكوك في أصله. (سفر عزرا، 9: 1 - 12).

(1) يناقش دريدا بإيجاز المصادر المصرية الفعلية في الهوامش السفلية لكتابه الانتثار (*Dissemination*)، لكي يطور قراءته الاستفزازية لحوارية أفلاطون فيدرس (*Phadreus*). وليدافع عن موقفه، يستشهد دريدا أيضاً بقلّة من علماء المصريات الفرنسيين في قراءته لحكاية أفلاطون عن ثوث وناموس. هذه الحالات تمثل استثناءات نادرة بخصوص المصادر الأفريقية والشرق أوسطية غير «الإبراهيمية».

(2) إريك هورنونغ، تصورات الله في مصر القديمة: الواحد والعديد، انظر: Erik Hornung, *Conceptions of God in Ancient Egypt: The One and the Many* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1971), 173.

(3) دريدا، «ماركس وأبناؤه»، 229.

على بقية «صالحة» و«طاهرة»، إذا كان المسيح سيأتي في مطلق الأحوال. في الديانة المسيحية أيضاً، لا يأتي يسوع المسيح إلا من خلال خط دم داوودي أو «سلالة يسى» [أبو داود]. في تراث الشيعة، بطريقة المقارنة، يعاد نقش مذاهب اصطفاء الدم بالإشارة إلى شخصية المهدي، الذي يُعتقد بأنه سليل مباشر للنبي محمد عبر ابنته فاطمة وابن عمه علي. فليس من قبيل المصادفة أن المسلمين الشيعة يعتقدون أيضاً النظريات الأخروية [القيامية] التي تبشر بالعودة النهائية للمهدي ويسوع المسيح المحتجين الآن.

بالإضافة إلى الطوائف المسيحانية في الولايات المتحدة، مثل فرع داوودي واكو (Branch Davidians of Waco) في تكساس، التي ربطت بالقاتل الجماعي تيموثي ماكفي (Timothy McVeigh) ربما تكون أخطر أشكال الديانة الإبراهيمية هي [جماعة] غوش إمينم (Gush Eminent) والكوكيون (Kookists)، أو الصهيانة المسيحيون الذي يستوطنون حالياً الضفة الغربية الفلسطينية. في حالة الصهيانة المسيحيين، فإن الحاجة إلى صون نقاء الدم اليهودي يتم التأكيد عليها لكي تسهل مجيء المسيح، الذي لن يحدث إلا عندما تستعاد كل الأرض المقدسة. (بالنسبة للكثيرين، تشمل «الأرض الموعودة» أجزاء من الأردن بالإضافة إلى الضفة الغربية). حتى الحريديم الأكثر تمسكاً بالعقيدة يتبنون التفسيرات الضيقة لقوانين الدم، فيحرمون على غير اليهود التبرع بالأعضاء أو بالدم، ويسنون تحريرات أخرى. كما يعبر الحاخام الإسرائيلي يتسحاك غينسبرغ في مقالة ظهرت في صحيفة هاآرتس، «إذا استتبع كل خلية في جسد يهودي ألوهية، وكانت جزءاً من الإله، عندئذ تكون كل جديلة من الـ (DNA) هي جزءاً من الإله. لذلك، ثمة شيء خاص في الـ (DNA) اليهودي»⁽¹⁾.

رغم أن دريدا نفسه سيجد بلا شك بيان غينسبرغ إشكالياً، فإن قصدي هنا هو أن المفهوم القديم للمسيح/ المخلص يمتلك تاريخاً مشوشاً بشكل خاص،

(1) إسرائيل شاحاك ونورتون مزفينسكي، الأصولية اليهودية في إسرائيل Jewish Fundamentalism in Israel (London and Sterling, VA: Pluto Press, 1999), 43.

يجعله غير ملائم للاستعمال في السجل السياسي الدولي. إن «التمييز المهم سياسياً بين الدم اليهودي والدم غير اليهودي معروف جيداً لمعظم الإسرائيليين»، على حد تعبير شاحاك ومزينسكي، «لكن يتجاهله تقريباً كل الذين يكتبون عن إسرائيل وسياساتها»⁽¹⁾. يلاحظ شاحاك ومزينسكي أيضاً أن «اليهود المتدينين فقط الذين يؤمنون بالأيديولوجيا المسيحانية/ الخلاصية هم الذين كانوا راغبين في إقامة المستوطنات [الفلسطينية] والعيش فيها»⁽²⁾. إن مسألة التبعية المتبادلة بين مذهبي المسيح المخلص واصطفاء الدم تعقدها حقيقة أن الرواح العبري، مثل الهيكا المصرية والنياما المندية، لا يعني ببساطة «الروح» بأي مفهوم متعال، بل المادة الفعلية للأم أو دمها. عندما يتكلم دريدا عن «الشك الأمومي»⁽³⁾ أو «الشخصية الأنثوية ليهوه»⁽⁴⁾، التي هي تعبير لاهوتي أوضح عن الأولى، يلمح أيضاً إلى إشكالية الروح المحجوبة أو الرواح، التي يؤكد على أنها «في صميم» كل كتابته⁽⁵⁾. إن قلب الأم، الذي هو مصدر الدم البدني، هو «حيثما تدخر الكنز الحقيقي، الذي يكون مرثياً على الأرض، والذي يتراكم رأس ماله خارج اقتصاد المرثي الأرضي»⁽⁶⁾.

سواء كان المرء يمجّد أم ينبذ استعمال دريدا الاستردادي للمفاهيم اللاهوتية اليهودية مثل المسيح المخلص وميلاح (*milah*) ورواح، فإن لهذه الكلمات مع ذلك جذوراً لغوية (*etymologies*) خاصة وتنشأ ضمن أطر تاريخية محددة ليست غامضة. إذ توازيها وتسبقها مصطلحات مماثلة من مصر القديمة وأفريقية وبلاد ما بين النهرين. مع ذلك، يعتقد دريدا أننا قد لا نمتلك أية معرفة على الإطلاق بالمخلص والمفاهيم اللاهوتية المشابهة لأفريقية والشرق الأوسط بدون رسائل

(1) شاحاك ومزينسكي، الأصولية اليهودية في إسرائيل، 154.

(2) المرجع السابق، 82.

(3) جاك دريدا، أطراف ماركس (نيويورك: روتلج، 1994)، 109 - 110.

(4) Jacques Derrida, "Circumfession", in Jacques Derrida, Jacques Derrida and Jeffrey Bennington (Chicago, IL and London: University of Chicago Press, 1993), 155.

(5) دريدا، «ماركس وأبناؤه»، ص: 231.

(6) جاك دريدا، هبة الموت

Jacques Derrida, *The Gift of Death* (Chicago, IL: The University of Chicago Press, 1995), 98.

وحي أنبياء مثل إبراهيم وموسى وعزرا⁽¹⁾. في حين يعلن دريدا أنه ليس حازماً تماماً في هذه المسألة، وأنه «يتأرجح» بين الإيمان بالوحي النبوي ومفهوم أقل دوغمائية للإيمان كالقبول (Zusage) الهايدغري⁽²⁾، فإنه يختار أن يؤجل المسألة، محتفظاً بذلك بالمخلص كدال عام أكثر مما هو خاص على التاريخية. هذه الاستراتيجية تضمن أن ما يدعوه دريدا الإبراهيمي، أو ما يمكن أن يدعى بشكل أدق اليهودي (Judaic)⁽³⁾، يحتفظ بمكانة استثنائية لا يمكن تخفيضها، ولا مثيل لها في تاريخ الفلسفة الأوروبية.

إن اهتمام دريدا هو بشكل شبه دائم بما يدعوه «الفلسفي الإبراهيمي»⁽⁴⁾. بالمقابل، يكون الفلاسفة والشعراء والكتاب الأفارقة غالباً غير مباينين بالثبات

(1) جون كابوتو وجاك دريدا، التفكيك باختصار: مناقشة مع جاك دريدا John Caputo and Jacques Derrida, *Deconstruction in a Nutshell: A Conversation with Jacques Derrida*, (New York: Fordham University Press, 1997), 22 - 3.

(2) في قراءته لهايدغر حول مسألة الـ (Zusage)، يقول دريدا إن «اسم الـ Zusage (القبول، الإذعان، الثقة، العهدة) يدل على الشيء الأكثر امتناعاً على الاختصار، بل في الواقع الأكثر أصالة في الفكر، حتى قبل ذلك التساؤل الذي قال إنه يشكل ورع (Frommigkeit) التفكير» (فصول في الدين، 95). ينتقد دريدا هايدغر بسبب جزمه في أن «الإيمان عموماً لا مكان له في تجربة فعل التفكير عموماً». هنا يقول دريدا، «نواجه صعوبة في متابعتة». إن نقد دريدا لهايدغر مقنع وصحيح، إذ يصعب التشكيك في أن الإيمان «عموماً» كان له على الدوام مكان قبلي في فعل التفكير «عموماً». مع ذلك، يمنح دريدا Zusage الاسم المحدد المسيحاني، وهو دال ديني متضخم.

(3) كما جادلت في مكان آخر، تمثل تصورات دريدا للإبراهيمي والمسيحاني إلى أن تكون منحاذاة تاريخياً لصالح التصورات اليهودية لهذه المفاهيم العامة. في التراث المسيحي، على سبيل المثال، تحتل شخصية إبراهيم منزلة أدنى من الكاهن ملكيصادق (Melchizedek). وفي التراث المسيحي، يمنح ملكيصادق، الذي يُعتقد أنه غير مختون، بركته لإبراهيم بعد أن يتشارك طقس القربان المقدس، وهو طقس أكثر أهمية بكثير في التراث المسيحي من طقس الختان «الإبراهيمي». انظر سفر التكوين 14: 17 - 20 وسفر العبرانيين 7: 1 - 7؛ انظر أيضاً وايز، دريدا وأفريقية والشرق الأوسط (نيويورك: بالغريف، ماكميلان، 2009)، 34 - 5. بشكل مماثل، فإن المفهوم الدردي للـ «المسيحاني/ المخلص» يشير قبلاً على الدوام دوماً إلى بنية توقع. المسيحاني/ المخلص هو ما ننظره، وليس ما قد وصل للثو. لكن، في كل من المسيحية والإسلام، يسوع المسيح قام بالفعل، رغم أنه ليس إلهاً مجسداً في التراث الإسلامي. دريدا ينتزع إلى تجاهل المميزات الأنطولوجية المتأصلة في التراث الإبراهيمي غير اليهودية.

(4) دريدا، السيد والوحش، المجلد 1، ص: 314.

والمفاهيم والاصطلاحات والهواجس، رغم أن فكرهم يعود في أصله إلى نفس الرحم التاريخي والثقافي الذي ولد اليهودية. كما يعبر الشاعر الطوارقي هواد/ حواد في قصيدته «الرحلة الهذيانة للفوضى»:

إننا لا ننشر / قرآن محمد / ولا إنجيل ابن مريم / ولا توراة موسى /
فلا تبحت عنا في هذه الأمكنة.... / أحلامنا تكمن أبعد جنوبا /
حيث الذيل الحليبي للنجوم / يغتسل في جذور الهاوية⁽¹⁾.

إن لا مبالاة هواد وحتى عدائته تجاه الإبراهيمي يعبر عنهما ضمن سياق ثقافي لمجتمع «سواحلي عميق» يحمل بصمات الحضارة المصرية القديمة. الشيء نفسه يمكن أن يقال عن الشريعة الموسوية، التي تجعل دخولها التاريخي كرد فعل ضد الديانة المصرية، ضامنة بشكل ساخر الذاكرة المكبوتة للمعتقدات ذاتها التي تأمل الإطاحة بها.

لا حاجة للمرء بالذهاب بعيداً كما فعل فرويد، الذي يجادل في أن موسى كان مصرياً ومريداً ساخطاً للموحد [التوحيدي] الأول، أختاتون. كما يشير عالم المصريات جان أسمان، تحتفظ الشريعة الموسوية بذاكرة ديانة المصريين القدماء، كالوثنية المكبوتة التي ينبذها موسى وأتباعه. إن اليهودية، مثل المسيحية، قد جاءت إلى العالم كـ «ديانة مضادة» لأنها تنبذ وتبرأ من كل ما مضى من قبل وما هو خارج عنها بوصفه «وثنية»⁽²⁾. في الشريعة اليهودية، كما يشير أسمان، «تمثل مضر القديم، في حين تمثل إسرائيل الجديد.... المجاز نفسه يعيد إنتاج نفسه على مستوى آخر مع التضاد بين العهد «القديم» والعهد «الجديد»⁽³⁾. لاحظ دريدا بشكل مماثل أن

(1) Haward, «Anarchy's Delirious Trek,» in *The Desert Shore: Literatures of the Sahel*, ed. Christopher Wise (Boulder, CO: Lynne Rienner, 2001), 117.

(2) جان أسمان، موسى المصري: ذاكرة مصر في التوحيد الغربي
Jan Assman, *Moses The Egyptian: The Memory of Egypt in Western Monotheism* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997), 3.

(3) أسمان، موسى المصري، 7.

المسيحية كانت دوماً تفترض مسبقاً الحفاظ على اليهودية وتتطلبه حتى كشرط لتماسكها بالذات. في قراءته التقديرية لليفيناس في هذه المسألة، رأى دريدا أن اليهودية يمكن تفسيرها بوصفها «إمكانية لمنح الكتاب المقدس سياقاً، إمكانية لجعل هذا الكتاب صالحاً للقراءة»⁽¹⁾. لكن ما يصحح على اليهودية فيما يتعلق بالمسيحية، يصحح أيضاً على مصر فيما يتعلق باليهودية: «مصر هي الرحم الذي ولد منه الشعب المختار»⁽²⁾. في الحقيقة، عاش اليهود قرونًا في مصر وشمال أفريقيا قبل تدمير معبد هيرود وبعده، وفي أثناء هذا الوقت أثروا وتأثروا بمحيطهم الثقافي. عندما وصل الإسلام إلى غرب أفريقيا منذ أكثر من ألف عام، وقد أدخله العرب اليمينيون، كان اليهود قد سكنوا قبلئذ في البلاد، غير البعيدة عن تمبوكتو. وكما تم توثيقه في تاريخ الفتاش، فإن الجن القابع تحت الماء، راورا بن سارة، الذي يقال إنه حكم شعب سوغاني قبل وصول الإسلام، اشتهر بأنه كان يخشى رجلاً واحداً فقط، سليمان، ابن داوود⁽³⁾. كان الحاج محمود كاتي، مؤلف تاريخ سوغاني القروسطي، تاريخ الفتاش، مهاجراً سفاردياً إلى تمبوكتو، على أثر محاكم التفتيش الإسبانية، مثل الكثير من اليهود السفارديين الآخرين والمسلمين في شمال غرب أفريقيا، بما فيه الجزائر.

إن انتقاد دريدا للفلسفة الأوروبية يتم التعبير عنه من داخل إرث أدبي وثقافي وتاريخي معين، يجب ألا تستبعد منه شخصيات مثل المؤلف السوغاني السفاردي كاتي وكتاب مختلفين آخرين من تمبوكتو مثل اودان ودجن وكانو. هذا الإرث يشمل مؤثرات ومصادر يهودية، لكنه ليس محصوراً بها. إن دريدا، رغم أصوله الشمال أفريقية، قد رفض بشكل ثابت تقصي تاريخ ومكانة اليهود في شمال غرب أفريقيا، ولم يتقص أية مفاهيم لاهوتية يهودية، ضمن أي سياق آخر سوى السياق الأوروبي. لهذا يعين دريدا موقع الرواح بالنسبة إلى المفاهيم الفلسفية الغربية السائدة، وليس أبداً بالنسبة إلى المفاهيم الأفريقية أو الشرق أوسطية.

(1) فصول في الدين، 108.

(2) أسنان، موسى المصري، 209.

(3) وايز، تواريخ تمبوكتو، 50.

دريدا وهایدغر وروح

في حين ينبغي احترام خصوصية كل تعبير تاريخي عن مفهوم «الروح»، فإن التعبير اليهودي عن هذا المفهوم العام ليس مثلاً نموذجياً في التاريخ البشري، كما يلمح دريدا ضمناً عندما ينتقد تجاهل مارتن هايدغر لروح في كتابه عن الروح: هايدغر والمسألة (1989). بعبارة أخرى، إذا كان هايدغر صامتاً بشكل متعمد عن الروح العبري، وهو بالتأكيد نقد منصف لكتابات هايدغر، فإن دريدا بدوره صامت بشكل متعمد عن المفاهيم الأفريقية المترابطة بشكل لا يمكن فصله⁽¹⁾. أما بخصوص صلة هايدغر بالحزب النازي، فيعلق دريدا:

لم تولد النازية في الصحراء. كلنا يعرف ذلك، لكن يجب استذكاره بشكل دائم. وحتى لو نبتت مثل الفطر في صمت الغابة الأوروبية، بعيداً عن أية صحراء، لكانت قد فعلت ذلك في ظل الأشجار الكبيرة، في حماية صمتها أو لامبالاتها لكن في التربة نفسها⁽²⁾.

يموضع دريدا تعليقات هايدغر وكتابات حول المفهوم الأوروبي للروح داخل الملحمة التاريخية التي بلغت ذروتها في الشوآه، مستكشفاً بشكل حساس تجاهل هايدغر المحسوب ظاهرياً للروح. مع ذلك، فإن دريدا دافع غالباً عن هايدغر ضد الانتقادات الزائفة لعمله على أساس صلته بالحزب النازي. على كل، في هذه الحالة يعيب دريدا على هايدغر صمته المتجاهل عن الروح، رابطاً هذا التجاهل بصعود النازية. في كتاب الوحش والسيد، المجلد الأول، يشير دريدا دائماً إلى أن «المرء يكون دائماً مهملاً بشكل مسبق»⁽³⁾. يلاحظ أيضاً أن «التجاهل» هو «كلمة شديدة

(1) جاك دريدا، عن الروح: هايدغر والمسألة (شيكاغو، إيلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو، 1989)، 1-100.

(2) دريدا، عن الروح، 109.

(3) دريدا، السيد والوحش، المجلد 1، 94.

العمق ينبغي على المرء ألا يستعملها بطريقة مستخفة أو مهملة⁽¹⁾. بالتأكيد إن انتقاد دريدا لها يدغر في كتاب عن الروح ينم عن تفكير عميق وقوي ودقيق. لكن دريدا أيضاً يرى أن اليهودي المسيحاني يمكن تفسيره بأنه رمز كوني لأجل كافة الشعوب غير الأوروبية، بما فيها المسلمون⁽²⁾.

في كتابه حمى الأرشف (1995) [Archive Fever]، يستشهد دريدا بشكل ماثل برأي يوسف حايم يروشالمي الدوغمائي القائل إن «في إسرائيل فقط وليس في أي مكان آخر يوجد الأمر بالتذكر الذي يُشعر به أنه واجب ديني» [التشديد من عندنا]⁽³⁾. يخبرنا دريدا أنه «يرتجف» أمام هذه الجملة ويتساءل إن كانت عادلة. إن فرويد، بالمقابل، قد دعا الختان «بدعة غامضة بشكل خاص» إذا كان المقصود منه أن يميز اليهود عن القبائل الشرق أوسطية الأخرى، نظراً إلى انتشاره الواسع وتاريخه الطويل في المنطقة. إن «السؤال المتعلق بمنشأ الختان ليس له سوى جواب واحد»، يعلق فرويد، «إنه يأتي من مصر»⁽⁴⁾. إن التصورات العاطفية حول الختان كتصور يروشالمي يمكن أن تتصادى مع مظاهر الروحانية اليهودية التي يُشعر بها عميقاً، لكن لا أساس لها في التاريخ، وبالتأكيد لا تقدم مبررات لمنح دولة إسرائيل مكانة يحتذى بها، خصوصاً فيما يتعلق بالقانون الدولي.

في كتابه أطيف ماركس (Specters of Marx)، يقارن دريدا أيضاً المفكر المفكك للتقنيات، الذي هو في الواقع مفكر المستقبل الذي فكر خارج قيود

(1) المرجع السابق، 95.

(2) سيادات قيد المسألة، يقول دريدا:

«اليهودي هو الـ "شبوليث" [المزدوج/ المتعدد]. شاهد على الكوني، لكن كتفرد مطلق، باند، موسوم، ممزق، مقطوع - بوصفه الآخر وباسم الآخر. (وأضيف أيضاً أن الشبوليث، في التباسه السياسي المخيف، قد يسمى اليوم دولة إسرائيل، الحالة الراهنة لدولة إسرائيل... [اليهودي هو] شاهد على الكوني بوصفه تفرداً مطلقاً [التشديد من عندنا]» (سيادات قيد المسألة: شعرية بول سيلان (نيويورك: مطبعة جامعة فوردهام، 2005)، 50 - 1).

(3) جاك دريدا، حمى الأرشف: انطباع فرويدي (شيكاغو، إلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو، 1995)، 76.

(4) سيغmond فرويد، موسى والتوحيد (نيويورك: فيتيتج، 1939)، 29.

الموضوع الكانطي المنقوشة في قانون الأمم المتحدة، بالشخصية «الكونية» لليهودي المسيحاني. إن «اليهود بكل معاني الكلمة هم المختونون والخاتنون، أولئك الذين يمتلكون الخبرة، خبرة موجزة محددة بالختان»، يصرح دريدا. «إن أي شخص أو لا أحد يمكنه أن يكون يهودياً» [التشديد من عندنا]⁽¹⁾. يعلق جون كابوتو في قراءته لدريدا على هذه المسألة. «إذا كان الختان يهودياً، فإنه [يهودي] فقط... بقدر ما يكون اليهودي شاهداً على شيء ما كوني، على أننا من الناحية الروحية كلنا يهود، كلنا مدعو ومختار للترحيب بالآخر» [التشديد من عندنا]⁽²⁾. لكن ما يصحح على طقس الختان «اليهودي» يصح بالقدر نفسه على القبائل التي لا حصر لها مثل موسي ودوغون و وولف وسونينكي وفولاني، إلخ. إن تجربة الختان اليهودية ليست أكثر ولا أقل «اختصاراً» مما هي عليه بالنسبة إلى الذين ينتمون إلى جماعات إثنية أخرى كثيرة لا تزال تمارس الختان، والنقش القبلي وتقديم الأضاحي والوشم وشحذ الأسنان والأشكال الأخرى من التعليم [وضع العلامات] الطوطمي. قد يقول المرء ببساطة شديدة نحن كلنا «سونغاي وبيلا ولوبي»، وهلم جرا، بدلا من القول «كلنا يهود» مستبدلاً اسم آلاف الجماعات القبلية الشرق أوسطية والأفريقية الأخرى بشكل افتراضي في مكان الصفة «يهودي». لكن هذا ليس هو ما يفعله دريدا أو كابوت. إن مسألة المكانة غير الاستثنائية للهوية اليهودية خارج سياق مسيحي أوروبي لا تؤخذ في الاعتبار أبداً. ففي حين أن الصحيح هو أن اليهود قد عاشوا في أوروبا لقرون قبل الشوآه، فالصحيح أيضاً أن ملايين الناس الأفارقة والشرق أوسطيين يعيشون الآن في أوروبا وقدّموا أيضاً ويستمرّون في تقديم مساهمات مهمة في الثقافة والحضارة الأوروبيتين.

إن دريدا، في انتقاده لهايدغر، يفشل ليس في أرخنة (historicize) ونسبة (relativize) المفهوم اليهودي للروح فقط؛ بل إنه يصرح أيضاً بأنه ليس واثقاً

(1) دريدا، سيادات قيد المسألة، 55.

(2) جون كابوتو، صلوات جاك دريدا ودموعه (بلومينغتون، إنديانا: مطبعة جامعة إنديانا، 1997)،

من أن المسلمين وبعض الآخرين لن ينضموا إلى الحفلة والترنيمه [التشديد من عندنا] عندما يلقى مفهوم رواح اليهودي الاعتراف الذي يستحقه⁽¹⁾. يعود الفضل إلى اللاهوت اليهودي لمساهماته في الفلسفة الأوروبية، التي يتجاهلها هايدغر على خطأ، وهذا في الواقع سبب للاحتفال، كما يقترح دريدا، بما أن الفلسفة الأوروبية هي بالتأكيد مدينة للاهوت اليهودي كما هي مدينة للاهوت المصري القديم. لكن من هم هؤلاء «الآخرون» الآخرون، الذين يزعم دريدا أنهم «سينضمون إلى الترنيمة» خارج «المسلم»؟ (لا يميز دريدا بين السنة والشيعة، رغم التاريخ الطويل من الحرب والعداوة بينهما). من غير المرجح أن دريدا هنا يقصد المسيحيين اليهود ذوي النزعة المركزية الأوروبية مثل كابوتو، رغم أن هؤلاء هم «الآخرون» الفعليون الذين هم الأكثر رجحانا لأن يحاولوا الوصول إلى ترنياتهم. ومن الناحية الأخرى، من الصعب أن نتخيل المسلمين أو المسيحيين العرب الذين يعيشون في الضفة الغربية أو في غزة يحتفلون بترقية شخصية اليهودي المسيحي/ المخلص «الحياي» بشكل مزعوم إلى رمز شبه عالمي، أو أنهم لن يكشفوا أي دافع بروتستانت في هذه المناورة النقدية. من غير المحتمل أيضا أن هؤلاء «الآخرين» أنفسهم سيكونون سعداء بالاحتفال باستعادة مفهوم رواح العبري في تاريخ الفلسفة الأوروبية بدون الإشارة إلى المفاهيم التي لا حصر لها للروح الأفريقية والشرق أوسطية التي تسبقه وتوازيه.

يشير دريدا إلى أن النازية «لم تولد في صحراء». بالمقابل، فإن الديانة الإبراهيمية (في الواقع هي كلمة الشيفرة لأجل اليهودية) ولدت بشكل مزعوم في «المكان عديم المكان» (placeless place) من الصحراء السحيقة، الخواء «الخالى والمجرد والجاف» الذي هو مرادف آخر للخورا الأفلاطونية⁽²⁾. على كل، كما أن فلسطين لم تكن بالتأكيد صحراء خالية في عام 1948 («أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»)، فإن اليهودية لم تظهر متشكلة تماما في صحراء سحيقة بل تمت تنشئتها في المنبت

(1) دريدا، من الروح، 111.

(2) دريدا، أطيف ماركس، 166 - 7.

الثقافي لمصر القديمة، وبلاد ما بين النهرين وأفريقية. إن البحث الأكاديمي الأكثر موضوعية حول المنطقة، خصوصاً في الدراسات الشرق الأوسطية والأفريقية بالإضافة إلى علم المصريات المعاصر، تثبت أن اليهودية مثل كل ديانات العالم تمتلك تاريخاً فعلياً وتأثرت بالثقافات والديانات والمنظومات السياسية العديدة، بما فيها ثقافات وديانات ومنظومات المنافسين التاريخيين التي يجدر بالمرء أن ينسأهم.

إن دريدا، رغم أنه عاش في الجزائر حتى سن 19، قد ألح على أنه كان غير مؤهل جيداً، إن لم يكن غير كفؤ، عندما وصل الأمر إلى مسألة الفلسفة الأوروبية. فقد صرح دريدا، مخاطباً تجمعا للفلاسفة الأفارقة في كوتونو، بينين، في عام 1978، بقوله:

لن أتكلم إليكم حول الأزمة في تعليم الفلسفة في أفريقية ذاتها، قبل كل شيء لأنني لن يكون لدي ما أخبركم عنه... أشك في أن (الأزمة) في أفريقية تمتلك وحدة، حتى الوحدة كأزمة، ما لم يتم ربطها بأزمة الوحدة الأفريقية، التي هي شيء آخر مرة أخرى. علاوة على ذلك، فإنني لا أملك الوسيلة ولا الحجة لأعلمكم أي شيء على الإطلاق حول تنوع الأوضاع الأفريقية. وأخيراً، فإن مشهد [شخص] أوروبي أو حتى أورو-أفريقي يأتي ليشخص أزمة التعليم الأفريقي أمام الفلاسفة والباحثين والمدرسين الأفارقة يبدو مضحكا بشكل لا يُحتمل [التشديد من عندنا]⁽¹⁾.

رغم مزاعم دريدا خلافاً لذلك، فإن تجاهله للفلسفة الأفريقية بناء على عدم إمكانية الوصول إليها يبدو غير مقبول، بالنظر إلى كل من تاريخه الشخصي ومواهبه الملحوظة كمدرس وفيلسوف. يؤكد دريدا أن شهادته بخصوص أفريقية هي

(1) جاك دريدا، من يخاف الفلسفة؟ الحق في الفلسفة. المجلد 1 (ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد، 2002)، 108.

«محدودة» أكثر مما ينبغي⁽¹⁾. لكن لماذا مثل هذا التواضع الشديد إن لم يكن خوفاً من الفلسفة الأفريقية، خصوصاً في كتاب يحمل بشكل ساخر عنوان من يخاف الفلسفة؟ هل صحيح حقاً أن دريدا كان يفتقر إلى «الوسيلة والحجة» لينخرط بشكل نقدي في الفلسفة الأفريقية وأن مجرد تفكيره ذاته بأنه قد يحاول أن يفعل ذلك يبدو لقرائه «مضحكاً بشكل لا يحتمل»؟ من الممكن، بالطبع، أن دريدا لم يناقش أبداً المفاهيم الأفريقية المشهورة مثل هيكما ونياما، رغم تاريخها المشترك مع رواح العبري، لأنه لم يسمع بها أبداً. ما هو أكيد هو أنه بذل جهداً ضئيلاً جداً لاستقصاء الفلسفة الأفريقية، التي زعم أنها كانت بكاملها خارج نطاق إدراكه. بالنتيجة، يبقى تفكيك دريدا للميتافيزيقا الأوروبية محجوباً ضمن تفكير يهودي قصير النظر حول الأثر.

الاستفتاء العام الصهيوني

المهمة بالنسبة لقراء دريدا اليوم، على الأقل أولئك الذين يكافحون من أجل تعبير أكثر إنصافاً وشمولاً عن التفكيك، هي أن يحددوا موقعا للاصطلاحات الطيفية التي تسكن خطاب دريدا ضمن الإطار التاريخي الفعلي الذي انطلق منه انتقاده القوي لمركزية الكلمة الأفلاطونية. قد يظل المرء يحب فكر دريدا ويبجل المفكر من أجل مساهماته المهمة بشكل جلي في الفكر النقدي المعاصر في حين يعترف بأن آراء دريدا في الصهيونية لم تكن تمثل ما هو الأكثر نموذجية في فكره. تظهر قراءة دقيقة متأنية لكتابات دريدا حول مسألة الصهيونية أنه دافع عن الصهيونية في حين كان يعترف بعدد إمكانات الدفاع عنها بأي معنى سوى المعنى «الواقعي» أو «الماكيافيلي». لنقتطف من دريدا نفسه في محاضرة أقيمت في القدس في عام 1988، قوله: «من نافلة القول إن وجود [دولة إسرائيل] يجب الاعتراف به من الآن فصاعداً من قبل الجميع وضمانه بشكل نهائي»⁽²⁾. في المحاضرة نفسها، يعلن دريدا أيضاً تضامنه مع

(1) دريدا، من يخاف الفلسفة، 108.

(2) دريدا، فصول في الدين، 138.

كل الذين «يدافعون عن سحب الجنود الإسرائيليين من الأراضي المحتلة بالإضافة إلى الاعتراف بحق الفلسطينيين في اختيار ممثليهم»⁽¹⁾. من هنا، في حين ينبذ دريدا الاحتلال العسكري لفلسطين، فقد أكد مع ذلك حق إسرائيل الذي لا شك فيه في أن توجد كدولة يهودية، رغم أنه شدد على التأمل النقدي في «تاريخها السابق، وشروط تأسيسها الحديث، والأسس الدستورية والقانونية والسياسية لقيامها بوظائفها الحالية»⁽²⁾.

في حين كانت النقلة تقدمية في بعض الجوانب (وأكد دريدا أن التفكيك كان وينبغي أن يكون «تقدماً» على الأقل)، من المهم أن نلاحظ أن شخصاً مثل أرييل شارون حتى قد تحلى عن الحلم المشؤوم باستعمار غزة والضفة الغربية، ليس بدافع الصداقة للفلسطينيين بل لكي يتقذ الصهيونية نفسها، أو لكي يحافظ على هوية إسرائيل كدولة يهودية. لقد بنى شارون «حاجز الضفة الغربية» (بالعربية: جدار الفصل العنصري) لأنه حسب بشكل واقعي أن الديموغرافيات لم تكن لصالح اليهود الإسرائيليين. لم تكن دعوة دريدا إلى سحب الجنود الإسرائيليين من فلسطين المحتلة إيماءة تقدمية بالضرورة، بل ربما ارتبطت برغبته في الحفاظ على الخصيصة السياسية لإسرائيل كدولة يهودية. إن حديث دريدا «تفسيرات متحاربة: كانط، اليهودي، الألماني» هو تأمل في ضرورة نسيان العنف الذي يكون على الدوام سابقاً لتأسيس أية دولة قومية. يخبر دريدا جمهوره في القدس عام 1989 أن الذين يتمنون أن يكون لهم أي مستقبل على الإطلاق يجب أن يكونوا لا مبالين نوعاً ما بالماضي: «الأمة هي في الوقت نفسه ذاكرة (ونسيان ما يخص حشد هذه الذاكرة) و، في الحاضر، وعد، مشروع، «رغبة في العيش معاً»⁽³⁾ الأمة هي، بالنسبة إلى دريدا، «مبدأً روحي» [التشديد من عندنا]⁽⁴⁾. إن الانتفاء إلى أمة هو مسألة قول «نعم»

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع السابق، 185.

(4) المرجع السابق، 184.

على أساس يومي. إنها «استفتاء عام يومي، تماماً كما أن وجود الفرد هو تأكيد دائم للحياة»⁽¹⁾. مع ذلك، إذا كانت الأمة استفتاء عاماً يومياً أو مسألة «قول نعم»، فإن الـ «نعم» أيضاً هي بخار أو مادة رواح، في الحقيقة، مادة الأم. يؤكد دريدا روح الصهيونية ذاتها.

على كل، إن دريدا، في مناقشته «للأسس الدستورية والقانونية والسياسية للقيام بالوظائف الحالية [لإسرائيل]»، لا يفكك دريدا «قانون العودة» الإسرائيلي، ولا يدافع عن «حق العودة» الفلسطيني المشرّع في قانون الأمم المتحدة. إذا كانت الأمة اليهودية هي البقاء كأمة، إذا كانت ستمتلك أي مستقبل على الإطلاق، يذكر دريدا مستمعيه، فإن «نوعاً من اللامبالاة الجوهرية بالماضي» لا يمكن تفاديه⁽²⁾. بالنسبة إلى دريدا، إذًا، إن دولة إسرائيل واليهودي المقيم داخل دولة إسرائيل يظلان علامتين مميزتين (shibboleths)، رمزين «للتفرد المطلق»⁽³⁾. في مقالته بعنوان: «اعتراف مختون» (circumfession)، وصف دريدا نفسه كـ «يهودي أسود قليلاً [أسمر] وعربي جداً»⁽⁴⁾، لكنه لم يصف نفسه كـ «عربي أسود قليلاً ويهودي جداً». لقد ظل مصطلحا «أسود» و«عربي» بالنسبة إلى دريدا صفتين أخضعهما لياطرة الـ «يهودي». بالمقابل، استحضّر الفلسطيني إدوارد سعيد المفهوم الأكثر حيادية «للجرح العلماني»، الذي ليس علامة مميزة قبلية بل أثراً عاماً لا يمكن اختصاره إلى هوية عربية أو يهودية⁽⁵⁾. مع ذلك، ففي إحدى مقابلاته الأخيرة التي أجراها اليهودي الإسرائيلي آري شافاط، صرح سعيد بأن «تعريفي للعروبة الشاملة يشمل [كل] الجاليات [الإقليمية] ضمن إطار عربي - إسلامي. إنه يتضمن اليهود»⁽⁶⁾. عندما

(1) المرجع السابق، 186.

(2) المرجع السابق، 185.

(3) دريدا، سيادات قيد المسألة، 50 - 1.

(4) دريدا، «اعترافات مختون»، 58.

(5) إدوارد و. سعيد، فرويد واللاأوروبي (نيويورك ولندن: فرسو، 2003)، 54.

(6) إدوارد سعيد، «حق في العودة» (مقابلة مع آري شافاط)، في كتاب السلطة والسياسة والثقافة:

مقابلات مع إدوارد و. سعيد، تحرير غوري فيسواناثان (نيويورك: فيتيج، 2001)، 456.

رد شافاط بأن يهودا كثيرين في إسرائيل سيجدون هذا الاستشراف مخيفاً لأنهم سيصبحون آنذاك أقلية ديموغرافية، علق سعيد بقوله: نعم، ولكنكم ستكونون أقلية بأي حال. ففي حوالي عشر سنوات سيكون هناك تكافؤ ديموغرافي بين اليهود والفلسطينيين، وسوف تستمر السيرة»⁽¹⁾. ولقد مضى سعيد أبعد من ذلك، مضيفاً أن «اليهود أقلية في كل مكان. إنهم أقلية في أميركا. يمكنهم بالتأكيد أن يكونوا أقلية في إسرائيل»⁽²⁾.

إن حجة سعيد مكيفيلية بطريقتها الخاصة، بما أنه هو أيضاً ينتمي إلى أقلية دينية في العالم العربي، فقد كان وضعه كمسيحي عربي يؤكد وجود بليون مسيحي زميل يعيشون خارج المنطقة. في حالة المسلمين العرب، توجد إحدى وعشرون دولة مسلمة عربية إلى جانب فلسطين وأكثر من بليون مسلم زميل يعيشون عبر العالم. لا يوجد وضع ديموغرافي يهودي مماثل خارج المنطقة.

في حين أن حالات من التطهير الإثني الشبيهة بالشوآه قد حدثت بالفعل، كما يشير مؤرخون مثل نورمان فينكلشتاين ووارد تشرشل ونعوم تشومسكي، يقدم تاريخ اليهود في أوروبا أدلة على أن اليهود الإسرائيليين ويهود الشتات معنيان حقاً بما يمكن أن يحدث لهما إذا أصبح اليهود في إسرائيل أقلية ضمن ما يدعوه سعيد «إطار عربي إسلامي». ولقد كان سعيد نفسه يشاطر هذا القلق. في هذه المقابلة نفسها، يصرح قائلاً:

أقلق بشأن [الانتقام من اليهود]. فتاريخ الأقليات في الشرق الأوسط لم يكن سيئاً كما كان في أوروبا، لكنني أتساءل ما الذي سيحدث [لهم]. إنه يقلقني كثيراً. إن سؤال: ماذا سيكون مصير اليهود؟ هو صعب جداً بالنسبة لي. أنا لا أعرف حقاً. إنه يقلقني⁽³⁾.

(1) سعيد، «حق في العودة»، 453.

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع السابق.

لم يكن سعيد بهذه الدرجة من السذاجة كي يعتقد أن كل الفلسطينيين المطرودين يمكنهم أن يعودوا إلى أوطان أسلافهم التي استولى عليها اليهود الإسرائيليون فيما مضى. فقد كان يعرف جيداً أنه حتى العرب الكثيرون الذين يعيشون في إسرائيل والأراضي المحتلة لا يريدون حدوث ذلك. ومع ذلك فقد أكد على ضرورة احترام القانون الدولي وصرح تكراراً أن ضرباً من الاعتراف بارتكاب الظلم من طرف الإسرائيليين هو أساسي لأجل شفاء جروح الماضي. كان شعار سعيد «شخص واحد، صوت واحد»، حاذياً حذو مانديلا. إن الرأي الكانطي القائل بأن كل كائن بشري يجب أن تضمن له حقوق إنسانية عالمية لأننا جميعاً يجب أن نضع أقدامنا في مكان ما لا يمكن اختصاره إلى أيديولوجيات اصطفاء الدم كالصهيونية المسيحانية. «خارج حتى التحالفات مع شعب مختار»، يصرح دريدا، «لا توجد قومية أو نزعة قومية ليست دينية أو ميثولوجية، أو دعونا نقول «تصوفية» بالمعنى العريض»⁽¹⁾. لكن حق المولد الذي يقوم على واقع الإقامة في بلدة أو مدينة (المفهوم الليبرالي للمواطن يربط بالكلمة الفرنسية cite) ليس دينياً بالمعنى نفسه كما حق المولد الذي يستند على أسطورة اصطفاء الدم المصرية - الأفريقية القديمة. كما يرى المؤرخ الإسرائيلي زيف سترنهل، فإن «أولئك الذين يرغبون في أن تكون إسرائيل دولة ليبرالية حقاً أو أن يكون المجتمع الإسرائيلي مفتوحاً يجب أن يعترفوا بحقيقة أن الليبرالية تشتق من السعي الأولي في القرن السابع عشر لفصل الدين عن السياسة»⁽²⁾. خلافاً لدريدا، الذي لم يعيش في إسرائيل، ينبذ سترنهل بشكل واضح المساعي المضللة لليمين الإسرائيلي لخلط الدين والسياسة، مؤكداً على أن «الدولة الليبرالية يمكن فقط أن تكون دولة علمانية، دولة يقع فيها مفهوم المواطنة في مركز الوجود الجماعي» [التشديد من عندنا]⁽³⁾.

(1) درريدا، اطيف ماركس، 91.

(2) زيف سترنهل، الأساطير المؤسسة لإسرائيل

Zev Sternhell, The Founding Myths of Israel (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998), xiii.

(3) سترنهل، الأساطير المؤسسة لإسرائيل، xiii.

لاحظ نعوم تشومسكي بشكل مماثل أن «مواطني فرنسا هم فرنسيون، لكن مواطني الدولة اليهودية قد يكونون غير يهود، سواء بالأصل الإثني أو الديني، أو ببساطة بالاختيار... بقدر ما تكون إسرائيل دولة يهودية، لا يمكن أن تكون دولة ديمقراطية» [التشديد من عندنا]⁽¹⁾. إن «المواطن» الكانطي المشمول في ميثاق الأمم المتحدة هو رمز للرغبة في الإفلات من الدولة الشيوقراطية اللاعقلانية. هذا المفهوم، رغم أنه بالتأكيد لم يكن معيافاً من الحاجة المستمرة إلى التفكيك، قد تم صوغه في عصر التنوير لكي ينشئ فضاء مفرغاً من الديني، بالإضافة إلى توسيع أفق التحرر الفردي، بما في ذلك التحرر من المتطلبات الفريدة بشكل استثنائي للعقيدة الدينية. إذا لم يهرب الإنسان الديمقراطي الليبرالي تماماً من أساسه التاريخي في الدين، فإنه لا يستسلم له، ولا يتسامح مع استعمال المصطلحات الدينية العقيدية في وثائق الدولة. ففي مسقط رأسه، دافع دريدا بشكل أكثر تقدمية عن «الفصل الفعلي للسياسي واللاهوتي» لكي يحل نزاعات الجزائر المستديمة في أعقاب الاستعمار الفرنسي⁽²⁾. إن ما كان دريدا ينشده لأجل الجزائر هو مرغوب بالقدر نفسه في إسرائيل والأراضي المحتلة، والوصول إلى هذه الحالة، كما فعل إدوارد سعيد، ليس مساوياً لتشجيع «الثنتين» العالمي (globalatinization) أو الهلينة الجديدة (Hellenization) (-) لإسرائيل- فلسطين، بأكثر مما كانت رغبة دريدا في فصل السياسي واللاهوتي في حالة الجزائر «ملتنة» للعالم.

(1) نعوم تشومسكي، «مقدمة» في كتاب العرب وإسرائيل
Noam Chomsky, «Foreword», in The Arabs and Israel (London: The Bodley Head, 1968), 9.

(2) دريدا، فصول في الدين، 306.

خاتمة

لن يكون الطريق إلى السلام والأمن لأجل العرب الفلسطينيين واليهود الإسرائيليين طريقاً سهلاً. إن دعم الولايات المتحدة «الواقعي» وغير المتوازن للإسرائيليين قد فعل القليل بالتأكيد لإنشاء الثقة بفضائل المثالية الديمقراطية الليبرالية. علاوة على ذلك، لا توجد إشارة إلى أن الإسرائيليين سوف يستيقظون قريباً من إنكارهم الجمعي للوقائع الديموغرافية التي تواجههم الآن. لكن لا يوجد شيء لكسبه من تجاهل حقيقة أن لا السلام ولا الأمن يمكن تحقيقهما من أجل أي من الطرفين خارج إطار القانون الدولي الحالي، الذي يعاني عيوباً وفي حاجة إلى التفكيك، في حين أنه مع ذلك يقوم على مثل ديمقراطية ليبرالية وجمهورية أكثر مما يقوم على اللاهوتات الارتدادية لاصطفاء الدم.

– 8 –

ركس، أو نفي التيه

رانجانا خانا

في نهاية المطاف، إن التأثير المتناقض الذي أردت أن أصفه بشكل تخطيطي هو أن معاناتي كيهودي مضطهد... بلا شك قد قتلت في ثقة أولية بأية جماعة، بأية اجتماعية اندماجية، مهما تكن طبيعتها، وابتداء بالطبع بأي ائتلاف مضاد للسامية يدعي جذوراً إثنية أو دينية أو قومية... بالطبع، هذا الاحتراس القلق لغريب من الداخل، هذا الشك المؤرق، لم يفشل في الظهور إزاء الظاهرة التي تظل نموذجية وهي دولة إسرائيل.

جاك دريدا، «إبراهيم، الآخر»⁽¹⁾، ألوهيات يهودية: أسئلة لجاك دريدا، 15

يا ولدي، يجب أن تكتب على ألتك الكاتبة اسماً تختاره لنفسك. فأنت مثلي... تنجح، مع أنك لست كلباً. لا يمكنك أن تقف منتصباً، مع أنك لست كلباً! اكتب، الاسم سيخلقك، الاسم سيؤسس كل شيء، الاسم الجيد هو أفضل من الجسم الجيد، الاسم أفضل من القامة، أفضل من أي شيء، لكل مخلوق اسم، حتى

(1) جاك دريدا، «إبراهيم، الآخر» في:

Bergo, Cohenn Zagury –Orly, eds., Juddities: Questions for Jacques Derrida (New York: Fordham University Press, 2007), 15.

الصرصور، أدولف صرصور، إكليل الخلق، التاج، الإكليل، الإكليل حول رأس
الصرصور. اكتب اسماً.

يورام كانيوك، آدم يبعث حياً،⁽¹⁾ 218 - 219

إن الدولة الإسرائيلية، التي أنشئت في عام 1948، لا تمتلك دستوراً مكتوباً، لكنها سنت قوانين دستورية. أحد هذه القوانين سعى بشكل مشهور لجعل من الممكن «تجميع المنفيين» الذين وعدتهم الفقرة الخامسة من إعلان إقامة إسرائيل. في عام 1950، مرر الكنيست الإسرائيلي قانون العودة، معلناً حق كل يهودي في المجيء إلى إسرائيل والحصول على المواطنة الإسرائيلية، متوجهاً بذلك إلى شكلين من التشتت والانكشاف للخطر. كان الشكل الأول هو السياق المباشر للاجئين الكثيرين الباحثين عن ملجأ في أعقاب الهولوكوست و[ملجأ] من اللاسامية الأوروبية بشكل عام أكثر. كان هذا الشكل من إككاس أو نفي الشتات هو تلبية للنداء الذي أطلقه تيودور هرتزل، جزئياً كرد فعل على قضية دريفوس المثيرة للخلاف التي أدين فيها يهودي مستوعب الزامي فرنسي ظملاً بتسريب أسرار عسكرية فرنسية إلى الألمان. في نهاية المطاف، أعيد استدعاء دريفوس من مستعمرة العقوبات في غويانا الفرنسية وأعيد إلى الخدمة العسكرية⁽²⁾. وقد دعا هرتزل في كتابه الدولة القومية في عام 1896 إلى هذا التجميع مع مرور الزمن، متفهماً الانفعالات الشديدة والعداء للسامية اللذين دفعا قضية دريفوس من عام 1894 إلى عام

(1) يورام كانيوك، آدم يبعث حياً،

Bergo, Cohenm Zagury-Orly, eds., *Judeities: Questions for Jacques Derrida* (New York: Fordham University Press, 2007) 15.

(2) ثمة جدال حول مدى محورية قضية دريفوس في تحفيز مسيرة هرتزل في الكتابة والنشر. لكن، بالنظر إلى أنه كان صحافياً ليعمل لدى صحيفة (Neue Freie Presse) في باريس آنذاك، فقد كان للمحاكمة بعض التأثير بالتأكيد. للاطلاع على فهم جيد للمناخ المحيط بقضية دريفوس، انظر روث هاريس، الإنسان على جزيرة الشيطان: ألفرد دريفوس والقضية التي قسمت فرنسا (لندن: ألن لين، 2010).

1906 بوصفها قمة جبل الجليد فقط⁽¹⁾. كان هذا مع تفهم أنه بسبب اللاسامية المعاصرة، لن يكون اليهود آمنين في أوروبا. لكن هرتزل لم يكن معارضاً لدولة يهودية مستقلة خارج موقع إسرائيل المعاصرة، في الأرجنتين أو أوغندا، على سبيل المثال، حتى عندما كانت فلسطين بالتأكيد مرغوبة أيضاً بالنسبة له.

اتجه السياق الثاني للتشتت إلى زمن مسيحياني/ خلاصي، إذا جاز القول، والرغبة في إعادة تجمع اليهود التائهين في أمة، اليهود الذين تبعثروا بعد تدمير الهيكل الأول من قبل البابليين. إن الذين يتبعون صهيونية آحاد هاأم [آحاد هاعام] الخلاصية والروحانية رأوا الصهيونية بوصفها عودة من الشتات ونقياً له، ولذلك كان موقع فلسطين [تحت] الانتداب البريطاني ضرورياً لتبريرهما. فكان الزمن المسيحياني لصهيونية آحاد هاأم الروحانية بدوره يمثل نقيضاً لمسيحية اليهود الأصوليين أمثال نتوراي كارتا، الذين عاشوا في إسرائيل وخارجها منذ 1938 والذين كانوا مناهضين للصهيونية بشكل ثابت لأنهم يعتقدون أن وصول المسيح المخلص فقط هو الذي سيخلق دولة يهودية، وليس اليهود أنفسهم⁽²⁾. فجاءت الزمانية المزدوجة لدولة اللجوء ضمن سياق استراتيجية خروج استعمارية لأجل البريطانيين من فلسطين الانتداب. ولقت مفكرون مختلفون مثل حنة أرندت (1948 - 1951) وإيمي سيزار (في عام 1955) الانتباه إلى الصلة الوثيقة بين اللاسامية والإمبريالية والشمولية [التوتاليتارية] بوصفها السياق الذي ولدت فيه الدولة اليهودية. كان ذلك في العام نفسه الذي وضع فيه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في عام 1948⁽³⁾.

(1) ثيودور هرتزل، الدولة اليهودية: مسمى إلى حل حديث للمسألة اليهودية (نيويورك: مجلس الطوارئ الصهيوني الأمريكي، 1946).

(2) انظر كتاب ستيفن زبرشتاين، النبي المراوغ: آحاد هاعام وأصول الصهيونية (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1993). للمزيد حول هذا الخلاف، انظر الكتاين التاليين.

(3) انظر حنة أرندت، أصول الشمولية (نيويورك: هاركورت، 1994)؛ وإيمي سيزار، خطاب حول الاستعمار (نيويورك: مونثلي ريفيو برس، 2000).

إن ترافق زمانيتين مختلفتين للتجميع يعطي بعض التبصر في السبب في أن حنة أرندت (لا أكتب هنا في سياق إسرائيل، وباحترام كبير لمؤسسة المنفى) تشير إلى المنفى بوصفه مقولة مفارقة زمنياً سوف تستمر في الانحدار بالتوازي مع الدولة القومية. لقد ولدت إسرائيل أو أعيدت ولادتها، مع الرغبة العلنية في جمع اليهود كشعب واحد⁽¹⁾.

إن رواية يورام كانيوك آدم يبعث حيا (1971)، وهي شبه حكاية رمزية (allegory) قومية، تنكب على معالجة هذا السياق للهولوكوست، ألم البقاء، وعقابيله في إسرائيل من خلال تصوير الحد الفاصل بين العقل والجنون⁽²⁾. إن نقاط قوة الرواية وضعفها هي أنها، في محاولاتها لتضمين تمثيل للجنون مسرحي إلى درجة عالية، يكون في بعض الأحيان مسرحياً أكثر مما يجب، يمتد الرواية إلى حدود الشكل. يحدث مجمل الرواية في مصحح عقلي في صحراء النقب أقامته امرأة تدعى السيدة سيزلينغ في عام 1960، وهي محسنة أميركية تلتقي امرأة - كبرى التوأم شويستر - التي، بدورها، تقنعها بشكل غير مقصود بالحاجة إلى الأموال من أجل مصحح عقلي في إسرائيل. إذ تخبرها أنه في أرض الصحراء القاحلة، «سيعاد تفعيل الميثاق مع إبراهيم»⁽³⁾.

(1) انظر أرندت، أصول الشمولية، 280.

(2) هذا يختلف إلى حد ما عن الرأي الذي حمله جان بول سارتر والكثيرون جداً من مفكري منتصف وأواخر القرن العشرين رأوا شخصية اليهودي بوصفها شكلاً مجازياً خالصاً. فقد ألح سارتر على كون اليهودي نتاجاً لتصورات عنه من الخارج في كتابه اللاسامي واليهودي (نيويورك: شوكن بوكس، 1948)؛ ومثل هذه الأفكار علق عليها بشكل مفيد في مقالة ليفيناس «الوجودية واللاسامية»

Les Cahiers de l'Alliance Israelite universelle, 14-15 (June - July 1947): 2-3;

ومقالة دريدا، «إبراهيم، الآخر»، في: بيتينا برغو، جوزف كوهن، ورافائيل زاغوري - أورلي (محررون)،

Judeities: Questions for Jacques Derrida (New York: Fordham University Press, 2007), 1- 35; and in Levinas, «Etre juif», Confluences, 15 - 17, (1947)

حول هذا الموضوع انظر أيضاً سارة هامر شلاغ، اليهودي المجازي: السياسة والهوية في الفكر الفرنسي بعد الحرب (شيكاغو، إلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو، 2010).

(3) كانيوك، آدم يبعث حيا، 50.

هل تعلمين، يا عزيزتي السيدة سيزلينغ، لماذا تسمع هذه الصرخات، هذه الزعقات، في البلاد في آخر الليل؟.... إنهم يصرخون لأنه لا يوجد مَهْرَب. الإهانة تكوي. المعرفة، التحقق النهائي من أنهم ببساطة كانوا المادة الخام في المصنع الأكثر تطوراً في أوروبا، تحت سماء يسكنها الله في المنفى، من قبل غريب، هذه المعلومة تدفعنا إلى الجنون. يا لهذا الإذلال! هكذا حولنا هذا البلد إلى أكبر مصح عقلي على الأرض. إنني أخبرك ذلك خارج هؤلاء، هؤلاء المجانين الذين سيكون في الليل، سيدخل شخص سيدخل وادياً بين الصخور وسيستقبله الله بمودة ويتكلم إليه⁽¹⁾.

إنه يطالب بوعده التوالد من خلال التضحية الأبوية والتقوى البنوية - الوعد بأمة المستقبل من خلال بذرة إبراهيم: إبراهيم أنجب إسحق؛ إسحق أنجب.... هنا ذاك الوعد سوف ينفذ من خلال فكرة التكاثر في المصح.

إن أبرز نزلاء المصح هو آدم شتاين، الذي تم تربيته بشكل وحشي بوصفه كلباً لضابط نازي في معسكر في أثناء الهولوكوست. كان الضابط قد رآه كمهرج في السيرك قبلئذ بسنوات. إن سبيل نجاة آدم من المعسكر، وفقاً لأوامر القومندان كلاين، هو أن يسلي سجناء المعسكر (بمن فيهم زوجته وابنه) بكمائه وهم في طريقهم إلى الموت في حجرات الغاز. ثم يستأنف الإقامة والحياة على أطرافه الأربعة مع سيده الهُرّ [السيد] القومندان كلاين وكلب كلاين «الحقيقي»، ركس (Rex)، يتشارك الطعام مع ركس من قصعة الكلاب. ركس كلب يحمل اسم الملك. سيعاد إطلاقه على آدم في شكل مختلف كالطفل - الكلب، الكلب - الطفل، وربما بوصفه الكلب - الطفل لعلاقتها، حالما يصبح داوود، الملك الثاني لإسرائيل: ركس أنجب آدم؛ آدم أنجب داوود....

(1) كانيوك، آدم بيعت حيا، 51 - 2.

إن الدخول في مناقشة بخصوص الصهيونية، والطائفة، واستحالتها من خلال مفهوم اللجوء، أو ربما بشكل أدق من خلال لا مفهوم (non-concept) اللجوء، يسمح بالتبصر في هذا المصطلح العتبة الذي يقتضي ضمناً وجود داخل وخارج، التحام وانفصال، احتجاج أو عنصر هروب وإصرار دائم على الحياة في الحد الأقصى، مشفراً بين اللاوجود والتجريم الحي في قلب الطائفة. إن الجمع بين مفهوم الوطن السياسي في دولة، والحرم المتصور دينياً، والمستشفى العقلي هو تحطيم للمفاهيم العامة للملاذ التي تحيل إلى الشخصية الأكثر تفرداً، من ناحية أولى، وإلى جماعة يتم تصورها دينياً وتكوينها سياسياً بوصفها تحققاً للدولة القومية الحديثة، من الناحية الأخرى.

إن اللجوء، بسبب بعده الزمني، يستبق مشكلة المولد ضمن المجتمع⁽¹⁾. دولة اللجوء، المتخيلة بوصفها تكبر من الداخل ومن الخارج، وبنى الموروث (hereditary) وبنى الميراث (inheritance) التي تسودها، تشكل، من جهة أولى، العلاقة بالجماعة من خلال العلاقة البنوية المنظمة من خلال الملكيات والملكية، ومن جهة أخرى، النقل الأكثر علنية للملكية الذي يكمن داخل الميراث ومشكلة وهبها/ دَينها⁽²⁾. إن المصح يغتصب قاصديه باستحالة/ إمكانية الكينونة خارج مثل هذه العلاقات الجماعية أو البنوية. لكن طالبي اللجوء أيضاً يكونون خارج قيود كينونتهم مشبهين بالبشر (anthropomorphized) بالأسماء الصحيحة للميراث والجماعة، أو بالبنى القانونية (والليبرالية الآن) للكرامة الممنوحة من خلال الاعتراف، أو الإقرار، أو نطق الأسماء التي تأتي مع التطبيع أو التوثيق أو الحجز أو المأسسة⁽³⁾.

(1) لقد توسعت أكثر حول ذلك في مقالة «الإهانة»، في مقالة (7 - 39: Positions 16:1 (2008))، ومقالة «حق اللجوء» في مجلة تكساس للقانون الدولي

Texas International Law Journal, 41:3(2006), 471 - 90.

(2) أنا مدّين لروزاليند موريس في استقراؤها الفروق بين الوراثي والميراث في كتابها القادم قيد الإصدار.

(3) أفكر هنا من خلال مقالة بول دي مان «التشبه بالبشر والمجاز في الشعر الغنائي» في بلاغة الرومانتيكية (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، 1984)، - 239 62؛ ومقالة باربره جونسون «التشبه بالبشر في الشعر الغنائي والقانون»، مجلة ييل للقانون والإنسانيات، 594 (1998).

تطلبنا رواية كانيوك بأن نعالج احتمالات أن نكون تجاوزنا حدود الاسم على مستوى التشخيص الفردي، وتثير مسألة كيف يثي الاسم بشيء ما حول تسمية شعب - شيء ضروري، لكنه دوماً مشوه، وفي حده الأقصى فعل إبادة كامن، مع البدائل الوحيدة للموت والبقاء اللذين تتوازن عليهما الإبادة الجماعية. إن مسألة اسم الجماعة ذاته هي بالكاد جديدة وهي، بالنسبة إلى «اليهودي»، موجودة في «حول المسألة اليهودية» حيث يعالج ماركس الفرق بين العدل والقانون، ومشكلة انتقاد شكل واحد من الحقوق بوصفه خطيراً بشكل مطلق على التحرر الإنساني. إن ماركس، إذ يقر بضرورة التعامل مع تواريخ الأحكام المسبقة والتمييز والعنف الإباضي الجماعي، يطالب في الوقت نفسه بالحماية ونبد الحقوق الموعودة على مفهوم ليبرالي للحرية من التدخل. ينكب إنغلز على مشكلة الميراث نفسها مع المعاني الضمنية للاسم الحقيقي واسم العلم عندما يكشف الاختلاف الجنسي في العلاقة بين التكاثر والحق والزواج الأحادي والملكية الخاصة بوصفها «الهزيمة التاريخية العالمية للجنس الأنثوي»: اليهودي أنجب المرأة.

يكشف فهم إسرائيل والصهيونية من خلال رواية كانيوك عن زمانيات متعددة تتلاقى على فضاء أو مدينة اللجوء وتتعلق بمن يمكن استقباله فيها، وكيف يمكن منح الضيافة المشروطة أو غير المشروطة ومن يقرر بالفعل من يُمنح ذلك اللجوء هو حق الدولة في أن تمنح حقاً إنسانياً أو تحرمة، هو حصر الدخول إلى اللجوء تحت بنود «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان». إذا كان قانون عودة إسرائيل قد سعى إلى تخفيف ذلك بإعطاء كل اليهود الحق في اللجوء، فإن إسرائيل قد احتفظت مع ذلك بالحق الديني في منح اللجوء عندما اشترطت الدولة أن يكون إثبات اليهودية ضرورياً. اللجوء هو النفي لشيء هو النواة ليس لمقولة الشتات اليهودية فقط، بل للحدثانية أيضاً، لحدث الدولة القومية، وفي الواقع لليهودي التائه كشخصية مركزية ضمن ذلك. إذا كانت اليهودية نفسها تتخيل اللجوء دائماً بوصفه نهاية للشتات، فقد كان ذلك ممنوعاً في السرديات الحدثانية لليهودي التائه، التي حولت بشكل مفارق

مصطلح الهجوم العنصري إلى فضيلة كوزموبوليتية معلّنة. يكتب غيل أنيدجار في مقالته حي الأرشف (Mal de Sionisme):

الصهيونية هي أيضاً غاية اليهودية، تحقيق «اليهودي الجديد» أو ما دعاه بنجامين بيت- هالامي بشكل أدق «اليهودي الضد» (the Anti-Jew) الذي هو أكثر أو أقل يهودية من اليهودي («اليهودي الجديد» كنيض لـ «اليهودي القديم» النفي)، أو الذي ببساطة لم يعد يهودياً. باتباع المنطق الضيق للتممة (supplement)، فإن الصهيونية في الوقت نفسه تنضاف إلى اليهودية وتحل محلها. إلى حد أنها تدعو إلى نهاية المنفى (المفهوم الصهيوني لـ «نفي المنفى» شيلات ها- غالوت shillat ha - gallut) إلى حد أنه يجسد ما وصفه ليفيناس بأنه طريقة «للتهرب أو التبرؤ من حقيقة الشتات»، تمتلك الصهيونية أيضاً علاقة سلبية بشدة، وحتى تدميرية، باليهودية، علاقة تؤكد ذاتها بالشكل الأقوى في البلاغة المثيرة للجدل الذي يساوي بشكل متكرر اليهود بدولة إسرائيل (دولة تستمر في الإشارة إلى نفسها بوصفها «دولة الشعب اليهودي» في مجملها)، زاعمة بذلك أنها تمثلهم، لكن أيضاً تشكل البديل عنهم، واضعة نفسها بدلاً منهم - بطريقة ليست خالية تماماً من الأصداء المهددة بالخطر - بعدهم.⁽¹⁾

تكتب نتا فان فليت أيضاً في كتابها اختلاف إسرائيل، عن الطبيعة المتناقضة لإسرائيل - فهي في الوقت نفسه دولة يهودية ودولة ليبرالية حديثة - منكبة على صعوبة جمع مفهومين يتناقض أحدهما مع الآخر ويشوشان كيفية فهم الدولة. بالإضافة إلى ذلك، فإنها ترى عكس (contra) أنيدجار، أن الصهيونية لم تجعل من إسرائيل بديلاً عن اليهود، أو تستبدل باليهودي اليهودي الجديد، بل بالأحرى،

(1) غيل أنيدجار، «الحلم الصهيونية» في كتاب إليزابيث وير (تحرير)، مجتمعات العنف والسلام لدى دريدا (نيويورك: فورد هام، 2012)، 49 - 50.

حتى بشكل غير متعمد، تجمع الاثنين معاً باستمرار - بطرق مختلفة كثيرة. بالنسبة لها، أكدت الصهيونية الإسرائيلية على كونها ديمقراطية ليبرالية (ذات مواطنة عالمية) ويهودية في الوقت نفسه، محددة الاختلاف بينهما لكنها تجعلهما أيضاً غير قابلين للانفصال. إذا كان اليهودي بالنسبة لها متماً لإسرائيل، فإنه يسلط الضوء على مشكلة الاختلاف بالنسبة لشكل الدولة القومية، الذي يشير عندئذ إلى التعامي عن الاختلاف الجنسي الذي يُكشف في شكل الدولة القومية من خلال مثال إسرائيل، وفي الواقع طبيعتها النموذجية⁽¹⁾.

إن الاختلاف الذي تم توسيعه في مجادلة فان فليت يمكن توصيفه بمصطلحات ميريام ليونارد كتوسيع أكثر للانقسام بين أثينا والقدس، أو العلاقة المجازية التي تمتد من العصر الروماني إلى الحاضر بين اليوناني واليهودي من توتوليان إلى جيمس جويس: بين الهلينية (Hellenism) والعبرانية (Hebraism)، المسيحية والوثنية، العقلانية واللاعقلانية، العلمانية والدين. تؤثر الثنائية الجغرافية باتجاه اختلاف جوهرى، يمكن أن نقول: الاختلاف الجنسي. إن السطر المستشهد به غالباً من رواية يوليسيس لجيمس جويس يسلط الضوء على البقعة العمياء [مشيراً] إلى الاختلاف بوصفه مكبلاً [مغلفاً] داخل الاختلاف الجنسي - «منطق النساء: اليوناني اليهودي يساوي اليهودي اليوناني. الطرفان الأقصيان يجتمعان». في حين يقرأ ليونارد هذا بشكل صائب تماماً بوصفه يحيل إلى فكرة لاعقلانية النساء، يمكن للمرء أيضاً أن يقول إنه، مثل المناجاة الأخيرة لمولي، يفتح على شكل من اختلاف أنثوي لم يتحقق بعد، أصبح مهماً للغاية لأجل دريدا ولأجل الكتابة الأنثوية (*écriture feminine*) لسيكسو Cixous - رواية عاش البرتقال! (*Vivre L'Orange*) أو عاشت وهران/ إيران - والذي يلعب بالفعل أيضاً بمعنى المنفى الداخلي من موقع الانتماء، وهران - أي [أنا]، وهران - جي [أنا]، الذي هو شكل من الإقرار بأن أمة المرء، بعيداً عن كونها ملاذاً (sanctuary) غير مؤهل، ترك المرء مفتوحاً على نزوات سيادة الدولة. كان بإمكاننا أن نفهم هذا بشكل سيروي

(1) نانا فان فليت، رسالة دكتوراه غير منشورة، «سجل إسرائيل»، تموز 2012، جامعة ديوك.

ذاتي بوصفه يهودياً في وهران، في الجزائر في أثناء لحظة إلغاء المواطنة الفرنسية من أجل اليهود في عهد فيشي. يعترف آدم شتاين بذلك جيداً عندما يقول، متفكراً في استعمال مصطلح «صابون» في إسرائيل الذي يدل، بعيداً عن النظافة، على التخلص من شخص ما أو الشخصية التي تستحق التخلص من خلال الإشارة إلى شائعات الصابون النازي المصنوع من اليهود: «إذا كنت قالباً من الصابون في بلد الملاذ، عندئذ أكون قد أتيت إلى الوطن»⁽¹⁾.

ليوبولد بلوم هو اليهودي التائه الأساسي للحدثاوية الأدبية. إنه لأمر شائع أن الحدثاوية بشكل عام، ويوليسيس بشكل خاص، تُعنى بالمنفى والاعتراب⁽²⁾. عندما يجادل في مقولة المنفى، يكون ذلك عادة في سياق أي نوع من المنفى، سواء كان قسرياً أم اختيارياً، سواء كان فعلياً أم مجازياً (كما نوقش في عمل سيكسوس التذكاري منفي جيمس جويس) أو بكلمات روبرت التي تتكلم عن ريتشارد في مسرحية جويس بعنوان المنافي (Exiles)، «اقتصادياً» أو «روحياً».

يقرأ ريتشارد وصف روبرت له:

ثمة أولئك الذين تركوها [البلاد] ليبحثوا عن الخبز الذي يحيا به الإنسان، وثمة آخرون، لا بل أولادها الأكثر حظوة، الذين تركوها ليبحثوا في بلدان أخرى عن غذاء الروح الذي تستدام فيه أمة من الكائنات البشرية في الحياة... أولئك الذين تركوها في ساعة حاجتها⁽³⁾.

(1) كانيك، آدم يميث حيا، 133. انظر أيضاً مجيما البرتقالي (Vivre l'Orange (Paris: de femmes, 1979).

(2) جويس، يوليسيس (هوليوود، فيلادلفيا: سيمون أند براون، 2013).

(3) جويس، المنافي، مع هوامش المؤلف ومقدمة بقلم بادريك كولوم (لندن: دار غرانادا للنشر، إعادة 1983)، 7 126-. انظر أيضاً هيلين سيكسوس (Helene Cixous)، منفي جيمس جويس (نيويورك: دي. لويس، 1972).

لكن حتى في يوليسيس، النص الأيقوني للحدثية الأدبية، فإن مقولة المنفى النظرية هي مقولة مفيدة من أجل الانكباب على النص و، في الواقع، على فترة الأدب ذات الصلة.

إذا كان إريش أورباخ يبدأ وينهي كتابه المحاكاة (*Mimesis*) بالأوديسات - مناقشة هوميروس في الفصل الأول، ومداخلات موجزة حول يوليسيس لجويس في فصله الأخير عن فرجينيا وولف - فإنه يسعى ضمناً إلى تحديد التشكل المختلف لمفاهيم المنفى في تاريخ ما يعتبره الأدب الأوروبي⁽¹⁾. تقدم أوديسة هوميروس العالم من خلال إنسان عادي، أوديسيوس، والآلهة الذين تدخلوا في حياته. في حين تدور الملحمة بشكل مزعوم حول رحلات أوديسيوس المنفوية عندما يعود من الحرب الطروادية، يذكرنا أورباخ بأن إطاراً زمنياً آخر يجري تقديمه، ليس كذاكرة بل كزمانية مختلفة عن زمانية السردية الرئيسة. يصبح أوديسيوس أكثر نمطية وفي الوقت نفسه أكثر تفرداً بشكل خاص بهذه الحكايات المسرودة حول ماضيه ومواضي الآخرين. في حين يعتقد أورباخ أن جويس يستمر في سبر شخصية إنسان عادي، فإنه يقر بالتركيز المستمر على موقع بعينه. إن الصعوبة الشديدة لرواية يوليسيس لجويس، بالنسبة لأورباخ، هي العقول التائهة لأصوات سردية مختلفة كثيرة، تكون منفية عن ذاتها زمنياً بإقحام الذكريات. لكنها أيضاً منفية بعضها عن بعض بالانفصال المرسوم لعواملها بالرغم من سياقها الخاص في دبلن. المنفى، إذًا، لا يُحدد ببساطة في حقيقة بلوم اليهودي التائه، الذي يكون غريباً بالضرورة، أو ستيفن الشاعر الجوال، بل أيضاً في كونها منفين عن ذاتيهما، يحتويهما فضاء مشترك.

في فصل «سيرسه» (Circe) المتوتر من رواية يوليسيس، يحرفن (literalize) بلوم، ثم الآخرون، أو يتزعون المجاز (demetaphorize) عن النزاع الموقعي من خلال المناقشة المُجَنَّوَسَة (gendered) للملاجئ والمصححات العقلية. إنهم يسلطون الضوء على الحركية الأقل للنساء والأنواع المختلفة من «حبسهن» - «أنقذوا مصحح

(1) إريش أورباخ، المحاكاة: تمثيل الواقع في الأدب الغربي (برينستون، نيو جيرسي: مطبعة جامعة برينستون، 1953).

ماغدالن للنساء الساقطات» - أو نبذ السوائية الجنسية من خلال عبارة مولغان: «الدكتور بلوم شاذ بشكل ثنائي الجنس. لقد فر مؤخراً من المصح الخاص للدكتور يوستيس للسادة المعتوهين»⁽¹⁾.

إننا نرى شكلاً آخر من نزاع المجازية في لاسامية إيرلندا يُكشف من خلال عدم وجود مصح لأجل اليهود، وفي هذه الأشكال من الصراع البنيوي مثل صراع السارد المجهول الاسم في فصل «سيكلوبس» (Cyclops)، الذي يصبح «اللا أحد» [النكرة] التائه من الأوديسة، يعود ليسكن المكان بعد أن خُدع وهو مفعم بالاستياءات من البلاد والأسرة والكساد الذي سببته الانقسامات السياسية المريرة في المدينة. يجلس الشخص الذي يسمى المواطن مع كلبه، الذي يدعى غاريوين، يعطيه من حين إلى آخر شيئاً لياكله⁽²⁾. إنه يوبخ بلوم ساخراً لكونه يهودياً في حين يدمدم غاريوين له ويشمشمه، الأمر الذي يستثير تعليقاً حول رائحة اليهود:

- وأنا أنتمي إلى عرق، يقول بلوم، مكروه ومضطهد أيضاً. وهو كذلك الآن. في هذه اللحظة بالذات. في هذه اللحظة بالذات.

اللعة، أوشك أن يحرق أصابعه بعقب سيجاره القديم.

- لقد سُرق، يقول. سُلِب. أهين. اضطُهد. يؤخذ ما هو حقنا. الآن، في هذه اللحظة، يقول، وهو يرفع قبضته، يباع بالمزاد في المغرب، مثل العبيد أو الماشية.

- هل نتحدث عن أورشليم الجديدة؟ يقول المواطن.

- أنا أتحدث عن الظلم، يقول بلوم⁽³⁾.

تصبح رواية عوليس إذاً نصاً للسجن والتوتر السياسي بقدر ما هي نص للمنفى والتجاوز المستلب. وتصبح معالجة الظلم مخاض حب مُعلمناً (secularized)

(1) جويس، يوليسيس، 434.

(2) غارياوين، وتعني حرفياً حديقة يوحنا، تشير إلى مكان خارج ليمريك في إيرلندا، الذي كان مستشفى خارج أسوار المدينة.

(3) جويس، يوليسيس، 285.

بالضبط لأن الفضاء والاسم ومنزلة المواطن ليست كافية، بالنسبة لبloom، لمواجهة ذلك الظلم. إن اليهودي، الذي يحمل في عوليس أثر اللاإنسان، الممثل هنا من خلال هذه المناقشة للرائحة، يلقي الشك على الخطاب القومي الجمهوري الأيرلندي (وفي الواقع أي خطاب).

تقليدياً، تتعرف الكلاب على الإنسان عندما تعرف أنه صاحبها. هذا هو الدرس من تعرف أرغوس على أوديسيوس في الأوديسة. في مقطع بينيلوب الأخير، يرى أرغوس صاحبه يقترب. إنه يثب فرحاً بشكل خاطف، وهو منهك وملوث بالتراب، عندما يرى أوديسيوس، الذي يذرف دموعاً لأجله. ويموت أرغوس، راضياً عن تعرفهما المتبادل الظاهر. إلى حد أن الكلب الذي يسميه ليفيناس بوبي، وهو كلب يرى ليفيناس أنه قد يكون ابن ابن إلخ أرغوس، قد يكون أرغوس هو الكانطي الكبير الأول. يقترح ليفيناس أن بوبي، وهو كلب مهزول «بقي حياً في بقعة برية ما في منطقة المعسكر في وحدة كوماندوس الغابات لأجل السجناء اليهود في ألمانيا النازية التي احتجز فيها ليفيناس مع 70 آخرين، كان الكانطي الأخير في ألمانيا النازية، بدون الدماغ اللازم لتعميم الحكم أو الدوافع»⁽¹⁾ في عوليس، يجري تقديم العلاقة بين الإنسان والكلب بشكل آخر؛ يبدو غاريوين وهو يشم رائحة أثر الحيوان في bloom، الذي لم يكن بعد إنساناً، أو على الأقل لم يكن بعد مواطناً، الذي هو كل إنسان تائه حديث.

لكن لنعد، إذًا، من الرائحة إلى الاسم. فقد كان بوبي، كما قال ليفيناس، «اسماً غرائبياً» يمنح «كما يفعل المرء مع الكلاب». قبلئذ في آدم يبعث حياً، يواجه القارئ بالسخرية من الاسم ومعاملة الاسم بوصفه مثيراً للسخرية. إذ كان آدم يسمي نفسه آدم، فإن ذلك بنفس الإيحاء التي كان القومندان كلاين ينادي بها كلبه ركس:

(1) إيثانويل ليفيناس، الحرية الصعبة، ترجمة شين هاند (بالتيمور: مطبعة جامعة جونز هوبكنز، 1990)، 153.

آدم اسم ظرف. الهنود أطلقوا على الإنسان الأول اسم مانو (Manu)، الذي يعني سيد النوايا والأفكار العظيمة والسحرية. الإغريق، الذين اخترعوا المنطق، الذين اخترعوا الديمقراطية بمساعدة العبيد، ونظام الصرف الصحي الحديث والدراما، أطلقوا على الإنسان اسم أنثروبوس (Anthropos): بعبارة أخرى، المراقب من فوق. الرومان أسموه هومو (homo)، الحيوان الناطق. العبرانيون أسموه آدم (Adam)، تيمناً بالمادة - التراب أو آدماء (adamah) - التي تشكل منها، باسم عيه الموروث أو نقيصته، الدم الذي يجري فيه نحو الحياة أو الموت⁽¹⁾.

آدم بعيد عن الإنسان وركس بعيد عن الملك، لكنه مثل الملك هو قبل القانون وخارجه، الوحش والسيد⁽²⁾. بدلاً من إنشاء كينونته أو كرامته، يطرح اسم ركس بالأحرى مسألة ما إذا كان بمقدور مثل هذا الملك أن يقرر أن يصنع استثناء بترك آدم يحيا أو يموت (آرغوس أنجب ركس؛ ركس أنجب آدم؛ آدم أنجب داود).

بعد ذلك بسنوات، حينما كان آدم في المصح في النقب، يلتقي بكلب - طفل ناج من الموت جُلبَ إلى هناك. الكلب الطفل، أو الطفل الكلب، الذي يُحتَجَزُ في المصح، أو يكون عرضاً [من أعراض] فجيرة آدم (أو ربما كليهما)، يلعب أيضاً دوراً حاسماً في حياة آدم. فعندما يبدو الطفل الكلب أنه أصبح أكثر إنسانية وأقل كلبية، جزئياً بفضل جهود آدم للارتباط به، يستنزف آدم، ويقترّب من موت مستحث ذاتياً. يندب الكلب، ويبحث عن أثره في آلة كاتبة يعطيها للكلب الطفل ليلعب بها. بذلك يلعب الكلب الطفل بتكنولوجيا الحداثة قبل حتى أن ينطق. يرغمه مجنونان - آدم، وولفوفيتز، الخائن - على أن يسمي نفسه بالآلة الكاتبة. كما لو كان يشرح عنوان

(1) كانوك، آدم يبعث حيا، 217.

(2) جاك دريدا، الوحش والسيد، المجلدان 1 و 2 (ترجمة جفري بينغتون) (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، 2011).

الكتاب - في العبرية، آدم بن كلف (Adam ben kelev) تعني إنسان بن كلب - يجبر على الآلة الكاتبة كما يليق بالتكنولوجيا، كيفما كان ذلك بشكل ينطوي على مفارقة، الأداة الأقل حداثة والوسيلة الأقل إنسانية، والأثر الأكثر لإنسانية داخل الاسم الذي تنتجه. مثل رواية عوليس، التي تلعب بالإعكاس اللغوي لكلمتي GOD - DOG [إله - كلب]، يبدو أن GOD [إله] في الرواية، وبالتالي أصل كل الأشياء، ربما كان في النهاية نتيجة لخطأ مطبعي بدلا من أي شيء أكثر عمقا. في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت DOG [كلب].

الكتابة إذاً سابقة دائما للكلام في الطريقة التي يكون بها اللا إنساني دائما قبل الإنساني وبعده. بالنقر على الآلة الكاتبة، يسعى الكلب - الطفل إلى كتابة نفسه في الوجود. أو، إذا لم يسع إلى ذلك، فإن وجوده قد يكون نتاجاً جانبياً للعبة المتحول إلى عمل. الاسم ينطبق بشكل أكثر أو أقل على غاري أوين أو بوبي أو أرغوس في خلقهم التوالدي العذري الذكوري أكثر أو أقل من انطباقه على الكلب الذي هو خارج قيود القانون، الذي هو أنيموت (animot) - لنستعمل مصطلح دريدا - كلمة، لا كينونة، تعبر بدون خصوصية النوع أو الجنس - أثر الحياة، يمكن أن يقول المرء⁽¹⁾.

مع الأثر الأول لتفكير الأثر في كتاب (Of Grammatology)، فإن الآلة بكاملها التي تنحو إلى استبدال كلمة «كتابة» بالمعنى العادي بكلمة «أثر» أو كلمة «كلام» بالأثر، كان هدفها النهائي هو أن الكتابة والكلام والأثر ليست الخاصية المميزة الصحيحة للإنساني. ثمة أثر إنساني، تكتب الحيوانات. منذ البدء، تفكيك الإنساني بشكل صحيح، وبالتالي لإمبراطوريته، حقه، هو في المكان. لقد قاوم جاك دريدا دائما التضاد بين الإنساني والحيواني، تماماً كما يقاوم التضاد وبالتالي فرض

(1) جاك دريدا، الحيوان الذي لذلك أنا؛ انظر أيضاً آن برغر ومارتا سيجارا

Anne Berger & Marta Segara, eds., *Dementagerie: Thinking of Animals after Derrida* (Amsterdam: Rodopi, 2011).

العلاقة الهرمية/ التراتبية بين الرجل والمرأة. هذه هي السمة الأصلية (archoriginary)، الدائمة بشكل مطلق، لمساره السياسي⁽¹⁾.

يبقى الأثر اللاإنساني، حتى عندما يكون إنتاج الإنسان من خلال تكنولوجيا الآلة الكاتبة، هو أيضاً إنتاج المواطن. ومع ذلك، فأي شكل من الظلم يمكن معالجته من قبل هذا المواطن، لتقديم سؤال بلوم إلى الكلب؟

لآدم شقيق توأم [اسمه] هربرت يسكن بداخله يظهر على عتبات النوافذ، يراقبه كما لو كان الأنا الأعلى العقلاني الذي بات يسخر بتمرينه الفلسفي، سخريته من تهريج آدم، من أساتذته الأفظاظ المتكبرين، وكتابه مدخل إلى النظرية الأخلاقية. كل ذلك يأتي مع رفض الاعتراف بآدم الكلب بوصفه ليس أكثر من دجال. إن ولادة الدولة وولادة المصحح تمان عن طريق قوى أجنبية بفكرتها الخاصة بها عن المفهوم الأخلاقي للملجأ المستقبلي. في حين تكون الإيذاءات على مستوى واحد إحسانية، تظهر الرواية كيف تخلق أشكالها الخاصة بها من الظلم من خلال التسمية.

ليس المصحح العقلي في صحراء النقب فقط أداة لإظهار الجنون الذي ينتج بعد الهولوكوست، والحاجة إلى استعادة نوع ما من نظام ما بعد الفجعية. إنه يمثل أيضاً نموذجاً لجنون الدولة وشكل الدولة الذي يملئ أن التجميع يمكن وينبغي أن يكون حلاً حميداً للرض ولفظلم الحل النهائي. إن كبير الأطباء، الدكتور غروس، الذي يفتن بآدم، يعترف بالعجز عن إشفائه، والعافية الظاهرة في الفصول الأخيرة ليست بأي شكل من الأشكال تأكيداً لأي شيء. يمكن للشخصيات أن تتنبأ بـ [توقيت] ميتاتها بالدقيقة، ويمكنها أن تستمر في التفكير في آدم بوصفه علامة أمل، ويمكن للأطباء والمرضات أن يغرموا بمفاتن آدم الفتاة أحياناً. إن آدم نفسه يحمل أثر كلب بداخله، وتثيره فكرة الجنس في حضرة الكلب، أو الجنس الكلبى وهو تزينة التيجان مع شريكه الجنسي. إنه لا ينكب بشكل تام على سحر ذكوريته وعنفها،

(1) انظر هيلين سيكو

ولا الرواية ذاتها تنكب بشكل كاف على فقدان المؤنث الذي يقود إلى التوالد الذاتي للأطفال الكلاب ذي الخط الأبوي.

يصبح الكلب - الطفل ضارب الآلة الكاتبة جزءاً من التكنولوجيا الذكورية للدولة عندما يبدأ تنزيده العشوائي بإنتاج كلمات أكثر نضوجاً بالمطلق وأكثر تحيزاً جنسياً مما في شبابه، عندما يفسر هو أيضاً، مثل آدم، شعور الناجي بالذنب بإخراجه في لذة وألم اللقاء الجنسي والعنف. إن آدم أيضاً يرى نفسه كضحية محتملة للعنف الجنسي. وإلى جانب الاغتصاب الجماعي، الحقيقي أو المتخيل، للتوأمين شفستر من قبل البدو، ورث الميتة ومحاولة قتل رُث أخرى - فإن هذه الأشكال من العنف الجنسي تعطي شعوراً بأن ثمة أملاً ضئيلاً بالتكاثر خارج التوالد الذاتي الذكوري. حول كل أعمال العنف هذه ضد النساء لا يمكن قول شيء في الواقع: «لم أعرف ماذا أقول للأختين شفستر عندما انصرفت عنهما. نظرنا أحدهما إلى الآخر بحزن شديد. لكننا لم نبك. لم نتطرق إلى ذكر ما حدث. لم نذكر الصحراء ووحى الله»⁽¹⁾. كما لو أن اغتصاب النساء في الرواية هو مذكر فقط بأن المرأة لا توجد، نرى أثرها ربما في اللاإنساني.

الكلب سجين في عالم الفردوس، عالم آلة. سيد أوليفيتي، هل تعلم أن كلباً بعينه في معهد إعادة التأهيل والمعالجة في آراند يعزف موسيقى جنازة الشيطان عليك؟ سيد أوليفيتي، أحبك عن بعد من مكان بعيد، من آراند، من العراء، من الصحراء. بالمناسبة، هل لي وجه؟ هل وجهي هو جزء من المعاناة الذي ينفجر في وجه أشعة الشمس؟ أية مضاهاة خيالية، مثل الأيام الخوالي: ركس وآدم، كلاب ايلزه كوخ والقومندان كلاين... ياله من شغف رأيت ذات مرة امرأة مثل تلك، زوجة كلاين، في السرير... لماذا كانت جائعة إلى هذا الحد؟ بسبب رائحة العظام المحروقة؟... وهي أرادت أن تصدق أن كل

(1) كانبوك، آدم يبعث حيا، 367.

شيء سيغير بعد تكريس ليلة واحدة لكلب.... وهو؟ كلايني؟ إنه حي وسيعيش بعد ذلك... أصبح يهودياً. لا توجد عدالة في العالم. إن طفلي وحده عادل. كلبي. أصابعه تحوم. إن رؤية تلك الأصابع تعبد تلك الأوليفيتي الباردة هي محبة نوعاً ما وإنسانية، وربما أيضاً نبيلة ودافئة. من صنع هذه الأوليفيتي؟ الأوليفيتيات الأخرى، الأوليفيتيات الأجنبية، صنعوا هذه الأوليفيتي. أوليفيتي أنجب أوليفيتي الذي أنجب أوليفيتي.... «أنا كلب!» آدم يزق. هذا ما لم تفهمه أبداً. هربرت، أخي... رغم كل دراساته... وهوبز مع كلبه يأكل الكلبة، الإنسان يساوي الذئبة، وروسو ولاينيتز وهينكل وكانطك.... أنت لم تفهم أبداً أنك كنت - أي، أنا كنت - كلباً⁽¹⁾.

إن قراءة الرواية مع مقالة ليفيناس «اسم كلب، أو الحقوق الطبيعية» وضدها، حول بوبي الكلب، تظهر تفاهة أن تكون كانطياً في وجه الحياة التي يمكن الاستغناء عنها. أي نوع من المستقبلية يتم تخيله خارج شكل الكرامة؟ هل هي التي يصفها ليفيناس بأي شكل من حسن الضيافة من أجل مستقبل جديد سوف يترك أثر الاختلاف الذي لا يساوم عليه ظاهراً في الشعوب المختلفة، هي نفسها التي أزيحت عن طريق إنشاء هذه الدولة المصح؟

السؤال المفترض إذاً هو: كيف يقول المرء «أنا آدم»، «أنا إنسان» أو بالفعل «أنا حيوان»، «أنا يهودي»؟ إن عمل دريدا على اليهودية والحيوان يقدم جواباً جزئياً. ولماذا ضرورة ادعاء الأسماء الحقيقية وأسماء العلم للسلالة ذات الخط الأبوي والأملاك والملكية التي تأتي معه. في الحيوان الذي لذلك هو أنا، (المزيد من المتابعة)، يتوسع دريدا في الحالة المشكوك فيها لبيانات تحديد الهوية من خلال استكمال الـ («Je sui») أو «المزيد للمتابعة». في حين تعني («Je suis») «أنا أكون» و«أنا أتبع»، وتوحي «المزيد للمتابعة» بمواصلة خط، فإنها تشير أيضاً إلى لا حضور الأنا

(1) المرجع السابق، 201، 204.

والإلحاح على ماضيها ومستقبلها (وراثتها؟) اللذين يلازمانها، مثلما أن تلك الكينونة يتم فتحها من قبل اللاوجود، الانتفاء يلغى عن طريق الانتفاء، والإنساني يحمل دوماً أثر اللاإنساني.

في «إبراهيم، الآخر»، يكتب دريدا عن صعوبة ادعاء اسم يهودي لنفسه:

ولتتكرم بشرف عن هذه الكلمة يهودي - وأقصد بكلمة بشرف قياس النفس عن طريق ما هو جدير بذلك الاسم أو تلك الصفة في الشكلىن المسموع والمرئي لمقاطعها.... - ال (j) وال (oui) (نعم) من كلمة (juif) بين (suis) (أكون) من (je suis) (أنا أكون)، (je suis (juif) (أنا يهودي)، ال (juste) (بالكاد، فقط، عادل؛ أو: مستقيم، عادل)... سيكون على المرء أن يحتكم إلى قوة الاختراع الشعري والذاكرة، إلى قدرة على الاختراع مثل جراءة التذكر (anamnesis)⁽¹⁾.

كما يكتب دريدا نفسه، عندما طلب منه أن ينكب على قضايا مرتبطة باليهودية، كاد أن يرد بطريقة السيرة الذاتية، بكل تعقيدات ال (je suis) المفضية إلى ذلك. إنه يذكر المرء بالمكتوبات الأدبية لمولي بلوم، الذي توفر خلفيته اليهودية السفاردية الخاصة من خلال النسب عن طريق الخط الأمومي، المدفونة تحت الكاثوليكي الرومي، إمكانية اللذة أيضاً في ال «نعم» وال «أنا أنحدر» (je jouis) من كلماتها الأخيرة. إنه يكتب عن طفولته في الجزائر وعن تاريخ اليهود في الجزائر الذين منحوا المواطنة في عام 1870 بفضل مراسيم كريميو (Cremieux).

كان أدولف كريميو محامياً يهودياً فرنسياً، أمّن المواطنة لليهود في أثناء عهده في الدفاع القومي. كان كريميو أيضاً المؤسس للمنظمة الفرنسية «الحلف الإسرائيلي العالمي» في عام 1850 وأدارها حتى وفاته في عام 1880. إن المنظمة، التي أدارها فيما بعد ليفيناس، قد ركزت على التعليم والتقدم المهني لليهود، وأنشأت المدارس

(1) دريدا، «إبراهيم، الآخر».

التي لا يزال بعضها قائماً⁽¹⁾. يكتب دريدا بشكل مؤثر عن علاقته باللغة المثلثة لليهودية في جزائر شبابه، والختان نفسه الذي يكون مقيداً بالقطع ضمن التعبير السردي الذاتي، وألم الأطفال اليهود أمثاله من كونهم مطرودين من المدارس في أثناء حكم فيشي نتيجة لقرار فرنسي وليس لقرار ألماني. بالنسبة له، إذاً، يحمل اسم «يهودي» معه أثر الاستعمار الأوروبي الحديث، كما سيحمله الهولوكوست والصهيونية.

كان بإمكان هرتزل أن يتخيل صهيونه بعد المعركة القانونية لدريفوس بشيء يشبه الإيمان بإمكانية التمثيل والمواطنة. كان بإمكان حنة أرندت أن تصوغ فهمها للعدالة والشر من خلال محاكمة آيخمان، ملاحظة الشكل المساوم عليه من عدالة المنتصر، ومشكلة القضاء. لم يكن بمقدورها أن تصوغ مفهوماً عاماً لنظام حكم جديد، مع الحيوانات التي تتكلم كما يمكن لآدم أن يقول. سيطور دريدا مفهومه الخاص للعدالة جزئياً من خلال محاكمة كلاوس باربي.

لهذا خلقت هذه المحاكمات الثلاث للعنف المضاد للسامية مفاهيم متنوعة للعادل. يحيل دريدا، في مقالته «قوة القانون»، بشكل مشهور إلى جاك فرغس، محامي الدفاع سيء الصيت عن باربي. إن مأزقي العدل والقانون، شكلي الاستثناء والقرار، ينظر لهما فقط بإبهايات موجزة نحو فرغس. مع ذلك، يعلن دريدا بصرامة عن إعجابه بالقرار السيادي الممتاز بإخضاع القانون الفرنسي للمحاكمة، كاشفاً عن الطريقة التي تؤدي بها عدالة المنتصر إلى العمى في القانون الاستعماري وفي فقدان الذاكرة ما بعد الاستعماري. يبدأ فرغس سيرته مشهوراً في الجزائر حيث دافع عن جميلة بو حيرد. إذ كان متقدماً لفقدان الذاكرة الذي كان مطلوباً بعد اتفاقية إيفيان

(1) للمزيد حول التحالف، انظر جان كلود كوبرمينك

Jean – Claude Kuperminc, «L'Alliance israé(acute)lite universelle en Algérie», in Juifs d'Algérie présentée au Musée d'art et d'histoire du Judaïsme (2012; Paris: Skira Flammarion), 219 – 21.

كما يشير الاهتمام أن إيمانويل ليفيناس أصبح مدير الكلية الشرقية العليا للتحالف الإسرائيلي العالمي في باريس في ثلاثينيات القرن العشرين.

Evian Accords التي لم يخضع بموجبها المنخراطون في الصراع للمحاكمة على جرائمهم.

إن مقالة أليس كابلان الفاتنة حول كتاب آلان فنكيلكراوت بعنوان التذكر بلا جدوى (*Remembering in Vain*)، وهو تحليل لمحاكمة باربي، تكشف بقوة كيف أن مفهوم الزمانية المراهن عليها في دفاع فرغس كان هو المصدر لمثل هذا النقد اللاذع الهائل في فرنسا⁽¹⁾. فهي تشرح أن باربي حوكم بموجب قانون الجرائم ضد الإنسانية، وهو قانون فرنسي لا يمتلك أي تشريع أساسي للمهمل القانونية. وهذا ما سمح لفرغس بالقيام بأداء مسرحي. فالجرائم التي قدمت إلى المحاكمة في عام 1987، المرتكبة بشكل مزعوم في أثناء الحرب العالمية الثانية، قد فسرت من خلال عدسة الحرب الجزائرية (1954 - 62) واتفاقيات إيفيان منذ 1962. لقد أظهر التناقض في المنظومة القانونية الفرنسية - حقيقة أن باربي يمكن محاكمته، لكن لا يمكن محاكمة أي ضابط فرنسي بسبب دوره في الحرب الجزائرية - أن منظومة القانون برمتها معيبة، بادعاءاتها المرجعية من القوانين الموجودة مسبقاً في حين تتعاضد بالكامل عن هذا التناقض. تستوحي محاكمته الاستعراضية، أو استراتيجية التمزيق القانوني، من المحاكمات الأدبية، والمحاكمات المسرحية في الأعوام المنصرمة⁽²⁾. إن الأثر الاستعماري هو بشكل واضح، ضمن منطق فرغس، الأثر اللا إنساني المعبر عنه بلغة الجرائم ضد الإنسانية. إن حجته مشابهة لحجة إيمي سيزار في كتابه خطاب حول الاستعمار (*Discourse on Colonialism*):

نعم، كان حرياً بنا أن ندرس سريراً، وبالتفصيل، الخطوات التي اتخذها هتلر واليهودية وأن نفصح برجوازي القرن العشرين المتميز جداً، الإنسانوي جداً، المسيحي جداً الذي يحتوي بداخله هتلراً، دون أن يكون مدرراً لذلك، يسكنه، ذاك الهتلر هو شيطانه، الذي إذا

(1) أليس كابلان، «حول مقال آلان فنكيلكراوت «تذكر بلا جدوى»: محاكمات كلاوس باربي والجرائم ضد الإنسانية» *Critical Inquiry*, 19 (1992): 70 - 8

(2) انظر جاك دريدا «قوة القانون»؛ وباك فرغس، العدالة والأدب (باريس، 2011: PUF).

سار ضده يكون غير متسق وأن، في العمق، ما لا يستطيع أن يغفر هتلم من أجله ليس الجريمة ذاتها، الجريمة ضد الإنسان، إنه ليس إذلال الإنسان في حد ذاته، إنه الجريمة ضد الإنسان الأبيض، إذلال الإنسان الأبيض، وحقيقة أنه طبق على أوروبية الإجراءات الاستعمارية التي كانت حتى حينه مخصصة حصراً لأجل عرب الجزائر، وعمال الهند غير البارعين، وسود أفريقية.

وذلك الشيء العظيم الذي أحمله ضد الإنسانية الكاذبة: أنها لزمن طويل أكثر مما ينبغي قد أضعفت حقوق الإنسان، وأن مفهومها لتلك الحقوق كان - ولا زال - ضيقاً ومتشظياً، ناقصاً ومتحيزاً، وإذا أخذت كل الأشياء في الاعتبار، كان عنصراً بشكل خسيس⁽¹⁾.

يعمل فرغس، إذًا، ضمن إطار زمن الذاكرة والأدبي أكثر مما يعمل في إطار الزمن القانوني لمعظم المحامين.

لو كان هرتزل ينشد دولة جديدة تحذو حذو دريفوس، وكانت أرندت تنشد نظام حكم أرسطوياً جديداً لا يقوم على شكل عدالة المتنصر التي رأتها في محاكمة آيخمان، عندئذ لكان دريدا قد فهم السياسي الذي يتتاب من خلاله، الأثر، اللاإنساني، الأنثوي، اليهودي، الجزائري، بطريقة تلقي بظلال الشك على أية فكرة متسقة عن الجماعة الجالية: دريفوس أنجب هرتزل؛ آيخمان أنجب أرندت التي أنجبت بتلر وأغامبن. باربي وبو حيرد أنجبا فرغس: موللي وفرغس أنجبا سيكسو ودريدا. إن كلاً من الأدبي والقانوني يقومان بعمل التشكيك في تكوين شيء ما بوصفه إنسانياً ووضعه جنباً إلى جنب مع التشكيلات الأكثر ابتداءً والأقل سموً التي تنجم أحياناً أو تفترض مسبقاً. لا مساءلة للإنسان أو للنوع بدون مساءلة للاختلاف الجنسي المحشو بداخله، وبدون القصة المكبوتة للمخاض الأنثوي. فالمستقبلية في المصح

(1) ايبي سيزار، الخطاب حول الاستعمار (نيويورك: مونثلي ريفيو برس)، 36 - 37.

تدل على الاختلاف الجنسي بوصفه المقولة الأصلية (*ur category*) للاختلاف المحو من خلال العنف التأسيسي للنسب ذي الخط الأبوي. لا يمكن أن يوجد فكر نوعي [خاص بالنوع] كفو دون الإقرار باقتصاد الذات - الذات المتمركز حول الذكورة (*androcentric*) - الذي يستمر. بالتفكير بلغة المصحح واللغة الكوكبية، يصبح الشخص الداخل إلى المصحح العقلي أو طالب اللجوء السياسي إنساناً من خلال سيرورة الصيرورة ذاتاً - مقحماً في شكل يمكن التعرف عليه كما لو كان بالإمكان محو الحالة اللاإنسانية للكينونة قبل تلك القوانين، وفي الواقع بعدها⁽¹⁾.

(1) شكرا لك نانا فان فليت للتعليق على نسخة أسبق من هذا الفصل.

– 9 –

الموقف التأويلي

أن تكون خارج هوامش الصهيونية السياسية

سانتياغو زابالا

ليس الهدف ببساطة هو التبعر جغرافياً، بل اشتقاق مجموعة مبادئ من الوجود المبعثر الذي يمكن أن يخدم تصوراً جديداً للعدالة السياسية. ذاك التصور سوف يستيع عقيدة منصفة حول حقوق اللاجئين وانتقاداً للأنماط القومية لعنف الدولة التي تديم الاحتلال، ومصادرة الأراضي والحبس السياسي ونفي الفلسطينيين. سيقضي ذلك ببساطة مفهوماً عاماً للتساكن الذي سيكون شرط نشوئه هو إنهاء الاستعمار الاستيطاني. بصياغة أكثر عمومية، بناء على هذا التصور للتساكن يمكن ويجب توجيه النقد لعنف الدولة القومية اللاقانوني – بلا أية استثناءات.

جوديث بتلر، افتراق الطرق، 2012

إن التأويل، الشبيه بالتفكيك، هو أحد المواقف الفلسفية القليلة التي غالباً ما تحض أتباعها على الاصطفاف سياسياً؛ أي المخاطرة بارتكاب أغلاط مدنية لا يمكن نسيانها. من المثير للاهتمام أن نلاحظ كيف أن الفيلسوف الذي أكد للمرة الأولى على موقفه الأنطولوجي هو أيضاً الذي ارتكب خطأ سياسياً لا يمكن نسيانه: مارتن هايدغر. رغم أن الأستاذ الألماني ليس الفيلسوف الكبير الوحيد في التاريخ الذي يؤيد أيديولوجيا سياسية عنصرية، فإنه بالتأكيد أول من يرد إلى الذهن عند

تحليل السمات الأنطولوجية للوجود على هوامش الصهيونية السياسية، كما سنفعل هنا. حتى رغم أنه كان هايدغر بضعة أصدقاء يهود ورفض المصادقة على تعيين عميدبن مناهضين للنازية عندما كان رئيساً لجامعة فرايبورغ في عام 1933⁽¹⁾، فقد ينجل من كونه عنصراً من النظام النازي لبقية حياته. لكن افترض أن كل كتاباته «تنشر التصورات العنصرية الراديكالية والمدمرة للحياة البشرية التي تشكل الأساس للهتلرية والنازية»⁽²⁾، كما افترض إيمانويل فاي (Emmanuel Faye)، هو مبالغ فيه وغير دقيق. إن حقيقة أن فلاسفة لامعين، مثل حنة أرندت وجاك دريدا وراينر شورمان، قد طوروا تصورات الأستاذ الألماني بدون نشر الكراهية هي إشارة إلى أن فاي إما كان يفترض أن العنصرية هي بالضرورة سمة للتنوير المضاد أو كان يخدم مصلحة الصهيونية السياسية في إبقاء اللاسامية حية بكل الوسائل⁽³⁾.

كما يتبين، من الممكن تماماً أن المثقف الفرنسي كان يتبع الأيديولوجيتين الأنفتي الذكر، واضعاً في الذهن أنهما تنتميان إلى الميتافيزيقا؛ أي نسيانية الكينونة لصالح الكائنات. مع ذلك، يستمر هايدغر في كونه هدفاً سياسياً سهلاً في عالمنا الفكري: كان رئيساً لجامعة فرايبورغ في عام 1933 (لمدة 11 شهراً) انتقد المعنى الوجودي للنزعة الإنسانية (في حوار مع جان بول سارتر)، وحتى إنه أقام علاقة مع يهودية (حنة أرندت) ستعارض فيما بعد إنشاء دولة إسرائيل⁽⁴⁾. إذا كان باحثون

(1) غ. شتاينر، مارتين هايدغر (شیکاغو، إلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو، 199)، 116 - 24.

(2) إ. فاي، هايدغر: إدخال النازية إلى الفلسفة في ضوء حلقات البحث غير المنشورة في الفترة 1933 - 1935، ترجمة م. ب. سميث (نيوهافن: مطبعة جامعة ييل، 2009)، 316. دراسة فاي ببساطة هي آخر ما صدر من دراسات مكرسة لنازية هايدغر، فقبله حاول فيكتور فارياس (هايدغر والنازية، فيلادلفيا: مطبعة جامعة تمبل، 1991) وتوم روكمور (حول نازية هايدغر والفلسفة، بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1991) أيضاً أن يربطوا النتائج العنصرية الحتمية لفلسفته.

(3) استخدمت الصهيونية السياسية أيضاً الهولوكوست لتبرير استيطانها. انظر إن. فينكلشتاين، صناعة الهولوكوست: تأملات حول استغلال المعاناة اليهودية (لندن: فرسو، 2000).

(4) كما تذكرنا بتلر، رغم أن أرندت «كانت يهودية، أكدت على أن إسرائيل ينبغي ألا تكون دولة يهودية وكانت تعتقد أن مساعيها لشرعة حقوقها المزعومة في الأرض من خلال عنف الدولة هي أشكال عنصرية من الاستعمار لا يمكن أن تؤدي إلا إلى صراع دائم». انظر ج. بتلر، افتراق الطرق: اليهودية وانتقاد الصهيونية (نيو يورك: مطبعة جامعة كولومبيا، 2012)، 35.

هايدغريون كثيرون يدافعون عنه أو سعداء بكونه ارتكب هذا الخطأ، فليس (كما يعتقد الكثيرون) لأنهم أيضاً عنصر يون، بل بالأحرى لأن ذلك يشبط المثقفين عن تطوير وتعزيز فلسفته.

هذا الفصل القصير ليس مهتماً بالدفاع عن هايدغر أو الإشارة إلى عدد المفكرين اليساريين الذين ألهمهم، بل بالأحرى بتبرير الموقف التأويلي لصالح الفلسطينيين واليهود في صراعهما الوجودي ضد الصهيونية السياسية. ففي حين يُهمَّش الفلسطينيون خلف الجدران الإسمتية، فإن اليهود (أمثال نعوم تشومسكي، ايلان بابي أو ايديث زرتال) لا بد أن يواجهوا جداراً معرفياً [إيستمولوجياً] من النبذ والكراهية والإذلال بسبب معارضتهم للصهيونية السياسية. حتى وإن كانت التبعات الوجودية للجدار قد بدأت تلقى الاهتمام في الآونة الأخيرة⁽¹⁾، فقد تم تجاهل مكانتهم الأنطولوجية في أغلب الأحيان. لقد تم تجاهل الكينونة، مرة أخرى، لصالح الكائنات. لو كان المقصود من ثورة هايدغر الأنطولوجية أن تعيد توجيه اهتمام الفلسفة نحو الكينونة، فذلك لأسباب ليست نظرية كما يعتقد الكثيرون، بل أخلاقية: نحن كينونة ولسنا كائنات. إن حقيقة أن الكثير للغاية من الكينونة اليوم هو مُفَرِّغ [مرمي] (مهمل أو مستغل أو متروك خارج الأطر المفاهيمية الرئيسية) هي تبعة للميتافيزيقا، لا يمكن التغلب عليها إلا إذا أصبحت الأنطولوجيا نقطة الانطلاق، وليس الوصول، لأجل الاستقصاء الفلسفي. بشكل مشابه لتبعثر جوديث بتلر، يهدف تفريغ الكينونة أيضاً إلى «عدالة سياسية» «للتساكن»⁽²⁾، لكن بدلاً من الانتباه إلى معتقد ديني بعينه، فإنها تضم ديانات وثقافات وأعرافاً عديدة.

(1) حول الحالة الوجودية للفلسطينيين، انظر ب. وايت، الفلسطينيون في إسرائيل، الفصل والتمييز والديمقراطية (لندن: مطبعة بلوتو، 2011)؛ إي. بابي، التطهير الإثني لفلسطين (أو كسفورد: ونورلد، 2006)؛ إن. تشومسكي وإي. بابي، غزوة في أزمة: تأملات في حرب إسرائيل ضد الفلسطينيين، تحرير فرانك بارات (شيكاغو، ايلينوي: هيكارت، 2011)، وإن. فينكلشتاين، هذه المرة مضينا أبعد مما ينبغي: حقيقة وتبعات غزو غزة (نيويورك: أورد بوكس، 2010).

(2) ج. بتلر، افتراق الطرق: اليهودية وانتقاد الصهيونية (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، 2012)،

في المجمل، ينتمي أولئك المفرغون إلى تراث المضطهدين والضعفاء وخاسري التاريخ الذين كان مهمهم الرئيس على الدوام هو الكفاح من أجل الوجود. إن الموقف التأويلي ليس فقط من أجل الضعفاء، بل هو، كما سنرى، موقف الضعفاء. مع ذلك، قبل تبرير هذا الموقف، من المهم رسم الخطوط العامة للطبيعة الأنطولوجية للتفريغ في علاقته بالتبعات الميتافيزيقية للصهيونية السياسية.

إن كون المرء مفرغاً ليس شرطاً وجودياً حصرياً لأولئك الذين يعارضون الصهيونية السياسية، بل هو بالأحرى شرط تجدد فيه غالبية سكان العالم نفسها بسبب السياسات (الاقتصادية، الدينية، أو المدنية) المؤطرة ميتافيزيقياً. هذه الأطر تؤمن التوظيف الصحيح للمنظومة من أجل المسكين بالسلطة؛ أي، أولئك المهتمين بالحفاظ على وضعهم الامتيازي. في حين أن الديمقراطيات الغربية تحفظ الدول الليبرالية بتحديد البدائل السياسية⁽¹⁾ وتحمي الرأسمالية الأسواق المالية بخلق الركود [الاقتصادي]⁽²⁾، وتصادر الصهيونية الأراضي باسم اليهودية الصحيحة. كما نعرف، تزعم الصهيونية السياسية ليس فقط أنها تمثل كل الشعب اليهودي، بل تطلق أيضاً نداء للعودة إلى صهيون، التي ترمز إلى أرض إسرائيل عموماً، وهي عودة مستحيلة، كما يشرح مايكل ماردر في مساهمته في هذه المجموعة (الفصل 10)، بما أنها «تفني انظمارها (embeddedness) السياقي بالذات، ملغية مكانية المكان في حد ذاته»⁽³⁾. لكن لكي تفرض هذه الأطر، يجب تفسير الكينونة بوصفها حضور شيء ما حاضراً؛ أي، موضوعي. بهذه الطريقة، كما شرح هايدغر في كتابه الكينونة والزمن، فإن أي تقرير أو تبرير للكينونة سوف يعتمد على اختزالها أو مطابقتها

(1) البدائل السياسية للأحزاب الليبرالية الجديدة الراسخة في الغرب تكاد تكون غير ممكنة التطبيق. فقد طلب من اليونانيين أن يصوتوا مرة أخرى في عام 2012 بما أن الجولة الأولى لم تستجب لمطالب الاتحاد الأوروبي. أما كيف تفرض الدول الليبرالية فيتم عرضه في كتاب ج. فاتيمو وإس. زابالا، الشيوعية التأويلية (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، 2011)، 51-8.

(2) يتم اختلاق الركودات المالية لتطبيق إصلاحات غير شعبية وجعل منظومتنا الرأسمالية حتمية. انظر ج. ستيفلتر، «الأزمة العالمية - صنع في أميركا» [Spiegel online (December 11 2008)].

(3) انظر م. ماردر (الفصل العاشر من هذا المجلد).

للكائنات؛ أي، في تمثيلها. مثلما أن الديمقراطية والرأسمالية تزعمان أنها تمثلان أفضل منظومة سياسية واقتصادية ممكنة، تمثل نهاية التاريخ كما صاغها فوكوياما، تزعم الصهيونية السياسية أنها تمثل المالكين الحقيقيين لأرض إسرائيل بغض النظر عن الاختلافات التي توجد على الأرض. ليست المشكلة مع هذا التشكيل الميتافيزيقي، الذي يسمى أيضاً «واقعية» في الفلسفة المعاصرة، هي أن الاختلاف الأنطولوجي يكون مطموساً فقط، بل إن الحقيقة تصبح فرضاً عريضاً سوف ينبذ بشكل حتمي ويهمش ويتجاهل أي شخص لا يهتم أو يقبل أو يؤمن بضرورته، أيضاً. لذلك بعد عقود من الرأسمالية النيولبرالية العنيفة والصهيونية السياسية، تُترك مع 80 بالمائة من فلسطين السابقة موزعة بشكل غير عادل بين غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية. كنتيجة لذلك، يهمش هؤلاء السكان؛ أي، يُفرض النظام العالمي الحالي منهم وجودياً.

برغم هذه الفروض العنيفة، لا تلغى هذه الكينونة بل تُضعف إلى نقطة، كما قال هايدغر، «داخل الميتافيزيقا لا يوجد فيها شيء إلى الكينونة في حد ذاتها»⁽¹⁾؛ أي، تصبح «الأكثر اهتراء»⁽²⁾. لكن هذا لا يعني أن الكينونة كبقية مهمشة تكف عن الوجود؛ العكس تماماً، إنها تفتح إمكانية التحرر من الميتافيزيقا⁽³⁾. إذا «بقيت الكينونة متاحة لنا بشكل دائم»⁽⁴⁾، فذلك ليس بفضل قوتها بل من خلال ضعفها؛ أي، شرط كونها مهمشة أو مفرغة. إنه شرط يجب أن «نحرسه» في كل الأوقات، آخذين في الاعتبار أنه البديل المتاح الوحيد للواقعية السياسية أو الاقتصادية أو القومية المفروضة. كما أشار دريدا:

(1) م. هايدغر، نيتشه، ترجمة د. ف. كرل (سان غرانيسيسكو، كاليفورنيا: هاربر أندرو، 1991)، 3: 202.

(2) م. هايدغر، مفاهيم أساسية، ترجمة غ. إ. ايلزورث (بلومينغتون: مطبعة جامعة إنديانا، 1993)، 51.

(3) معنى «باق» و«بقايا» يتم إيضاحه في: إس. زابالا، بقايا الكينونة (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، 2009).

(4) هايدغر، مفاهيم أساسية، 51.

الباقى لا يكون، إنه ليس كائناً، ليس تعديلاً لما يكون. مثل الأثر، يقدم المتبقي نفسه من أجل الفكر قبل أو بعد الكينونة. إنه غير متاح للإدراك الحدسي المباشر (نظراً إلى أنه يحيل إلى شيء ما آخر كلياً، إنه ينقش في ذاته شيئاً ما من الآخر إلى ما لا نهاية)، ويهرب من كل أشكال الصرحنة، وكل أشكال الأرشفة. في غالب الأحيان، مثل الأثر، أربطه بالرماد: يبقى بلا باق جوهري، بشكل جوهري، لكن يجب أن يؤخذ في الحسبان، وبدونه لن يكون هناك حسبان ولا حساب، ولا مبدأ للعقل قادر على إعطاء تفسير أو مبرر (reddere rationem)، ولا كينونة في حد ذاتها. هذا هو السبب في أنه توجد تأثيرات متبقية، بمفهوم النتيجة أو البقية الحاضرة، القابلة للمثلية (idealizable)، القابلة للتكرار بشكل مثالي.⁽¹⁾

إن كينونة هايدغر الـ «المهترئة» مختلفة جداً عن متبقيات دريدا؛ كلاهما يحيل إلى الوجود المهمل الذي يبدو أنه أصبح «غير متاح للإدراك الحدسي المباشر». كما يتبين، فإن مثل هذا الوجود المحفوف بالمخاطر ليس متاحاً فقط بل هو أيضاً إمكانية حقيقية من أجل أولئك الذين لا يقومون بوظائفهم ضمن الديمقراطية المؤطرة أو الذين يعارضون السياسة الصهيونية. سمته الرئيسية هي الكفاح من أجل الوجود على هوامش الرأسمالية أو إسرائيل؛ أي، في أحياء الفقراء التي تمثل أكثر من ثلاثة أرباع سكان العالم وفي غزة. رغم أن الناس لا يحشرون بالطريقة نفسها في أحياء فقراء لوس أنجلوس أو غزة، فإن عليهم مع ذلك أن يواجهوا الجدران، التي ليس المقصود منها أن تحمي قيام المنظومة الاقتصادية السياسية بوظائفها فقط، بل الأهم من ذلك كله أن تبقى خارج الكينونة المفرغة. إلى جانب الفلسطينيين، الذين همشوا بشكل عنيف وتم تجاهلهم، يوجد اليهود، مثل العالم السياسي الأميركي نورمان فنكلشتاين، الذين يعارضون الصهيونية السياسية. لقد حرم فنكلشتاين، بالطبع،

(1) ج. دريدا، آلة الوجود، ترجمة ر. باولي (ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد، 2005)،

من منصبه بعد التدريس لمدة ستة أعوام في جامعة دي بول ونشر استقصاءات تاريخية لقيت استحساناً لتلاعب الصهيونية السياسية بالهولوكوست⁽¹⁾. رغم أن حالته لا يمكن مقارنتها بحالة ضحايا الصهيونية الفلسطينيين، من الجدير بالملاحظة التشابه في الجدران التي يواجهونها. كما تنبأت أرندت، فإن الصهيونية السياسية لم تعزز النزعة القومية فقط بل خلقت نوعاً من «انعدام الدولة» لسكان دائمي الازدياد، يشملون اليهود، أيضاً.

باختصار، لا تمثل الصهيونية السياسية «عمليات الطرد الكبيرة الجماعية للفلسطينيين في عام 1948، والاستيلاء على الأرض في عام 1967، والمصادرات المتكررة للأراضي الفلسطينية التي تستمر الآن مع بناء الجدار وتوسيع المستوطنات» فقط⁽²⁾، بل تفريغ الكينونة أيضاً. إذا كان يجب أن تبقى الكينونة مفرغة من وجهة نظر القوميين الصهيوين الذين يمكنهم عندئذ أن يباشروا برنامجهم للاحتلال والفصل، عندئذ فإن الفلسفة تمتلك الالتزام باستعادة متبقياتها. لكن لماذا يكون الموقف التأويلي مناسباً لأجل تقديم المزاعم لصالح تفريغ الكينونة؟

كما فلسفة التفسير، حيث تكون الحقيقة نتيجة أكثر مما هي سبب لتفسيراتها الخاصة بها، ليس التأويل معنياً بالحقائق، بل بالأحرى بتلك الكائنات التي يجب أن تخضع لها. هذا هو السبب في أنه طوال تاريخه غالباً ما وفر الإمكانية من أجل المعتقدات المضطهدة والمواقف المشكوك فيها لكي تتحرر من المسكين بالسلطة. على العكس من الفلسفات الوصفية المدفوعة بالنظريات في محاولة للمحافظة على الوضع الراهن موضوعي ظاهرياً أو فرضه، فإن التأويل تحركه تقنية (techne) فاعلة لكي يفسر بشكل مختلف. لكن من الذي يحتاج إلى تفسيرات مختلفة؟

إن التفسيرات غالباً تكون مطلوبة من قبل أولئك الذين يكونون على هامش المؤسسات العلمية أو الدينية أو السياسية - «الضعفاء» أو «المفرغون» أو «خاسرو»

(1) ن. فينكلشتاين، صناعة الهولوكوست.

(2) ج. بتلر، افتراق الطرق، 2.

التاريخ، كما قال فالتر بنيامين. مع ذلك، يستمر التاريخ لا على الهوامش فقط بل يكون في الواقع هو الحقل الذي يكافح فيه الكائن للوجود. ربما كان هذا هو السبب في أن مايك ديفيز أكد في كتاب كوكب أحياء البؤس (*Planet of Slums*) كيف أن أحياء البؤس ليست ببساطة مناطق مهدامة تتميز بأكوام النفايات، والسكن المخالف للمعايير المتعارف عليها، وانعدام الأمن المتفشي، بل أيضاً «جماعات سكانية»⁽¹⁾ مقيمة حية يجب الاعتراف بها تحديداً بوصفها حية ساكنة أو موجودة. إن حاجات هذه الجماعات السكانية الهامشية قد تم تجاهلها غالباً، نظراً إلى أنها تفشل في الارتقاء إلى الأطر المحيطة بها، أطر الحقيقة المفروضة. كما ذكرنا أعلاه، فإن هذه هي الكائنات التي يكون وجودها (كينونتها) مفرغاً ويجب استعادتها من النسيان والتهميش وأحياء البؤس. ربما كان هذا هو السبب في أن هايدغر أكد على أن التأويل ليس مهتماً بـ:

أخذ العلم بشيء ما وامتلاك المعرفة عنه، بل بالأحرى المعرفة الوجودية، أي الكينونة [ein sein]. إنه يتكلم من خارج التفسير وفي سبيله... بقدر ما يعنيني الأمر، إذا كان هذا التعليق الشخصي مسموحاً، أعتقد أن التأويل ليس فلسفة على الإطلاق، بل هو في الحقيقة شيء ما أولي يسبقها ويمتلك علل وجوده الخاصة به: ما هو موضع خلاف فيه، ما يصل إليه ذلك كله، ليس أن يصبح متتهياً بالسرعة الممكنة، بل بالأحرى أن يصمد فيه أطول فترة ممكنة... إنه يرغب فقط في أن يضع هدفاً سقط في النسيان أمام فلاسفة اليوم بسبب «اعتبارهم مستعدين للمساعدة»⁽²⁾.

(1) م. ديفيز. كوكب أحياء البؤس (لندن: فرسو، 2000)، 201 - 2.

(2) م. هايدغر. الأنطولوجيا: تأويل الحقيقة

إذا كان التأويل هو فلسفة الكينونة المفرغة وفلسفة لأجل الكينونة المفرغة، فإن ذلك لا يعزى فقط إلى «المعرفة الوجودية» التي يقدمها، شاعلاً نفسه بالاختلاف الأنطولوجي، بل أيضاً لأنه، نفسه، «حقق معرفي مفرغ». إن أصوله لا تزال مسألة خلاف بين المؤرخين: البعض يحدد البداية في رسالة أرسطو حول التأويل (*Peri hermeneias*)، فيما يحددها الآخرون لدى فلاشيوس (*Flacius*)، في (*Clavis scripturae sacrae*)، أو فيما بعد في القرن السابع عشر عندما أدخل يوهان دنهاور للمرة الأولى كلمة هرمنيوطيقا (*hermeneutica*) اللاتينية كشرط ضروري لأجل تلك العلوم التي تعتمد على تفسير النصوص. بالإضافة إلى ذلك، فإن حقيقة أن هرمز (رسول الآلهة المشهور بسرعته، ورشاقته وخفة حركته، الذي مارس النشاط العملي لنقل بيانات آلهة أوليمبوس وتحذيراتهم ونبوءاتهم) كان يُتهم غالباً بالفوضى لأن الرسائل التي كان ينقلها لم تكن دقيقة أبداً، هي مؤشر على أن التأويل لا يعول عليه كحقق معرفي. رغم كل شيء، فإن جرد موضوعاته يشمل سياقات ثقافية وتاريخية وفكرية مختلفة تجعل تأطيره في موقع فلسفي صعباً جداً. لا بد أن هذا هو السبب في أن هايدغر يعتقد أن التأويل «يتقدم على» الفلسفة؛ أي، حتى قبل أن نبدأ بمنهجة فكرنا.

كما يمكن أن نرى، ليس التفسير فقهياً لغوياً [فيلولوجياً] أو ظاهراتياً [فينومينولوجياً]، بل بالأحرى وجودياً [أنطولوجياً] - يعنى باختلافات الوجود ذاته. تعترف بتلر بذلك عندما تصرح بأن ليس فقط علم «كيف تكون الطريقة الفضلى لقراءة النصوص الدينية، بل كيفية قراءتها في الحاضر وكيف الأفضل لتجاوز الخطوط الفاصلة الزمنية والجغرافية التي تميز شروط ابتدائها وإمكانية تطبيقها الحالية»⁽¹⁾. بهذه الطريقة يقف التأويل مع الفلسطينيين واليهود ضد الصهيونية السياسية لكي يتجاوزوا تلك التقسيمات والأطر التي تفرغ وتهمل وجودنا وتجعله مستحيلاً. التأويل يبقى التفسير ممكناً وحيّاً في كل مكان يكون فيه مهماً أو مفرغاً لأن «الوجود ليس موضوعاً أبداً بل بالأحرى كينونة - إنه يوجد فقط بقدر ما

(1) ج. بتلر، طرق الافتراق، 11.

يكون العيش في كل حالة «يساويه»⁽¹⁾. إن الضعفاء، إذ يفهمون الحق في التفسير بشكل مختلف، قد لا يبرزون سياسياً إلا إذا اعترف بهم بوصفهم الكينونة المفرغة، أو، بعبارة أخرى، الكائنات البشرية المضطهدة. ربما كان هذا هو السبب في أن دانييل بارنبويم كان مسروراً للغاية عندما قال له رجل، بعد إحدى حفلاته الموسيقية في مدينة غزة: «إننا نشعر كأن العالم قد نسينا. إننا نتلقى إمدادات إغاثية، ونحن ممتنون لذلك. لكن حقيقة أنك قد جئت إلى هنا مع الأوركسترا تمنحنا الشعور بأننا كائنات بشرية»⁽²⁾.

(1) م. هايدغر، الأنطولوجيا: تأويل الحقيقة، 18.

(2) يواخيم كرونسباين وبرنارد تساند، «الألمان سجناء ماضيهم: مقابلة مع دانييل بارنبويم»، في دير

شبيغل (متوفرة كذلك بتاريخ 6 حزيران 2012 على الموقع

<http://www.Spiegel.de/international/world/spiegel-interview-with-Daniel-barenbaum-a-840129-2.html>.

- 10 -

المجاز المرسل الصهيوني

مايكل ماردر

الشر اللغوي كلي؛ لا حد له، قبل كل شيء لأنه سياسي بالكامل. الشر ينبع من حقيقة أن الصهاينة... لا يفهمون جوهر اللغة.

جاك دريدا عن جرشوم شولم، «عيون اللغة»، في فصول الدين

جزء بدلا من الكل: البلاغة، التمثيل، العنف

مجاز بلاغي، استراتيجية تمثيل سياسي، أداة عنف: هنا أوجه المجاز المرسل الصهيوني. بالفعل، هذه هي أوجه الصهيونية بوصفها مجازاً مرسلًا، مما يعني استبدال الكل بالجزء (pars pro toto) في تبادل غير متكافئ، إن لم يكن محتالاً. صهيون، وهو تلة في مدينة القدس، مكان مفرط التحديد، مفرط الترميز، بدلاً من الاستكانة في حدوده الدلالية والفيزيائية - الجغرافية، فإنه ينفي انطماره السياقي جداً، مبطلًا مكانية المكان في حد ذاته. من الممكن بصعوبة العودة إلى صهيون، لأن صهيون لا يعود، ولا يحيل إلى نفسه. برغم رسوخه المزعوم في الأبدى، فإنه موضع متنقل إلى درجة عالية: إنه ينتشر بطريقة الطرد المركزي، مزيجاً الأمكنة والموضوعات الأخرى خارجه وفارضاً نفسه عليها، وفي الوقت نفسه، يجتذب الأشخاص والأحداث إلى ذاته، كما لو كانت تنجذب إلى دوامة. يمثل صهيون،

كنقطة نصف قطرية لبضع دوائر متراكزة [متحدة المركز]، أولاً المدينة بأكملها مع ساكنيها، ثم، الثانية، «أرض إسرائيل». اسم ذو تجاوز، إنه أكثر من ذاته. إذا كانت المناطق خارج صهيون - لاتزال أو حتى الآن - هي صهيون، عندئذ فإن هذا الجزء المقدس، المكرس، المعزول، المصنم، جزء غير متماه مع ذاته، يصبح مكافئاً للكل، وفي الحقيقة، يستحضر الكيان الممثل - سواء كان المدينة أم البلاد - إلى الوجود.

إن الإمبريالية الدلالية للمجاز المرسل تضاهي توسعته الجيوسياسية. في اللغة اليونانية الأصلية، تقول هذه الحيلة البلاغية = أنا أستلم من [و] مع... تخيل المجاز المرسل هو أنه ببساطة من المستحيل قبول الجزء البارز بدون الأجزاء الأخرى كلها، أو بدون الكل الذي يمثله هذا الجزء. عندما أتلقي معناه المتختم أحصل على أكثر مما ساومت عليه: يتباهى المرء بكونه قد اشترى العجلات، عندما تكون العربية بأكملها التي تضمها قد اشترت. يؤدي فهم هذه العبارة حرفياً إلى عبثية، لأن العجلات بدون محرك كامل وبدون بقية السيارة عديمة الفائدة تماماً. مع ذلك، فإن بعض الأمثلة الأخرى من المجاز المرسل، خصوصاً تلك المركبة بشكل مخادع أو أيديولوجي، تستحق حلاً للرباط بين قبولي و«العلو» التي أتلقيها مع الشيء المقبول. في كل حالة على حدة، يكون السؤال هو: هل أنا مستعد لقبول الكل X مع الجزء Y؟ هل التل الذي يدعى صهيون يتوازي بالضرورة مع المدينة كلها؟ («الأبدية والتي لا تتجزأ»، كما تثبت العقيدة السياسية - الميتافيزيقية) التي يقع فيها؟ هل التل والمدينة مقيدان بشكل لا فكاك منه بالأرض الكبرى التي تحيط بهما، كما تسعى الأيديولوجيا الصهيونية إلى جعلنا نصدق؟ ومن هو هذا الـ «أنا» المخول بتلقي الجزء الاستثنائي الذي هو صهيون؟ من ناحية أولى، هذه هي أسئلة اليمين؟ الذي هو أن نقول إنها فصلت إلى صميم الامتياز السياسي أو اللاهوتي الذي يدعيه المجاز المرسل الصهيوني لنفسه. من الناحية الأخرى، في الوقت نفسه، هي أسئلة الالتزام الأخلاقي، المخصصة من أجل الشخص، الذي يصادق على سلسلة من الاستبدالات المجازية الرسالة، لكنه يكون حراً أيضاً في أن ينبذها. بمجرد صياغة هذه الاستفسارات قبل توقع رد الجواب، نكون قد فككتنا روابط المجاز المرسل،

الذي يعتمد غالباً على التداعيات الذهنية التلقائية. مثل هذا التفكيك لا يرقى بعدُ إلى رفض صريح؛ إنه يظل ايباءة سلبية أكثر أساسية، لا غنى عنها لأي انتقاد جدير بالاسم، تقتطع القبول الأعمى بمعنى صهيون، بقدر ما تقتطع فائض ما يُقبل به معه.

إن تشريح المجاز المرسل ليس نفيّاً خالصاً له لأنه، بدلاً من قبول (x مع y)، قد يختار المرء أن يتلقى x بدون... بدون الـ «مع»، الخالية من الإشكالية، فإن تل صهيون لا أكثر ولا أقل من تل: إنه ينطبق على حدوده الجغرافية والتاريخية (الانتقاد، يمكن أن نستذكر في أعقاب كانط، يطوق كل شيء على حدة، وخصوصاً العقل البشري، داخل حدوده الدقيقة). أما وقد برت الـ «مع» المجازية المرسل، فإنني أقبل ما هو موجود ناقصاً مثلثته (idealization). ليس رفض العلاوة الدلالية لجوءاً إلى حرفية غير ملهمة، أو إنكاراً لإمكانية أن تكون الأشياء خلافاً لما هي عليه. إنه هو، بالأحرى، قبول بالمكان الذي سيصبح في النهاية ما هو عليه بكل فرادته المكانية - الزمنية وماديته، المقتطعتين من تمثيلات ما يكمن وراء الآفاق الأرضية المحيطة بها من كل الجهات والأفق المتعالي للمقدس. لكن كيف يكون ممكناً قبول صهيون بدون الصهيونية؟ كيف يمكننا، ببند فائض المعنى المجازي المرسل، أن نصد ليس الصهيونية الدينية فقط، من النوع الذي نشره يتسحاق ياكوف راينز وأبراهام كوك من ضمن آخرين، بل أيضاً ما تدعى الصهيونيات العلمانية الثقافية أو السياسية التي شربت صهيون بدلالات الأرض من أجل تجميع الشعب اليهودي؟

إن مثالية صهيون، سواء كانت لاهوتية خالصة أو ميتافيزيقية، هي التي تخضع لانتقاد الجهاز الأيديولوجي الذي أنجزته الصهيونية. إذا كان صهيون يشير، في وقت مبكر يعود إلى الكتاب المقدس العبري، إلى مدينة القدس / أورشليم وساكنيها⁽¹⁾، عندئذ فإنه يجمع حيلة الكناية (metonymy) البلاغية مع المجاز

(1) «Zion» [صهيون] في معجم الكتاب المقدس: الحكمة والشعر والكتابات،

Dictionary of the Old Testament, Wisdom, Poetry & Writings, Temper Longman III and Peter Enns (eds.) (Nottingham and Madison, NY: IPV Academic, 2008), 936.

المرسل الأولي. يرمز المكان-وبالتالي، شيء ما- إلى شخص ما، أي إلى جماعة من الكائنات البشرية. الاستراتيجية ينبغي ألا تكون مفاجئة. على سبيل المثال، عندما يقترح مواطنو فرنسا في الانتخابات الرئاسية، يتوقع المرء أن يصادف عناوين مقالات صحفية مثل «فرنسا تقرر». بالتأكيد تكون العبارات الكنائية مغلوطة بشكل صارخ غالباً. المقترعون الذين يحرصون على الظهور في مقصورات الاقتراع هم وحدهم الذين يعلنون عن قراراتهم، ومن هؤلاء، تقرر الأغلبية، كما يتم تعريفها قانونياً، من سيخدم كرئيس للبلاد. إن المجانسة الماكرة لكل المواطنين المقترعين واللامقترعين تحت يافطة موضوع مثالي يدعى «فرنسا» إنما تمرر اختيار جماعة ربما تضم، باللغة المطلقة، أقل من عدد السكان من أجل حكم الجسم السياسي بأكمله^(١).

إن الاستراتيجيات المماثلة لها، وإن كانت حتى أكثر جرأة، هي استراتيجيات التمثيل السياسي في الصهيونية التي تدعم تصورها الأيديولوجي بالقدرة البلاغية للمجاز المرسل. يكون الاستبدال غير المفيد، مرة أخرى، مزدوجاً: الصهاينة بالنيابة عن كل الإسرائيليين، وإسرائيل بالنيابة عن مجمل يهود العالم، أو الشتات. رغم أن عدداً كبيراً (ويتزايد بشكل ثابت) من المواطنين الإسرائيليين لا يتهاون مع الأهداف والتطلعات الصهيونية، فإن الشكل القانوني والمؤسسي والديني والثقافي لنظام الحكم يقرره الجزء الذي يجسد نفسه في المكان الشاغر للكل. المبررات الرسمية لهذا التناهي تتغير من الحاجة إلى الوحدة القومية في وجه الخطر الوجودي الخارجي إلى التهديد الديموغرافي «الداخلي» وهو أن القسم غير اليهودي من سكان البلاد سوف يفوق قريباً عدد اليهود الإثنيتين. مهما يكن المبرر، فإن التصور الأيديولوجي للبلد بأكمله يرسم على صورة الجزء الأكثر حماسة من الحركة الصهيونية المعاصرة. وكذلك فكرة الشتات اليهودي.

(١) لخص كارل شميت هذه الحيلة وغيرها من حيل التمثيل الديمقراطي في كتاب القانونية والشرعية Legality and Legitimacy, trans. J. Seitzer (Durham, NC and London: Duke University Press, 2004).

عندما يصل الأمر إلى المجاز المرسل العالمي الثاني - الطريقة التي تزعم إسرائيل بها أنها المشرقة على يهود العالم - تتعمق الأسس لأجل الاستبدال الماكر وتكون أكثر ارتباطاً بشكل وثيق بالمنطق الميتافيزيقي بشكل جوهري مما هي في حالة التمثيل السياسي داخل الدولة. إن الشتات يعبر حرفياً بشكل لا لبس فيه عن تبعثر البذرة، وهي حالة تنافي الأسطورة الميتافيزيقية للوحدة البسيطة والأصيلة، التي تميزها بشكل مبهم الأفكار، المادة/ الجوهر، الله، الروح، وهلم جرا. لقد كان الاعتراف بالشتات هو الشرط الضروري (sine qua non) المستر لتفكيك دريدا للميتافيزيقا الغربية. إن الحجة القائلة بأن الأصل ليس واحداً، أي أنه لا يزال مبعثراً قبل بداية متسقة إلى عدد من الأصول، كانت السمة المميزة للتفكيك ليس فقط في تفكيره بالاختلاف بل أيضاً، وبشكل أكثر وثاقة صلة بالموضوع، في التفكير بالانتشار (dissemination)، الذي هو ترجمة دقيقة لـ «دياسبورا» [شتات] عن اليونانية⁽¹⁾. بالمقابل، إن الصهيونية، من كل الألوان والأشكال، تتصور تجميع الشتات في المكان الامبريالي لصهيون، سواء كان يتمتع بمنزلة دولة سياسية أم لا. إن «حق العودة» المحفوظ قانونياً، الذي عمده دولة إسرائيل مسبقاً إلى كل يهودي في العالم، يمنح مواطنة افتراضية لأولئك الذين يعيشون في الشتات. هذه السياسة تعتبر التبعثر عديم الأهمية - مجرد ظاهرة مصاحبة وانحراف مؤقت عن الوحدة الميتافيزيقية للشعب. من منظورها، إن الوصول الجسدي للمهاجرين اليهود الجدد إلى إسرائيل مرغوب فيه بالتأكيد لكنه ثانوي بالنسبة إلى ما دعوتها المواطنة الافتراضية، أو الانتهاء الكامن ليهود العالم إلى دولة إسرائيل. إن تجميع اليهود من الشتات هو أولاً وقبل كل شيء مسعى ميتافيزيقي لاستعادة وحدة عليا مفقودة للشعب، الذي لن تكون عودته «الفعلية» سوى الوسيلة أو الإشارة من أجل إتمام هذه المهمة المسيحانية/ الخلاصية. هذا هو السبب في أن أيديولوجيا الصهيونية تعتبر يهود العالم ينتمون قبلاً

(1) جون كابوتو، صلوات ودموع جاك دريدا: ديانة بلا دين (بلومينغتون وإنديانا بوليس: مطبعة جامعة إنديانا، 1997)، 230. انظر أيضاً جارود هايز، «إفساد الجذور، أفساد الشتات» في طقوس العودة: شعرة الشتات وسياسة الذاكرة، ماريان هيرش ونانسي ميلر (تحرير) (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، 2011)، ص: 72 - 78.

بشكل دائم إلى «جسد وروح» إسرائيل، سواء أرادوا ذلك أم لا، كما يثبت بشكل واسع الخلاف الحديث على أوراق كافكا⁽¹⁾.

باختصار، إن المجاز المرسل العالمي لليهود الإسرائيليين بالنيابة عن مجمل الشعب اليهودي يتوقف على الوحدة الميتافيزيقية التي تجسد تجسيدها، بالنسبة للصهاينة، في مكان صهيون، وتعبيرها السياسي، الدولة الإسرائيلية. هذا النموذج التضميني والتوسعي يتباين تبايناً حاداً مع مجاز مرسل آخر ينكر بشكل فعلي على شعب معين الحق في التمثيل السياسي وهكذا يقوم بوظيفة كأداة للعنف. إنني أشير إلى فكرة أن قسماً واحداً فقط من كافة المقيمين في الأرض الممتدة بين شرق البحر المتوسط ونهر الأردن يشكل الساكنين الشرعيين للمكان. إن عمليات طرد الفلسطينيين من بيوتهم عند إعلان الاستقلال الإسرائيلي؛ الإهمال الدولي الذي عانى منه سكان الأراضي المحتلة لعقود من الزمن؛ اقتلاع البساتين وأشجار الزيتون الفلسطينية، التي هي كنايةات عن الناس المتجذرين في موقع معين - أعمال العنف هذه والأعمال المرتبطة بها هي نتائج مترتبة على المجاز المرسل الإقصائي الذي يطمس ويدمر أكثر مما يكشف ويبني. ليس معنى ذلك أن الصهيونية كانت «عمياء عن وجود العرب في فلسطين»⁽²⁾. بالأحرى، كانت عمياء (بشكل متعال؟) عن تبريرات وجودهم وحقهم في الوجود. خصوصاً بعد تقسيم الأمم المتحدة لفلسطين في الفترة 1947 إلى 1948، لم يعد كل سكان فلسطين يوجدون على المستوى القانوني أو السياسي، حتى رغم أن الوجود الجسدي، بالطبع، قد صمد بشكل عنيد. في الفجوة بين هذين الوجودين ضرب العنف، عندما كان الجزء الذي استفاد من الدولة السياسية يمثل الكل بفضل الظروف وبقوة أيديولوجيته.

(1) جوديث بتلر، «من يملك كافكا؟»،

London Review of Books, vol. 33, No. 5, March 2011, 3-8 <http://www.Irb.co.UK/v33/no5/judith-butler/who-ownskafka> (retrieved on April 17, 2012).

(2) زيف سترنيل، الأساطير المؤسسة لإسرائيل، ترجمة ديفيد مايزل (برنستون، ن.ج: مطبعة جامعة برنستون، 1999)، 43.

يميل أولئك المؤيدون لحل الدولة الواحدة للصراع الفلسطيني الإسرائيلي إلى تشجيع مفهوم مختلف للكل، بعيداً عن العنف المجازي المرسل. عندما كتب إدوارد سعيد في عام 1999، «لا أرى طريقة أخرى سوى البدء الآن بأن نتكلم حول تقاسم الأرض التي لفظتنا معاً، نتقاسمها بطريقة ديمقراطية حقاً، بحقوق متساوية لكل مواطن»⁽¹⁾، فقد أعاد بشكل بلاغي خلق كل مشترك [الأرض]، لن يكون أي طرف قادراً على أن يمثله أو يرمز له أفضل من أي طرف آخر كهذا. بشكل قاطع، قبل مداخلة سعيد، كانت هذه الرؤية قد قدمها بعض أعضاء الحركة الصهيونية (مثل مارتن بوبر وحنة أرندت، لنذكر فقط الأسماء الأكثر تميزاً) الذين كانت آراؤهم، في تلك الأثناء، قد أخرجت في السردية الرسمية للحركة⁽²⁾. بالنظر إلى تنوع التراثات الفكرية التي قامت عليها الصهيونية، من المتوقع أن تنبثق مثل هذه البدائل الجذرية في وسطها. مع ذلك، ما يهم هو أن الأصوات المنشقة، والأصوات البارزة في ذلك، هي مهمشة في الداخل وبالتالي مستبعدة من خطاب الصهيونية، بفضل تطفل الجزء المهيمن على الحركة بالنيابة عن الكل⁽³⁾. كان من الأفضل أن ننسى، إذن، أن المجاز المرسل الصهيوني يعني أيضاً مجازاً مرسلًا داخل الصهيونية وأننا، لذلك، نتعامل مع مركب من التقوية المتبادلة، داخلياً وخارجياً، لاستبعادات تُجعل ممكنة بفعل الاستبدالات المجازية المرسلة. إن عنف إسكات تيار الفكر

(1) إدوارد سعيد، «حل الدولة الواحدة» في The New York Times, January 10, 1999. <http://www.nytimes.com/1999/01/10/magazine/the-one-statesolution.html?pagewanted=all&src=pm> (retrived on April 17, 2012).

(2) ارجع، على سبيل المثال، إلى مارتن بوبر، أرض شعبين: مارتن بوبر حول اليهود والعرب، تحرير بول مندرز-فلور (شيكاغو، ايلينوي: مطبعة جامعة شيكاغو، 2005).

(3) «القرار الإقليمي في الحركة الصهيونية له دلالة مهمة لأن الشعب اليهودي المشتت غالباً ما يتم تقديمه كحالة من «التزعة القومية اللاإقليمية». لاحظنا مواقف ماغنز وبوبر اللذين عارضا حلاً إقليمياً لسجال التقسيم عام 1937. وحنة أرندت اعتقدت، بعد إقامة دولة إسرائيل، أن اليهود أمة حتى في غياب الأرض/ الإقليم. من الناحية الأخرى، كانت الأخلاقية الصهيونية مرتبطة بالأرض بشكل كامل». ايتسحاك غالنور، تقسيم فلسطين: تقاطعات القرار في الحركة الصهيونية (الباني، نيويورك: مطبعة سوني، 1995)، 265، التشديد من عندنا.

بالتأكيد لا يمكن مقارنته بالعنف الذي خلق تعداداً سكانياً من اللاجئين لكن قد يتبين أنها ينبتان من جذر واحد.

عمى اللغة

يخلق التراكب المدوخ للمجاز المرسل على المجاز المرسل الذي شهدناه للتو موجة من تمهيات الجزء مع الكل التي تشوش بشكل فعلي ما تتم تسميته، بتسمية شيء والتظاهر بالكشف عنه. تحدث اللغة دائماً، إلى حد معين، هذا التأثير المثير للفضول لتعميتنا عما يجعلنا نرى. فعندما أقول «شجرة»، أجعل معنى ما أقصده متاحاً لمحاورى، في حين أحجب تشكيلة مشوشة للذهن من الأشجار الفعلية. الكلمات هي مثاليات (idealities)، حساسة للتفرد الخالص. التجريد اللغوي يطوق الخصوصيات التي تبقى بداخله على مستوى الإمكانية المحضنة. العكس تماماً هو الحال مع المجاز المرسل، حيث يقحم الخصوصي نفسه، بدون توسطات، في مكان شيء أكبر، وإن لم يكن بالضرورة عمومياً. إن تلاً خاصاً، [جبل] صهيون، يرمز إلى مدينة خاصة، القدس التي ترمز، بدورها، إلى امتداد خاص من الأرض بالإضافة إلى كونها ترمز إلى المكان الاستثنائي الذي تلتقي عليه المدينتان الأرضية والسموية. إن مد المعنى خارج ذاته، إلى دائرة مكانية أكبر أو هالة من القدسية، يعمي المتلقين له عما هو محتوى ضمن الحدود المادية للتل أو المدينة أو الأرض ويعميهم، بشكل أكثر قتامة مع ذلك، عمن يسكن ضمن تخومها. إن الإصرار الصهيوني على «المدينة الأبدية وغير القابلة للتقسيم» يتجاهل الانقسامات الانفجارية القائمة على العرق والطبقة والدين التي تجعله يبدو كما لو أن بضع مدن مختلفة يتم جمعها تحت اسم القدس؛ إن مصطلح «أرض إسرائيل» يطمس الوجود الحقيقي لغير اليهود داخل هذا العالم الممثل والمروحن [أي الذي أسبغت عليه الصفات المثالية والروحانية - ملاحظة من المترجم]، وهلم جرا. إن طريقة عمل (modus operandi) المجاز المرسل الصهيوني هي الحجب من خلال التسمية، إنها مبالغة في التزعة المتأصلة في اللغة بحد ذاتها ومثلثة إطنابية (hyperbolic) للخصوصيات (particulars).

يخفي العنوان «عمى اللغة» نفسه تلميحاً إلى مقالة جاك دريدا حول الصهيونية، «عيون اللغة: البركان والهاوية»⁽¹⁾. في النص، يقدم دريدا قراءة دقيقة لرسالة 1926 التي وجهها جرشوم شولم إلى فرانتز روزنتسفايغ حول موضوع «إحياء» اللغة العبرية [خدمة] لأغراض المشروع الصهيوني في فلسطين تحت الانتداب البريطاني. إن موضوع القلق هو أدوثة (instrumentalization) اللغة المقدسة وتسخيرها لأغراض «تقنية - لغوية أو تقنية - سياسية» مُعلّنة⁽²⁾. هذا هو في نهاية المطاف السبب في أن شولم يؤمن بأن الإحيائيين الصهاينة لا يفهمون جوهر اللغة و، في الواقع، جوهر المقدس، الذي قد يعود، مثل أية مادة مكتوبة، بشكل غير متوقع وبتبعات كارثية نوعاً ما⁽³⁾. من هنا مجاز البركان، الذي يتحول إليه تل صهيون. تحت التصورات الصهيونية يكون البركان جاهزاً للانفجار في أي وقت ويزيل كل شيء يقام عليه.

قد يكون صحيحاً، تماشياً مع قراءة دريدا لشولم، أن الصهاينة لم يفهموا جوهر اللغة. لكنهم بالتأكيد تمكنوا من استراتيجياتها البلاغية. إن تفكيكنا للمجاز المرسل الصهيوني منهمك بسطحية اللغة أكثر من انهماك بالنواة الداخلية، بما تقوله الكلمة نفسها - في كل مرة بشكل مختلف، اعتماداً على الجزء والكل اللذين توحدهما - وبما تفعله. ما يهمننا هو مجموع السطوح الدلالية المترابطة المنتجة للتأثيرات الواقعية «على الأرض»، التي تغذي بشكل مباشر أنماط التمثيل السياسي، أو العنف، أو كليهما. كيف سيكون نص دريدا قد تحول، لو انبثق من ذرى البركان ومن أعماق الهاوية - تجسّدات الهرم والحفرة في كتاباته الأبعد⁽⁴⁾ - إلى سهول البلاغة؟

(1) للاطلاع على قراءة دقيقة لنص دريدا، ارجع إلى دانا هولاندر، النمذجة والاصطفاء: روزنتسفايغ ودريدا حول أمة الفلسفة (ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد، 2008). انظر بشكل خاص القسم المعنون «دريدا وسجال شولم - روزنتسفايغ حول اللغة المقدسة والترجمة»، 147 - 55.

(2) جاك دريدا، «عيون اللغة: الهاوية والبركان»، في فصول الدين، تحرير غيل أنيدجار (نيويورك ولندن: روتلج، 2002)، 195.

(3) دريدا، «عيون اللغة»، 195؛ قارن الاقتباس الاستهلاكي.

(4) انظر جاك دريدا، «الحفرة والهرم: مدخل إلى سمبولوجيا هيغل»، هوامش الفلسفة، تحرير آلان باس (شيكاغو ولندن: مطبعة جامعة شيكاغو، 1982)، 69 - 108.

دعونا نبدأ من النهاية، مع الإعلان الغامض عن الكارثة، العقوبة التي تفرضها عودة المقدس المكبوت للغة. يسأل دريدا، متبعاً المزاج المسيحياني للرسالة التي يجللها، «الخراب» [la perte]، «هل هذا هو العقاب المستحق لكون [المرء] قد علمن/ تعلمن، دنس، خرب، باختصار، لكونه قد فعل المستحيل؟ أو في الواقع عكس ذلك، العودة المرعبة للمقدس؟ ومم ستكون العقوبة في النهاية؟»⁽¹⁾ إن زمانية حدث الخراب غير الممكن التنبؤ به، عندما ينفجر البركان تحت المشروع الصهيوني في النهاية، هي زمانية المستقبل بدون أفق للإسقاط أو الاستباق، كما يقول دريدا. إن الماضي العميق للغة المقدسة، المعفاة من الاستخدام اليومي، يندفع نحونا من المستقبل القادم: يأتي الحدث ليمر بين نمطي الزمن، متجنباً الحاضر بالإضافة إلى التمثيل/ التمثل الواعي. مع ذلك، بالنسبة لنا، الذين نتبع مقارنة سطحية أساساً للمجاز المرسل الصهيوني، فإن الحدث قد حصل قبل الآن، لأن الخراب والعنف والتدمير لم تتوقف عن التفجر من الاستبدالات المتعددة للكل بالجزء، مقصية، طاردة، ومسكنة الأجزاء غير المرغوبة الأخرى. لاشيء غامضاً في هذا الإعلان عن الكارثة التي أصابت الحاضر التاريخي منذ منتصف القرن العشرين.

ما يجده شولم مثيراً للأعصاب، في اعترافه الراسلي، هو كارثة الصهيونية العلمانية التي تعبت بـ «أضحية التضحية»، التي تهدف إلى إبطال اللغة المقدسة بوصفها مقدسة⁽²⁾. موضع الرهان هو المجاز المرسل للمتحمسين العلمانيين، التمدي الذاتي (self-hypostatization) في مكان كافة الصهاينة العلمانيين والدينيين. إن هم شولم الرئيسي هو مع الاستراتيجية الصهيونية النوعية ومع الميزة التكتيكية التي نالها الفصل الصهيوني العلماني على خصومه الدينيين في تقرير النهج المستقبلي للحركة. ربما تكون عنايته بالأنطولوجيا العميقة للغة هي الحجاب الأكثر ظاهرية الذي يخفي الخلافات الأيديولوجية؛ إنها، بالمصطلحات السريرية، عَرَض [من أعراض] إحباطه من اغتصاب الحركة من قبل فصل كل موقعه الجزئي وقرر الوسائل

(1) دريدا، «عيون اللغة»، 224.

(2) المرجع السابق، 217.

بالذات التي يمكن من خلالها التعبير عن أي موقف، والملاعب الذي يتم عليه هذا التعبير. إن التنبؤ بالكارثة الوشيكة الحدوث هو، إذا، نوع من الانتقام، ولكنه ليس انتقام المقدس المكبوت بل انتقام شولم المهزوم نفسه.

يستتبع ذلك أن التعارض المسرح بعناية بين الجوهر الداخلي وبين أدوته لأغراض سياسية عابرة هو ذاته تعارض سياسي بكل معنى الكلمة. إن مجادلة شولم ضد التسييس، معتمداً على ما يظل بشكل مفترض حصيناً على المتطلبات الدائمة التغير للفعالية، تلجأ إلى تكتيك التحييد، الذي يطبقه، على سبيل المثال، كل الذين يخترعون خطاباً باسم حقوق إنسانية لا تاريخية أو عابرة للتاريخ. هدف المجادلة هو احتلال أرض أخلاقية أو دينية أعلى بحيث يكتسب المرء موقعاً ممتازاً في الصراع بين رؤيتي الصهيونية بتصنيف رؤيته بأنها لاسياسية أو «جوهريّة»: «إنه [شولم] يعارض فقط الصهيونية الجوهريّة أو الصهيونية القادمة بصهيونية فعلية [un sionisme de fait]، بالصهيونية التي تمارس بشكل أعمى «تفعيل» اللغة المقدسة بدون رؤية الهاوية»⁽¹⁾ في هذا التعارض، يدور المجاز المرسل حول مشكلة الزمانية و، بشكل خاص، حول مكانة الحاضر: ففي حين أن الصهيونية الفعلية، المصممة على تحديث اللغة العبرية، تجعل شيئاً من الماضي حياً مرة أخرى في الحاضر، تعتقد أنه يمثل ذروة التاريخ اليهودي، تجد الصهيونية الجوهريّة ملاذاً في الثبات المقدس، في الماضي العميق للجوهر النقي وعودته «الآتية». في حين أن الحاضر، بالنسبة لشولم، لا يملك الحق في أن يمثل التراث بأكمله، ناهيك عن التاريخ المقدس خارج التاريخ المحفوظ في أعماق ما هو جوهري، بالنسبة إلى الصهاينة، الذين يسعون إلى «فعلنة» الماضي (قبل كل شيء، اللغة)، فإن الشيء المفعّل على هذا النحو يجب أن يلي مطالب الحاضر. ليس «من الصعب»، كما يعتقد دريدا، «معرفة ما إذا كان الشر، السقوط ذاته، يكمن في السقوط أم في البقاء على السطح»،⁽²⁾

(1) المرجع السابق، 197.

(2) المرجع السابق، 202 - 3.

بالتحديد لأن البقاء على السطح ليس سوى سقوط نحو الأعلى⁽¹⁾ من النواة العميقة للجوهر.

هذا هو، إذًا، ما يحجبه شولم عندما يسمي جوهر اللغة، المصنوعة في حد ذاتها من الأساء؛ أي العناصر السطحية أساساً. إنه يحجب، تحديداً، معركة من أجل الشرعية التي ترى واحدة فقط من الصهيونيات تصبح مجازاً مرسلًا للحركة برمتها، وهو يفعل ذلك بإخفاء الاستراتيجيات والأهداف السياسية خلف واجهة المراثي والنسوءات الأنطوي-لاهوتية. إنه، الصهيوني الجوهري، يقاتل ضد العقلانية الأداتية للصهيونية الفعلية العلمانية والمعلمنة التي تُبقي عينها على ما تريد أن تنجزه باللغة، ما ترغب في أن تفعله باللغة ومن خلال اللغة. لكن عين الصهيونية الأخرى هذه، الكلية الرؤية، الدائمة اليقظة، التي لاتعرف التعب، التي ترمز إلى عين العقل ذاتها، هي مجاز للوضوح الأعمى عن الجوهر المنعزل للقداسة، إلى اللغة المقدسة والهووية المقدسة: «لهذا فإن وضوح [الرؤية] هو الذي يهدد بابتلاعنا، وليس العمى. فالبشر العميان نحن، كلنا تقريباً، نعيش في هذه اللغة، فوق الهاوية؟»⁽²⁾ إن الوضوح الذي يعمي يوازي بنية المجاز المرسل، الذي يحجب من خلال التسمية، سوى أن ما نُعمى عنه هو المثالية الميتافيزيقية للمقدس، في حين أن ما يُحجب عنا هو المادية الخام للوجود. إن القنوط الذي ينضح من رسالة شولم ومن قراءة دريدا الدقيقة لها يرتبط بإدراك أن العمى المعلمن/ المتعلمن عن مسائل الجوهر لا يقلب موضوعاته بشكل تلقائي ليواجه مادية الوجود. بدلا من ذلك، إنه يعيد خلق مثاليات اللغة، والهووية والأمة وهلم جرا، أكثر تدميراً من ذي قبل، منفلتاً على شيء لا ينطبق بدقة على القوالب التي تسهر عليها العين الكلية الرؤية للأيديولوجيا، متعامية عن ذاتها فقط.

تؤشر إعادة الولادة العنقائية للغة العبرية إلى موت فكرة بعينها عن الصهيونية وإلى النسيان المؤقت (بحسب شولم) للمقدس. لكن ما يعتبرها شولم «لغتنا»

(1) أدين بهذا المصطلح إلى تريي ايغلتن، الذي ذكره في محاضرة أخيرة حول «يسوع والتراجيديا» في كاتدرائية واشنطن القومية في 25 آذار، 2012.

(2) دريدا، «عين اللغة»، 197.

(unsere Sprache) ليست شأنًا يهوديًا داخلياً صرفاً. في هذا المثال، يشغل [الضمير] «نا» مجازاً مرسلًا ملتبساً. هل يحيل إلى مؤلف الرسالة والمرسل إليه، شولم وروزنتسفايغ؟ هل يرمز إلى الصهاينة الجوهريين؟ إلى كل الصهاينة؟ إلى الشعب اليهودي ككل؟ أم هل كل واحد من هذه «الأجزاء» الأصغر يصارع لكي يساوي ساحته الخاصة به تحديداً بساحة سياسية أكبر في مجملها (in toto)؟ ومن يستطيع وصف تلك اللغة، التي تغلي، التي لا يمكن انتحالها، في قاع بركان، بأنها «لنا»؟

يشكل المجاز المرسل الصهيوني نفسه بفضل إقصاء أولي لكل من لا يتكلم «لغتنا». لكن دريدا يتفادى، بما يكفي بشكل غريب، مناقشة الآخرين المهمشين، المستبعدين من تسمية «نا»، الذين يجعلون بقية الرسالة ممكنة⁽¹⁾. إنه لا يبرز الذكر الوحيد للشعب العربي، (das arabische Volk)، في نص شولم. يكتب مؤلف الرسالة حول الموضوع:

يتكلم المرء هنا حول أشياء كثيرة يمكن أن نجعلنا نفشل. المرء يتكلم اليوم أكثر من ذي قبل حول العرب. لكن الأغرب من الشعب العربي [unheimlicher als das arabische Volk] ثمة تهديد آخر يواجهنا هو تبعة ضرورية للمشروع الصهيوني. ماذا عن «فعلنة/ تفعيل» (Aktualisierung) اللغة العبرية؟⁽²⁾

بعد تشبيه البلد ببركان «يؤوي اللغة» مباشرة، يسجل شولم تهديداً آخر كثر الحديث عنه، «العرب». لن يعيد تناول هذا الموضوع لأن «العرب» هم ما يتكلم المرء عنه، وليسوا أولئك الذين يتكلم المرء إليهم. فتهددهم أخرس، لا يبدو أنه «تبعة ضرورية للمشروع الصهيوني»، لكنه مع ذلك لا يمكن تفاديه ما داموا لا

(1) في النهاية، قد لا يكون ذلك مفاجئاً في ضوء تحليل كريستوفر وايز لعلاقة دريدا الغامضة أحياناً بالصهيونية وفشله في انتقادها، على سبيل المثال، في أطراف ماركس- راجع كريستوفر وايز، دريدا، أفريقية والشرق الأوسط (لندن ونيويورك: بالغريف ماكميلان، 2009)، ص: 54 وما بعدها.

(2) غرشوم شولم، «اعتراف حول موضوع لغتنا، رسالة إلى فرانتز روزنتسفايغ»، 26 كانون الأول/ ديسمبر، 1926، في: فصول الدين، تحرير غيل أنيدجار (نيويورك ولندن: روتلج، 2002)، 226.

يشاركون «نا» «لغتنا» وهم مستبعدون وجودياً من المجاز المرسل الملتبس للشكل التملكي [ضمير الملكية]. مع ذلك، فإنه تهديد غريب لأن الذين يارسونه قد جسدوا مصدر الخطر المحسوس: «العرب» هم - ينقل شولم في رسالته - موضوعات للنقاشات، وليسوا ذاتاً تُعَدُّ قادرةً على الرد. فما معنى التحدث، ناهيك عن التفاوض، مع شخص لا يتكلم «لغتنا» (بشكل واضح، موضع الخلاف في هذه العبارة، إضافة إلى اللغة العبرية، هي لغة تقاليد «نا»، أخلاق «نا»، فرائض «نا» الدينية، وصايا «نا» الأخلاقية ومن الذي يفرض التهديد الذي نوقش كثيراً «علينا»؟

للإنصاف، ليس العرب غرباء، برأي شولم، بقدر ما هم السبب الحقيقي لمصادر قلقه. ينشأ تراتب هرمي مستتر للخطورة من بداية الرسالة. الأقل غربة هو الموضوع المشترك للنقاش، التهديد العربي؛ يأتي ثانياً الأعداء الذين لا زال بإمكان المرء أن يتحدث إليهم، الإحيائيون الصهيونيون الذين ينوون «فعلنة» اللغة العبرية وعلمنة المشروع الصهيوني؛ ثالثاً، والأكثر غربة، هو التهديد الأخرس المتأصل في اللغة ذاتها، المختزلة إلى وسيلة للتواصل، إلى أذى الأثر الشديد الزعزعة والانفجارية لقداستها. الأشخاص العرب هم الأقل غربة في هذا المخطط للأشياء لأنه لا يتعين استبعادهم من الجماعة اللغوية، كما يتصور شولم. كان البديل هو إدخال لغة لا تنتمي إلى أحد، ليست «لنا» ولا «لهم»؛ أي إن لغة الإسبرانتو (Esperanto)، بدلا من العبرية، هي التي تظل «حبلى بالكوارث»⁽¹⁾. يبرهن شولم أنه أكثر علمانية من الإحيائيين المعلمنين للعبرية، بما أنه يرغب في تبني لغة سياسية أو عمومية مختلفة كلياً في المنطقة، على شرط أن لا تكون قداسة «لغتنا» مدنسة بالاعتبارات البراغمية لليومي. يعبر الاقتراح من أجل مثل هذا التمايز للوظائف، رغم أنه مستوحى ميتافيزيقياً وأنطو - لاهوتياً، من وصايا عصر التنوير حول فصل الكنيسة والدولة الذي من شأنه أن يسمح بتعايش الجماعات المعتقدة لديانات مختلفة، في المجال العمومي. على يدي شولم، سواء أراد ذلك أم لا، تكف العلمنة عن أن تكون «عبارة جوفاء»⁽²⁾. إن معناها الذي جعل أكثر اتساعاً، يمجّد من الداخل عمى اللغة، لا يناصر تماماً وضوحاً جديداً، بل

(1) شولم، «اعتراف حول موضوع لغتنا»، 227.

(2) دريدا، «عيون اللغة»، 217.

يجعل باراديغماً [نموذجاً إرشادياً] رصيناً للتشارك الحقيقي ممكناً. المجاز المرسل يفقد الزخم: تضعف قدرته على الحجب، الذي هو أيضاً حجب بمثابة قدرة. الصهيونية تفكك ذاتها، مفتحة على الآخر.

لغة العمى

كان المزاج التدميري الذاتي يسري دائماً عبر الحركة الصهيونية، التي كانت تضم أنصار الاتحاد اليهودي-العربي في فلسطين، أو ما بات يعرف بـ «حل الدولة ثنائية القوميات». كانوا، وقد أسكتوا بواسطة المجاز المرسل الصهيوني المهيمن، مثل شولم، بالأنبياء التوراتيين، النقاد الاجتماعيين الأفظاظ الذين حذروا القوى الموجودة من المصير الوشيك. إن واجبنا الأخلاقي هو أن نصغي إلى أصواتهم المغمورة في الاندفاع المجنون للعنف الذي شجبهه بقوة.

يعود أحد هذه الأصوات إلى ناتان تشوفشي، الرئيس الفوضوي والسلمي لفرع فلسطين من أحمية مقاومي الحرب. إذ يكتب في عام 1964، بعد عشرين عاماً بالضبط من رسالة شولم إلى روزنتسفايغ، من أجل النشرة الشهرية بيعايوت (مشكلات) لحركة ايتشود (الاتحاد)، يبدو أن تشوفشي يردد صدى عاطفة هذه الرسالة الأقدم. فمقالته، التي تحمل عنوان «إلى الهاوية»، ترسم الخطوط العامة للمسار الخطير المتنبأ به في عام 1926. إن الهاوية التي يغوص فيها اليهود في فلسطين الآن لا علاقة لها بعلمنة اللغة العبرية بل، بالأحرى، بأيديولوجيا العنف السائدة في الحركة الصهيونية. ماهو مؤثر بشكل خاص ومثير لعواطف شولم هو اقتران الهاوية والبركان، الذي يغلي بالاحتقار للآخر العربي: «بدون تفاهم مع جيراننا العرب، فإننا نبني على بركان وعملنا بأكمله في خطر»⁽¹⁾. إن تشوفشي، كما لو كان عالم زلازل، يسبر أراضي صهيون فيجدها بركانية، جاهزة لأن تنفجر تحت أقدام «نا»

(1) ناتان تشوفشي، «إلى الهاوية»، في: نحو الاتحاد في فلسطين: مقالات حول الصهيونية والتعاون اليهودي-العربي. تحرير م. بوبر وج. ل. ماغزوا. سيمون (وستبورد، كنيكتيكت: غرينوود برس، 1972)، 38.

وتنفث فوارات من الكراهية القاتلة. لكن الثوران لا يتم التكهن به فحسب، بل بات يمر وحدوثه المتواصل يفوق كل ما أشير إليه في مقالة «إلى الهاوية».

«الكارثة قد وقعت» هي الجملة الافتتاحية لنص تشوفشي⁽¹⁾، في تباين صارخ مع إرجاء شولم للحدث الرضي إلى مستقبل غير محدود. فيما بعد، سيحدد للكارثة تاريخ دقيق، «الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر، 1945»، اليوم أو الليلة التي نفذت فيها حركة المقاومة اليهودية في فلسطين سلسلة من عمليات التخريب، شملت «تفجيرات وتدميراً، دماً وناراً، وموتى وجرحى و«سجناء»⁽²⁾. وإذ يكتب ليعبر عن رعبه من أحداث ليلة القطارات المميتة، يشجب تشوفشي، في المثال الأول، قرار المتعصبين المتحمسين الصهاينة باللجوء إلى العنف «الافتدائي» من أجل تحقيق أهدافها. إن نجم الافتداء قد هوى، بالمعنى الحرفي للكارثة التي يدركها جداً تشوفشي الذي يصف الأول من تشرين الثاني بأنه «يوم سيء النجم»⁽³⁾ - يمكننا أن نقول، نهار لا يمكن تمييزه عن ليل بلا نجوم. الكارثة الفريدة هي كناية عن العنف، مع التمجيد المصاحب للتضحية البطولية وتظهر للقوة الوحشية. إن التمظهر الشاذ يكشف، قبل كل شيء، المبررات الظاهرية للعالم: لاشيء لرؤيته في الضوء الصحيح للنهار الكارثي. فهو لا يكشف أي شيء ولا حتى يحجب من خلال فعل التسمية بل يشيح عن شروط الإمكانية لأجل الرؤية ولأجل العيش في مكان ساكنه اللاهوت غير معترف بهم بالقدر نفسه⁽⁴⁾. العنف هو لغة العمى.

دعونا نتوقف عند هذه المفارقة للحظة: تظهر من نوع رديء - إظهار للقوة العنيفة أو «للقدرية اليهودية»⁽⁵⁾ - يمحو ظاهريته الخاصة به، ينزع البشاعة

(1) تشوفشي، «إلى الهاوية»، 37.

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع السابق.

(4) «يوجد شعب عربي في هذا البلد وشعب عربي في الشرق الأوسط حولنا. البريطانيون والأمريكيون يحسبون حساباً لهذه الشعوب في وضع خططهم هنا، ويجب علينا نحن اليهود أن نحسب حسابهم، أيضاً». (تشوفشي، «إلى الهاوية»، 40).

(5) تشوفشي، «إلى الهاوية»، 37.

(de-monstrate) عن نفسه، و، بالشكل نفسه، يعمي أولئك الذين يكشفون هذه اللاظاهرة (non-phenomenon) بالإضافة إلى أولئك الذين تستخدم ضدهم القوة. كما يلمح تشوفشي، ليست هذه التظاهرات الخطيرة المسببة للعمى محدودة، بأي شكل من الأشكال، بـ«العصابات الإرهابية» التي أحرزت النجاح أخيراً في الأربعينيات. بالأحرى، إنها حاسمة لأجل تطلعات المتعصبين الصهاينة الذين يصرخون، «وعلى رأسهم جابوتنسكي»، من أجل دولة يهودية، جيش يهودي، و«كل... التظاهرات الأخرى للقوة المادية»⁽¹⁾. من بين الأشياء الأخرى، ستكون الدولة اليهودية، بالنسبة إلى تشوفشي، أوج لغة العمى، مولوخاً دائماً المطالبة بالقرابين، و«معاناة لانهاية لها وحمام دم»⁽²⁾. إن العنف المأسس، الذي لاغنى عنه لأية دولة سياسية، لن يتمتع، في هذه الحالة، بترف إسدال ستارة الحياة الاعتيادية، بسبب طبيعة الأرض المتفجرة، التي ستؤسس نفسها عليها، أرض الاعتراف والقمع الوحشي للناس الذين سيتم تشارك الأرض معهم. من هنا، بديية الهاوية السياسية: كلما زادت القوة المادية وتجسدها (الجيش، الدولة، الخ.)، قلت قابلية رؤية العالم الذي تتكشف فيه.

تكرر كلمة «عمى» بثبات ملحوظ في نص تشوفشي المقتضب. ف«المؤمنون العميان بالعنف» هم الذين «يقودوننا إلى الهاوية الرهيبة بنشيد الافتداء والخلاص على شفاههم». «إيمانهم أعمى» بـ«يدنا القوية»⁽³⁾. بعيداً عن الثقل البلاغي الواضح، ما الذي يسوغ هذا التكرار، في اقتصاد النص؟ إن تأثيرات العنف، لتكلم بدقة، تعمي إلى درجة أنها تعوق النقاش والحوار والكلام (logos). إنها لا تسمح لنا بأن «نرى» ظاهرات القوة وتقلص الإمكانية لفينومينولوجيا سياسية. يعتمد المجاز المرسل السياسي على الجراحة الترقيعية (prosthesis) لإيمان لا يهتز بأحقية القضية الصهيونية، غير القابلة للنقاش مع الأصوات اليهودية المنشقة. «لكن إذا خاطر

(1) المرجع السابق، 38.

(2) المرجع السابق، 40.

(3) المرجع السابق، 38.

إنسان حصيف العقل»، يكتب تشوفشي، «برفع صوته والنطق بتحذير ضد هذا المسار الكارثي،..... يطلب منه أن يلزم الهدوء ويتهم بعدم الاكتراث بمكابدات شعبه المضطهد والمجروح - وهنا ينتهي «النقاش»⁽¹⁾. إن غياب الحوار بين الفصائل المختلفة من السكان اليهود في فلسطين الأربعينيات، مقترنا بعدم الرغبة في الاعتراف بوجود الجيران العرب - ناهيك عن التكلم إليهم - قد وصل إلى حد الغموض المطلق، العمى الكارثي (عديم النجوم أو السياء الطالع) الذي منه ولدت دولة إسرائيل. فكيف نلقي الضوء على هذه الكارثة دون السقوط في هاوياتها، أي، دون الخضوع إلى دورة العنف الشريرة؟

لقد كان من العيب أن نعارض الوضوح بهاويات العمى، كما يبين سرد محاورة نموذجية مع متحمس صهيوني شاب⁽²⁾. بدلاً من ذلك، فإننا ندعى إلى مقارنة ذكية لكناية صهيون كما هو بها كان ينبغي أن يكون، لو أن مكان صهيون، مع كل ما يرمز إليه كمجاز مرسل قوي، كان يمثل دعامة للعدالة: «.. صهيون سوف يُسترد بالقضاء الإلهي، وأتباعه بالاستقامة» - هذه ليست رؤية مجردة، بل إمكانية عملية⁽³⁾. ما الذي كان يعنيه بالنسبة إلى مكان بعينه أن يصبح مقاماً للعدل، «يُسترد بالقضاء الإلهي والاستقامة»، كما يتنبأ إشعيا - الذي يردد تشوفشي صدى أقواله؟ بعيداً عن الرؤية اليوتوبية التي تحرق حجاب العمى في نهاية التاريخ، كانت هذه الكناية الأخرى «إمكانية عملية»، سيناريو كان لا يزال بالإمكان تنفيذه في الوقت الذي تم فيه تأليف مقالة «إلى الهاوية»، في كانون الثاني/ يناير 1946. لو تم التقاط هذه الإمكانية وتحويلها إلى واقع تاريخي، لتحول صهيون إلى مكان فريد على نحو أصيل لا يعود يخضع لمنطق الاستيلاء على الأراضي. مكان للتعايش خارج المدى الحصري لهوية واحدة، أو في الواقع، لأية هوية؛ مكان لأجل الضيافة النهائية خارج

(1) المرجع السابق، 37.

(2) المرجع السابق، 38.

(3) المرجع السابق، 38.

قسوة الدولة القومية؛ مكان للقرار الأخلاقي - السياسي الخالي من زخارف البطولة والخطاب التلاعبي للتضحيات.

في صياغة تشوفشي أهشة، فإن البدائل واضحة بما يكفي: التعويض الوهمي من خلال العنف وتجريد الآخر من الملكية في مقابل التعويض الدائم من خلال حكم قضائي يعطي للآخر استحقاقه ويتابع «الفرص البعيدة المدى للعمل بسلام»⁽¹⁾. رغم أن الكارثة قد ضربت قبلاً، فلم يكن قد تأخر الوقت لاختيار الكناية الأخرى لصهيون بوصفها مكاناً للعدل داخل الدوائر المتراكزة لمجازها المرسل. بعد ذلك بثلاثين عاماً سيشتك تشوفشي مع ذلك في أن العنف يفسد بشكل لا سبيل لإصلاحه هذه العلاقة الكنائية، بالتوازي مع مفارقة اكتشافها في سفر إشعيا. وسوف ييوح بشكوكه إلى مارتن بوبر، الذي يكتب إليه في خريف عام 1959 قائلاً:

بكل جوارحي أعيش في وئام مع تعاليم أنبيائنا اللاحقين؛ ومع ذلك، في بعض الأحيان، أواجه لغزاً يحيرني. ففي سفر إشعيا، الإصحاح 11، نجد الصورة الرائعة لتحقيق رؤية السلام الحقيقي.... وكم أرتعب عندما أصل إلى هذه الآية المروعة في نهاية الإصحاح: [وينقضان على ظهور الفلسطينيين غرباً وينهبان بني المشرق معاً. ستخضع لهما آدوم ومؤاب ويطيعهما بنو عمون] (11: 14) كم يحتوي من الشجاعة من أجل بن غوريون وطائفته، الذين يتشدقون بقضية السلام على شفاههم لكنهم يحملون سيفاً حاداً في أيديهم⁽²⁾.

تستمر لغة العمى في وسط الرؤية الأكثر إشراقاً للعدالة. لماذا؟

(1) المرجع السابق، 38.

(2) ناتان تشوفشي، «رسالة 697، ناتان تشوفشي إلى مارتن بوبر، هرتزليا، 11 أكتوبر/ تشرين الأول، 1959»، في رسائل مارتن بوبر: حياة من الحصار، تحرير: ناحوم غلاتسر وبول مندوز-فلور (نيويورك: شتوكن بوكس، 1991)، 632.

يلجأ بوبر، في رده، إلى تقنية كلاسيكية للنقد التوراتي، شارحاً أن «مقطع النهب» من السردية كان إقحاماً متأخراً كثيراً، يمكن رد تاريخه إلى زمن السبي البابلي⁽¹⁾. برغم هذا التحليل، يتناقل التراث النص ككل موحد، وهذه هي الكيفية التي يجب بها قراءته وتلقيه. بافتراض أن جزئي الإصحاح 11 من سفر إشعيا مترابطان منطقياً، ماذا لو كان انتهاؤهما المشترك الملعوز هو نتيجة ضرورية للمجاز المرسل؟ ماذا لو أن الجزء بدلا من الكل للمجاز المرسل، في نموذجيته ظل عنيفاً وإمبريالياً، حتى عندما يكون الجزء الذي يمثل الكل هو كناية عن العدل والسلام؟ مع «رؤية السلام الحقيقي» متحققة في مكان تجمع صهيون، الذي يشير إليه سفر إشعيا 11:12، يكتسب التجسيد النموذجي للعدالة و، بشكل خاص، للحقيقة الحق الذي لا ينازع في القتال والنهب والقضاء على الذين يقصرون عن الرؤية. «بن غوريون وطائفته»، بمن فيهم سلطات إسرائيل السياسية والأيدولوجية الحالية، قد تعلموا درس المجاز المرسل الصهيوني حرفياً: لقد تحققوا من أن الـ «جزء بدلا من الكل» (pars par toto) يعني (pars contra omnes) «الجزء ضد الكل» (عقلية الحصار الإسرائيلية الراهنة هي تبعة مباشرة لهذا الإعكاس التأملي؟، المتنبأ به في اللااستقرار المجازي المرسل). أخيراً، إن هذا التزامن الدلالي هو الذي يسمح لهم بأن يصفوا السلام بأنه «سيف حاد في أيديهم».

يتباهى الجزء في العلاقة المجازية المرسلة بالكل بقدرة شبه إعجازية على أن يمتص، بشكل بدلي، قدرة ما ينوب عنه. مثل هذا التقليد للمنصب، إذا، يسمح له بأن يؤكد تفوقه في مواجهة كل الأجزاء الأخرى المكونة للكل، الذي ينبثق عنه وحده. الامتياز المنقذ الاستثنائي للمجاز المرسل يكمن في إعادة تفسير هذه العلاقة بالنظر إلى دونية الجزء الاستثنائي، الاستحالة المزعومة لاستيفاء المتطلبات العالية التي يفرضها موقعه عليه. الجزء بدلا من الكل (Pars pro toto) لم يكن قابلاً

(1) مارتن بوبر، «رسالة 698. مارتن بوبر إلى ناتان تشوفشي، القدس، 8 تشرين الثاني، 1959»، في رسائل مارتن بوبر: حياة من الحوار، تحرير ناحوم غلاتسر وبول مندرز-فلور (نيويورك: شتوكن بوكس، 1991)، 632.

للإعكاس إلى الجزء ضد الكل (pars contra omnes) لو أن حرف الجر (pro) كان يحمل ليس استبدالاً احتيالياً للأكبر بالأصغر، بل كان الجزء هو «لصالح» - في خدمة، مخلصاً كلياً، لـ «كل الآخرين». عندئذ فقط فإن اللاتماهي المغالي، أو التجاوزية الرمزية، للمجاز المرسل يمهد الطريق إلى اكتمال المشهد، بقدر ما يمهد الطريق إلى الكمال الكنائي للكينونة والعدالة. وعندئذ فقط، في التجريد الذاتي لصهيون كرمى للآخر، في كونه لصالح الآخر الفلسطيني المنفرد، ستتحقق النبوءة التوراتية، أيضاً، بحيث سيكون صهيون مليئاً بالعدالة والاستقامة (إشعيا 33: 5).

- 11 -

تقاسم الإنسانية

نحو تعايش سلمي في الاختلاف

لوس إيريفري

لا أعتقد أن النزاعات التي تمزق البشرية اليوم يمكن حلها في الوقت الحاضر فقط وبطريقة شبه فورية، كما يبدو أن بعض السياسيين يعتقدون ويحاولون إقناعنا. من هنا فإن كثرة الاجتماعات والمعاهدات لا تنتهي بشيء، والمصافحات المسرحية للممثلين السياسيين التي تترافق بشتى أنواع القصف الذي يقتل المواطنين الأبرياء. كل هذه الأشياء تساهم في زيادة الوضع سوءاً وازدياد العنف، بدلاً من تمهيد الطريق لأجل حل الأزمة. الغالب أكثر هو العرض المرضي للبناء الثقافي الذي يجعل شعبين متنافرين أحدهما مع الآخر، وغير قادرين على إبرام أي نوع من الاتفاق الثنائي. وكل المحاولات لجمعها معا وخلق علاقة راهنة غالباً ما تعقد المسائل وتجعلها غير قابلة للحل. للتوصل إلى شيء جدير بالاهتمام كان من الضروري أن يعيد كل شعب النظر في تاريخه الخاص وقناعاته وأساليب كينونته، وتصرفه. لكن من هو القادر على فعل شيء كهذا، وأكثر من ذلك كشعب، أي على مستوى جماعي؟

إن النزاع العربي الإسرائيلي الدائم هو أحد الأمثلة الأكثر سطوعاً على نزاع لا يمكن أن يجد حلاً ببلغة الاتفاق الثنائي. حتى طريقة تسميته تجعل ذلك مستحيلاً، لأن الشريكين النهائيين لا يقعان على المستوى نفسه. فالشعب الفلسطيني يوصف بأنه «عربي» - أي بالإشارة فقط إلى أصل إقليمي وثقافي ولغوي - في حين تشير

كلمة «إسرائيلي» إلى شعب له هذه الأنواع من الصفات المميزة، لكنها تشير أيضاً إلى دولة. فكيف يمكن لكيانين بهذا الاختلاف أن يتفقا؟ فهما لا يمتلكان نفس المنزل القانونية. وكيف يكون من الممكن أن نطلب من الشعب الفلسطيني أن يتصرف بطريقة مدنية بدون الاعتراف بهوية [أفراده] المدنية كمواطنين لدولة و، علاوة على ذلك، بحرمانهم مما يعرفهم بوصفهم ينتمون إلى أرض وتراث؟ وكيف يمكنهم أن يردوا بطريقة مختلفة عن الأطفال الغاضبين الذين لا يملكون وسيلة لجعلهم مسموعين؟ هل ترك لهم سوى العنف الانتحاري؟

في الواقع، إن المعضلة العربية-الإسرائيلية هي نوع من الكاريكاتور المسرحي لما يمكن أن يحدث بين شعبين مختلفين وثقافتين مختلفتين في سياق عالمي، مع التعقيد الإضافي لتجريد شعب صاحب حق من الأرض، أي، من جزء من [كوكب] الأرض الذي خصه الله نفسه به، التعقيد الناتج المتمثل في أن يطرد منها شعباً آخر، يؤمن بالله أيضاً. كيف يمكن لشعب يفتقر إلى الأرض والسماء، إلى مكان للحياة الطبيعية وكذلك إلى مكان للحياة الروحية، أن يتمتع بعيش سلمي دون أن يثور ضد الشعب الذي يحرمه من ذلك كله؟ من الناحية الأخرى، كيف يمكن لشعب عانى من الهولوكوست أن يتخلى عن الالتجاء في بلاد يؤمن بأن الله قد خصه بها؟ المشكلة تبدو أنها لا يمكن تجاوزها في الواقع كما هي في الحاضر. وهي ما برحت تزداد سوءاً بفعل حقيقة أن الأميركيين يقدمون الدعم الاقتصادي والعسكري والسياسي وحتى الديني للإسرائيليين، بحيث إن إحدى القوى الاقتصادية والنووية الرائدة في العالم تدعم إسرائيل، في حين يفتقر الفلسطينيون إلى الأرض والمال والأسلحة والحقوق، بما فيها حقوق الاعتراف الإنساني والكرامة. الإمكانية الوحيدة بخصوص مثل هذه المواجهة التي لا تصدق هي محاولة تحليل وتفكيك الوضع كما حدث، والتساؤل حول الإنسانية نفسها لكي تجد الطريقة لمقاربة المشكلة. وهي مشكلة واضحة بشكل خاص وتقدم لها تغطية إعلامية في الحالة العربية-الإسرائيلية، لكنها توجد وسوف تزداد في سياق التعايش العالمي. هذا يجب أن يدفعنا إلى العودة إلى السؤال: ماذا يعني أن تكون إنساناً بلغة التراث التوحيدية، ينبغي أن نعود إلى أسطورة اللجنة

المفقودة كنتيجة لإرادة الإنسانية في انتحال المعرفة الإلهية قبل تهذيب البشرية ذاتها. يجب أن نستعيد عرينا في الجنة ونساء ما إذا كان بإمكاننا وكيف يمكننا أن نبدأ في بناء تطورنا الإنساني مرة أخرى، كل على حدة ومجتمعين معاً.

العبور من الانتماء الطبيعي إلى التعايش المدني

لا شك في أننا لا يمكن أن نتصرف في مكان عام وفقاً لطبيعتنا فقط، التي تحتاج إلى تهذيب لتجعلنا مؤهلين للعيش في المجتمع. الوسيلة الأولى للعبور من حالة طبيعية إلى حالة اجتماعية هي الحقوق المدنية. فهي تعرف الطريقة التي يمكننا بها ويجب علينا أن نتصرف بها لتشارك مع الآخرين على مستوى عام. هذه الوظيفة للحقوق المدنية لا تزال موضع تجاهل على نطاق كبير، والأهم من ذلك، أن الحقوق المدنية ليست مرسخة بالطريقة نفسها في كافة البلدان والثقافات، وهو شيء ليس في صالح التعايش العالمي بين الأفراد. في الحقيقة، إن الحقوق المدنية ينبغي أن تضمن منزلة كل المواطنين وتنظم العلاقات بينهم وبين دولتهم، ولكن أيضاً فيما بينهم كبشر، حتى عبر كل الحدود.

إن الوظيفة الحاسمة للحقوق المدنية يضعفها شيان على الأقل مرتبطان معاً: (1) العائلة المفترض بها أن تكون مكاناً يجب أن يبقى فيه الانتماء الطبيعي مستقلاً عن القانون المدني؛ و (2) عمومية (universality) القانون يفترض أن تكون حيادية. هذه الحيادية لا تأخذ بعين الاعتبار الطبيعة الجنسية (sexuate) للمواطنين ولذلك لا يمكن أن تكون مفيدة في تأمين الانتقال من الهوية الطبيعية إلى الهوية المدنية أو التعايش بين مواطنين ينتمون إلى هويات مختلفة. لبناء مجتمع إنساني، يجب علينا أن نعيد النظر في الحقوق المدنية، التي تأخذ في الحسبان الهوية الحقيقية والملموسة للأشخاص، ونعيد تعريفها، خصوصاً فيما يتعلق بانتمائهم الجنسي. بعبارة أخرى، يجب أن نعيد النظر في مجموعة القوانين (code) المدنية كأداة نحو تطوير شامل ليس محايداً بل مجسداً، ضرورياً لجعل التعايش العالمي ممكناً. لم نصل بعد إلى مثل هذه المرحلة. والتوسع في الكلام حصراً عن العائلة إلى كافة أصناف العائلات -

السياسية، الدينية، الثقافية، إلخ - يمنعنا من القلق حول ذلك. لذلك فنحن نفتقر إلى ثقافة لغرائزنا ودوافعنا، التي نحولها إلى سلوكيات عامة كالهيمنة والتبعية تكون أكثر قوة بما أنها تكون مفصولة عن ضوابطها الطبيعية ولا تظهر كمجرد غرائز أو دوافع. يمكن، إذاً، اعتبار الاختيارات السياسية، الثقافية، الدينية مثالية، أخلاقية، نزيهة، إلخ. حتى رغم أنها تملئها غرائزنا أو دوافعنا غير المهيبة. هذا الوضع لا يسمح بحكم سليم وعادل أو بتعايش كاف خاص أو عام بين المواطنين. إن الحدود بين الانتماء الطبيعي والمدني غير واضحة والتعليم الصحيح يفتقر إلى الاثنين. ويزداد ذلك لأن الأشخاص يقارنون بوحدات غير متميزة من كيانات عائلية مختلفة، أو شعوب، بدون اعتبار جانبها العلاقي الأكثر حياة: هويتهم الجنسية. يفترض بالمواطنين أن يظلوا أطفالاً عديمي الجنس يحتاجون إلى أرباب أسرة استبداديين وقيم قادرة على حكمهم.

من الواضح أن هذا لا يمكن أن يساهم في بناء مجتمع عالمي من الكائنات البشرية. مع ذلك، الأغلب أن تتوقف منظمتنا السياسية والدينية والثقافية عند هذه المرحلة ولن تتطور حتى تؤخذ هويتنا الجنسية في الاعتبار، خصوصاً فيما يتعلق بالقوانين المدنية. هذا يعني أن المواطنين يجب أن يعترف بهم كأشخاص جنسين لا كأفراد حياديين، وأن الحياة نفسها وتحديداتها يجب أن تؤخذ في الحسبان وأن تنظم عن طريق الحقوق المدنية. يجب أن يؤلف المواطنون مجتمعاً أو أمة ككائنات حية تكون مسؤولة عن نفسها وعن علاقاتها بالآخرين. وهو شيء يتطلب قوانين مدنية ملائمة تمثل حقوق المواطنين وواجباتهم أمام أية سلطة تمثيلية. بين الحكام والمواطنين يجب أن يفصل قانون مدني يحمي المواطنين من إساءات استخدام الدولة للسلطة، لكنه أيضاً يعبر عن واجباتهم تجاه الدولة والمواطنين الآخرين، شاملاً مواطني البلدان الأخرى.

لكي يعمل القانون المدني بهذه الطريقة يجب أن يعكس المواطنين في غالبيتهم وفي واقعهم. أعتقد أن الهوية الجنسية هي الجانب الرئيس الذي يجب انطلاقة منه تعديل القانون المدني نحو حكم عالمي ممكن. إن القانون، مهما كانت حياديته ظاهرة،

فإنه يظل مصوغاً بلغة تلبية احتياجات وامتيازات الذاتية الذكورية وحدها. وراء حقيقة أنه يفضل الحق في امتلاك السلع المادية أو الروحية على احترام الأشخاص -أي، يفضل العلاقة بالموضوعات على العلاقة بين الذات- فإنه لا يتلاءم مع الصفات الطبيعية لكل هوية أو التعايش الإنساني. وهذا واضح بشكل خاص بخصوص المنزلة القانونية والإطار المطلوبين من قبل الجسد والذاتية الأثوين، الحامين الرئيسين للحياة الإنسانية. لا تزال النساء غالباً يفترقن إلى المسؤولية المدنية بخصوص حملهن، وبشكل عام أكثر بخصوص حياتهن الغرامية، ومثل هذا الافتقار يتعارض مع حكم يرفع الحياة. إذ لا يمكن للمرأة أن تبقى تحت حماية الدولة، وخصوصاً الدولة المولعة بالحرب، بدون إمكانية أن تتعارض حقوقها الخاصة، وواجباتها أيضاً، مع سلطة هذه الدولة.

الآن، تبقى المشكلة القانونية للحمل والعلاقات الجنسية بلا حل في معظم البلدان وهذا يؤدي إلى اللامسؤولية المدنية للنساء اللواتي يعتبرن قاصرات تحت وصاية الآباء من مختلف أصناف العائلات. مثل هذا الشيء يتناقض مع قواعد نظام ديمقراطي في خدمة الكائنات الحية، ويشهد على تدخل أنواع أخرى من القيم: الطبيعية أو الثقافية أو الدينية. علاوة على ذلك، فإن الحكم الديمقراطي الحقيقي، على مستوى عالمي، لا يمكن أن يوجد في هذه الحالة. لا يمكن سوى لبرنامج عمل للحقوق المدنية الملائمة لأنماط مختلفة من الأشخاص أن يؤمن عمله. بالطبع إن عدد الأنماط يجب أن يظل محدوداً وقائماً على بعض المحركات العامة. يبدو الانتهاج الجنسي الأكثر عمومية من بينها. من المفاجئ أن ديمقراطيات الماضي لم تتعاط بعد مع هذه المسألة بشكل كاف. فقد اعتبرت أنه يكفي أن نمنح النساء المساواة الاقتصادية أو الاجتماعية دون الاهتمام بهويتهن الخاصة، ولا سيما هويتهن الجسدية. يمكن تفسير ذلك بحقيقة أن الديمقراطية قد تم توطيدها لأول مرة من قبل الرجال وكانت، قبل كل شيء، مهتمة بعلاقاتهم، وبالأخص علاقاتهم الخصوصية بهم، وبالأشياء التي تخدم كمقاييس لتقدير أدوارهم ووظائفهم العمومية العلمانية أو الروحية. عندما حلت العلاقة بالمال شيئاً فشيئاً محل العلاقة بالأشياء، فقد ساهمت طبيعتها الحيادية

الظاهرة في تحييد الأشخاص أنفسهم الذين أصبحوا أصنافاً من القطع المتكافئة على المسرح السياسي. ما يهم إذاً هو بعض الخصائص الإنسانية فقط التي تجعل وقد لا تجعل التعايش ممكناً، وليس البشر في حد ذاتهم، الذين خاصيتهم الأولى هي أنهم كائنات حية جنسية.

يبدو تذكير السياسيين بانتائنا الجنسي باعثاً على السخرية في عصر أو وضع يكون فيه المال هو الذي يهم فوق كل شيء. مع ذلك فإن السلوك الديمقراطي والسلمي والحكم لا يمكن إقامتهما على المال أو السلع فقط، ومثل هذا التصور التبسيطي للديمقراطية لا يساعد النساء على أن يصبحن مواطنات كاملات، ولا يساهم باتجاه تنظيم العلاقات بين المواطنين، وخصوصاً بين مواطنين مختلفين - على مستوى الجنس والجيل وكذلك على مستوى الثقافة والبلد، إلخ. إنه يبقى أيضاً خلطاً في دوري السياسة والدين في إدارة المدينة، دور أكثر عناية بالسلع، والدور الآخر أكثر عناية بالأشخاص. بحسب هيجل، فإن ما كان دوراً للنساء في منزل العائلة قد أصبح ضرباً من تدخل الكنائس أو الزعماء الدينيين أو المعتقدات في الحكم السياسي. نظراً إلى الخصيصة البطورية للسلطات الدينية، فإن هذا التطفل لا يساهم في منح النساء المواطنة التامة. الأهم من ذلك، أنه يمنعنا من الوصول إلى الديمقراطية العالمية التي نحتاجها اليوم لأن الديانات المختلفة لم تطور علاقتها بالمطلق بالطريقة نفسها، وهذا يمثل سبباً مهماً للنزاعات والحروب بين المواطنين وبين الشعوب - على نحو بارز في حالة المشكلة العربية - الإسرائيلية. لهذا من الملح بالنسبة لنا أن نحدد برنامجاً للحقوق المدنية يتيح عيشاً ديمقراطياً وتعايشاً بين كافة المواطنين على مستوى قومي، وكذلك على مستوى عالمي.

لا يمكن أن تتطابق الديمقراطية مع خطط زعيم واحد، شعب واحد، ثقافة واحدة، بل يجب أن تعنى بالعيش الواقعي للكائنات الحية التي ليست عديمة الجنس ولا هي متشابهة كلها والتي يتعين عليها أن تعالج الاختلاف على مستوى الإنسانية ذاتها. إذا كان على القانون المدني أن يتصرف كوسيط وكضامن للحيادية في المبادلات بين الممثلين السياسيين والمواطنين، وكذلك بين المواطنين أنفسهم، فلا يعني هذا أنه

يجب أن يختزل الأشخاص إلى أفراد لاجنسيين. يجب على الحقوق المدنية أن تمد كل المواطنين بضمانة ملائمة وواجبات مقابلة محددة بطريقة عامة تكون قابلة للفهم من قبل كل المواطنين.

ما الذي يمكن أن تكونه العضوية الدينية في سياق بين-ثقافي؟

رغم أن القانون المدني الملزم ضروري للتعايش السلمي، فإنه لا يلبي كل احتياجات الإنجاز الإنساني. إنه إطار أو بنية تسمح للأفراد بالانتقال من الحياة الطبيعية إلى الحياة المدنية والتعايش باحترام متبادل. إنه ضرب من جلد ثان يجب أن نرتديه لنحمي أنفسنا، وكذلك لحماية الآخرين، من النزوات الطبيعية الآنية أو الدوافع التي لا تلائم السلوكات والتبادلات المدنية. شخصياً، أعتقد أن الهوية المدنية يجب أن تتدخل أيضاً في منزل الأسرة وينبغي على الأسرة أن تكون مؤلفة من أفراد مدنيين، وليس فقط طبيعيين يحترم بعضهم بعضاً على هذا النحو، حتى لو كانت علاقاتهم أكثر شمولاً مما يمكن أن تكون في المجال العمومي. فأن تكون أكثر شمولاً لا يعني كونها أقل احتراماً أو أقل تمايزاً. إذ يتعين على الحقوق المدنية أن تحمي كافة أفراد الأسرة من التنازل عن فرديتهم ونموهم من أجل وحدة العائلة. هذه الضرورة لم تؤخذ بعدُ بعين الاعتبار بما يكفي، والنساء قبل الجميع هن اللواتي يفتقرن إلى هذه الحماية والمسؤولية المرتبطة بالهوية المدنية. الأهم من ذلك أن هذا الافتقار إلى التنظيم المدني ضمن الأسرة ينتشر على وجه التحديد إلى كافة أصناف الأسرة - السياسية، الدينية، الثقافية، إلخ. - ولا يسمح بالتعايش بينهم، خصوصاً على المستوى العالمي.

في عصور الماضي، وخصوصاً في العصر الأمومي، ساد حكم قانون الأسرة على المدينة، ولم يكن يوجد حكم مستقل عن الروابط الطبيعية والالتقاء الطبيعي. إن مأساة أنثيغون لسوفوكلس، التي لا يمكن حصر أهميتها بنشوء الثقافة اليونانية، تحكي لنا عن الانتقال من هذا النوع من الحكم إلى تنظيم المدينة التي تنظمها قوانين أقل أو أكثر تعسفاً فيما يتعلق بالحياة. عندئذ كان الاهتمام بالحياة محصوراً

بيت الأسرة ويعهد به إلى النساء في حين كان الرجال مؤتمنين على حكم المدينة عبر قواعد يفترض أنها غريبة على الحياة الطبيعية. كان نظام الأسرة مؤمناً عن طريق رعاية الحياة، وبيئتها الطبيعية، واحترام الآلهة التي تحمي الكائنات الحية، بالإضافة إلى السياقات التي تحتاجها من أجل بقائها ونموها الطبيعي. كانت الأسرة نفسها هي المكان الذي تحفظ فيه الطبيعة بحد ذاتها والإلهي ويزرعان. فقد كانت لعبادة الأموات والأسلاف مكانة مهمة في دين الأسرة الذي كانت النساء مسؤولات عنه.

هذه العبادة كبرت الأسرة تحديداً وأمنت تقاليدها. هكذا كان بمقدور الأسرة أن تمثل ليس الشعب فقط بل ثقافته أيضاً. بقيت هذه الثقافة مرتبطة بالحياة على نحو بارز من خلال عبادة الأموات التي يتعين ممارستها لحفظ التناغم الكوني والبيئة الطبيعية للكائنات الحية، كما هو مشروح في مأساة أنتيغون - وهو شأن يبدو أنه يتجاهله الذين يلوثون الأرض على نحو منتظم بالجثث بواسطة الأسلحة الأكثر فأكثر تعقيداً والأعلى أداء. لقد توجب على أنتيغون أن تدفن أخاها بولينيس لتحفظ التوازن بين العناصر الكونية، التي يقوم على حراستها آلهة مختلفون، وهو توازن تخل به جثة تبقى بلا دفن. يجب على أنتيغون أيضاً أن تؤدي طقس العبور من إقامة مؤقتة أرضية/ دنيوية إلى إقامة الأموات لأجل أخيها لأن هذا الطقس هو جزء من التراث الأمومي الذي يوصي بحماية أفراد الأسرة، وخصوصاً الابن الأصغر - وبالنسبة لي، يمثل الفلسطينيون الأفراد الصغار من الأسرة البشرية في علاقتهم بالاسرائيليين - كي لا يصبحوا أية جثة مغفلة الاسم بعد الموت. يجب إنجاز شعيرة العبور نحو جسد جنسي لكي تحمي الميت من التحلل إلى مجرد مادة لا حياة فيها. هكذا يتم الاعتراف بالجنس كجزء حاسم من الشخص، يجب أن يؤخذ في الاعتبار الحماية التفرد حتى بعد الموت.

قبل التدخل في الرغبة أو الحب أو الإنجاب، أي، في السلوكات الجنسية تحديداً، يساهم الجنس في تفرد الأفراد، مقررأ هويتهم. هذا يفسر لماذا لا تستطيع أنتيغون أن تزوج خطيبها هرمون قبل الاعتراف بالهوية الجنسية لأخيها، خصوصاً بوصفها مختلفة عن هويتها. إن تفردا كأمراة يتطلب منها أن تميز نفسها عن الانتهاء إلى

نفس دم ونفس جنس أخيها ضمن الأسرة. في غياب مثل هذا التمايز، فإن الجسد والجنس سيقيان بشكل أو بآخر مقسومين، الأمر الذي يرتبط بشكل ما بالفصل بين الجسد والروح الذي يضر بتحقيق إنسانيتنا وتحقيق تبادلاتنا كبشر. في الواقع، بعيداً عن حقيقة أنها تنطبق على الجانب العلاقي من انتمائنا الطبيعي، فإن الهوية الجنسية هي هوية عالمية وتساهم باتجاه التعايش بين كل البشر - مهما كانت ثقافتهم، تراثهم، ديانتهم، لونهم، إلخ. - على شرط أن يتم الاعتراف بالاختلاف بين الهويتين الجنسيين المذكرة والمؤنثة ورعايته بحد ذاته، أولاً في بيت الأسرة.

لسوء الحظ، إن الأسر البطركية - سواء كانت طبيعية أم سياسية أم ثقافية أم دينية - لم تأخذ في الاعتبار الانتهاء الجنسي للأفراد بما يكفي، وقد ساهمت بهذه الطريقة باتجاه إنتاج بدائل اجتماعية ثقافية متنافرة كلياً، وخسارة الأفراد للتفرد، بالإضافة إلى فقدان التنظيم الدائم للعلاقات بينهم، التي يمكن ضمانها بتعايش مدني محترم للرجال مع النساء. بالإضافة إلى ذلك، فإن التقاليد البطركية قد ألحقت الأذى بالنساء بمنعهن من المشاركة في تطوير الثقافة لأنهن حبسن في بيت الأسرة وخصص لهن الجزء الطبيعي من الإنجاز الإنساني. حتى الدور الديني الذي كن يمتلكه ضمن الأسرة بات تؤديه، شيئاً فشيئاً، المؤسسات العامة التي تؤكد على السلطات والقيم الذكورية هنا والآن، وعلى حياة أخرى في الآخرة، بدلاً من التركيز على رعاية وجودنا الأرضي، وهو وجود يتهدهده المال والتكنولوجيا والثقافة (ات) التي بالكاد تهتم بالحياة ذاتها وتطورها.

إذا لم تكن رعاية الحياة قد أنجزت بشكل كامل في العصر الأمومي، فإن هذا العصر على الأقل قد حمى تنظيمياً وثقافة كانا، بما في ذلك على المستوى الديني، باستمرار مع حياة وصيرورة الكائنات الحية. إن البطركية، بدلاً من ذلك، قد فصلتهما عن جذورهما الحية، وكما تهتف الجوقة في مسرحية أنثيغون، فإن أعمال الرجال، إذن، يمكن أن تؤدي إلى الأفضل وإلى الأسوأ أيضاً لأنها تعسفية إلى حد كبير وجزئية فيما يتعلق بالحياة. إن فرضها من فوق - على شكل قوانين، وصايا مثالية

أو دينية، يخاطر بإيذاء نمو الأحياء. ويمكن للمرء حتى أن يقول: إن هذا قد أذى الحياة نفسها وبيئتها وتشاركها.

لهذا يجب على الحكام المختلفين، على مستوى عالمي خصوصاً، أن يكونوا حذرين في استخدامهم للثقافات البطورية لكي يحفظوا للمواطنين إمكانية أن يستعيدوا جذورهم الحية وأن يتولوا رعايتها وتقاسمها مرة أخرى. وهذا يتطلب تطوير ثقافة أخرى لا يهتم بها القادة الدينيون والسياسيون بما يكفي. عندئذ، يتوقف الانتقاد وحتى شن الحرب ضد الشعوب والأنظمة الأخرى أو اللجوء إلى الأيديولوجيا، نوع من استعباد الحياة الذي يمكن أن يكون في بعض الأحيان أكثر شللاً من الدين. إن الكبت الأخلاقي للوعي هو أيضاً كثير الحدوث في مجتمعاتنا اليوم. كل ذلك يظهر غياب الثقافة الملائمة في رأيي، كما هو الحال عندما تختزل الديمقراطية إلى المساواة على المستوى الاقتصادي، مع غلبة المزاغم ضد الناس الذين يتفاوضون راتبا أعلى أو يحصلون على سلع أكثر بدون اعتبار للقيمة الإنسانية أو جدارة كل واحد، كما كان الحال عند إقامة الديمقراطية اليونانية. إن العلاقات بين الأشخاص عندئذ يتم تقييمها فقط بمصطلحات كمية وليس بلغة الكيفيات ومجالات الكفاءة ذات الصلة التي هي ضرورية من أجل تسيير المجتمع. الأهم من ذلك، أن العلاقات عندما يتم تقييمها بطريقة كمية، تصبح تنافسية وتنازعية أيضاً.

كيف يمكن أن يحصل التعايش السلمي بدون استخدام مؤهلات كل المواطنين من أجل تسيير المجتمع؟ على مدى عصور، حظيت المتطلبات والمؤهلات الذكورية، المستمدة أكثر من بعض التقاليد، بالامتياز تحت قناع الأفراد العموميين ووسائل الحكم والتبادل. هذا أمكنه أن يشرح السبب في أن الثقافة الديمقراطية لا تزال ناقصة وأن النزاعات العالمية لا زال من غير الممكن تجاوزها. فلم تتم بعد دعوة مواطني العالم للتعبير عن رأيهم والمساهمة في التطوير الثقافي. الآن، أكثر فأكثر، تثبت مهارات الجميع، وخصوصاً النساء، في تنظيم العلاقات بين الناس، بالإضافة إلى العناية بالحياة والبيئة، أنها حاسمة لأجل بقاء البشرية ونموها. لقد سُجنت النساء داخل بيت الأسرة وتم تقسيم حياتهن إلى مهمات طبيعية وواجبات دينية.

ويصبح واضحاً أكثر - حتى - أن الحياة العامة تحتاج إلى المؤهلات الأنثوية للتطور باتجاه ثقافة عالمية ديمقراطية. المسألة ليست إظهار أن النساء قادرات على التصرف كالرجال، حتى في شن الحرب، بل قدرات على تزويد المجتمع والحكم بخصالهن الخاصة بهن، بما في ذلك الفهم الخاص للقيم الدينية الأكثر انسجاماً مع تقاسم مدني وديمقراطي للعالم. يظهر الاهتمام المستمر بشخصية أنتيغون أنها كانت تؤيد قيماً هي ضرورة لحكم [أي] بلد.

بحثاً عن أسلوب ديمقراطي أممي

لقد منعت طريقة معينة في التعامل مع كل ما هو موجود، خصوصاً مع الكائنات البشرية، تحقق التعايش الإنساني. فلكي يخرج من أصل أمومي وطبيعي نشأ منه، لم يعترف الرجل - الرجل الغربي بشكل خاص، لكن ليس حصراً - بالاختلاف مع الجزء الآخر [الأنثوي] من الإنسانية، ولم يسع إلى الدخول في علاقات معه بقبول الطبيعة الجزئية لوضعه الذكوري. بدلاً من ذلك، سعى إلى الهيمنة على العالم عبر جمع كل شيء معاً وفق منظوره الخاص، وعبر ضمان هذه الكلية وتحسينها بالقيم العليا أو السلطات أو الألوهة. كل ما تحقق تحقق وفقاً لحاجاته وقدراته، لكن بافتراض أنه يطابق الواقع والحقيقة بالنسبة للجميع ومن أجل الجميع. كل شخص لم يشارك في وجهة النظر نفسها كان يطرد من الجماعة ويرحل من المدينة أو يسجن ضمن أمكنة خاصة. كان الحكم قائماً على التماثل ولم يقبل سوى سلم القيم المتعلقة بالشبيه - أو المثل. لهذا، أصبح الاختلاف (ات) مكافئ التقييم الكمي للمقدرة على مقارنة النموذج الكامل الذي طغى على كل النسخ الناقصة عنه. أصبح الكمال الذي يتعين احترامه وإحرازه بالتالي فكرة أو تجسدها: الصدق أو الصلاح أو الله، على سبيل المثال. يبدو أن هذا التنظيم للعالم وهذا النموذج من الصيرورة يتعارضان مع التعايش الكوني. الآن لاتزال هذه الفكرة تضع أسس القانون في معظم ما تدعى «الأنظمة الديمقراطية». فالديمقراطية تعمل في الواقع ليس فقط لأن من الممكن للناس أن ينتخبوا رئيسهم أو ممثليهم السياسيين الآخرين. لو تجاوزنا حقيقة أن

الرأي الشعبي يمكن التلاعب به، عن طريق وسائل الإعلام على وجه الخصوص، لكن أيضاً من قبل الأحزاب السياسية أو المرشحين، فإن انتخاب شخص واحد بدلاً من برنامج يعادل تسليم حكومة البلد إلى رأس يمثل الواحد الذي يفترض أنه يؤمن وحدة الجماعة. في الحقيقة، لا يثق المواطنون ولا يمثلون إلا لقرارات النواب الذين تم انتخابهم. هل يمكن اعتبار هذا مكافئ حكم ديمقراطي؟

على كل، إن انتخاب نقاط مختلفة من برنامج يناسب نموذجاً أفضل من الحكم الديمقراطي. في تلك الحالة، سيجسد التسيير السياسي بشكل أكثر إخلاصاً ما يريده المواطنون، وبشكل أقل إخلاصاً المواقف الشخصية، وحتى الطموحات، لصنف من رب المنزل. هذا يتطلب تربية سياسية من طرف المواطنين، والقدرة على الإصغاء إليهم وتلبية حاجات كل المواطنين ومطالبهم من طرف أولئك الذين يتولون تنفيذ البرنامج. مثل هذه الطريقة في الحكم يمكن أن تبدأ بأن تشبه الديمقراطية. لازلنا بعيدين عن ذلك، وما تدعى براجمنا الديمقراطية تعادل غالباً نتيجة لعبة استراتيجيات أقل أو أكثر وضوحاً تدخل في صراع الأشخاص، أو الجماعات الثقافية المختلفة أو البلدان التي تطمح إلى ممارسة السلطة وتعد بكل شيء ولا شيء في أثناء الحملات الانتخابية، حتى ترسم كاريكاتورياً الوضع بشكل درامي، لمجرد الوصول إلى السلطة. يكون المواطنون بشكل أو بآخر رهينة لمثل هذه الطموحات والتنافسات، وتتحطم الآمال التي وضعوها في مرشحينهم غالباً. من هنا تغييرات الحكام التي تستجيب للرفض أكثر مما تستجيب للأهداف الحقيقية، وواقع أن الكل يغفل عن الوسيلة الصحيحة لتكوين مشترك إنساني والرعاية الكافية للطاقة التي يتطلبها ذلك. من هنا، أيضاً، حقيقة أن المطلقات الدينية، التي تم تطويرها بطرق متنافرة شتى، يمكن أن تحل محل الحكم الديمقراطي.

تصبح مآزق ديمقراطيات الماضي من الآن فصاعداً ظاهرة وتصبح الانتخابات الرئاسية، وحتى التشريعية، معتمدة أكثر فأكثر على إغراء وتكتيكات وسائل الإعلام التي تستخدم لتأكيد الصراعات بدلاً من السعي إلى تهدئتها، إلى حد أن الديمقراطية تشكك فيها. أخيراً، حتى إن المواطنين يتنازلون عن حقهم في التصويت لأنهم لم

يعودوا يثقون بالمرشحين وخطاباتهم. من الملح أن نأخذ هذا الوضع في الحسبان لكي نمنعه من أن يصبح أكثر سوءاً ونمنع الحكومات المسماة ديمقراطية من أن تسبب نزعات شمولية أو مخاطر النزاعات العنيدة التي يمكن أن تنتشر إلى المناطق، والقارات والعالم كله، كما هو الحال مع النزاع العربي - الإسرائيلي.

يجب مساءلة أسس الثقافة ذاتها، خصوصاً طريقة تشكيل الكل وإدارته. وهذا يساوي دوماً جمع كل الأشياء معاً من الخارج، وحتى من فوق. فكيف يمكن للمواطنين أن يكونوا جماعة إنسانية إذا كانت العلاقات بينهم لا تؤخذ في الاعتبار، في حين أن ذلك يمكن أن يكون وسيلة ديمقراطية حقاً لتطوير السياسة؟ ربما ينجم ذلك عن الطريقة التي استولت بها البطركية على السلطة. لقد أحلت قوانين تعسفية إلى حد ما، قائمة على التملك، محل الروابط التي كانت تنظم المجتمعات الأمومية. لم يكن الحكم البطركي يكثر في الحقيقة بالروابط الحية بين الأشخاص، بل قطعها بدلاً من ذلك لكي يفرض سلطة مبنية بشكل مصطنع تؤدي إلى مجتمع مكون من جزء فقط من الإنسانية تحول إلى أفراد حياديين أو محيدين إلى حد ما. في الواقع حل صنف من النظام الفالوسي [الذكري] محل الروابط الطبيعية المتعلقة بالأسرة أو سلسلة النسب. إن الروابط الاصطناعية المبنية على مدونات القوانين codes وامتلاك السلع - من أشياء السلطة الأخرى - قد حلت محل الروابط الطبيعية التي تم تمثيلها إلى مجرد روابط دم بدون الاعتراف بأن الانتماء الجنسي يساهم فيها. إن الرجل، بدلاً من إقامة سلطته على الشراكة مع الجزء الآخر من الإنسانية، مع المرأة، بتقاسم الانتماءات والمؤهلات الخاصة، قد فصل السلطة الطبيعية والسلطة المبنية المصطنعة، مقررراً أن هذه الأخيرة تعنى بالمجالات الثقافية والعامة، في حين أن الأولى محصورة بمجال الحياة الخاصة والعائلية، التي تجاهلت البطركية إمكانياتها النوعية المدنية والدينية.

أصبحت البشرية مقسومة إلى قسمين مُعرَّفين وفقاً لواجباتها في خدمة الحكم البطركي دون التفكير في علاقاتها بالانتماء الطبيعي: من الناحية الأولى، قسم مادي يفترض أنه بلا جنس من الناحية الجسدية، ومن الناحية الأخرى، قسم ذو

جنس، مستوعب بشكل أعمى في الجانب الروحي من الإنسانية البشرية. وهذا ما منع الرجال والنساء من تطوير هويتهما الجنسيتين والعلاقات بينهما كأساس للتعايش الإنساني في الاختلاف، على المستوى الخاص والمستوى العام و، بالنتيجة، يمنع التشارك الإنساني العمومي من الحدوث. في الحقيقة، إن أنظمتنا الماضية والحالية تسيء الحكم على مواطنة النساء وشاركتهن كنساء، ولذلك يتعين عليها أن تنجح بدون الصفات الأنثوية المطلوبة لصون الحياة نفسها وبيئتها الضرورية، لكن عليها أن تقيم العلاقات المدنية بين المواطنين كافة وأن تؤمن النسيج الاجتماعي لمجتمع ديمقراطي. وشيئاً فشيئاً، يتكشف انعدام المشاركة الأنثوية في الحكم، في حين يبرهن بعض القيم أنه حاسم لأجل الممارسة الديمقراطية، وبالدرجة الأولى لأجل مستقبل ممكن للبشرية واستقرارها الدنيوي. إن غيابهن يفسر بأقل مما ينبغي بأنه نتيجة لتخصيص النساء برعاية الحياة الطبيعية داخل المنزل الأسري. سأقدم بعض هذه القيم التي تبدو ضرورية اليوم ليس لحكم بلد فقط، بل لحكم العالم كله، قيم كان من الممكن أن تكون مفيدة، من بين أشياء أخرى، في منع أو تخفيف النزاعات غير القابلة للحل سياسياً.

المؤهلات الأنثوية المناسبة لبناء ثقافة عالمية

من الملاحظ في عصرنا أن نقلق حول الحفاظ على الحياة نفسها ورعايتها. فكل الأنظمة، وخصوصاً الديمقراطيات منها، يجب أن يكون ذلك مصدر قلقها الأول. بالتأكيد، إن النساء قد حمن الحياة داخل المنزل، لكن مهمتهن تم التقليل من قيمتها على المستويين العام والثقافي. وإذا بدأت السلطات السياسية تقلق حول مستقبل كوكبنا ومنظوماته البيئية، فإنها لا تزال تتجاهل حقيقة أن البشر أنفسهم في خطر. لاشك، أن الدولة غالباً ما تشجع النساء على الإنجاب، لكنها لا تهتم بما يكفي بحياة الأطفال عندما يدخلون إلى الحياة العامة، على النحو الأبرز في حالة النزاعات. علاوة على ذلك، فإن الإتيان بطفل إلى العالم لا يزال يعتبر سيورة طبيعية، لا تتطلب ذاتية على درجة عالية من التطور. ما هي الثقافة التي فهمت حقاً ما يعنيه بالنسبة للمرأة

تشاركها لدمها وتنفسها مع الجنين؟ ألا تقتبس بعض الفروض الدينية أو الطقوس مما يحدث بين الأم والطفل الذي تحبل به؟ هل يجب اعتبار ثقافة الطبيعة أدنى مرتبة من ثقافة الروح، التي تهدف إلى الانفصال عن الطبيعة والسيطرة عليها؟ هل يجب علينا أن نضفي على التصور الرمزي، الذي يمكن أن يقسمنا، قيمة أعلى من الحياة ذاتها؟ وألا يمكن لرعاية الحياة أن تمثل البذرة لثقافة جديدة تحتاجها البشرية اليوم، ثقافة يمكن للنساء أن يكن رسولات لها ويكون لهن دور قيادي فيها، حتى على المستويين الروحي والديني؟

يمكن أن يكون للنساء أيضاً دور النصيرات الممتازات في ثقافة الضيافة الحاسمة في عصرنا. إن أقدم تقاليد الضيافة هي أنثوية وتفترض مسبقاً الحق المتبادل في الحصول على الإيواء والحماية لكل واحد من الآخر: فالمصطلح (hote) (ضيف) يدل على من يقدم الضيافة وعلى من يتلقاها في عدة لغات، كالفرنسية. إن المعنى الذي ننسبه اليوم إلى مصطلح الضيافة هو حديث إلى حد ما: «إحسان يقوم على الاستقبال والإيواء والإطعام المجاني للفقير والمسافر» (انظر قاموس لو روبرت *Le Robert*). هذا الفهم الأكثر تراثية وأبوية، والمرتبط ضمناً بالمال، ينطبق على الضيافة التي سنهارسها في عصرنا. فنحن لم نعد نعيش في عصر يمتلك فيه أطفال طبيعتنا الأم واجب تقديم أحدهم الضيافة للآخر. ربما وصلنا إلى ذلك لأن الضيافة التي تقدمها المرأة داخل منزل الأسرة بقيت موضع تجاهل على المستوى العام. أليس مطلوباً منها أن تكون في المنزل وتطعم مجاناً كل أفراد الأسرة، وحتى الضيوف المحتملين؟ لا شك، أن الضيافة الأنثوية لا تزال أكثر سرية وحميمية: المرأة تقدم الضيافة داخل جسدها لحبيبها ولطفلها المقبل. ماذا يمكن أن يكون معنى ثقافة الضيافة إذا كانت تتجاهل الضيافة الأصلية التي تتيح للإنسانية أن تحب وتولد، أي أن توجد؟ ألا تنطوي هذه الضيافة على أخلاق تتجاوز الأخلاق التي يتم الدفاع عنها في الحياة العامة؟ ألا تمثل الممارسة الأنثوية للضيافة قيمة يتعين أخذها في الاعتبار والتوسع فيها خارج الأسرة تحديداً؟ هل كانت النزاعات الحالية، وخصوصاً النزاع العربي-

الإسرائيلي، ممكنة لو انتشرت الضيافة الأثوية في الحياة المدنية وشكلتها؟ وألا تتطلب ثقافة العالم مثل هذا التطور؟

القيمة الأخرى التي نفتقر إليها اليوم هي التقارب بين البشر. فحتى أصحاب الحوائث يستغلون هذا النقص، إذ يلجأون في حملتهم الدعائية إلى «مخزنك المحلي»، وهي صيغة ناجحة، نظراً إلى أن الناس يشعرون بالضياع قليلاً في عالم يصبح أكبر مما ينبغي، أعقد مما ينبغي، وأبرد مما ينبغي. إن اللقاءات بين الجيران أو روابط المواطنين تزداد أيضاً لأنها تسمح للناس بالتجمع معاً. ربما ينتج ذلك عن حقيقة أن الأسرة - كل أنواع الأسر - تفقد أهليتها لتكون المكان الأول للحميمية وتصبح مجرد فضاء للألفة. مثل هذه الألفة، التي تختزل غالباً إلى تشارك بالعادة والتقاليد، يبرهن على أنه مخيب للآمال و، علاوة على ذلك، لم يعد يلبي متطلبات عصرنا. من هنا، ينبغي علينا أن نتعايش مع الثقافات وطرق السلوك الأخرى، وما يبدو واضحاً في ثقافة واحدة أو تراث واحد يخضع للتساؤل في أية لحظة. لهذا، يكون من الملح اكتشاف ورعاية نوع آخر من التقارب بيننا، الحميمية الإنسانية. كيف تبدو الحروب بالنسبة لأولئك الذين يؤسسون هذه الحميمية الإنسانية العالمية؟ مرة أخرى، يمكن للنساء أن يتصرفن كدليلات في تلك المناسبة، إذا أصبحن واعيات لإمكانيتهن وإذا تم تمييز دورهن أكثر من قبل المجتمع. فالمرأة، التي تشترك مع الآخر بداخلها في الحب والأموه، تمتلك خبرة تتجاوز التقارب المكاني أو الثقافي. إن أهليتها للمشاركة يمكن أن تقودنا إلى اكتشاف طريقة لربط كل إنسان بآخر على هذا الجانب وبعيداً عن أي تستر سياسي أو ثقافي أو ديني كما هو مطلوب في عصرنا، عصر امتزاج الشعوب والتراثات.

كل ذلك يزداد لأن المشاركة التي تقدمها المرأة داخل ذاتها لا تستبعد الاختلاف، بدءاً باختلاف الحبيب أو اختلاف الابن. فالاختلاف يحدث في الطبيعة نفسها التي تتعامل معه، بما في ذلك على المستوى الجسدي، في حين أن الثقافات المتصورة غالباً لا تتسامح مع الاختلاف (ات). إننا جميعاً نتشارك في الإنسانية، مهما تكن اختلافاتنا. مع ذلك، فإن هذا التشارك الإنساني لا يمكن أن يحدث لأن الاختلافات الثانوية

تقسمنا: الاختلافات الثقافية أو الدينية، مجتمعة مع اختلافات الجنس، العمر، اللون، إلخ بالإضافة إلى كل الاختلافات الكمية تقريباً التي تحل غالباً محل الاختلاف الطبيعي، وخصوصاً الاختلاف الجنسي. إن المرأة، التي تبقى أقرب إلى الطبيعة، هي أكثر قدرة على التشارك في الاختلافات الطبيعية التي تؤلف النوع البشري، وبشكل خاص الاختلاف العمودي للأنساب والاختلاف الأفقي بين الرجل والمرأة. هذا المؤهل حاسم بشكل خاص في عصرنا، ومقدرة النساء على التشارك في الاختلاف يمكن أن تفتح طريقاً باتجاه تعايش سلمي على صعيد عالمي، بما في ذلك بين الشعب الفلسطيني والشعب الإسرائيلي.

في الخاتمة

إن أمامنا طريقاً طويلاً يجب أن نقطعه لنحرز ونجسد تشاركاً عالمياً من شأنه أن يتفادى النزاعات الفتاكة. بدلاً من التوقف عند انتقاد الطرق الراهنة لحكم وسلوك الشعوب والتراثات الأخرى، ينبغي أولاً أن نتساءل حول ما دعوناها بالديمقراطية حتى الآن. إذ يجب علينا أن نعترف بأن الحكم الديمقراطي لا يمكن تخيله ولا ممارسته من قبل قسم واحد من الإنسانية باسم العالم كله. إن القادة الديمقراطيين يدعوننا غالباً إلى تذكر الجانب المادي من حيواتنا. مع ذلك فإنهم يختزلونه إلى عنصر اقتصادي بدون اعتبار لانتهاثنا الطبيعي ونجسدا الجنسي. فهم لا يدركون أن الأفراد اللاجنسيين لا يمكنهم أن يحققوا تعايشاً ديمقراطياً: في الواقع، إنهم ينسجمون مع نوع من التصور المثالي والرأسمالي الذي لا يمكنه أن يعمل باتجاه تعايش عالمي.

إذا كانت الديمقراطيات في أزمة في عصرنا، إذا كانت غير قادرة على حل مشاكلها الخاصة أو تلك المشاكل الناشئة عن العلاقات مع البلدان والتراثات الأخرى، فذلك لأن أسسها لا صلة لها بالشعوب الحية. إن الممثلين السياسيين يحكمون أشياء مجردة تحركها ألعاب أقل أو أكثر تجريداً لصالحهم أو ضدّهم تكون منفصلة عن حاجاتهم أو رغباتهم الحقيقية وتفتقر إلى أي تنظيم، على وجه الخصوص على مستوى الطاقة؛ من هنا تكاثر النزاعات التي تؤدي إلى الفوضى. بدلاً من إقامة سلطتهم على

إدانة الآخرين، وبالشكل الأبرز الأنظمة الأخرى، واللجوء إلى تكتيكات وسائل الإعلام والبلاغة الغوغائية لاستمالة المواطنين، ينبغي على الحكام الديمقراطيين أن يساهموا في اتجاه تفرد الأفراد بحيث يصبحوا مؤهلين للحكم، بدءاً بحكم أنفسهم. قبل الحكم على الآخرين بسبب الإرهاب، ينصح بتحليل ما بقي إرهابياً بشكل أو بآخر في ديمقراطياتنا، في أنفسنا، في طريقة تفكيرنا، وتكلمنا وتصرفنا.

ربما حدث شيء من السيرة الديمقراطية في العصر اليوناني من طرف الرجال، لأن هذه السيرة كانت مطلوبة لكسب ذاتية ذكورية مع احترام للأصل الأمومي. لكن الهدف الحقيقي للديمقراطية قد نُسي، لكونها قد فشلت في تمهيد الطريق إلى تعايش مدني مع الجزء الآخر من الإنسانية، بدءاً بالأم ذاتها. لذلك تطورت نحو فقدان التفرد بدلاً من اكتسابه، ومنعت حدوث الحكم الديمقراطي. يجب أن نعود إلى انتمائنا البدئي، انتمائنا الطبيعي، ونتعلم كيف نرعاها بطريقة إنسانية. يجب أن نتخلى عن كل الهويات المصنعة والقيم التي قسمتنا عن ذواتنا وفيها بيننا، ونشق طريقاً من أجل صيرورة إنسانية قابلة للتشارك من قبل الجميع مع احترام لاختلافاتنا المتبادلة. في العالم برمته، هم رجال ونساء فقط، من مختلف الأعمار والألوان والبلدان والثقافات والتقاليد والخلفيات الاجتماعية الاقتصادية إلخ. انطلاقاً من هذا الاختلاف، الذي هو عام وخاص بكل شخص على حدة، يمكننا أن نبدأ ببناء ثقافة عالمية بحقوق ونمو إنساني ملائم للجميع.

فهرس المصطلحات والأعلام

- (١)
- أليس كابلان 251
- أمنون راتس - كراكوتسكين 91، 70، 69
- أميركا اللاتينية 50
- أنتيغون لسوفوكلس 293
- أنديرس بهرينغ بريفيك 23
- أوروبية 16، 20، 21، 27، 31، 39، 46، 66، 85، 86، 89، 90، 93، 95، 98، 103، 106، 110، 111، 116، 117، 118، 119، 122، 125، 126، 127، 128، 131، 132، 134، 139، 140، 162، 179، 184، 185، 187، 188، 195، 197، 220، 226، 233، 235، 252
- إبراهيم، الآخر 231، 234، 249
- إدوارد سعيد 66، 67، 73، 225، 228، 271
- إريش أورباخ 241
- إريش أورباخ، المحاكاة 241
- إريك بيترسن 142
- آحاد هاعام 233
- آدم بيعث حياً 232، 243
- أيجمان في القدس 72، 82، 83، 91، 94، 139، 163، 164، 166، 167، 168، 170، 171، 169
- أحمدي نجاد 50، 52
- أدولف 232، 249
- أدولف كريمير 249
- أرندت أصول الشمولية 103
- أريل شارون 224
- أصول الشمولية 61، 66، 85، 95، 98، 99، 100، 103، 104، 105، 107، 108، 160، 162، 168، 233، 234
- أطر الحرب: متى تكون الحياة جديدة بالحن؟ 79
- أطروحات حول فلسفة التاريخ 71
- أطيف ماركس 201، 214، 219، 221، 277
- أقلية 62، 66، 68، 73، 99، 107، 226

- إزالة الاستعمار 110، 113، 119، 120، 127، 128
- إسرائيل 15، 17، 18، 19، 20، 21، 24، 25، 27، 28، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 38، 39، 45، 47، 48، 49، 50، 51، 52، 53، 54، 55، 57، 60، 61، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 69، 78، 82، 87، 89، 92، 95، 96، 97، 100، 102، 106، 109، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 117، 119، 120، 122، 124، 125، 126، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 137، 162، 164، 167، 179، 180، 182، 183، 184، 185، 186، 187، 188، 189، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 200، 202، 203، 212، 213، 214، 219، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 231، 232، 233، 234، 237، 238، 239، 240، 256، 257، 258، 259، 260، 266، 269، 270، 271، 272، 282، 284، 288
- إشراقات 70
- إلى الهاوية 279، 280، 281، 282
- إيطاليا 46
- احتلال 36، 132، 275
- اختلاف إسرائيل 238
- استثنائية 20، 35، 153، 215
- اصطفاء الدم 212، 213، 227
- الآخر 13، 14، 15، 34، 42، 43، 64، 66، 67، 72، 75، 77، 78، 79، 82، 93، 110، 115، 128، 154، 158، 167، 169، 173، 179، 186، 187، 190، 209، 211، 219، 231، 234، 238، 247، 249، 260، 279، 283، 285، 287، 297، 299، 301، 302، 304
- الأخوين كوهن 54، 55
- الآخر على هيغل، ملحدًا ومضادًا للمسيح 154
- الأرجنتين 117، 131، 132، 134، 167، 233
- الأساطير 46، 47، 200، 227، 270
- الأصولية 116، 193، 213، 214
- الألمانية واليهودية 93
- الأنسابية 203
- الأوديسة 242، 243
- الأيديولوجيا 16، 117، 118، 191، 195، 266، 296
- الإبادة 31، 49، 50، 53، 67، 82، 99، 118، 124، 133، 134، 163، 237
- الإرث 201، 217
- الإرهاب 25، 49، 50، 304
- الإصلاح 140، 207

- الاتجاهات الكبرى في التصوف اليهودي 68
- الاتحاد 102، 101، 93، 49، 48، 28، 26، 103، 279، 258، 137، 111، 106، 103
- الاتحاد الأوروبي 258، 137، 28، 26
- الاختلاف الجنسي 303، 253، 239، 237
- الاستعمار 116، 113، 112، 110، 50، 119، 144، 128، 127، 126، 120، 119، 255، 252، 251، 250، 233، 228، 256
- الاستعمارية 120، 116، 111، 51، 47، 123، 133، 130، 126، 123
- الاستيعابية 80
- الاغتراب 160، 159، 158، 149
- الاغتراب والعبودية 149
- البطركية 299، 295
- البيروقراطية 166
- التأويل 263، 262، 261، 255
- التاريخ اليهودي منقحاً 68
- التحيد 275، 42
- التساكن 80، 79، 77، 74، 73، 67، 62
- التسمية 280، 276، 272، 246، 37، 16
- التطبيع 236، 37
- التطهير الإثني 226، 196، 195، 190، 257
- التعميم 80، 76
- التفكير الخطي العالمي 129، 128
- التفكير به في السياسة 195
- التفكيك 185، 182، 18، 17، 16، 15، 14، 202، 215، 223، 224، 228، 229، 267
- التوحيدية 288، 181، 144، 35
- الثورة الفرنسية 141، 126، 106، 30، 165
- الجغرافية 267، 265، 239، 52
- الجيش 281
- الحاج محمود كاتي 217
- الحداثة 116، 115، 111، 110، 98، 30، 118، 126، 128، 144، 150، 158، 244
- الحرب العالمية الثانية 123، 117، 66، 46، 251
- الحقوق المدنية 293، 290، 289، 148، 30
- الحكم 100، 97، 96، 95، 82، 81، 28، 102، 103، 105، 106، 107، 117، 119، 124، 126، 134، 135، 136، 137، 142، 154، 164، 165، 166، 169، 170، 171، 172، 268، 291، 292، 293، 296، 297، 298، 299، 304، 303، 300
- الحلف الإسرائيلي العالمي 249
- الحمى الصهيونية 238
- الحوض المقدس 35، 34
- الحيادية 291، 289، 20، 19

الحیوان الذي لذلك هو أنا 248	الرعایا 127، 122، 41
الختان 220، 219، 215، 207، 200	الروح 151، 146، 140، 86، 75، 65، 41
الخروج 170، 121، 120	157، 174، 175، 207، 208، 209
الدافع النبوي 187، 188، 190، 191	210، 214، 218، 219، 221، 240
193، 194	269، 301
الدولة الحضارية 136	السلام 35، 36، 37، 38، 39، 49، 62
الدولة القومية 7، 32، 57، 62، 66، 67	115، 129، 189، 229، 283، 284
80، 81، 85، 95، 97، 98، 100	السيادة 63، 66، 69، 89، 95، 96، 102
101، 103، 106، 107، 108، 109	103، 106، 107، 109، 129، 140، 142
110، 112، 116، 117، 118، 119	154، 170
121، 122، 123، 124، 125، 126	الشتات 17، 18، 66، 68، 112، 120
128، 129، 130، 132، 133، 134	128، 182، 183، 226، 232، 233
135، 136، 137، 144، 161، 232	237، 238، 268، 269
234، 237، 239، 255، 283	الشرط الإنساني 90، 100، 159، 173
الدولة اليهودية 47، 52، 60، 111، 182	الشوآه 47، 48، 53، 144، 218، 220
197، 228، 233، 281	الصحيفة اليومية دي برسه 28
الدولة ثنائية القومية 39	الصفة اليهودية 195
الدبانات الإبراهيمية 199	الصهيونية 1، 3، 4، 7، 14، 15، 16، 17
الدين 10، 57، 58، 59، 60، 62، 80، 88	18، 19، 20، 21، 22، 27، 28، 32
115، 116، 121، 140، 141، 142	45، 46، 50، 53، 54، 57، 60، 61
143، 144، 146، 148، 149، 150	63، 65، 67، 68، 69، 70، 79، 80
151، 152، 153، 154، 156، 159	84، 86، 88، 89، 90، 91، 93، 94
160، 162، 170، 174، 175، 200	96، 97، 101، 102، 109، 112
207، 215، 217، 223، 227، 228	115، 116، 117، 119، 120، 122
265، 273، 277، 296	125، 127، 128، 130، 131، 133
الدين في حدود العقل المجرد 151، 150	135، 137، 162، 164، 177، 179
الرجل ذو الدم النقي 206	180، 181، 182، 183، 184، 187

الفاتيكان 35	189, 190, 191, 192, 193, 194,
الفاشية 24, 46, 48, 65, 82, 88, 89, 98	195, 196, 197, 199, 202, 223,
الفكر الضعيف 14	224, 225, 233, 236, 238, 239,
الفكر اليهودي 65, 107	255, 256, 257, 258, 259, 260,
الفلسفة 9, 10, 11, 52, 53, 139, 144,	261, 263, 265, 266, 267, 268,
172, 199, 201, 211, 215, 221,	269, 270, 271, 273, 274, 275,
222, 223, 256, 257, 259, 261,	276, 279, 281
263, 273	الصين 110, 118, 124, 136
الفلسفة الأفريقية 223	الضفة الغربية 13, 33, 36, 37, 38, 39,
القانون المدني 289, 290, 292, 293	182, 196, 213, 221, 224
القدس 17, 24, 32, 34, 35, 37, 38,	الضيافة 237, 248, 282, 301, 302,
50, 72, 73, 82, 83, 91, 92, 94,	العدالة 15, 16, 18, 53, 60, 61, 62, 82,
124, 134, 139, 150, 163, 164,	89, 93, 107, 169, 171, 172,
166, 167, 168, 169, 170, 171,	181, 193, 251
172, 181, 190, 191, 223, 224,	العد التنازلي للقدس 28
265, 267, 272, 284	العراق 123, 124, 125, 133, 134, 135,
القس دزيموند توتو 113	العرب 20, 21, 51, 66, 91, 92, 96, 97,
القومية 21, 62, 87, 133, 164, 255,	99, 101, 121, 144, 217, 221,
القومية 7, 14, 18, 32, 39, 57, 62, 64,	226, 227, 228, 229, 270, 277,
65, 66, 67, 80, 81, 85, 86, 88,	278, 279, 282
89, 90, 91, 94, 95, 96, 97, 98,	العقاب 20, 151, 152, 274
99, 100, 101, 102, 103, 104,	العلمنة 59, 142, 159, 278
105, 106, 107, 108, 109, 110,	العنصرية 39, 41, 47, 51, 55, 61, 65,
112, 116, 117, 118, 119, 121,	88, 95, 256
122, 123, 124, 125, 126, 127,	الغرب 40, 45, 46, 47, 51, 117, 121,
128, 129, 130, 131, 132, 133,	199, 203, 206, 207, 209, 211,
134, 135, 136, 137, 144, 146,	258

المجاز المرسل 7, 265, 266, 267, 269,	147, 161, 166, 169, 232, 234,
270, 271, 272, 274, 275, 276,	236, 237, 239, 255, 259, 261,
277, 278, 279, 281, 284,	268, 271, 276, 283,
المجال الخصوصي 146	الكيوتزيم 95
المجال العمومي 146, 278, 293,	الكنونة 11, 15, 16, 17, 75, 105, 236,
المحاكاة 241	249, 256, 257, 258, 259, 260,
المسألة اليهودية 7, 30, 31, 87, 99, 139,	261, 262, 263, 264,
144, 145, 146, 147, 148, 155,	الكنونة والزمن 258
156, 157, 158, 159, 161, 162,	اللاسامية 22, 27, 28, 29, 30, 31, 32,
163, 165, 168, 170, 237,	42, 70, 80, 84, 85, 86, 87, 93,
المسلمون 121, 122, 123, 202, 219,	94, 95, 162, 164, 232, 233,
المسيحانية 68, 69, 70, 89, 174, 212,	256
213, 214, 227, 269,	اللاهوت السياسي 7, 139, 140, 141,
المسيحية 10, 24, 28, 30, 43, 117, 121,	142, 143, 145, 160, 170, 174,
122, 139, 140, 143, 144, 145,	اللاجوء 90, 107, 233, 236, 237, 253,
146, 150, 151, 154, 155, 156,	296
157, 158, 160, 170, 172, 173,	اللغة العبرية 156, 273, 275, 277, 278,
174, 175, 195, 199, 200, 206,	279
207, 208, 213, 215, 216, 217,	الله 10, 19, 55, 59, 68, 81, 101, 113,
239	114, 126, 143, 151, 152, 153,
المسيحيون 28, 121, 157, 202, 213,	156, 170, 183, 202, 203, 205,
المشترك اللفظي 201	212, 235, 247, 269, 288, 297,
المصير الجلي 126	الليبرالية 37, 42, 44, 64, 94, 145,
المطهر 31	155, 157, 174, 201, 227, 229,
المفارقات 81	258
المنشدون 205	المؤهلات الأنثوية 297, 300,
المواطنة الافتراضية 269	المادية التاريخية 72

- النازية 21، 24، 26، 30، 67، 108، 117،
118، 163، 166، 218، 221، 243،
256
النكبة 47، 51، 100
الهجرة 41، 94، 95، 96، 117، 121
الهولوكوست 28، 52، 130، 179، 180،
183، 184، 185، 186، 187، 188،
189، 190، 191، 192، 193، 197،
232، 235، 246، 250، 256، 261،
288
الهوية 29، 62، 91، 177، 178، 185، 187،
190، 192، 193، 196، 248، 289،
290، 293، 295
الهوية الجنسية 290، 295
الهيكا 207، 209، 211، 214
الواقعية 30، 151، 158، 179، 180، 181،
273
اليسار في أزمنة مظلمة 27
اليهود 16، 18، 21، 24، 25، 27، 28، 29،
30، 31، 32، 35، 45، 46، 48، 54،
55، 61، 63، 65، 66، 69، 70، 72،
73، 80، 84، 85، 86، 87، 88، 89،
91، 92، 93، 94، 95، 96، 97،
101، 102، 103، 105، 106، 112،
113، 114، 115، 116، 117، 120،
121، 122، 124، 125، 127، 128،
130، 131، 132، 133، 134، 144،
145، 146، 147، 148، 150، 151،
152، 153، 154، 155، 156، 157،
158، 159، 161، 162، 163، 165،
168، 170، 172، 173، 174، 175،
177، 178، 182، 184، 185،
187، 188، 189، 190، 191، 192،
193، 194، 195، 196، 197، 213،
214، 217، 219، 220، 221، 224،
225، 226، 227، 233، 234، 237،
238، 240، 242، 243، 249، 250،
257، 260، 261، 268، 269، 271،
272، 279، 280، 282،
اليهود التقديميون 195، 196
اليهودي التائه 30، 240، 241
اليهودية 7، 9، 15، 18، 19، 23، 24، 29،
30، 31، 32، 33، 35، 45، 47، 50،
52، 55، 57، 59، 60، 61، 62، 63،
65، 66، 68، 69، 70، 75، 80، 82،
84، 85، 87، 88، 89، 91، 92، 93،
94، 95، 96، 99، 101، 106، 109،
111، 112، 113، 114، 115، 117،
120، 121، 127، 128، 130، 131،
133، 134، 135، 139، 140، 143،
144، 145، 146، 147، 148، 150،
151، 152، 153، 154، 155، 156،
157، 158، 159، 161، 162، 163،
165، 168، 170، 172، 173، 174،
175، 177، 178، 182، 184، 185،

تشيكوسلوفاكيا 37	186، 187، 188، 189، 190، 191،
تعددية 17، 73، 74، 102، 103، 105،	192، 193، 194، 195، 196، 197،
157	199، 200، 201، 202، 207، 212،
تفكك 40، 122، 160، 181، 279	213، 214، 215، 216، 217، 219،
تمكين 190	220، 221، 222، 225، 228، 233،
تنظيم المجتمعات الأمومية 299	237، 238، 248، 249، 256، 257،
توماس هيل ونوهو ماريو، ملحمة أسكيا	258، 280، 281، 282
محمد 206	انتقادات 60، 62
	انحطاط حقوق الإنسان ونهاية الدولة
	القومية 97
(ث)	انعدام الدولة 66، 67، 86، 99، 261
ثيودور هرتزل 60، 109، 233	ايلان بابي 45، 47، 52، 196، 257
ثيودور هرتزل، الدولة اليهودية 60، 233	ايمانويل ليفيناس 75، 250
	(ب)
(ج)	بايمانويل فاي 53
جاك دريدا 5، 14، 200، 201، 211، 214،	برنار هنري-ليفى 27
215، 218، 219، 220، 222، 231،	برونو باور 141، 145، 154، 168
244، 245، 251، 265، 269، 273	
جان فرانسوا ليوتار 178، 179	
جرشوم شولم 82، 265، 273	(ت)
جوديث بتلر 7، 9، 57، 60، 177، 193،	تأثير 116، 200
255، 257، 270	تاريخ الفتاش 203، 217
جون هاغي 28	تحرر 30، 52، 54، 110، 133، 157، 185،
جيانفرانكو فيني 46	188
جيمس جويس 239، 240	تدمير 21، 51، 78، 102، 202، 217، 233

132، 131، 130، 129، 128، 126

184، 182، 137، 135، 134، 133

193، 192، 191، 190، 189، 188

225، 223، 219، 202، 196، 195

282، 271، 269، 256، 231

دولة متعددة القوميات 136، 117

(و)

رض 78

رهاب المثليين 26

رواح العبرية 199

روبرت بازيلاش 42

روح المسيحية وقدرها 172، 151

(ز)

زيف سترنهل 270، 227

(س)

ساري مقدسي 36

ساليف كيتا 204

سفر إشعيا 284، 283

سفر التكوين 215، 207، 204، 203، 202

سفر صموئيل 19

سونغاي 220، 206

سياقات ثقافية 263

(ح)

حاجز الضفة الغربية 224

حركة المقاومة اليهودية 280

حقوق الإنسان 98، 97، 95، 86، 20

146، 145، 118، 104، 103، 100

168، 161، 160، 149، 148، 147

252

حل الدولة الواحدة 271، 192، 182

حل الدولتين 192، 182، 135، 33

حمى الأرشفيف 238، 219

حنة أرندت 91، 81، 80، 72، 68، 61، 9

162، 161، 159، 139، 106، 92

233، 184، 173، 172، 171، 163

256، 250، 234

حيز الوجود 131، 118، 115، 98

(خ)

خورا 212

(د)

دولة إسرائيل 32، 28، 27، 24، 21، 18

52، 51، 49، 47، 45، 39، 38، 37

110، 102، 82، 78، 69، 61، 60

116، 115، 114، 113، 112، 111

125، 124، 122، 120، 119، 117

- (ش) عيون اللغة: البركان والهاوية 273
- شبه الجزيرة الآيرية 121
- (غ) شجرة الليمون (إخراج إران ريكليس، 2008) 13
- غرب أفريقية 205، 207، 210، 211، 217
- شرعية 51، 106، 142، 168
- (ف) شمال غرب أفريقية 211، 217
- فالتربنيامين 70، 262
- (ص) فرانتر روزنتسفاغ 65، 273، 277
- صربيا 26
- فرانيسكو توماسوني، الحداثة والهدف
- صهيون 54، 89، 131، 134، 177، 258
- النهائي للتاريخ: السجل حول
- اليهودية من كانط إلى الهيجلين
- 265، 266، 267، 270، 272، 273
- الشباب 150
- 279، 282، 284، 285
- فقدان الذاكرة التاريخي 77، 78
- (ط) فلسطين 16، 18، 25، 36، 46، 50، 52
- طرد 16، 66، 69، 70، 96، 97، 116، 120
- 99، 97، 96، 95، 91، 89، 85، 67
- 101، 110، 119، 124، 128، 130
- 132، 135، 137، 180، 181، 183
- 192، 196، 197، 203، 221، 224
- (ع) 226، 228، 233، 259، 270، 271
- عرق 111، 242
- علامة مميزة 208، 225
- علم السياسة 141
- عملية الرصاص المصبوب 49، 52
- عن الروح: هايدغر والمسألة 218
- عنف الدولة 60، 61، 62، 182، 256
- فلسطين: من الداخل إلى الخارج: احتلال
- يومي 36
- في الثورة 106، 159
- فيكتور فارياس 256
- فينومينولوجيا الروح 75

(ق)

قانون العودة 225، 232

قدرة اليهود والمسيحيين المعاصرين على

أن يصبحوا أحراراً 145

قصة صراع سيث 205

قصة صراع سيث وحورس 205

قصة مغارة لوط 202

قطاع غزة 37

قوة القانون 250، 251

قيد الانمحاء 15

(ج)

لاكان «لامبلا» 29

لاهوت 140، 149، 174، 187، 188،

189، 190، 191، 192

لحل النزاع 115

للإمبراطورية البريطانية 123

للشيخ عمر سيسوكو 204

لودفيغ فيورباخ 155

لودفيغ فيورباخ، جوهر المسيحية 155

ليلة القطارات 280

(ك)

كارل شميت 20، 128، 140، 142، 170،

268

كارل ماركس 7، 139، 144، 145

كارل ماركس وحنة أرندت في المسألة

اليهودية 139

كالولايات المتحدة الأمريكية 148

كتابات يهودية 83، 84، 85، 86، 87، 88،

89، 90، 96، 97، 101، 102

كروايا 27

كلوس باربي 250، 251

كوكب أحياء البؤس 262

كوكبة هاملت 205، 208

(م)

مارتن بوبر 85، 95، 173، 184، 271،

283، 284

مارتن هايدغر 160، 218، 255، 256

مارك إيلس 109، 112، 128، 133

مايك ديفيز 262

مايكل بريور 111، 112، 119، 128، 130،

متحف التسامح 34

مجرد 15، 16، 21، 24، 33، 37، 58، 78،

111، 128، 148، 149، 150، 153،

168، 169، 170، 171، 172، 174،

200، 202، 210، 223، 269، 294،

299، 302

محاضرات في فلسفة الدين 150، 153

مركز سايمون فيزنثال 34

- مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل 28
 هيفل 17، 75، 141، 145، 148، 149،
 150، 151، 152، 153، 154، 158،
 160، 162، 167، 168، 169، 172،
 273، 292
 هيلين سيكسو 240
 مناهضة الصهيونية 180، 50
 منفي جيمس جويس 240
 موسى مندلسون 150
 ميتافيزيقا الحضور 16
 ميريام ليونارد 239
 (ي)
 يحيا البرتقالي 240
 يتزعون المجاز 241
 يهود الضمير 195، 196
 يهودية 19، 21، 24، 25، 45، 49، 51، 59،
 61، 62، 63، 66، 83، 84، 85، 86،
 87، 88، 89، 90، 93، 94، 96، 97،
 99، 101، 102، 106، 107، 127،
 131، 133، 144، 145، 154، 156،
 157، 158، 159، 161، 171، 177،
 182، 183، 188، 189، 191، 192،
 193، 194، 195، 196، 217، 224،
 225، 228، 231، 233، 238، 256،
 281
 يورام كانيوك 232، 234
 يوليسيس 239، 240، 241، 242
 (ن)
 ناثان تشوفشي 279
 نتافان فليت 238، 239، 253
 نتوراي كارتا 233
 نجم الافتداء 280
 نفي 7، 18، 231، 232، 238
 نورمان فينكلشتاين 226
 نياما 210
 (هـ)
 هانز بلومبرغ 142
 هايدغر في كتابه الكينونة والزمن 258
 هرمان كوهن 65، 93
 هوميروس 31، 241

